على خطى الرسول ﷺ

فقهٌ واتّباع

للأحاديث الكلية في أبواب الدين

الجزء الثاني

مركز أصول
www.osoulcenter.com
Rabwah

فقه واتباع

للأحاديث الكلية في أبواب الدين

الجزء الثاني

ح جمعية الدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالربوة ، ١٤٤٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أصول ، مركز

الأحاديث الكلية في أبواب الدين؛ فقه واتباع (الجزء الأول - الجزء الثاني). / مركز أصول -

ط ١..- الرياض، ١٤٤٥ه

٨٤٤ ص، ٢١ سم x ٢٨ سم

رقم الايداع: ١٤٤٥/١٩٧٠٢

ردمك : ٤-١١-٨٤٣٨-٦٠٣-٩٧٨

الحديث ٧٤

فَضلُ النِّكاحِ والمُبادرةِ فيه

عن عبدِ الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قال: كُنَّا مع النبيِّ ﷺ شَبابًا لا نجدُ شيئًا، فقال لنا رسولُ الله ﷺ:

١ «يا معشرَ الشباب، مَن استطاع الباءةَ، فليتزوَّجْ؛ فإنه أغَضُّ للبصر، وأحصَنُ للفَرْجِ،

٢ ومَن لم يستطعْ، فعليه بالصَّوْمِ؛ فإنه له وِجاءٌ»(١).

(١) البخاريُّ (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠).

آيـــات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

الرَّاوي

هو: أبو عبد الرحمن، عبدُ الله بنُ مسعودِ بنِ غافلِ بنِ حبيبٍ، الهذليُّ، صاحبُ رسول الله ﷺ، أسلَم بمكَّةَ قديمًا، وهو أول من جهر بالقرآن، وهاجر الهجرتَين، وشهد بَدْرًا والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، وهو صاحبُ نَعْلِ رسول الله ﷺ، كان يُلبِسُه إيَّاها إذا قام، فإذا جلس أدخلها في ذراعه، تُوفِّيَ بالمدينة سنةَ (٣٢هـ)، أو (٣٣هـ)(١).

خلاصة

أرشد النبيُّ ﷺ الشباب إلى الزواج، فإنَّ فيه غضًّا للبصر وحفظًا للفرْجِ من الوقوع في الحرام، فمَن لم يَجِد قدرةً على الزواج لفقرِه، فعليه بالصيام؛ فإنه وِقايةٌ له من الفتن.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ١٧٦٥)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ٩٨٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (١٩٨/٤).

١ يُخاطِب النبيُّ ﷺ فئة الشباب لأنَّهم مَظِنَّةُ الشهوةِ بخلاف الشيوخ، فيَندُبُهم إلى المسارَعة إلى النكاح، وذلك لمن قَدَرَ على تكاليفه ومُتطلَّباته؛ فإنَّه أشدُّ حفظًا للبصر من النظَر للشهوات والمحرَّمات، فيَنشغِل بذلك عمَّا ينفعه في دُنياه وآخِرته، كما أنَّه أصونُ للفرْجِ وأمْنَعُ له من الوقوع في الزِّنا، والعياذُ بالله.

٢ فإنْ لم يَستطِع الشابُّ الزواجَ لفقره وحاجته، فعليه أن يَستعفِفَ ويحفظَ بصرَه وفرْجَه إلى أن يشاء اللهُ تعالى؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]. وأكثرُ ما يُعِين الشابَّ على ذلك الصيامُ؛ فإنَّه وِقايةٌ للمسلم من الوقوعِ في الحرام؛ حيث يَكسِر في نفسه الشهوةَ ويُطفئها، فلا يَنشغِل بما يُثيرها.

وقد استنبط العلماءُ أنَّ النَّاسِ في أمرِ النِّكاح مختلِفون إلى أربعة أقسام؛ الأول: تَتُوق نفسُه إلى النِّكاحِ ويَجِد مُؤنتَه، فهذا يُستحَبُّ له النكاح، والثاني: لا تَتُوق نفسُه إليه ولا يَجِدُ مُؤْنته، فهذا يُكرَه له ولا يُندَبُ إلى الصَّوم، والثالث: تَتُوقُ نفسُه إليه ولا يَجِد المؤنة، فهذا الذي يُندَبُ إلى الصَّوم لدَفعِ التَّوَقان، والرابع: لا تَتُوقُ نفسُه ويَجِد المُؤنة، فهذا اختلَف الفقهاءُ في حقِّه أيهما أفضلُ له: التخلِّي للعبادة وطلبِ العلم أو النكاح[١].

وقد وجَّه النبيُّ ﷺ الخِطابَ للشباب بناءً على الغالب؛ لأن أسباب قوةِ الداعي إلى النكاح مَوجودةٌ فيهم بخلاف الشيوخ، والمعنى مُعتبرٌ في الشيوخِ والكهولِ إذا تحقَّق فيهم ذلك أيضًا[٢].

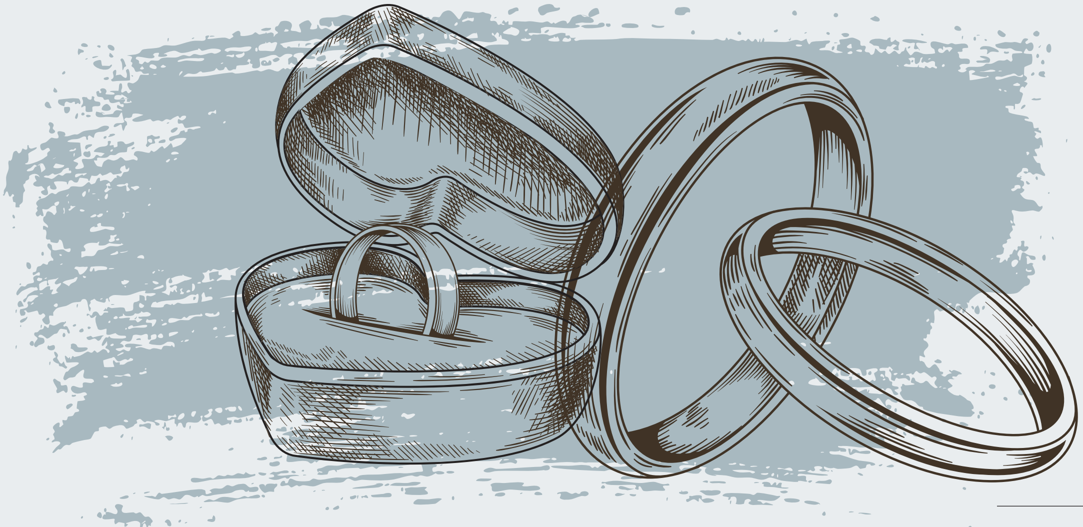

(١) ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٩/ ١٧٤).

(٢) ينظر: «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام» لابن دقيق العيد (٢/ ١٦٩).

اتّباع

١ (١) يجِبُ على الداعية والمُعلم والمُرَبِّي أن يهتمَّ بقضايا الشباب، ويوجِّههم لِما فيه صلاحُهم.

٢ (١) السعيُ في تزويج الشبابِ غيرِ القادر من أفضل الطاعات، وقد أمر اللهُ تعالى بذلك فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

٣ (١) حِفظُ الفرْجِ وغضُّ البصرِ من أوجب الواجبات على المسلِم، فلا يجوز للمسلم أن يُطلِقَ بصَرَه وفرْجَه.

٤ (١) من أفضل الأمور في تَقَبُّل الأحكام أن يَذكُر الفقيهُ عِلَّةَ الحكمِ وسَببَه والحكمةَ منه؛ ألا تَرى أن النبيَّ ﷺ حين شَرَع النكاح أخبر أنَّه أغضُّ للبصر وأحصن للفرْجِ؟! فعلى الداعيةِ والفقيه والمفتي أن يَذكر أدلةَ الأحكامِ والحكمةَ منها إن عُرِفت.

٥ (١) قيَّد النبيُّ ﷺ الزواجَ بالمقدرةِ عليه، وتَشمل القدرةَ الجسميةَ على الجِماع، والقدرةَ الماديةَ على تكوينِ الأسرةِ والإنفاق عليها. فمَن لم يَجِد في نفسه القدرةَ على ذلك فلا يُقدِمْ على الزواج.

٦ (١) الحكم الشرعيُّ للنكاحِ يدورُ حول الأحكامِ الخمسة؛ فقد يكون واجبًا إذا كان المسلمُ قادرًا على النكاح، ويخافُ على نفسه من الوقوع في الحرام، وقد يكون مندوبًا إنْ أمكنه ذلك وكان قادرًا على ضبط نفسه، ويكون مكروهًا إذا كان الشخص غيرَ محتاج إليه؛ كأن يكون كبيرًا، أو مريضًا لا شهوة له.

٧ (٢) إذا عجَز الإنسانُ عن الزواج لفقرِه وحاجته، وجَب عليه الاستعفافُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، وقد وعَد اللهُ سبحانه بإعانةِ المسلمِ على تكاليفِ النكاح، قال ﷺ: «ثلاثة حقٌّ على الله عزَّ وجل عَونُهم: المُكاتَبُ الذي يُريد الأداء، والناكحُ الذي يُريد العفاف، والمجاهدُ في سبيلِ الله»[١].

---

(١) الترمذيُّ (١٦٥٥)، والنسائيُّ (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨).

عن أبي هُرَيرة ﷺ، قال:

قال رسول الله ﷺ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ!»(١).

(١) البخاريُّ (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

آيـــات

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]

الرّاوي

هو: عبدُ الرحمن بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأَزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث؛ «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب واليًا على البَحرين، ثم بعد ذلك عاد وسكُن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتُوفِّي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)(١).

خلاصة

يَذكر النبي ﷺ أنَّ النَّاس يرغبون في نكاح امرأة لأحدِ أربعة أسباب؛ المال والحسَب والجَمال والدِّين، وعلى المؤمن أن يختار المرأة لدِينها؛ فهو خيرٌ له وفلاحٌ.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

فقــــه

١ يَذكر النبيُّ ﷺ أسباب النَّاس غالبًا في اختيارِ الزوجات؛ فمنهم مَن يختارُ المرأةَ الغنيَّةَ التي تُغنِيه وتُغني أولادَه، ولا تُرهِقه بمطالَبِها ونفقاتها، ومنهم مَن يختار المرأةَ الحسِيبة النَّسِيبة ليَشرُف بمُصاهرةِ آبائها وأقاربِها، ومنهم مَن يختار المرأةَ الجميلةَ التي تَسُرُّه إذا نظَر إليها، ومنهم مَن يختار المرأةَ الدَّيِّنَةَ التي تَحفظه في أهله ومالِه. ثُمَّ أرشد ﷺ إلى ضرورة الفَوزِ بذاتِ الدِّين، فإنْ لم تَفعَل التَصَقت يَداك بالتُّراب، وذلك كِناية عن الفقر والخَيبة.

٢ وليس معنى ذلك أنَّ المسلمَ عليه أن يختارَ الدَّيِّنَةَ الفقيرة أو الدَّمِيمة أو وَضِيعة النسَب، وإنَّما عليه أن يكون معيارُه الأول هو الدِّين؛ فإن وجَد امرأةً دَيِّنَةً غنيَّةً نَسيبةً جميلة فهي الغايةُ التي لا وراءها غايةٌ، وإلَّا فالمرأةُ الفقيرة الدَّيِّنَة خيرٌ مِن الغنيَّة غيرِ الدَّيِّنة، والدَّيِّنةُ غير النَّسيبةِ خيرٌ من النَّسِيبة غيرِ الدَّيِّنة، والدَّيِّنة غيرُ الجميلة أفضلُ من الجميلة غيرِ الدَّيِّنة.

٣ ولهذا نَدَب ﷺ المسلمين إلى زَواج المرأة الصالحة، فقال ﷺ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»[(١)]، وَقِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «الَّتِي تَسُرُّهُ إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ»[(٢)].

فالمرأة الصالحة تُطِيعه وتخاف اللهَ سبحانه فيه، وتَحفَظ عليه عِرضه، وتُحسِن تَنشئةَ أولاده، وتتَّقي اللهَ تعالى في أهله وماله، وتُعِينه على طاعة الرحمن جلَّ وعلا.

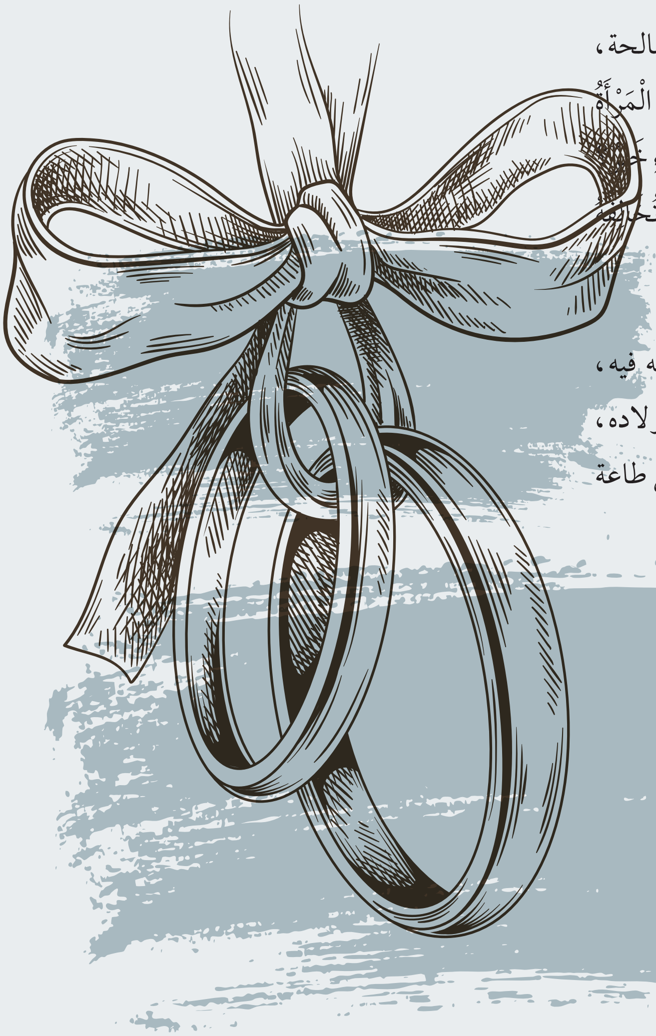

(١) مسلم (١٤٦٧).

(٢) رواه النسائيُّ (٣١٣١).

اتّباع

(١) على المسلم أن يتخيَّر المرأةَ الصالحة الدَّيِّنة؛ فهي التي تُطِيعه وتسُرُّه وتُرضي اللهَ تعالى عنه؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَرْبَعٌ مِنَ السعَادَةِ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الوَاسِعُ، وَالجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الهَنِيءُ، وَأَرْبَع مِنَ الشَّقَاوَة: الْجَارُ السُّوءُ، والمرأة السُّوءُ، وَالْمَسْكَنُ الضيقُ، وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ»[١].

(٢) ينبغي على كل امرأةٍ أن تُحسِن التَّبَعُّل لزوجِها، وتتَّقي اللهَ تعالى فيه وفي أهله، قال ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ»[٢].

(٣) في هذا الحديثِ الحثُّ على مصاحَبة أهلِ الدِّين في كلِّ شيء؛ لأنَّ صاحبَهم يَستفيدُ من أخلاقِهم وبَركتهم وحُسنِ طَرائقهم، ويَأمَن المفسَدةَ من جِهتِهم[٣].

(٤) كما أرشد النبيُّ ﷺ إلى اختيار الزوجة الصالحة، فقدْ أرشد كذلك إلى تزويجِ الرجل الصالح وإنْ كان فقيرًا وضيعَ النَّسب؛ قال ﷺ: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ»[٤].

قال الشاعر:

أَخَا الْإِسْلَامِ ذَاتُ الدِّينِ أَضْحَتْ ... تُؤَمِّلُ فِيكَ زَوْجًا لِلسُّكُونِ
إِذَا خَيَّبْتَهَا فِي نَيْلِ زَوْجٍ ... أَمِينِ الْعَهْدِ لِلْحُبِّ الْمَصُونِ
سَيَطْلُبُ وُدَّهَا زَوْجٌ لَئِيمٌ ... يَخُونُ الْعَهْدَ ذَا سَبَبُ الْفُتُونِ

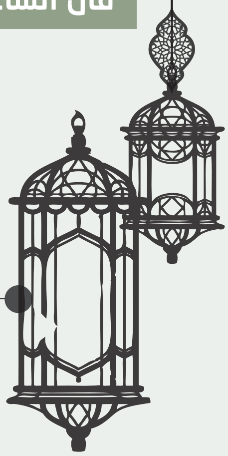

(١) رواه ابنُ حبَّانَ في «صحيحه» (١٢٣٢).
(٢) أحمد (١٦٦٤).
(٣) «شرح النوويِّ على مسلم» (١٠/ ٥١، ٥٢).
(٤) الترمذيُّ (١٠٨٤)، وابن ماجه (١٩٦٧).

الحديث ٧٦

من أحكامِ الرَّضَاعة

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ:

١ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عِنْدَهَا، وَأَنَّهَا سَمِعَتْ صَوْتَ رَجُلٍ يَسْتَأْذِنُ فِي بَيْتِ حَفْصَةَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُ فِي بَيْتِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُرَاهُ فُلَانًا»، لِعَمِّ حَفْصَةَ مِنَ الرَّضَاعَةِ،

٢ قَالَتْ عَائِشَةُ: لَوْ كَانَ فُلَانٌ حَيًّا - لِعَمِّهَا مِنَ الرَّضَاعَةِ - دَخَلَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ؛ الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الوِلَادَةُ»[١].

(١) البخاريُّ (٢٦٤٦)، ومسلم (١٤٤٤).

آيـــات

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء: ٢٣].

الرّاوي

عائشةُ بنتُ أبي بكر الصدِّيق ﵄، الصدِّيقة بنتُ الصدِّيق، أمُّ المؤمنين، زَوْجُ النبيِّ ﷺ، وأحبُّ نسائه إليه، كانت تُكْنى بأمِّ عبد الله، بابن أختها عبدِ الله بن الزُّبَير ﵄، تزوَّجها النبيُّ ﷺ وهي بنت سبع سنين، ودخل بها في السنة الثانية من الهجرة، وهي بنت تِسع سنينَ، ولم يَنكِح النبيُّ ﷺ بِكْرًا غيرها، وهي من المُكْثِرين في رواية الحديث، رَوَت عن النبيِّ ﷺ ألفينِ ومائتين وعشَرةِ أحاديثَ، كانت من أفقهِ النساء على الإطلاق، تُوفِّيت سنة ثمان وخمسين من الهجرة، ودُفِنت بالبقيع[١].

خلاصة

سَمِعت أمُّ المؤمنين عائشةُ ﵂ رجلًا يستأذن للدخول على حَفصة ﵂، فقال لها النبيُّ ﷺ: أظنُّه فلانًا، لعمِّ حفصة من الرَّضاعة، وأخبرها أنَّ الرَّضاعة تحَرِّم ما تحُرِّم الولادة.

(١) تراجع الترجمة في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٨٨١)، «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير (٧/ ١٨٦)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

١ بينما رسولُ اللهِ ﷺ في حجرة عائشةَ ﵂، إذ سَمِعتْ عائشةُ صوتَ رجلٍ يستأذن للدخول على حفصةَ ﵂، فأخبرتْ عائشةُ ﵂ النبيَّ ﷺ بذلك، فقال لها ﷺ: أظنُّه فلانًا، وذكر اسمَ عمِّ حفصةَ من الرَّضاعة. وفي قوله ﷺ ذلك تجويزٌ لدخولِه عليها، وإلا لَأنكرَ عليه ذلك وقام إليه ومنعه.

٢ فلمَّا سَمِعت أمُّ المؤمنين عائشةُ ﵂ ذلك، قالت: لو كان عمِّي فلانًا -وذكرتْ اسمَه- حيًّا، أكان له أن يَدخُل عليَّ ويَخلو بي فيكون له حكمُ العمِّ من النَّسب؟ فأخبرها ﷺ بأنَّ الرَّضاعة تُحَرِّم ما يُحَرِّمُ النَّسب.

وفي حديثٍ آخَرَ عن أمِّ المؤمنين عائشة ﵂ أنها قالت: اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ أَفْلَحُ أَخُو أَبِي القُعَيْسِ بَعْدَمَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَقُلْتُ: لا آذَنُ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ فِيهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا مَنَعَكِ أَنْ تَأْذَنِي؟ عَمُّكِ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي؛ وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِي امْرَأَةُ أَبِي القُعَيْسِ، فَقَالَ: «ائْذَنِي لَهُ؛ فَإِنَّهُ عَمُّكِ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ»[١].

وقد أجمع الفقهاءُ على أنَّ الرَّضاع يُحرِّم ما يحرِّم النَّسبُ[٢]، وعُرِضت ابنةُ حمزةَ ﵄ على النبيِّ ﷺ فقال: «لا تَحِلُّ لِي؛ يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ، هِيَ بِنْتُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ»[٣].

إلَّا أنَّه يُشترَط في ذلك أن يكون رَضاعًا في فترة الرَّضاع، فلا تتحقَّق الحرمةُ بالرضاع الحاصلِ بعد الفطام؛ فعن عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدِي رَجُلٌ، قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، مَنْ هَذَا؟»، قُلْتُ: أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ، قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ؛ فَإِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنَ المَجَاعَةِ»[٤].

ولا يَحصُل التحريم بمجرَّد المصَّة والمَصَّتين، بل إذا رضَع الصبيُّ خمسَ رضعات، يَلتقِم الثديَ في كلِّ مرَّةٍ فيَشرَب منه ثم يَدَعه باختياره، فهذه مرَّةٌ وإن قصُر وقتُها[٥]؛ لقول أمِّ المؤمنين عائشةَ ﵂: «كان فيما نزَلَ مِنَ القُرآنِ: عَشْرُ رَضعاتٍ مَعلوماتٍ يُحَرِّمْنَ، ثمَّ نُسِخْنَ بخمسٍ مَعلوماتٍ، فتُوفِّيَ رسولُ اللهِ ﷺ وهُنَّ فيما يُقرأُ مِنَ القُرآنِ»[٦].

---

(١) البخاريُّ (٤٧٩٦)، ومسلم (١٤٤٥).

(٢) قال ابن المنذر في «الإجماع» (ص: ٨٢): وأجمعوا على أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب.

(٣) البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧).

(٤) البخاري (٢٦٤٧)، ومسلم (١٤٥٥).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣٤/ ٥٧)، «سبل السلام» للصنعاني (٢/ ٣١١).

(٦) مسلم (١٤٥٢).

اتّباع

١ (١) لا يجوز للمرأة أن تأذَن لأحدٍ بدخول البيت من غير إذنِ زوجِها، ولهذا أخبَرت عائشةُ ﵂ النبيَّ ﷺ باستئذان رجلٍ على حَفصة ﵂.

٢ (١) إذا كان الصحابةُ رضوان الله عليهم لا يجوز لهم الدخول على النساءِ والخَلْوة بهنَّ، وهُم أطهرُ النَّاس وأفضلهم بعد الأنبياء، فكيف بغيرِهم من سائرِ النَّاس؟

٣ (١) لا يجوزُ للمرءِ أن يَتشدَّد في دِين اللهِ عزَّ وجلَّ إلا لحاجةٍ؛ فمتى كان الرجلُ مَحْرَمًا للمرأة لم يَمنَعْه من الدخول عليها ومصافحتِها والسَّفرِ بها ونحوِ ذلك، إلا أن يُرتابَ في دِينِه وخُلُقه؛ فالنبيُّ ﷺ لم يَمنَعِ الرجلَ من الدخول على حفصةَ ولا غَضِب من ذلك.

٤ (١) لا يجوزُ للرجُل أن يَدخُل على امرأةٍ من مَحارِمه من غير استئذانٍ، ولو كانت أختَه أو أُمَّه.

٥ (٢) أقوالُ النبيِّ ﷺ الأصلُ فيها العموم والتشريع، إلا ما دلَّ الدليلُ على أنَّه خاصٌّ به أو بالمخاطَب؛ فلمَّا سَمِعت عائشةُ ﵂ إذنَه ﷺ لعمِّ حفصةَ ﵂ ظنَّت أنَّ ذلك خاصٌّ بها، فسألَتْه عن عمِّها من الرَّضاع، فأخبرها ﷺ أنه لو كان حيًّا لَمَا منَعه من الدخول عليها.

٦ (٢) على الرجل أن يَتعاهدَ أهلَه ويُعلِّمَهُم أمورَ دينهم، ويُبيِّن لهم ما يحتاجون إليه من الأحكام.

٧ (٢) لا يجوز التساهُل في مسائل الرَّضاع والإذنِ في الدخول والخَلْوة والسفر ونحو ذلك، بل يجِبُ على المسلمِ أن يَتبيَّن ويتأكَّد من ذلك؛ فليس كلُّ رضاعٍ مُحرِّم؛ إذ يُشترَط فيه أن يكون في فترة الرَّضاع، وأن تكونَ الرضعاتُ خمسًا يَحصُل بها بعضُ الشِّبع، ولهذا قال ﷺ لعائشةَ ﵂: «انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ»[(١)].

---

(١) البخاري (٢٦٤٧)، ومسلم (١٤٥٥).

كَراهية الطَّلاق

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﵄، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

١ «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا،

٢ قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ»[1].

(١) مسلم (٢٨١٣).

آيات

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥، ٦]

الراوي

هو: أبو عبد الله، جابرُ بنُ عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ حرام الأنصاريُّ، ثم السَّلِميُّ، شهِد بَيعة العقبة الثانية وهو صبيٌّ مع أبيه، وكان والده من النُّقباء البدريين، وكان آخِرَ مَن مات ممن شهِد ليلة العقبة الثانية، وقيل: شهِد بَدرًا وأُحدًا، وشهِد صِفِّين مع عليِّ بنِ أبي طالب ﵁، وهو مُفتي المدينة في زمانه. تُوفي سنةَ (٧٨هـ)[1].

خلاصة

يُخبِر النبي ﷺ أن إبليس يَنصِب عرْشَه على الماء ثم يرسِل جنودَه لإغواء النَّاس، وكلَّما كانت فتنةُ الواحد منهم أكبرَ كانت منزلته أعظمَ عند إبليس، وأعظمُهم منزلةً مَن فرَّق بين الرجُل وامرأته.

(١) تُراجع ترجمته في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٢١٩)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ٣٠٧)، سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٣/ ١٩٠).

١ يُخبِر النبي ﷺ أنَّ إبليس يَنصِب عرْشَه على الماء، ثم يرسل جنودَه وأعوانَه لإغواءِ النَّاس وإضلالِهم وصدِّهم عن سبيل الله تعالى، وأقربُهم منه منزلةً أشدُّهم فتنةً وأعظمُهم أثرًا على عباد الله، فإذا انتهَت مَهَمَّةُ كلِّ واحدٍ منهم، جاؤوا إليه فأخبروه بما فعَلوا، فيقول أحدُهم: ما تركتُ ابنَ آدم حتَّى سَقَيته خمرًا، ويقول آخَرُ: ما تركْتُه حتى أوقعتُه في الزنا، ويقول آخرُ: حملتُه على منع زكاة ماله، ويقول آخر: حملته على السرقة... فيُحَقِّر إبليسُ أفعالَهم تلك، ويُخبرُهم أنَّهم لم يَصنعوا شيئًا ذا بالٍ.

٢ ثم يأتي أحدُهم فيقول: ما تركتُ ابنَ آدم حتى فرَّقتُ بينه وبين امرأته، فيُسَرُّ إبليسُ بذلك جدًّا، ويُقرِّبه من مَجلسِه، ويمدحُه بقوله: نِعْم أنتَ؛ أي: نِعْمَ الشيطانُ أنت؛ فأنت الذي جِئتَ بالأمر العظيم، وأنت الذي أغنيتَ عنِّي، وأنت صاحبُ المنزلة عندي.

وإنما حَظِيَ ذلك الشيطانُ عند إبليسَ بتلك المكانةِ لِمَا للتفريقِ بين الزوجينِ من الشرِّ والأذى؛ فبِهِ تحصُل الضَّغينة، وتقعُ العداوة والشَّحناء بين الزوجين وأهليهما، ويتشرَّد الأطفال وتَسُوء أخلاقهم وأفعالهم نتيجةَ التفكُّكِ الأُسَري، كما يكثُر بذلك الوقوعُ في الفاحشة التي هي أعظمُ الكبائر فسادًا وأكثرها مَعَرَّةً[١].

(١) «البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج» للولويِّ (٤٣/ ٥٠٠).

اتّباعي

١ (١) إبليسُ – لعنه الله – أشدُّ أعداءِ ابن آدم، بارزه بالعداوةِ مُذ أمَره اللهُ تعالى بالسجود له، فأبى، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، وتوعَّد بغوايةِ بني آدم جميعًا، فقال: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]. فالحذرَ الحذرَ من كَيدِه وإغوائه وفِتنتِه.

٢ (١) طُرق الشيطان في الإضلال كثيرة؛ فمنها الوَسْوسةُ، والتحريشُ بين النَّاس والإيقاع بينهم، وتَزيينُ المعصيةِ، والغضبُ، والتعصُّبُ، والعجَلةُ، والتكاسلُ ... إلى غيرِ ذلك. فعلى المسلِم أن يكونَ يَقِظًا لحِيَلِه، مُستعيذًا باللهِ تعالى منه، وقد أخبر سبحانه أنَّ الاستعاذةَ منه تَرُدُّ عن المرءِ ما يَجِده مِن وَساوسه ونزغاته؛ قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠- ٢٠١].

٣ (١) الملجأُ للعبدِ مِن وَساوس الشيطان هو الدخولُ في طاعةِ اللهِ تعالى والاحتماء بحِصنه الحَصين؛ قال قتادةُ السَّدوسيُّ رحمه الله: «أتاك الشيطانُ يا ابنَ آدمَ من كلِّ وجه، غيرَ أنه لم يأتِك من فَوقِك؛ لم يَستطِعْ أن يَحُول بينك وبين رحمةِ الله»[1].

(١) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ١٠٣).

٤ (٢) احذَرْ ؛ فمُرادُ إبليسَ وأعوانِه هدمُ البيتِ المسلِم .

٥ (٢) يَنجُم عن التفريقِ بين الزوجينِ شرٌّ كبيرٌ ؛ منها : حصولُ الضَّغينة والعداوة بين الأهل ، وانتشار الزِّنا الذي هو أعظم الكبائر فَسادًا وأكثرها مَعَرَّةً ، فضلًا عمَّا يُصِيب الأبناءَ من الضرر الماديِّ والمعنوي ، وما قد يَترتَّب عليه من فسادِ الأخلاق وسُوء التربية ؛ ولهذا عَظُمَ سرورُ إبليسَ اللعينِ به .

قال الشاعر:

يَا مُنـزِلَ الآيَـاتِ وَالفُرْقَــــانِ ... بَيني وَبَيْنَـكَ حرْمَـةُ القُـرْآنِ

اشْرَحْ بِهِ صَدْرِي لمعرِفَةِ الهُدَى ... وَاعْصِمْ بِهِ قَلبي مِنَ الشَّــيطَانِ

واحطُطْ بِهِ وِزْرِي وَأَخْلِصْ نِيَّتِي ... وَاشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وأَصْلِحْ شَانِي

واكْشِفْ بِهِ ضُرِّي وحقِّقْ تَوبَتِي ... أَرْبِـــحْ بِهِ بَيْعِي بِلَا خُسـْرَانِ

طهِّرْ بِهِ قَلْبِي وصَــفِّ سَرِيرَتِي ... أجمِلْ بِهِ ذِكْرِي وَأَعْلِ مكَانِي

قال غيره:

وأَثنَتْ علَى اللهِ نَفسُ الشَّكُورِ ... ولـم يُنسِــها الأمنُ أحـوَالَهَا

وكم أنفُسٍ جَحَـدت رَبَّهــا ... ومرَّتْ تُجَـرِّرُ أذيَالَهـــــا

وساوِسُ شيطَانِهَا اسـتحْوَذَتْ ... علَيهَـا من الوهمِ فاجـتالَهَا

فيَا وَيْلَهَـا أنفُسـًا بالجُحُودِ ... تُقابِـلُ أنعُـمَ من عَالَهـــا

وَتَتبَعُ أوهَامَهـا البَاطِــلاتِ ... وتَعبُدُ بالـذُّلِّ مُغتالَهـــا

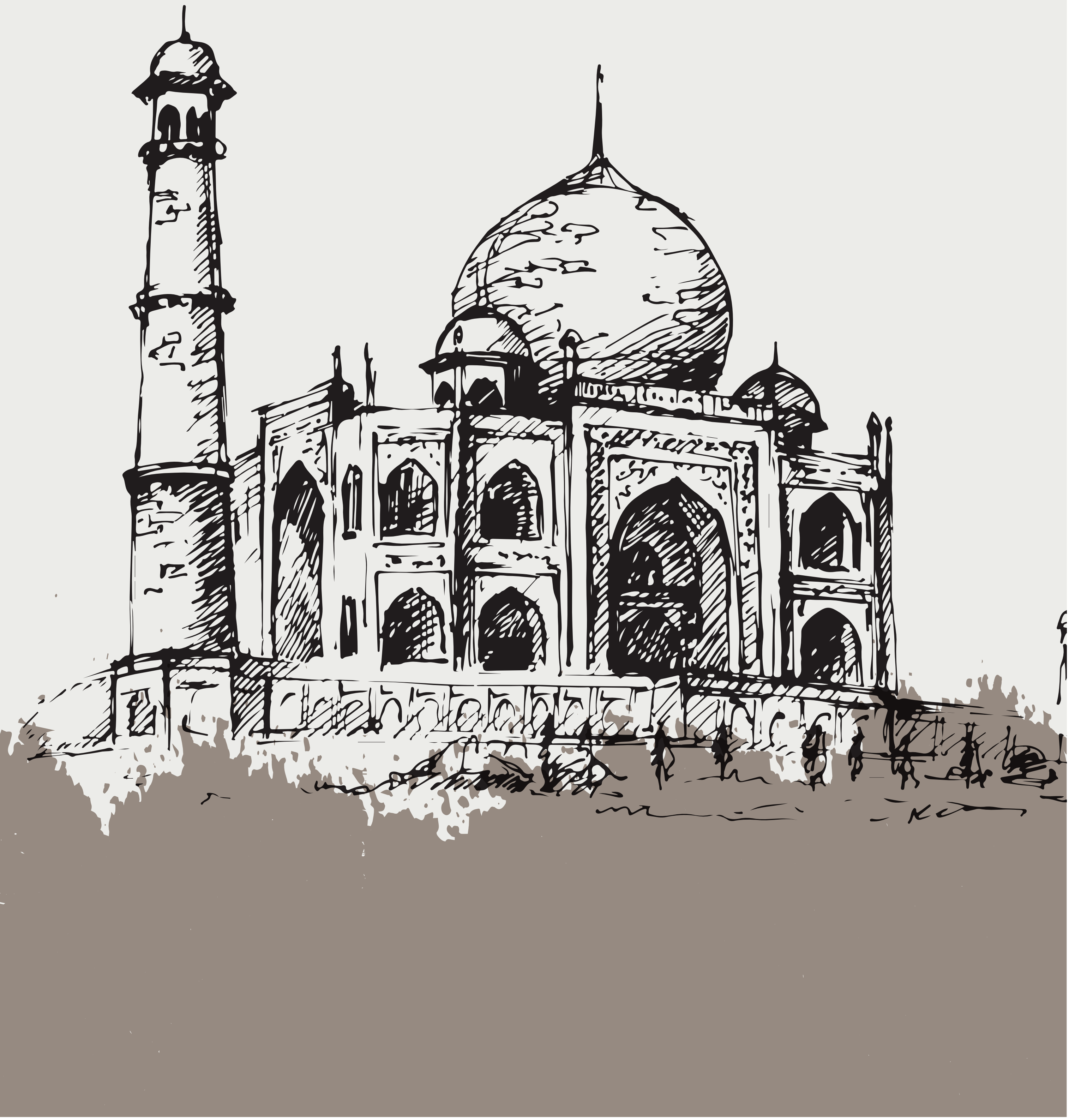

٧٨ الحديث

من أحكامِ الطَّلاق والعِدَّة

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

١ أنه طلَّقَ امرأتَه وهي حَائضٌ على عِهدِ رسولِ الله ﷺ تطليقةً واحدةً،

٢ فسأل عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ عن ذلك،

٣ فتغيَّظ رسولُ الله ﷺ،

٤ ثم قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مُرْهُ فليراجعها، ثم لِيُمسِكْها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر،

٥ ثم إن شاء أمسك بعدُ، وإن شاء طلَّق قبل أن يمسَّ،

٦ فتلك العدةُ التي أَمَر اللهُ أن تطلَّق لها النساءُ»؛ متفقٌ عليه

٧ وفي لفظ لمسلم: «مُرْه فليراجِعها، ثم ليطلقها طاهرًا أو حاملًا»[١].

(١) البخاري (٥٢٥١)، ومسلم (١٤٧١).

آيـــات

▌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١].

▌ ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

الراوي

هو: عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطَّاب بنِ نُفَيْل، أبو عبد الرحمن القُرَشِيُّ، العَدَوِيُّ المَكِّيُّ، ثُمَّ المَدَنيُّ، الإمامُ القُدوة، شَيْخُ الإسلام، أَسلَم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه ولم يَحتلِم، واستُصْغِرَ يومَ أُحدٍ، فَأَوَّلُ غزواته الخَنْدَقُ، وهو ممن بايع تحت الشجرة، وهو من المُكثِرين بالفُتيا والحديث. توفِّي سنة (٧٤هـ)[٢].

خلاصة

طلَّق ابنُ عمر رضي الله عنهما امرأتَه وهي حائضٌ، فأمره النبيُّ ﷺ أن يطلقها في طُهر لم يجامعها فيه، فذلك طلاق السُّنَّة.

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ١٠٥)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٣٢٢)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ١٥٥).

فقـــه

١ كان ابن عمر شابًا في حياة النبي ﷺ، فتزوّج، ثم طلق زوجته وهي في وقت الحيض طلقة واحدة.

٢ فذهب أبوه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى النبيِّ ﷺ يخبره أنَّ ابنَه عبدَ اللهِ رضي الله عنه طلَّق امرأته في حيضتها؛ ليعلم حكم الشرع في ذلك.

٣ فغضب النبيُّ ﷺ لمخالفته السُّنَّة.

٤ وقال لعمر رضي الله عنه: قل له: عليك أن تُراجعها، حتى إذا طَهُرت من حيضتها، فعليك أن تنتظر حيضة أخرى، ثم تنتظر طهرًا آخر -ولا يجامعها في كل ذلك الوقت إذا كان يريد طلاقها-،

٥ ثم بعد ذلك ستكون في وقت طهر لم تجامعها فيه، ففي هذه الحال: فإن شئتَ طلَّقتها قبل أن تجامعها، وإن شئتَ أمسكتَها ولم تُطَلِّقها.

٦ وهذا ما شرعه اللهُ تعالى عند الحاجة للطلاق.

٧ وهناك رواية أخرى وضحت أن الطلاق الجائز إما أن يكون في طُهرٍ -أي لم يجامعها فيه كما سبق-، أو في حال حمل المرأة -حتى لو جامعها فيه- كما دلت عليه أدلة أخرى، لأن الحامل لا تحيضُ، وتستمر عدة الطلاق حتى وضع الحمل.

والحكمةُ في تأخير الطلاق إلى طُهرٍ لم تُجامع فيه أنَّه رُبَّما كانت المرأةُ حاملًا فيندم الرجلُ على طلاقها، وأنَّ في التأخيرِ إمهالٌ له حتى يتأنَّى ويتريَّث ولا يبادر في الطلاق لغضبٍ ونحوه[1].

(١) انظر: «الإفصاح عن معاني الصحاح» لابن هبيرة (٤/ ٦٦)، «شرح النووي على مسلم» (١٠/ ٦١).

اتّباع

١ إذا أصابك شكٌّ في فعلٍ فعلتَه أو تريد فعله، فعليك باستشارة أهل العلم؛ وسواء كان ذلك في أمور العبادات أو المعاملات.

٢ يجوز للرجل أن يبعث من يستفتي بدلًا منه إذا كان المُرْسَلُ يُحسن الإبلاغَ والفهم، ولهذا أرسل عبدُ اللهِ أباه رضي الله عنهما.

٣ يجوز للداعية والفقيه والعالِم والمُرَبِّي أن يغضب على فعلٍ فعله السائل لم يكن له علمٌ بحكمه، إذا كان ذلك الفعلُ عظيمًا يستدعي المشاورة وسؤال أهل العلم قبل فعله.

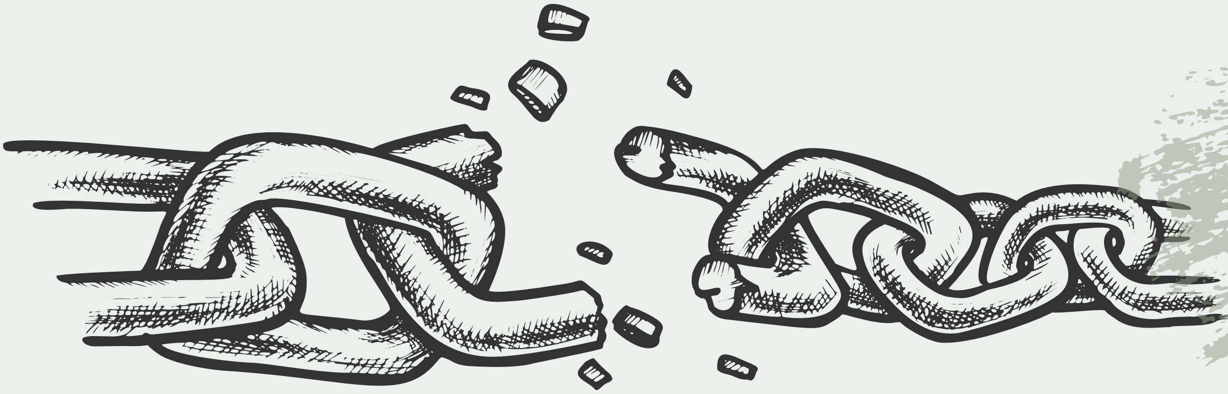

٤ إذا كانت الحكمةُ من منع الطلاق في الحيض أو في طهرٍ جامع الرجلُ فيه زوجته هي التأني والتريث والتفكير في الأمر؛ فلا ينبغي لعاقلٍ أن يُسارع إلى الطَّلاق، بل عليه أن يمد له زمنًا للتفكير.

٥ وجود الحمل -ومثله الأولاد- من الأسباب التي تمنع كثيرًا من الناس من الطلاق، وهذا من حكمة منع الطلاق في طهرٍ جامعها فيه، فربما قُدِّر بينهما ولدٌ فندم.

٦ ينبغي أن يُرجع في أحكام الطلاق إلى أهل العلم المرضيين -خصوصًا إن كان لهم منصبُ قضاءٍ، أو تحكيمٍ بين الخصوم-، لما يحصل في الطلاق من الاختلاف في تصوير الواقعة، أو الاختلاف في الأحكام الجزئية، فإذا رُجع لأهل العلم المقبولين حصلت الطمأنينة بحكمهم.

الحديث ٧٩

مَن أحكامِ الحِدَاد

عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

١ «لَا تُحِدُّ امْرَأَةٌ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا،

٢ وَلَا تَلْبَسُ ثَوْبًا مَصْبُوغًا، إِلَّا ثَوْبَ عَصْبٍ، وَلَا تَكْتَحِلُ، وَلَا تَمَسُّ طِيبًا، إِلَّا إِذَا طَهُرَتْ، نُبْذَةً مِنْ قُسْطٍ أَوْ أَظْفَارٍ»(١).

(١) البخاريُّ (٣١٣)، ومسلم (٩٣٨).

آيات

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

الراوي

هي: أُمُّ عَطِيَّةَ الأنصاريةُ رضي الله عنها، صحابيَّة جليلة، اشتُهِرت بكُنْيَتِها، واسمها: نُسَيْبَةُ بنتُ كعبٍ، وقيل: نُسَيْبَةُ بنتُ الحارث، كانت تغزو كثيرًا مع رسول الله ﷺ، تمرِّض المرضى، وتُداوي الجرحى، وهي التي غَسَلَت زينب ابنةَ رسولِ الله ﷺ(١).

خلاصة

يَذكر النبيُّ ﷺ أنَّ المرأةَ لا يجوز لها أن تَزيد في إحدادها على مَن مات لها أكثر من ثلاثة أيام، إلا الزَّوج؛ فإنها تُحِدُّ أربعة أشهرٍ وعشرًا. وفي تلك الفترة لا تَلبس ثيابًا مُلَوَّنةً، ولا تكتحِل، ولا تَضع طِيبًا، إلا حين تَطهُر من حَيضها، فتَمَس قليلًا من الطِّيب لِتَزول رائحة الدمِ الكريهة عنها.

(١) ينظر ترجمتها في: «الاستيعاب» (٤/١٩٤٧)، «أسد الغابة» (٧/٣٥٦)، «الإصابة» (٨/٤٣٧).

١ قَضى النبيُّ ﷺ أنَّه لا يجوز للمرأة أن تَترُك الزينةَ والطِّيب حزنًا على مَن مات عنها من أبٍ أو أمٍ أو ابنٍ أو أخٍ أو أختٍ أو غيرهم أكثرَ من ثلاثةِ أيام، إلا الزوجَ؛ فإنَّها تَدَعُ الزينةَ والطِّيبَ والكُحلَ أربعة أشهرٍ وعشرة أيامٍ.

فاكتفى في الميتِ القريبِ ونحوِه بثلاثةِ أيامٍ يحصُل فيها القيامُ بحقِّ الميت، والتفريجُ عن النفْسِ الحزينة. واستثنى من ذلك الزَّوجَ لعظيم حقِّه على امرأته، ولهذا لم يُفرِّق الشرعُ في إيجاب العدَّة والإحداد على المتوفَّى عنها زوجُها بين المدخول بها وبين التي لم يُدخَل بها[1].

واختصَّ ذلك بالوفاة لا الطلاقِ؛ لأنَّ في الزينةِ دعوةً للنِّكاح، والمُطَلِّقُ حيٌّ يمكِنُه زجْرَ مُطَلَّقتِه عن الزواجِ في عِدَّته إنْ أقدَمت على ذلك، بخلاف الميت الذي لا يمكِنُه ذلك، فجاء الإحدادُ أربعة أشهرٍ وعشرًا، وهي المدة التي يَكتمِلُ فيها نموُّ الجنينِ في رَحِم أُمِّه وزيادة عَشرة أيامٍ احتياطًا[2].

وهذا في حقِّ غيرِ الحامل، أما الحامل فعدَّتُها وإحدادُها مدَّةُ حمْلِها، طالت أو قَصُرَت[3]؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

٢ ثم فصَّل ﷺ بعضَ أحكامِ الإحدادِ المهمةِ، فمنها ألَّا تَلبَس المُحِدَّة ثيابًا مصبوغةً للزينة، إلا ثوبًا يمنيًّا قديمًا كان يُصبَغ غزلُه قبل أن يُنسَج، وليس فيه من الزينةِ ما في غيره، ولهذا جاز لُبْسُه. كما أنَّها لا تَستعمِل الكُحلَ في عينها، ولا تَتطيَّب بالمِسكِ ونحوه من الروائحِ الطيِّبة، إلا إذا طهُرت من حَيضِها، فيجوز لها أن تَتطيَّب بجُزءٍ يسيرٍ جدًّا من القُسط، وهو العودُ الهنديُّ، عقارٌ معروفٌ طيِّبُ الريح، ويجوزُ لها كذلك حينئذٍ أن تتطيَّب بالأظفار، وهو نوعٌ من الطِّيب على شكل الأظافرِ، وكلاهما لا تفوحُ رائحتُهما إلا إذا استُعمِلا بَخورًا أو اختلَطا بغيرهما.

والنهيُ عن الاكتحالِ إنما إذا لم تَدَعُ الضرورةُ إليه، فإذا احتاجت إليه المرأةُ استعمَلَتْه بالليلِ ومسَحَته بالنهار؛ لقول أمِّ سلمة: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ، وَقَدْ جَعَلْتُ عَلَى عَيْنِي صَبِرًا، فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا أُمَّ

(١) قال ابن المنذر في «الإجماع» (ص: ٩٠): وأجمعوا أن عدة الحرة المسلمة التي ليست بحامل من وفاة زوجها أربعة أشهر وعشرا، مدخولا بها وغير مدخول، صغيرة لم تبلغ أو كبيرة. وقال ابن القطان في «الإقناع في مسائل الإجماع» (٢/ ٥٤): وأجمع الجميع على وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها، إلا الحسن فإنه حكي عنه أنه كان لا يرى الإحداد، وعلى كل زوجة بالغة عاقلة مسلمة حرة أن تحد على زوجها المتوفى عنها أربعة أشهر وعشرًا.

(٢) «شرح النوويِّ على مسلم» (١٠/ ١١٣).

(٣) «الكاشف عن حقائق السنن» للطيبيِّ (٧/ ٢٣٧١).

سَلَمَةَ؟» فَقُلْتُ: إِنَّمَا هُوَ صَبِرٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ فِيهِ طِيبٌ، قَالَ: «إِنَّهُ يَشُبُّ الْوَجْهَ فَلَا تَجْعَلِيهِ إِلَّا بِاللَّيْلِ، وَتَنْزِعِينَهُ بِالنَّهَارِ»[1]، والصَّبِر: عصارةُ شَجرٍ مُرٍّ.

ومن الإحدادِ أيضًا تركُ الخُضابِ بالحِنَّاءِ والتَّحَلِّي بالذهب والفضة ونحوِها؛ لقوله ﷺ: «المُتوَفَّى عنها زَوجُها لا تَلبَسُ المُعَصفَرَ مِنَ الثِّيابِ، ولا المُمَشَّقَةَ، ولا الحُلِيَّ، ولا تَختَضِبُ، ولا تَكتَحِلُ»[2]. والمُمَشَّقة نوعٌ مِن الثياب مصبوغٌ بلَونٍ أحمَرَ.

(١) أبو داود (٢٣٠٥) والنسائي (٣٥٣٧).

(٢) أبو داود (٢٣٠٤)، والنسائي (٣٥٣٥).

اتّباع

١ (١) أجاز الشرعُ الإحدادَ للمرأة تنفيسًا لها عن حُزنِها بفقدِ قريبٍ أو صديقةٍ، بشرط ألَّا يَنتُج عن ذلك اعتراضٌ على قَضاءِ اللهِ وقدَرِه، ولا يصاحبه شيءٌ مما يُغضِب اللهَ سبحانه؛ مِن لَطْم الخدود وشقِّ الجيوب ودَعاوى الجاهلية.

٢ (١) يجب على المرأة أن تُحدَّ على زوجها إذا مات عنها، سواءً دخَل بها أم لا؛ فإن كانت حاملًا فتُحِدُّ حتى تضع حمْلَها، وإلا فعدَّتُها أربعة أشهر وعشرةُ أيامٍ، ولا فرق بين التي تحيض والتي لم تحِض والتي يئست من المحيض.

٣ (٢) إذا احتاجت المرأةُ للكحل لوَجعٍ بعينها ولم تَجِد ما يداويها غير الكحل جاز لها ذلك للضرورة.

٤ (٢) يحرم على المرأةِ المُحِدَّةِ على زوجها كل أنواع الزينةِ ؛ فيحرُم عليها لبس الحُلِيِّ والتخضُّب بالحناء والاكتحال ومسِّ الطيب ولُبْس الثياب التي تَلبَسها النساء لأزواجهن يتزينَّ بها .

٥ (٢) دلَّ الحديث على أنَّ المرأة تَستعمل الأدهان التي ليْس فيها طِيب، فيجوز لها أن تَدهُن شعرَها بالزيوت لتصفيفِه، لا للتطيُّب برائحته .

٦ (٢) للمُحِدَّة أن تَغتسل وتخرج للضرورة وتخاطب الرجالَ إذا دَعَت الحاجةُ من غير خضوعٍ بالقول .

٧ (٢) للمُحِدَّة أن تأكل أطيب أنواع الطعام وأشهاه، ولا عَلاقةَ للإحداد بالطعام والشَّراب .

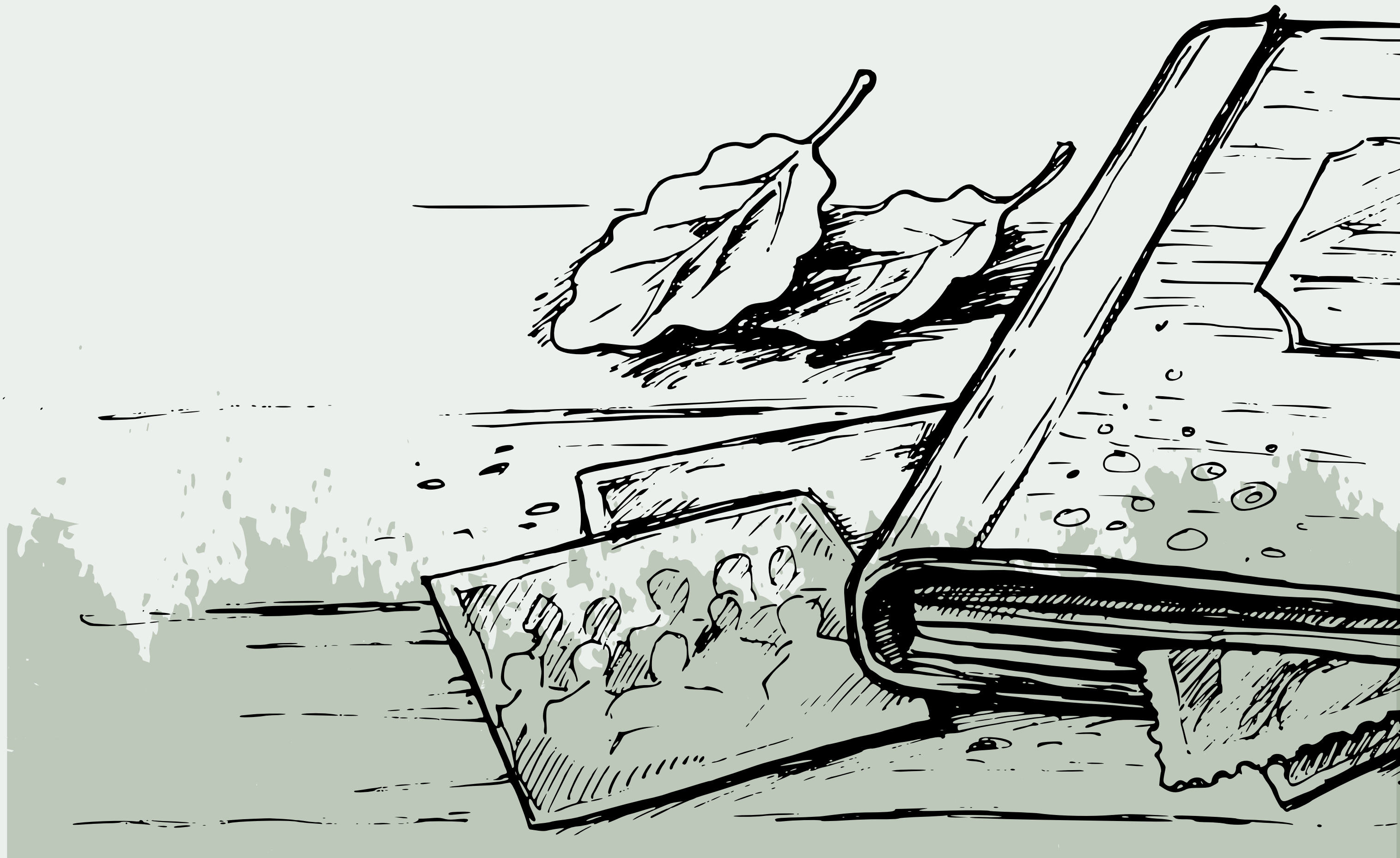

الحديث ٨٠

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما،

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»(١).

(١) البخاريُّ (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

آيات

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١١].

﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ [النساء: ١٢].

الراوي

هو: أبو العبَّاس، عبدُ الله بنُ عبَّاسٍ بن عبد المطَّلب، القُرَشيُّ، الهاشميُّ، وُلد بـ«شِعب بني هاشم» قبل الهجرة بثلاثِ سنين، وهو رضي الله عنه حَبر الأمَّة وتُرجمان القرآن، ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ، وكان يُقال له: البَحر؛ لكثرة عِلمه؛ فقد دعا له النبيُّ ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(١)، وهو من الصحابة المُكْثِرين من رواية الحديث، أَسلم صغيرًا، ولازَم النبيَّ ﷺ بعد الفتح وروى عنه، وكُفَّ بصرُه في آخِرِ عُمُره، وتُوفيِّ بالطائف سنةَ (٦٨هـ)(٢).

خلاصة

يأمر النبيُّ ﷺ القائمين على توزيع المواريث بإعطاء الأنصبة لأصحابها أولًا، ثم ما بَقِي يُعطى لأقرَب العَصَبات للميت.

(١) البخاريُّ (١٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٤٧٧).

(٢) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٦٩٩)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البرِّ (٣/ ٩٣٣)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٢٩١).

اختَصَّ اللهُ سبحانه وتعالى بتوزيع التَّرِكات ومَواريث الموتى بنفسِه، فأخبَر في كتابه بأحكام الفرائض، وبيَّنها النبيُّ ﷺ في سُنَّتِهِ الشريفة؛ كي لا يأكلَ الناسُ أموالَهم بينهم بالباطل، ويَجُورَ القويُّ على الضَّعيف.

وفي هذا الحديث يأمرُ النبيُّ ﷺ القائمينَ على توزيع التَّرِكات أن يبدؤوا بأصحاب الأنصِبة المعروفة، وهم الذين يَستحِقون نصيبًا مفروضًا في مال الميت، فإن بَقِي شيءٌ بعد أخذِهم حُقوقَهم، كان الباقي لأصحابِ العَصَبات، وهم أقارب الميت الذين لا نصيبَ لهم محدَّدٌ، وإنما يَحُوزون جميع التركةِ إنِ انفرَدوا، ويأخذون الباقي إنْ كان معهم أصحاب فرائضَ؛ كالابنِ والأخِ الشقيقِ، والأخِ لأبٍ، والعمِّ وابنِ العمِّ، ونحوهم.

والفرائضُ المعروفة سِتة؛ النصفُ والربعُ والثمنُ والثلثُ والسُّدس والثُّلثان، فالنصف فرضُ خمسةٍ: ابنةُ الصُّلب، وابنةُ الابنِ، والأختُ الشَّقيقةُ، والأختُ للأبِ، والزَّوْجُ، وكلُّ ذلك إذا انفرَدوا عمَّن يَحجُبُهم عنه.

والرُّبع: فرضُ الزَّوجِ مع الحاجب، وفرضُ الزوجة أو الزوجاتِ مع عَدَم الحاجِب.

والثُّمن: فرضُ الزوجةِ أو الزوجاتِ مع الحاجبِ.

والثُّلثانِ فرضُ أربعٍ: الاثنتينِ فصاعدًا من بنات الصُّلب، أو بناتِ الابن، أو الأخواتِ الأشقَّاءِ أو للأبِ. وكلُّ هؤلاء إذا انفردْنَ عمَّن يَحجُبهنَّ عنه.

والثُّلث فرضُ صِنفين: الأُمُّ مع عدمِ الولدِ، ووَلَدِ الابن، وعَدَمِ الاثنينِ فصاعدًا من الإخوة والأخوات، وفرضُ الاثنين فصاعدًا من وَلَدِ الأُمِّ، وهذا هو ثُلثُ كلِّ المال، فأمَّا ثُلثُ ما يَبقى، فذلك للأُمِّ في مَسألة: زوجٌ أو زوجةٌ وأبَوانِ، فللأمِّ فيها ثلثُ ما يَبقى.

والسُّدس فرضُ سبعةٍ: فرض كلِّ واحد من الأبوينِ والجَدِّ مع الولد وولدِ الابن، وفرضُ الجَدَّةِ والجَدَّات إذا اجتمعْنَ، وفرضُ بنات الابن مع بِنْتِ الصُّلب، وفرضُ الأخوات للأب مع الأخت الشقيقة، وفرضُ الواحد من وَلَدِ الأمِّ، ذكَرًا كان أو أُنثى.

وهذه الفروض كلُّها مأخوذةٌ من كتاب الله تعالى، إلا فرضَ الجَدَّات فإنَّه مأخوذٌ من السُّنَّة، فهؤلاء أهلُ الفرائض الذين أَمَرَ النبيُّ ﷺ أن يُقْسَمَ المال عليهم لَمَّا قال: «اقْسِمُوا الْمَالَ بَيْنَ أَهْلِ الْفَرَائِضِ»[١]، وهو معنى قوله: «أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا»[٢].

---

(١) مسلم (١٦١٥).

(٢) «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم» للقرطبيِّ (٤/ ٥٦٤).

وأصحاب العَصَبات يُنزَّلون مراتبَ؛ فالأبناءُ في المرتبة الأولى، والابنُ مقدَّم على ابنِ الابن، وابنُ الابن مقدَّم على ابنِ ابنِ الابن، وهكذا، ثم الأبُ في المرتبة الثانية، ثم الإخوةُ الأشقَّاء، ثم الإخوةُ لأبٍ، ثم أبناءُ الإخوةِ الأشقَّاءِ، ثم أبناءُ الإخوةِ لأبٍ، ثم الأعمامُ الأشقَّاء، ثم الأعمامُ لأبٍ، ثم أبناءُ الأعمامِ الأشقَّاءِ، ثم أبناءُ الأعمامِ لأبٍ، وهكذا.

والعَصَبَة الأقربُ تَحجُب العَصَبَةَ الأبعد؛ فلا يَرِث الأبُ بالتعصيب مع وجودِ الابن، كما لا يَرِث ابنُ الابن مع وجودِ الابن، والأبُ يَحجُب الإخوةَ مطلقًا والأعمامَ وأبناءَ الأعمامِ وغيرَهم، والأخُ الشقيق يَحجُب الأخَ لأبٍ وأبناءَ الأخِ والأعمام، والأخُ لأبٍ يَحجُب أبناءَ الأخِ والأعمام، وأبناءُ الأخِ الشقيقِ يَحجُبون أبناءَ الأخِ لأبٍ والأعمام، وأبناءُ الأخِ لأبٍ يَحجُبون الأعمامَ وأبناءَ الأعمام، إلى نحو ذلك[(١)]. وهذا معنى قوله ﷺ: «فما بقي فلِأَوْلَى رجلٍ ذَكَر». وليس المعنى أنَّ مَن استوى في القُرب من الميت أن يُقدَّم الأولى مَنزلةً؛ فيَرِث الابنُ الأكبرُ مثلًا دون سائرِ إخوانه، أو يَرِث الابنُ المتفوِّق في العمل والدراسةِ ونحو ذلك[(٢)].

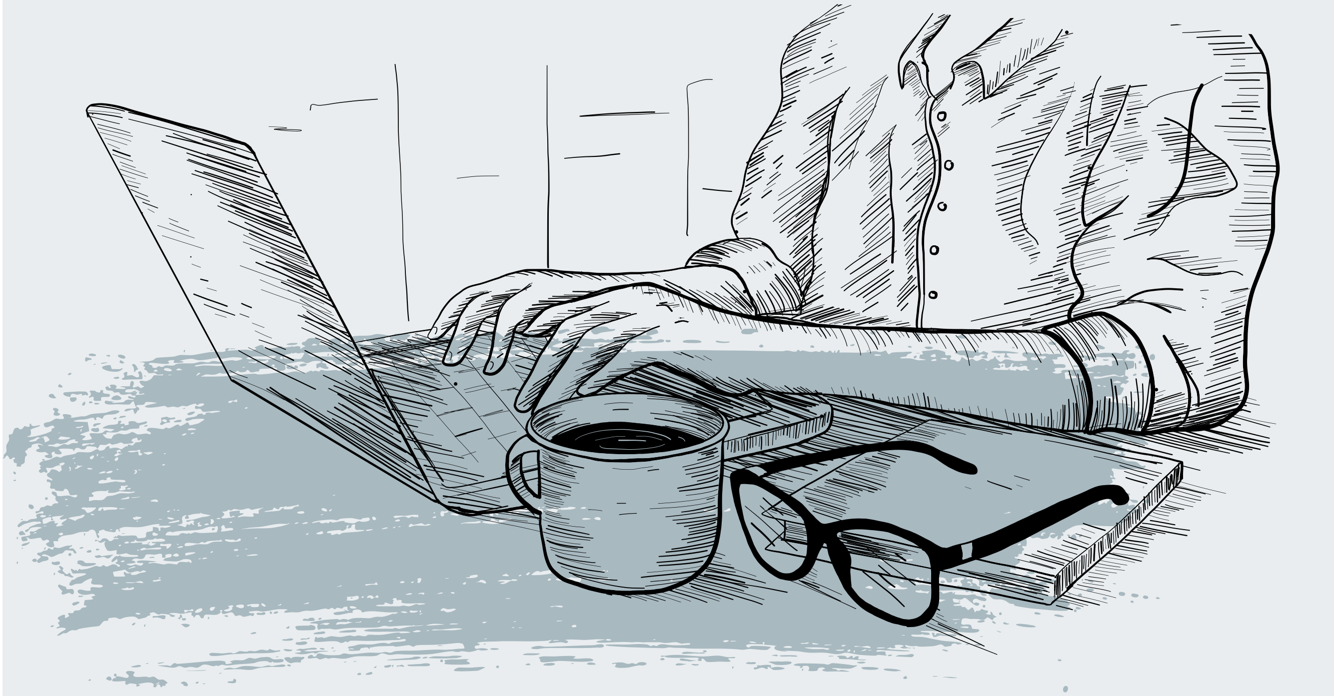

(١) «شرح النوويِّ على مسلم» (١١/ ٥٤).

(٢) ينظر: «شرح صحيح البخاريِّ» لابن بطَّال (٨/ ٣٤٧).

اتباع

١ علم الفرائض والمواريث علمٌ مهمٌّ يحتاج إليه المسلمون، ويجب أن يَنتبِه إليه طلبةُ العلم والدارسون.

٢ لا يجوزُ أن يتجرَّأ على تقسيم المواريث إلا عالمٌ بأحكام الفرائض، بارعٌ في الحساب وتقسيم الفروض.

٣ لا بُدَّ أن يُقابَلَ شرعُ اللهِ تعالى في المواريث بالرِّضا التام والإيمانِ بالحكمة الإلهيةِ، وذلك مُقتضى الإيمان.

٤ تقسيمُ الميراث شرعٌ شَرَعَه اللهُ عزَّ وجل، لا يجوز لمسلمٍ أن يَعترِض عليه أو يتأفَّف منه، فضلًا أن يَقسِم شيئًا منها وَفْق هواه.

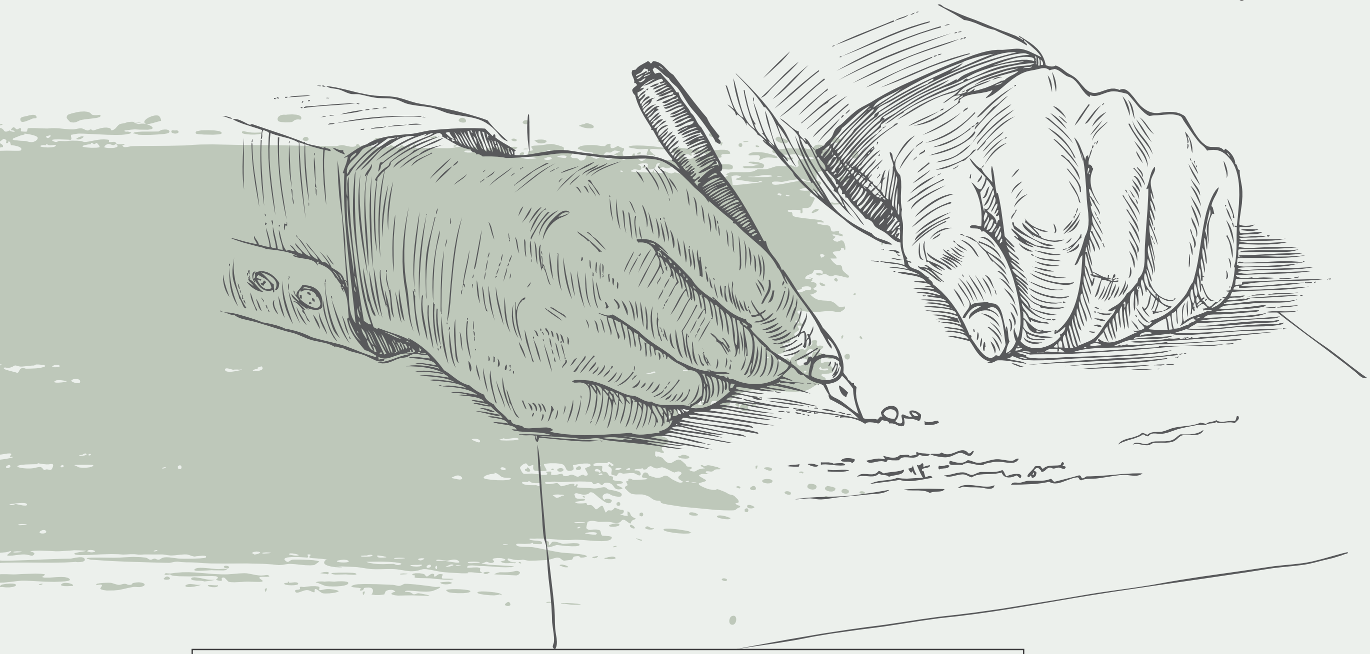

قال الشاعر:

أموالُنا لذَوِي الْمِيراثِ نَجمَعها ... ودَارُنا لخَـرَابِ البُـومِ نَبنِيها
لا دارَ للمَرْءِ بعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُها ... إلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ يَبْنِيها
فمَنْ بَنَاهَـا بخَـيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهُ ... ومَنْ بَنَاهَـا بشَـرٍّ خَابَ بَانِيها

1000

المسكرات

عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه

١ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرِبَةٍ تُصْنَعُ بِهَا، فَقَالَ: «وَمَا هِيَ؟» قَالَ: البِتْعُ وَالْمِزْرُ، فَقُلْتُ لِأَبِي بُرْدَةَ: مَا البِتْعُ؟ قَالَ: نَبِيذُ العَسَلِ، وَالْمِزْرُ نَبِيذُ الشَّعِيرِ،

٢ فَقَالَ: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»[(١)].

(١) البخاريُّ (٤٣٤٣).

آيات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾

[المائدة: ٩٠، ٩١]

الراوي

هو: عبدُ الله بن قَيس بن سليم بنِ حُضَّارِ بنِ حرب بنِ عامرِ بن الأشعريّ، أبو موسى الأشعريُّ، الإمام الكبير، الفقيه، صاحب رسول الله ﷺ، أقرأُ أهل البصرة، ذو الهجرتَين: هجرةِ الحبشة والمدينة، أُعطِيَ صوتاً وتلاوة حسنة، تُوفِّي سنةَ: (٥٠هـ)[(٢)].

خلاصة

العِلَّة في الخمر الإسكار وإذهاب العقل، فكلُّ ما يُذهب العقلَ حرامٌ، سواءً كان من العنب أو غيره.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ١٧٤٩)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٦٢)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٥/ ٣٠٦).

فقه

١ لمَّا عاد أبو موسى الأشعري ﵁ من بعثته إلى اليمن حيث أرسله النبيُّ ﷺ، سأل النبيَّ ﷺ عن حُكم بعض الأشربة التي يشربها أهلُ اليمن، كالبِتع والمِزر، والبِتعُ –كما فسَّره أبو بردة ابن أبي موسى الأشعري ﵁ لابنه سعيد فقال–: البِتْعُ: نبيذُ العَسَل، والمِزْرُ: نبيذُ الشَّعير، وقيل: نبيذُ الحنطة والشعير.

والنَّبيذُ: ما يُنبذ في الماء من التمر أو العنب أو العسل أو غيرها، يُوضع في الماء ويُترك مُدَّةً ثم يُشرب، سواءً كان مُسْكِرًا أم لا.

٢ فأجابه النبيُّ ﷺ بجوابٍ جامعٍ يشمل جميع الأشربة، لا هذين الشرابين فحسب، حيث أناط النبيُّ ﷺ الحُكم بالإسكار، فما كان مُسكرًا من الطعامِ أو الشرابِ فهو حرامٌ، سواءً كان من العسل أو التمر أو العنب أو الشعير أو غيرها، وسواءً كان جامدًا أم سائلًا أم مسحوقًا، مهما اختلفت الأسماءُ وتعددت الأوصاف.

وإنَّما سُمِّيت الخمرُ خمرًا لأنها تُغطِّي العقلَ وتُذهبه كما يُغَطِّي الخمارُ الرأسَ، فدلَّ هذا على أنَّ ما شابهها في العلة يستحقُّ نفسَ الحكم، وهو مقتضى قوله ﷺ: «كلُّ مسكرٍ حرامٌ».

والحديثُ يردُّ على من قَصَر التحريم على الخمر المتخذة من العنب فحسب. ويشهد لذلك أنَّ تحريم الخمر حين نزل لم يكن أهلُ المدينة يشربون خمر العنب، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ، وَإِنَّ فِي المَدِينَةِ يَوْمَئِذٍ لَخَمْسَةَ أَشْرِبَةٍ مَا فِيهَا شَرَابُ العِنَبِ»[١].

ولا فرق في ذلك بين الشديد الذي يُسكر القليلُ منه وبين الضعيفِ الذي لا يُسكر إلا إذا تناول الإنسانُ الكثيرَ منه؛ قال ﷺ: «ما أسكر كثيرُه فقليلُه حرام»[٢]. وإنما حرِّم القليل الذي لا يُسكِر؛ لأنه ذريعةٌ إلى الْمُسكِر، وهذا من باب سدِّ الذرائع، ومنع الأشياء التي توصل إلى الغايات، فالقليل وإن كان لا يُسكِر فإنه حرام[٣].

(١) البخاري (٤٦١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥٦٤٨)، وأبو داود (٣٦٨١)، والترمذيُّ (١٨٦٥)، وابن ماجه (٣٣٩٣).

(٣) «فتح القوي المتين» للعباد (ص ١٤٧).

اثرائي

١ (١) ينبغي على كلِّ مسلم أن يحتاط لدينه، فلا يأتي أمرًا إلا وقد علم أنه حلالٌ لا يعاقبه الله عليه، وقد حرص الصحابةُ رضوان الله عليهم على ذلك، ولهذا بادر أبو موسى ﵁ إلى سؤال النبيِّ ﷺ عن تلك الأشربة.

٢ (١) يجب على المستفتي أن يبين الأمرَ المسؤول عنه، بحيث يقفُ المفتي على حقيقته، وتوافق فتواه حكمَ الله تعالى فيه.

٣ (١) الأصلُ في المطعومات والمشروبات الحِلُّ، إلا أن يأتي دليلٌ على تحريم شيءٍ بعينه، فإن لم تجد دليلًا على تحريم طعامٍ أو شرابٍ فهو حلالٌ مباحٌ.

٤ (٢) حفظُ العقل من مقاصد الشريعة الإسلامية، ولهذا حرَّمت كلَّ ما يُذهبه أو يُعطِّله، وأشدُّ تلك الأمور الخمرُ فإنها تضرُّ البدنَ وتُذهِبُ العقل.

٥ (٢) مهما تغيرت الأسماء فالحكمُ ثابتٌ، فالخمرُ والحشيشُ والقاتُ ونحوها لها نفسُ الحكم لاشتراكها في العلة، فلا تتحايل على اللهِ تعالى بتغيير الأسماء.

٦ (٢) علَّة تحريم الخمر أنَّها تُذهب العقلَ الذي هو مناط التكليف والتفكير، فإذا غاب العقلُ غاب الحاجزُ عن المعاصي والشهوات، وطاش تصرُّف الإنسانِ بما يُوقِعُه في العداوة مع النَّاس[١].

٧ (٢) كيف تُسَوِّل لك نفسك شربَ الخمر فيذهب عقلك ويغفل عن ذكر اللهِ تعالى والتفكر في نِعَمه وآياته؟! قال بعضُ السَّلف: إنَّ شارب الخمر تمرُّ عليه ساعةٌ لا يعرف فيها ربَّه، واللّه سبحانه إنّما خَلَق الخلق ليعرفوه، ويَذكُروه، ويعبدوه، ويُطيعوه، فما أدَّى إلى الامتناع من ذلك، وحال بين العبد وبين معرفة ربِّه وذكره ومناجاته، كان محرَّمًا[٢].

٨ (٢) من أعظم العقوبات التي ينالها مدمن الخمر أنَّه يُحرم شربَ خمر الجنة إذا دخلها، قال ﷺ: «مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ»[٣].

٩ (٢) شاربُ الخمر إن لم يتب منه سقاه الله من عُصارةِ أهل النار وصديدهم، قال ﷺ: «كُلُّ مُخَمِّرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ مُسْكِرًا بُخِسَتْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ كَانَ حَقًّا

---

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٤٥٧).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٤٥٧).

(٣) البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).

عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ»، قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ، وَمَنْ سَقَاهُ صَغِيرًا لَا يَعْرِفُ حَلَالَهُ مِنْ حَرَامِهِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ»[1].

١٠ (٢) ينبغي على الداعية والفقيه أن يكون ذكيًّا، يُجيب السائلَ بما ينفعه، فإن رأى الاقتصارَ على جواب سؤاله من غير زيادةٍ أنفع اكتفى به، وإن رأى الزيادةَ عليه زاد.

١١ (٢) قيل للعبَّاسِ بنِ مِرْدَاسٍ السلميِّ - وقد تنزَّه عن الخمر في الجاهلية وتركها -: لِمَ تركتَ الشَّرَابَ وهو يَزِيدُ في جُرأتِكَ وسماحتك؟ فقال: أكرَه أن أُصبح سيِّدَ قومي وأُمسي سَفِيهَهم[2].

١٢ (٢) الخمرُ أمُّ الخبائث، إذا شربها الإنسانُ تطاولت به إلى الزنا والسرقة والقتل، وربَّما تلفَّظ بالكفر من غير أن يدري.

١٣ (٢) قال ﷺ: «كان رجلٌ ممَّن كان قبلكم يتعبَّدُ ويعتزِلُ النَّاسَ، فعلَقَتْه امرأةٌ فأرسلت إليه خادمًا: إنَّا ندعوك لشهادةٍ، فدخل فطفقَت كلَّما يدخلُ بابًا أغلقته دونه، حتَّى إذا أفضَى إلى امرأةٍ وضيئةٍ جالسةٍ وعندها غلامٌ وباطيَّةٌ فيها خمرٌ، فقالت: إنَّا لم ندعوك لشهادةٍ ولكن دعوْتُك لقتلِ هذا الغلامِ أو تقعُ عليَّ أو تشربُ كأسًا من الخمرِ، فإن أبيتَ صِحتُ بك وفضحتُك، فلمَّا رأى أنَّه لا بدَّ له من ذلك قال: اسقيني كأسًا من الخمرِ، فسَقَته كأسًا من الخمرِ، فقال: زِيديني، فلم تزَلْ حتَّى وقع عليها وقتل النَّفسَ»[3].

قال قال قيس بن عاصم رضي الله عنه:

وجدتُ الخَمْرَ جامحةً وفيها	خصالٌ تَفضَحُ الرجلَ الكريما
فـلا واللهِ أَشْـرَبُها صحيحًا	ولا أدعـو لهـا أَبـدًا نديمَا
وَلا أُعْطـي لهـا ثَمَنًا حـياتي	ولا أَشْـفِي بهـا أَبَدًا سَـقِيمَا
فإنَّ الخمـرَ تَفْضَحُ شـاربيها	وتَجْشَـمُهُمْ بها أَمرًا عَظِـيمَا
إِذَا دَارَتْ حُـمَيَّاهَا تَعَلَّـتْ	طَـوَالِعُ تَسْـفَهُ الرَّجُلَ الحَلِيمَا

(١) أبو داود (٣٦٨٠).

(٢) «نهاية الأرب في فنون الأدب» لشهاب الدين النويريِّ (٤/ ٨٩).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٣٤٨).

الحديث ٨٢

الاعتدال في الطّعام

عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

١ «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ.

٢ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ،

٣ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»[1].

(١) أحمد (١٧١٨٦)، والنسائيُّ (٦٧٣٧)، والترمذيُّ (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩).

آيـــات

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

الرّاوي

هو: المقدامُ بنُ مَعْدِي كَرِبَ بنِ عمرٍو الكِنْديُّ، أبو كريمةَ، صاحبُ رسول الله ﷺ، وَفَد على النبيِّ ﷺ، وأقام أربعين يومًا بالمدينة، نَزِيل حِمْصَ، روى عنه يحيى والحسن ابنا جابر، وعبد الرحمن بن أبي عوف، وسكن بحمص، توفِّي بالشام وهو ابن إحدى وتسعين سنةَ (٨٧هـ)[1].

خلاصة

امتلاء البطن بالطعام فيه ضررٌ كبير، يكفي المسلم من الطعام ما يسدُّ الجوع ويمنحه النشاط في العمل.

(١) تراجع ترجمته في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٤٨٢)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٥/ ٢٤٤)، «تاريخ الإسلام» للذهبيِّ (٢/ ١٠٠٩).

فقـــه

١ حذَّر النبي ﷺ من خطورة امتلاءِ البطنِ بالطعام؛ فإنَّ أكثرَ الأمراضِ حاصلةٌ بسبب ذلك، فضلًا عن أنَّ الإنسانَ إذا امتلأت معدته بالطعام تكاسل عن الطاعات، وفتر عن أداء عمله، وضعف العقل عن التفكُّر.

٢ ولهذا نَدَب النبي ﷺ أُمَّته إلى أن يكتفوا بلُقماتٍ تسدُّ جوعَهم، وتحفظهم عن السقوط والضعف، ويتقوى بها المسلم على العبادات وأنواع الطاعات.

٣ فإن عجز المسلمُ عن ذلك وأبى أن يستزيد من الطَّعام، فليجعل بطنه أثلاثًا؛ يملأ ثلثٌ بالأكلِ، وثلثٌ للشَّرَاب، ويترك ثُلُثًا للنَّفَس، فإنَّ البطن إذا امتلأ بالطعام والشَّراب، ضاق على النَّفَس، فيعَرَض له الكَرب والتَّعَب بحِمْله، بمنزلة حامل الحِمل الثقيل.

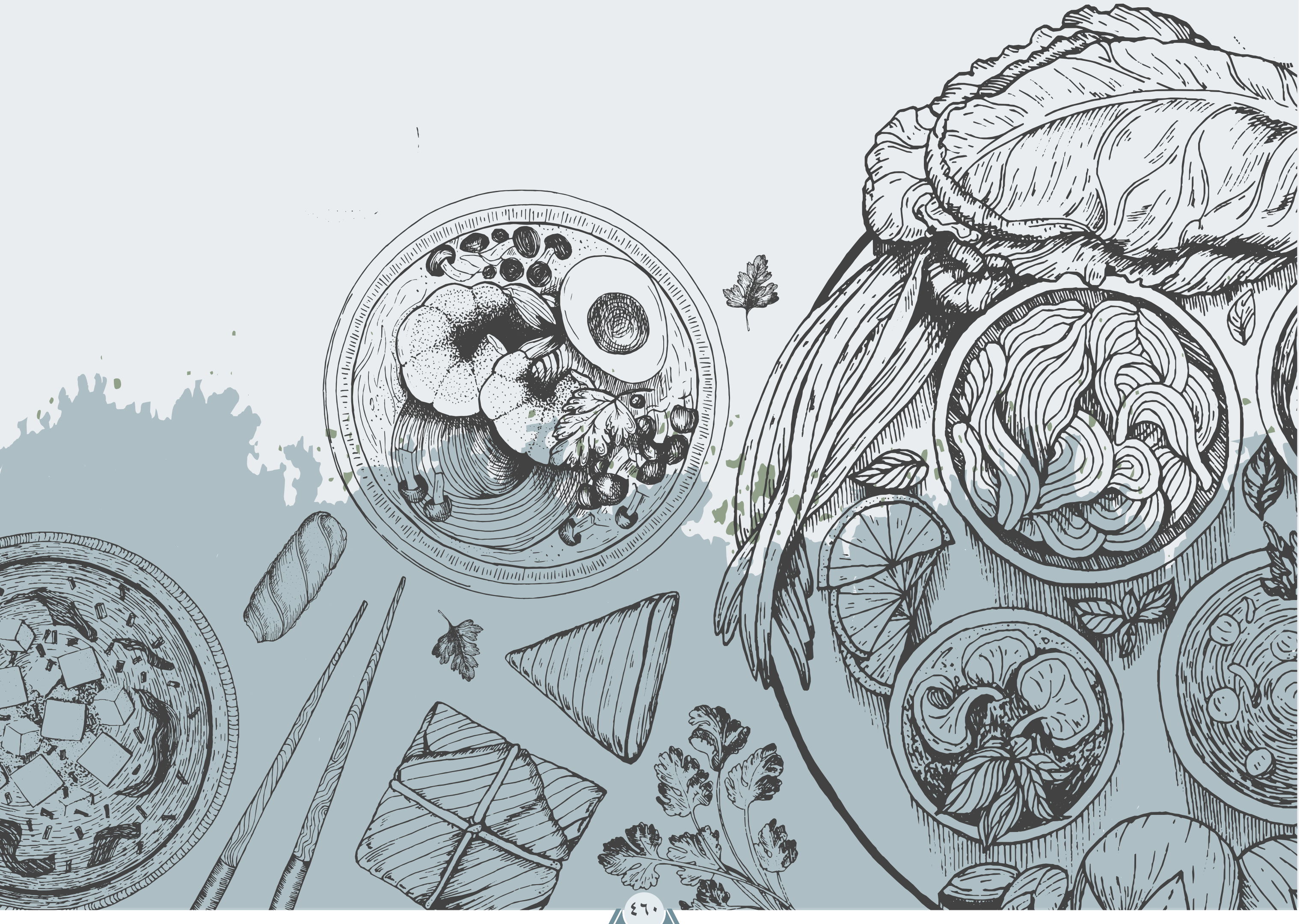

اتّباع

١ (١) الطبُّ النبويُّ يحرص على وقاية المسلم من الأمراض، وليس علاجها فحسب.

٢ (١) إياك وملأ معدتك بالطعام؛ فإنَّها سببُ كلِّ رذيلة، قال لقمان الحكيم رحمه الله لابنه: «يا بُنيَّ، إذا امتلأت الْمَعِدة، نامت الفكرة، وخَرَست الحكمة، وقَعَدت الأعضاء عن العبادة»(١).

٣ (١) شهوةُ البطنِ من الشهوات التي تُردي الإنسانَ في المحذورات، وبسببها أغوى إبليسُ اللعين آدمَ عليه السلام وزوجته حين أكلا من الشجرة.

٤ (٢) قلة الأكل من محاسن الرجال، وكانت العربُ تمتدح الرجلَ الذي يأكل قليلًا، فكيف بأهل الإيمان؟!

٥ (٢) يكفيك ما يُقيم صُلبَك ويسدُّ جوعك من الطعام والشراب، وإياك والتُّخَمة.

٦ (٢) اعتاد النبيُّ ﷺ وأصحابَه رضوان الله عليهم ألَّا يأخذوا من الطَّعام إلا ما يحفظ البدنَ، ولهذا استوى في أعينهم الغث والسمين؛ مَرَّ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ - أي مَشْويَّة - فَدَعَوْهُ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ، وَقَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ»(٢).

٧ (٢) اجعل هِمَّتك في معالي الأمور لا في امتلاءِ بطنك بالطَّعام، فهذه غايةُ الكافرين الذين قال سبحانه في حقهم: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

٨ (٣) أقصى ما تصل إليه أن تملأ ثُلُثَ معدتك بالطَّعام؛ لتجعل للشراب والنَّفَس مسلكًا.

٩ (٣) رُوي أن ابن ماسوَيْهِ الطبيبَ لَمَّا قرأ هذا الحديث في كتاب أبي خيثمة، قال: لو استَعمَل الناس هذه الكلمات، سَلِموا من الأمراض والأسقام، ولتعطَّلت المارستانات ودكاكين الصيادلة، وإنما قال هذا؛ لأن أصل كل داء التُّخَم(٣).

١٠ (٣) المسلمُ يأكل ما يُقيمُ بدنه ويسدُّ جوعَه، والكافرُ يتلذَّذ بالأكل ولا يشبعُ منه، قال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ»(٤).

قال الشاعر:

ثـلاثٌ هنَّ مَهْلَكةُ الأنامِ ... وداعيةُ الصَّحيحِ إلى السَّقامِ

دَوَامُ مُـدَامةٍ ودَوَامُ وَطْءٍ ... وإدخالُ الطَّعَامِ على الطَّعَامِ

(١) «إحياء علوم الدين» للغزاليِّ (٣/ ٨٢).
(٢) البخاريُّ (٥٤١٤).
(٣) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٤٦٨).
(٤) البخاريُّ (٥٣٩٣)، ومسلم (٢٠٦٠).

الحديث ٨٣

حُرمة الدِماءِ، والأموالِ، والأعراض

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ﵄ أنَّ رسولَ الله ﷺ خطَبَ النَّاسَ في الحجِّ فقال:

١ «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا،

٢ أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ،

٣ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ،

٤ وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا؛ رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ،

٥ فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ،

٦ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،

٧ وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابُ اللهِ،

٨ وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[(١)].

(١) مسلم (١٢١٨).

آيات

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

الراوي

هو: أبو عبد الله، جابرُ بنُ عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاريُّ، ثم السَّلِميُّ، شهد العقبة الثانية وهو صبيٌّ مع أبيه، وكان والده من النُّقباء البدريين، وكان آخِرَ مَن شهد ليلة العقبة الثانية موتًا، وقيل: شهد بدرًا وأحدًا، وشهد صِفّين مع عليِّ بنِ أبي طالب ﵁، وهو مُفتي المدينة في زمانه، تُوفي سنة (٧٨هـ)[(٢)].

خلاصة

يخطُب النبيُّ ﷺ في أصحابه خُطبة الوداع، فيُذكِّرهم بحرمة الدماءِ والأموال، وينهاهم عن عاداتِ الجاهلية وأعرافِها الباطلة، ويهدِم منها ما خالَف الدِّين، بادئًا بأهله وأقاربه، ثم يُوصِي بالنِّساء خيرًا، ويحُضُّ على التمسُّك بكتاب الله تعالى.

(١) تُراجع ترجمته في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٢١٩)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ٣٠٧)، سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٣/ ١٩٠).

حرَص النبيُّ ﷺ على نشرِ الدِّينِ وتبليغِ أحكامه، ولهذا أوصى أُمتَه بوصايا جامعةٍ في خُطبة حَجة الوداع التي ألْقاها يومَ عَرفةَ أمام مَشهَدٍ من أصحابه الذين حجُّوا معه، وبلَغ عددهم مائة ألفِ صحابيٍّ أو أكثر.

١ وقد استهلَّ ﷺ خُطبته بعْد الحمد لله والثَّناء عليه بتَحريم دماءِ المسلمين وأموالهم؛ فلا يجوزُ لمسلمٍ أن يَقتل مسلمًا ظُلمًا، ولا يحِلُّ له أن يَأخذ مِن ماله بغير وجهِ حقٍّ؛ لقوله ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»(١).

وبدأ ﷺ بالدماء لأنها أعظمُ حُرمةً من المال، ولهذا توعَّد اللهُ تعالى قاتلَ المؤمنِ عمدًا بما لم يتوعَّدْ به غيرَه، فقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣]، وجعلَه ﷺ مِن المُوبقات(٢)، وشدَّد ﷺ على ذلك فقال: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى الله أَنْ يَغْفِرَهُ؛ إِلَّا الرَّجُلُ يَقْتُلُ الْمُؤْمِنَ مُتَعَمِّدًا، أَوْ الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا»(٣).

وقد أكَّد ﷺ تحريمَ الدماء والأموالِ بتَشبيهها بحُرمةِ يومِ عرَفة وحُرمةِ الشهر الحرام وحُرمةِ مكّة، ومع أنَّ حُرمةَ الدماء والأموال أعظمُ مِن ذلك، إلا أنَّ النبيَّ ﷺ خاطَبهم بذلك لأنهم كانوا يَعتقِدون تعظيمَ الأشهرِ الحُرُم، وأجلُّها يومُ عرَفة، ويَعتقدون أيضًا حُرمةَ البلدِ الحرام؛ فقد كانوا يَستبيحون في الجاهلية الدماءَ والأموالَ في غيرِ الأشهر الحُرُم، وفي غيرِ البلد الحرامِ، ويحرِّمونها فيها، فكأنه قال: حَرِّموا على أنفسكم دماءَ بعضكم وأموالَهم، كما تُحَرِّمون الشهرَ الحرامَ والبلدَ الحرام(٤).

٢ ثم أخبرَ ﷺ أنَّ جميع ما ابتدَعه أهلُ الجاهلية مِن الشرائعِ والعبادات باطلٌ مردودٌ لا عِبرةَ به، سواءً في مَناسك الحجِّ أو غيرها؛ فالشرعُ ما شرَعه اللهُ تعالى وبيَّنه رسولُه ﷺ، قال جلَّ جلالُه: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

(١) مسلم (٢٥٦٤).

(٢) البخاريُّ (٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

(٣) رواه النسائي (٣٩٨٤).

(٤) «الكاشف عن حقائق السنن» للطِّيبيِّ (٦/ ١٩٦٤، ١٩٦٥).

٣ ثم قَضى ﷺ أنَّ الدماء التي سالتْ في الجاهلية هَدْرٌ لا يُؤخَذ بها؛ فلا ديةَ ولا قصاصَ ولا كفَّارة، فلا يُطالِب أحدٌ بشيءٍ من ذلك. وبدأ ﷺ بنفسه وأهلِه فأهدر دِيةَ ابنِ ربيعةَ بن الحارثِ بن عبد المطَّلِب، وقد كان طفلًا مُسترضِعًا في بَني سَعدٍ، قَتلتْه قبيلةُ هُذيل خَطأً أثناء حَربِها على بَني سعد.

٤ وأبطَل كذلك آثار التعامُلات الرِّبوية التي نشَأت في الجاهلية، فمَن كان قد تَعامَل بالربا قبْل الإسلام ولم يَقبِض، فإنَّه يأخُذ أصلَ ماله ويَترُك الزيادة، أما إن كان قد تَعامَل بالربا وقبَض قبْل إسلامه ثم أسلَم، فإن الإسلامَ يَلْقاه بالعفو، والإسلامُ يَجُبُّ ما قبلَه[١].

وإلَّا فقد ثبَت تحريمُ الربا مِن قبلُ، وترَكه المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، وأكلُ الربا مِن الكبائر، وذكَره النبيُّ ﷺ في المُوبِقات[٢]، وقال جابرٌ رضي الله عنه: لعَنَ رَسولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبا، ومُؤْكِلَه، وكاتِبَه، وشاهِدَيْه، وقال: «هُم سَواءٌ»[٣].

وبدأ ﷺ بإبطالِ رِبا عمِّه العبَّاس رضي الله عنه، وقد كان العبَّاس يُسلِف في الجاهلية بالرِّبا، فجاء الإسلامُ وله مالٌ عظيمٌ من الرِّبا، فضلًا عمَّا له عند النَّاس منه، فأبطَل النبيُّ ﷺ ما له على النَّاس منه، وأباح له ما كان أخَذه قبْل ذلك[٤].

٥ ثُمَّ أوصى ﷺ بالنِّساء، فأمر بالإحسانِ إليهنَّ ومعاملتِهنَّ معاملةً كريمةً، ومراعاةِ طبيعةِ المرأةِ وشُعورها، وتلبيةِ احتياجاتها، وقد قال ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاء؛ فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ» متفق عليه[٥]، ورغَّب ﷺ في حُسن العِشرة بقوله: «خَيْرُكُم خَيْرُكُم لأهْلِهِ، وأنا خَيْرُكم لأهْلِي»[٦]، حتى إنَّه ﷺ جعَل النفقة على الأهلِ

---

(١) انظر: «معالم السنن» للخطابي (٣/ ٥٩).

(٢) البخاريُّ (٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

(٣) مسلم (١٥٩٨).

(٤) انظر: «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي (١/ ٢٤٨).

(٥) البخاريُّ (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

(٦) الترمذيُّ (٣٨٩٥)، ابن ماجه (١٩٧٧).

قُربَةً ينال المسلمُ بها أجرًا، فقال ﷺ: «وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ»[1].

وعلَّل ﷺ تلك الوصيَّة بأن المسلِمَ إنَّما أخَذها واستحلَّ فَرْجها بعَهدِ الله وشرعِه في الزواج، فمَن نَقَض عهدَ اللهِ تعالى فيهنَّ استحقَّ عقابه وغضَبَه.

٦ ثم ذكَر ﷺ مِن حقوق الرجلِ على امرأتِه: ألَّا تأذَن لأحدٍ أيًّا كان في دخولِ بيته مِن غيرِ إذنه الصريحِ أو الضِّمني، وهو أن تظُنَّ أن دخولَ ذلك الشخصِ بيتَه لا يؤذِيه، فإنْ خالفَت ذلك فللزوجِ أن يؤدِّبها بما يَلِيق بحالها من الهجْرِ والضربِ غير المؤلِم الذي لا يَكسِر ولا يَجرح.

وكما جعَل اللهُ سبحانه للرجُل حقًّا على امرأته، فكذا جعَل لها عليه حقًّا، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. ومن حقِّها على الرَّجل: الإنفاقُ في المأكل والمشرب والسُّكنى والملبَس، وذلك بحسب استطاعته ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

٧ ثم ذكَر النبيُّ ﷺ أنَّه قد ترَك في المؤمنين شيئًا إنْ تمسَّكوا به وعمِلوا بأحكامه وشرعِه، أخَذوا بسُبُل الهدى والرَّشاد وما ضلُّوا أبدًا، وهو كتابُ اللهِ تعالى الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وأخبَر ربُّنا تبارك وتعالى عنه بقوله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢]. ولم يذكرِ السُّنَّة؛ لأنَّ القرآنَ مُشتمِلٌ على العملِ بها، فيَلزَمُ مِن العملِ بالكتابِ العملُ بالسُّنَّة.

٨ ثم أخبرَ ﷺ أصحابَه رضوانُ الله عليهم أنهم سيُسألون عنه، فهُم شُهداءُ على إبلاغِه دعوةَ ربِّه، فماذا يقولون حينئذٍ؟ فأخبروه أنهم يَشهَدون أنَّه قد بلَّغ رسالةَ ربِّه وأدَّى أمانتَه ونصَح لأُمَّتِه. فأشار النبيُّ ﷺ إلى السَّماء بيده ثم يرُدُّها إلى أصحابه، ويقول: اللهم اشْهَد على قومي؛ فإنَّهم يُقرِّون بأنِّي قد أدَّيت وبلَّغتُ.

---

(١) البخاريُّ (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

اتّباع

١ (١) حُرمةُ دمِ المسلمِ عظيمةٌ عند الله تعالى، قال ﷺ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ»[١]، فلا يجوز لمسلمٍ أن يُقدِمَ على إراقتِها بغيرِ وجهِ حق.

٢ (١) شدَّد النبيُّ ﷺ في حقِّ الدِّماء حتى ذكَر أنَّها لا تُغفر، فقال ﷺ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى الله أَنْ يَغْفِرَهُ؛ إِلَّا الرَّجُلُ يَقْتُلُ المُؤْمِنَ مُتَعَمِّدًا، أَوْ الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا»[٢]، مع أنَّ القتلَ كغيرِه من الذنوب داخلٌ في المشيئة، إنْ شاء اللهُ غفَر لصاحبه، وإن شاء عذَّبه. وهذا مِن تَهويل الذنْب وبيان مَدى استحقاقِ صاحبِه العذابَ الأليم.

٣ (٢) لا يجوز للمسلمِ أن يجعَل اعتقادَه وحُكمَه إلى أمور الجاهليَّة، ويُحِلَّ ما أحلُّوا، ويُحَرِّم ما حَرَّموا.

٤ (٢) دلَّ الحديثُ على أنَّ ما صنَعه الإنسانُ قبل إسلامِه مَغفورٌ معفوٌّ عنه، فإنْ أخذ مالًا مِن حرامٍ قبْل إسلامِه فهو حلالٌ له بعْد الإسلامِ، أما إنْ أقرَض بربًا أو باع خمرًا أو خِنزيرًا أو ميتةً أو نحو ذلك، ولم يَقبِض المالَ حتى أسلَم، فلا يجوزُ له أخذُ الربا أو ثمَنَ المُحَرَّم.

٥ (٣، ٤) على الإمام والداعية والمُرَبِّي أن يكون قُدوةً بنفسه في الأمر والنهي، فإذا أمَر بمعروفٍ كان أوَّلَ الفاعلِين، وإنْ نهى عن مُنكرٍ كان أوَّل المجْتنِبين؛ فإنَّ ذلك أقربُ إلى قَبولِ قولِه وأمكنُ في الاستجابةِ له.

٦ (٥) على المسلمِ أن يُحسِن إلى زوجتِه ويتَّقِيَ اللهَ سبحانه فيها، ويعاشِرَها بالمعروف، ويصبِر عليها، ويَتغافَل عن بعضِ هَفَواتها.

٧ (٥) كان النبي ﷺ نِعمَ القدوةُ في معاشَرةِ أهلِه والإحسان إليهنَّ؛ فقد كان إذا هَوِيت عائشة رضي الله عنها شيئًا لا مَحذورَ فيه تابَعها عليه، وكانت إذا شَربت من الإناء، أخَذه فوضَع فمَه في موضع فَمِها وشَرِب، وكان إذا تعرَّقت عَرْقًا - وهو العظمُ الذي عليه لحم - أخَذه فوضَع فمَه موضع فمها، وكان يتَّكِئ في حِجرها، ويقرأ القرآن ورأسُه في حِجرها[٣].

٨ (٦) على المرأةِ أن تراعي حقَّ زوجِها، فلا تُدخِل مَن يَكرهُه بيتَه إلا بإذنه، حتى وإن كان أباها أو أُمَّهَا. ولمَّا دخَل أبو سفيان رضي الله عنه قبْل إسلامِهِ على ابنته أمِّ حَبيبةَ رضي الله عنها حين نقَضت قريشٌ صُلح الحديبية، هَمَّ بالجلوس على فِراش

---

(١) ابن ماجه (٢٦١٩).

(٢) رواه النسائي (٣٩٨٤).

(٣) «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم (١/ ١٤٦).

النبيِّ ﷺ، فشدَّت أمُّ حبيبةَ رضي الله عنها الفِراش من تحته، وقالت: أنت مُشرِكٌ نجسٌ، وهذا فِراشُ النبيِّ ﷺ، فلم أحِبَّ أن تجلسَ عليه[1].

٩ (٦) إذا كان على المرأة ألَّا تُدخِل أحدًا إلى بيت زوجها إلا بإذنِه، فلا يجوزُ للزوجِ أن يَستغِلَّ ذلك الحقَّ في منعها مِن زيارة أهلِها أو مَجيئهم إليها.

١٠ (٦) إذا عَصَت المرأةُ زوجَها جاز له أن يَضرِبها، لكنَّه ضربُ تأديبٍ لا عِقاب؛ فلا يَضربها ضربًا مُوجِعًا، وإنما يَضرِبها بسواكٍ ونحوه، فليس الغرَضُ إيذاءَ المرأة ولا إهانتَها؛ وإنما إشعارُها بأنها مخطئة في حقِّ زوجها، وأن لزَوجِها الحقَّ في إصلاحها وتقويمِها.

١١ (٦) إذا لم ترتدِع المرأةُ بعد ضَرْب الزوج لها، فلا يتمادى في الضَّرب، وإنما يبعثُ إلى أهلها مَن ينصحها ويُرشِدها إلى طاعته.

١٢ (٦) للزوجةِ على زوجها أن يُنفِق عليها ويَكفِيها احتياجاتِها من المأكل والسُّكنى والملبَس، على قدرِ استطاعته، فلا تُكلِّفه ما لا يَقدِر عليه.

١٣ (٦) إذا امتنَع الزوجُ عن الإنفاق على امرأتِه، أو بَخِل في الإنفاق عليها مع استطاعته، جازَ لها أن تأخُذَ من مالِه ما يكفيها سِرًّا؛ لقول النبيِّ ﷺ لهندٍ رضي الله عنها حين اشتكَت بُخلَ أبي سُفيانَ رضي الله عنه: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ»[2].

١٤ (٧) مَن أراد الرَّشادَ والهدايةَ والصلاحَ فلْيَلزَمْ كتابَ اللهِ تعالى؛ فهو مُرشِد الحائرينَ والضياءُ للسائرينَ.

١٥ (٧) كما أنَّ القرآنَ يَهدي النَّاس إلى الحقِّ والرَّشاد، فإنَّه كذلك يَرفعُ أصحابَه في الدُّنيا والآخرة، فمَن أراد الرِّفعةَ فعليه بمُدارسَتِه والعملِ به، وقد قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[3].

١٦ (٨) التفريطُ في تبليغ الدِّين جُرْمٌ عظيمٌ، ولهذا سُرَّ النبيُّ ﷺ بشَهادةِ أصحابه له بالبلاغ، وأشْهدَ اللهَ تعالى على ذلك. وقد تحمَّلَتْ أُمَّتُنا تلك المَهمَّة، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فالحذرَ مِن التفريطِ في أدائها.

(١) انظر: «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء» لابن حبان (١/ ٣٢٢)، «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٥/ ٢٠٦).

(٢) البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤).

(٣) مسلم (٨١٧).

تجنُّب الأَذَى

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

١ «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ،

٢ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»[1].

(١) البخاري (١٠).

آيــــات

- ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].
- ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١].
- ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧].

الرَّاوي

هو: عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ العاصِ بنِ وائلٍ، القرشيُّ، السهميُّ، أبَو محمَّدٍ، وقيل: أبو عبد الرحمن، كان يَكتُب في الجاهلية، ويُحسن السريانية، أسلَم قبلَ أبيه، وكان يصوم النهار، ويقوم الليل، من فقهاء الصحابة ومحُدِّثيهم، تُوفي سنةَ (٦٥هـ)[1].

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ المسلمَ الحقَّ مَن سَلِم المسلمون مِن أذاه، والمهاجر بصدقٍ مَن هَجَرَ المعاصي والذنوب.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٧٢٠)، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ٩٥٦)، و«أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٢٤٥).

فقه

١ المسلمُ الحقُّ هو الذي كفَّ شرَّه عن النَّاس، فسَلِم المسلمون مِن أذاه القولي والفعلي، وقد توعَّد سبحانه مَن آذى المؤمنين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧، ٥٨].

وليس معنى الحديثِ انتفاءَ الإسلام عمَّن يؤذِي المسلمين، بل المرادُ كمالُ الإسلام؛ فمَن لم يَسلَم المسلِمون مِن لسانه ويدِه، فإنه يَنتفي عنه كمالُ الإسلام الواجبِ، فإن سلامةَ المسلمين مِن لِسان العبدِ ويده واجبةٌ، فإنَّ أذى المسلم حرامٌ باللسان وباليد، فأذى اليدِ: الفعل، وأذى اللسانِ: القولُ»(١).

وليس الأذى محصورًا في اليد واللسان، بل يَحصل بجميعِ الأعضاء، وإنما الغالبُ في ذلك أفعالُ اللسان واليد؛ فاللسان يَغتابُ ويسُبُّ ويَشهد زُورًا ويَقذف، واليد تَبطِش وتسرِق وتَقتل ونحو ذلك.

وإنَّما بدأ ﷺ باللسان لأنَّه أشدُّ نكايةً، والإيذاءُ به أسهلُ وأكثر، ويطُولُ الأمواتَ والأحياءَ، ولهذا لمَّا قال معاذٌ رضي الله عنه: يا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ ﷺ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»(٢).

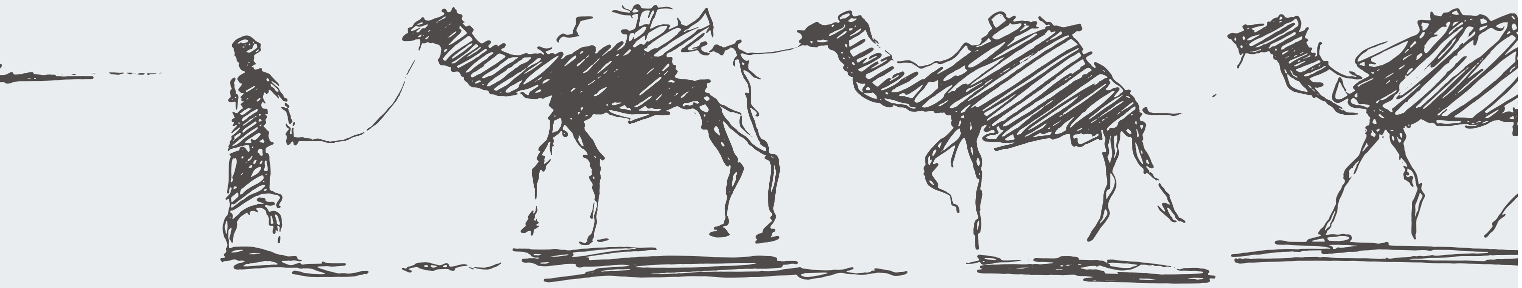

٢ والهجرةُ الحقيقية ليست مجرَّدَ الانتقال من بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإيمان، بل أن يَهجُر العبدُ كذلك جميعَ ما نهى اللهُ تعالى عنه، فهِجرةُ بلدِ الكفرِ مع البقاءِ على المعاصي ليست بهجرةٍ كاملة؛ فأصلُ الهجرةِ: هجرانُ الشرِّ ومُباعدتُه لطلَبِ الخيرِ ومحبَّته، فهي عامَّةٌ في هجرانِ المعاصي والذنوب، ويَدخل فيها هجرانُ بلادِ الشِّركِ إلى بلاد الإسلام(٣).

(١) «فتح الباري» لابن رجب (١/ ٣٧، ٣٨).

(٢) أحمد (٢٢٦٦٥)، وابن ماجهْ (٣٩٧٣)، والترمذيُّ (٢٦١٦).

(٣) «فتح الباري» لابن رجب (١/ ٣٩).

اتّباع

١ (١) احرِص على الاتّسام بصفاتِ الإسلام كاملةً حتى تَستوفي أجرَ المسلمين حقًّا، فإياكَ وظلمَ النّاسِ بالقول أو الفعل.

٢ (١) إياك وظُلمَ النَّاسِ باللسان واليد؛ فإنه سببٌ في الإفلاس الحقيقي وضياع أجرِ ما تعِبتَ فيه من القُربات؛ قال ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١). فإياك وذلك الخُسران.

٣ (١) الأخلاقُ ميزانٌ بين المؤمنين، والدين كلُّه خُلُقٌ، فمَن زاد عليك في الخُلق، زاد عليك في الدِّين(٢).

قال الشاعر:

فلا تَعْجَلْ على أَحَـدٍ بظُلْمٍ	فَـإنَّ الظُّلْـمَ مَرْتَعُـه وَخِيمُ
ولا تَفْحُشْ وَإنْ مُلِّئْتَ غَيْظًا	على أَحَدٍ فإنَّ الفُحْشَ لُومُ

٥ (٢) إذا كان السابقونَ من المؤمنين قد حازوا فضْل الهجرة مِن أوطانهم إلى المدينة، فإنَّ ذلك الفضلَ حاصلٌ لِمَن هجَر المعاصي والذنوبَ ممَّن بعدهم.

٦ (٢) إياك والاتِّكالَ على ما تقرَّبت به إلى الله تعالى من الطاعاتِ والقُرَب، فتعتمِد عليها وتترُك العبادة ظانًّا النجاةَ؛ فالهجرةُ -وهي من أفضل الأعمال- لا تنفعُ أصحابَها إنْ قصَّروا في حقِّ الله تعالى.

٧ على الداعية والمُرَبِّي أن يحرِص على توجيه النَّاس إلى مكارمِ الأخلاق التي تُوَثِّقُ الأُلفةَ بين المسلمين.

---

(١) مسلم (٢٥٨١).

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٣٠٧).

الحديث ٨٥

حقُّ الوالدَين والقُربى

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

١ جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟

٢ قال: (أمُّك) قال: ثم من؟ قال: (أمك)، قال: ثم من؟ قال: (أمك)،

٣ قال: ثم من؟ قال: (أبوك)، وفي رواية قال: (أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أباك،

٤ ثم أدناك أدناك)[1].

(١) البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨) والرواية له.

آيـــات

- ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥].
- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].
- ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

الراوي

هو: عبدُ الرحمن بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزديُّ، اليَمانيُّ، هذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ، وشهِدَها مع رسول الله ﷺ، ثم لَزِمه وواظَب عليه؛ رغبةً في العلم، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، تولَّى إمرةَ البحرين زمان عمر رضي الله عنه، ثم اعتزل الإمارة، وعاش في المدينة إلى أن مات فيها سنةَ (٥٨هـ)[1].

خلاصة

يسأل أحدُ الصحابةِ رضي الله عنهم النبيَّ ﷺ عن أَوْلَى النَّاسِ بالإحسان إليه وإكرامه، فأجابه النبيُّ ﷺ بأن الأُمَّ أحقُّ النَّاس بذلك، وكرَّرها مرارًا، ثم في الرابعة ثنَّى بالأبِ، ثم بذوي القُربى الأقرب فالأقرب.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

فقـــه

١ سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ عن أَوْلَى النَّاس بحسن صحبته والإحسان إليه والقيام بحقِّه، ونحو ذلك من صلته والإنفاق عليه وتلبية احتياجاته.

٢ فأجابه النبيُّ ﷺ أنَّ أُمَّك أولى الناس بذلك وأحقهم بحسن صحبتك، فقال له الرجل: ثُمَّ مَن بعد أمي؟ فأجابه ﷺ بنفس الإجابة توكيدًا وإنزالًا للأُمِّ منزِلتها اللائقة بها، ثم أعاد الرجل السؤال مرةً ثالثةً، ويجيبه ﷺ بذات الجواب.

وإنَّما كرَّر النبيُّ ﷺ ذكر الأمِّ ثلاثًا إيفاءً لحقِّها؛ فإنها تحملت العناءَ فيه حملًا، ثم أصابتها به مشقة الوضع، ثم عانت في إرضاعه وتربيته، فلهذا كانت لها الأَثَرَةُ على أبيه وجميع النَّاس، فاستوجب بكلِّ حقٍّ من تلك الحقوق أن يكون لها ضِعْفُ ما للأبِ من الحقِّ[١].

(١) انظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض (٨/ ٥)، «شرح النووي على مسلم» (١٦/ ١٠٢).

٣ ثم سأله الرجلُ مجددًا عن أولى النَّاس وأحقِّهم بعد الأُمِّ، فأجابه بأنَّه الأب، وذكر الأبَ بعد الأمِّ إيفاءً لحقِّه، ومكافأةً لتربيته وإنفاقه، وإن لم يكن في درجة الأُمِّ، وقد قال ﷺ: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ، أَوِ احْفَظْهُ»[١]. وهذا الترتيب إنما فائدته تكمن عند ازدحام الحقوق بحيث لا يستطيع إيفاءهما جميع حقوقهما، فيُقَدِّم حقَّ الأُمِّ[٢].

٤ ثم يأتي سائر الأقارب بعد الوالدَين، يُقدَّم عند التزاحم الأقربُ فالأقرب، كما في الميراث؛ فإنه سبحانه ورَّث الأدنى فالأدنى. وهذا أيضًا عند تزاحم الحقوق وعدم القدرة على استيعاب جميع الأقارب وذوي الأرحام والأصدقاء ونحوهم، وإلا فيتعين القيامُ بجميع أولئك[٣].

وقد أفاد الحديث تنزيلَ النَّاس منازلهم، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه على قدر قرابته ورَحِمِه.

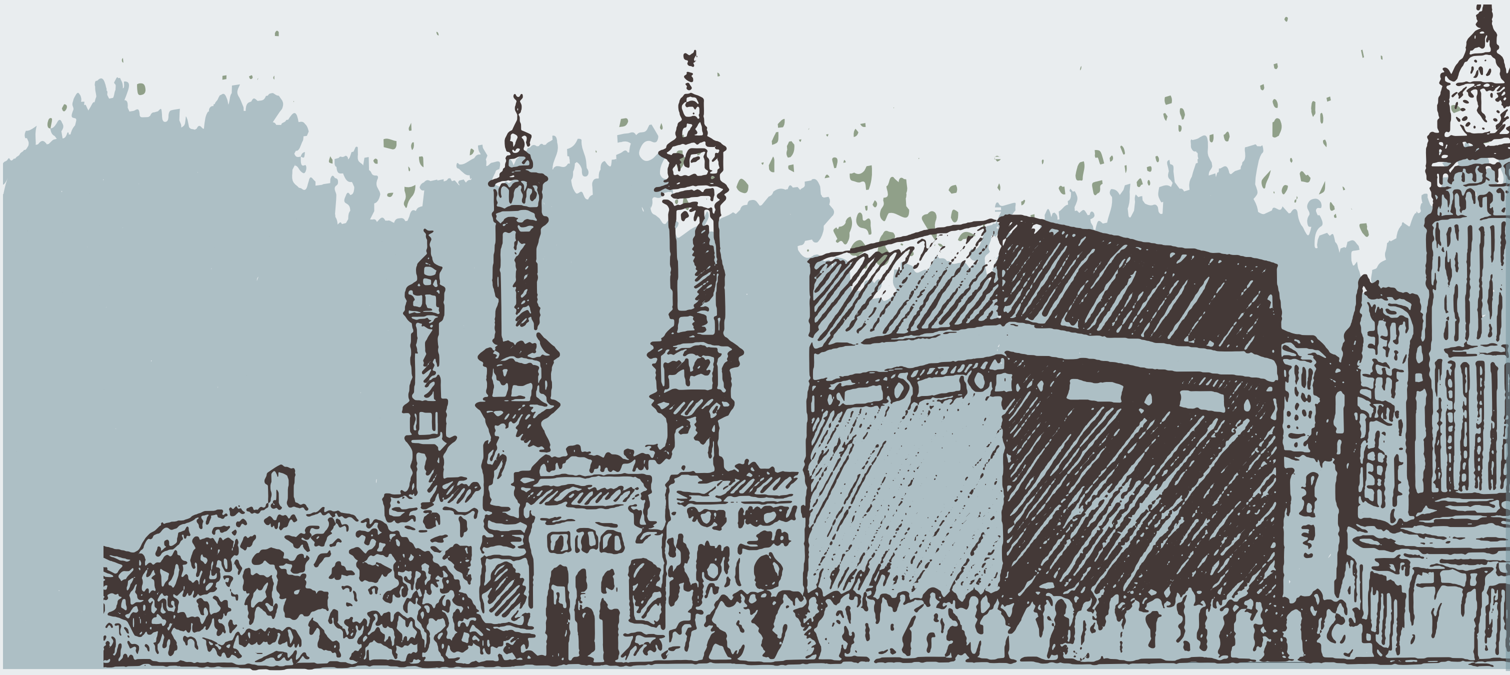

(١) أحمد (٢٨٠٦١)، وابن ماجه (٣٦٦٣)، والترمذيُّ (١٩٠٠).

(٢) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبي (٦/ ٥٠٨).

(٣) انظر: «الإفصاح عن معاني الصحاح» لابن هبيرة (٦/ ٤٥٠)، «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبي (٦/ ٥٠٩).

اتّباع

١ (١) تقديم أصحاب الحقوق وتأخيرهم ليس بحسب الهوى والميل، وإنما بالنَّص وقول اللهِ تعالى وسُنَّةِ رسوله ﷺ.

٢ (١) لا تُقدِّم رجلًا أو تؤخرها إلا بعد بيان حكم الشَّرع فيما أنت مُقْدِمٌ عليه. فهذا صحابيٌّ جاء يسأله ﷺ عمَّن يُوليِه إحسانَه ومحبته من النَّاس، وإن كان معلومًا بالفطرة أن الوالدين والأقربين أولى بالمعروف.

٣ (٢) إياك وعقوق الأمِّ وترك الإحسانِ إليها؛ فإنها أجدر النَّاس برحمتك وعطفك وكرمك.

٤ (٢) يستحبُّ للداعية والمُعَلِّم والمُرَبِّي أن يُكرِّر الإجابة على نفس السؤال لمزيدٍ من التأكيد والاهتمام.

٥ (٢) قيل للحسن -رحمه الله-: «ما بر الوالدين؟ قال: تبذل لهما ما ملكت، وتطيعهما فيما أمراك ما لم تكن معصية»[١].

٦ (٢) جرى بين أبي الأسود الدؤلي رحمه الله وبين امرأته كلامٌ، وأراد أَخْذَ ولدِه منها، فسار إلى زياد بن أبيه والي البصرة، فقالت المرأة له: أصلح الله الأمير، كان بطني وعاءه، وحجري فناءه، وثديي سقاءه، أَكْلَؤُه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام، حتى إذا استوفى فصاله، وكملت خصاله، وأمَّلْتُ نفعه، ورجوتُ دفعه، أراد أن يأخذه مني كرهًا! قال أبو الأسود: أصلحك الله، هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في أَوَدِه. فقالت المرأة: صدق أصلحك الله، حمله خفًّا وحملته ثقلًا، ووضعه شهوة ووضعته كُرهًا. فقال له زياد: ارْدُدْ على المرأة ولدها، فهي أحق به منك، ودعني من سجعك[٢].

٧ (٢) ليس في مَن أَوْلَتْهُ أمُّه رعايتها واهتمامها ثم أراد أن يُنكر فضلها ويجحد حقَّها خيرٌ، ولا يُرجى من ورائه نفعٌ.

٨ (٢) عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَعْظَمُ حَقًّا عَلَى الْمَرْأَةِ؟ قَالَ: «زَوْجُهَا»، قُلْتُ: فَأَيُّ النَّاسِ أَعْظَمُ حَقًّا عَلَى الرَّجُلِ؟ قَالَ: «أُمُّهُ»[٣].

٩ (٣) بر الأب مقدمٌ على الزوجة والأبناء وسائر النَّاس. فإياك وهضمَ حقِّ أبيك.

١٠ (٣) إذا كان في وُسعك أن تفي بحقِّ أبيك وأمِّك معًا وجب عليك ذلك، وإنما يُقَدَّم حقُّ الأمِّ عند استحالة الجمع بين الحقوق.

---

(١) «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقن (٢٨/ ٢٤١).

(٢) «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقن (٢٨/ ٢٤٠).

(٣) رواه النسائيُّ (٩١٠٣)، والحاكم (٧٢٤٤) وصحَّحه.

١١ (٢، ٣) لا ينقطع البرُّ والإحسان إلى الوالدين بموتهما؛ فعن أبي أُسَيْدٍ ﵁ قال: بَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ بَعْدَ مَوْتِهِمَا أَبَرُّهُمَا بِهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، خِصَالٌ أَرْبَعَةٌ: الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لا رَحِمَ لَكَ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِمَا، فَهُوَ الَّذِي بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْ بِرِّهِمَا بَعْدَ مَوْتِهِمَا»[1].

١٢ (٤) سائر القرابات من الأبناء والزوجات والإخوة والأخوات ونحوها إنما تكون في مرتبةٍ نازلةٍ عن مرتبة الوالدَين، فلا يُسَوَّى بينهم في الرعاية والإحسان.

١٣ (٤) إذا تزاحمت الحقوقُ وضعفت احتمالية الوفاء بحقوق جميع الأهل والأقارب، فابدأ بأقربِ النَّاس رَحِمًا منك، حسب ترتيب المواريث، فبعد الوالدَين يُقدَّم الأبناءُ والزوجات والإخوة والأخوات وهكذا.

قال الشاعر:

الْعَيْشُ مــاضٍ فأَكْرِمْ والدَيْكَ به ... والأُمُّ أَوْلــى بإكرامٍ وإحسانِ

وحسبُها الحَمْلُ والإرضاعُ تُدْمِنُهُ ... أمرانِ بالفضلِ نالَا كُلَّ إنسانِ

(١) أحمد (١٦١٥٦)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٣٥)، وأبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤)، والحاكم (٤/ ١٥٤)، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبيُّ، وضعَّفه الألبانيُّ في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٤٨٢).

الحديث ٨٦

حقُّ الجَار

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»(١).

(١) البخاريُّ (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

آيـــات

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

الراوي

هو: عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ بنِ نُفَيْلٍ، أبو عبد الرحمن القُرَشِيُّ، العَدَوِيُّ، أَسلَم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه وما زال صغيرًا لم يَحتلِم، واستُصْغِرَ يومَ أُحدٍ فردَّه النبي ﷺ ولم يشارك في الغزوة، وأَوَّلُ غزواته الخَنْدَقُ، وهو ممن بايع تحت الشجرة، وهو من المُكثِرين بالفُتيا والحديث، توفِّي سنة (٧٤هـ)(١).

خلاصة

للجار حقٌّ عظيمٌ في الإسلام، وما زال جبريلُ عليه السلام ينزِل بالوحي مُوصِيًا بالجار، حتى ظنَّ النبيُّ ﷺ أنَّه سيكون من الورثة.

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ١٠٥)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٣٢٢)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ١٥٥).

فقـــه

أكْثَرَ جبريلُ عليه السلام من النزولِ على النبيِّ ﷺ مُوصِيًا إياه بالإحسانِ إلى الجار، وحِفظِ حقوقِه، ودفعِ الضرر عنه، ومشاركتِه الأفراحَ، ومُواساتِه في الأحزان، وتَعاهدِه إياه بالهدايا والصَّدقاتِ، والتَّلَطُّفِ معه بالقول والفعل، وغير ذلك من سُبُلِ إكرام الجارِّ، حتى ظنَّ النبيُّ ﷺ أنَّ الوحي سيَنزِل بأنَّ الجارَ يَرِثُ مِن جارِه فَرْضًا أو تعصيبًا كما يَرِثه أقاربُه.

وقد جاءت آياتُ القرآنِ مُوصِيةً بالجارِ؛ قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وأخبرَ ﷺ أنَّ الإحسانَ إلى الجارِ من أمارات الإيمان، فقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ»[١]، وأقْسَم ﷺ ثلاثًا على أنَّ الذي يُؤذِي جارَه ليس بمؤمن؛ قال ﷺ: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ»، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[٢]، بل لا يدخلُ الجنَّةَ بمقتضى قولِ النبيِّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[٣].

والجارُ أنواعٌ؛ فجارٌ مسلمٌ قريبٌ: له حقُّ الجوارِ وحقُّ الأُخُوَّةِ في الإسلامِ وحقُّ القرابة، وجارٌ مسلمٌ ليس بقريبٍ: فله حقُّ الجوارِ وحقُّ الأخُوَّة في الإسلام، وجارٌ كافرٌ: له حقُّ الجوار فحسبُ[٤].

(١) البخاريُّ (٦٠١٨)، ومسلم: (٤٧).

(٢) البخاري (٦٠١٦).

(٣) مسلم (٤٦).

(٤) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» لأبي العباس القرطبيِّ (١/ ٢٢٨)، «التعيين في شرح الأربعين» لسليمان بن عبد القويِّ (١/ ١٣٦) بتصرُّف.

اتّباع

١ الإكثارُ من الحديث في مَوضوعٍ ما، يُورِثُ المستمعَ أهميته ويدفعه إلى القيام بالمطلوب منه، ولهذا كان ﷺ يُكرِّرُ كلامَه ثلاثًا. فعلى الداعية والمُرَبِّي والخطيب والفقيه أنْ يَحرِص على أهمِّ قضايا الأمة ويُكثِر من الحديث عنها في لقاءاته ودُروسه.

٢ الجارُ له حقٌّ عظيمٌ ذكَره القرآنُ الكريمُ والسُّنَّةُ النبويَّةُ المطهَّرة، فعلى المسلمِ أن يقومَ بذلك الحقِّ ولا يَغفُل عنه.

٣ إيذاءُ الجارِ دليلٌ على نقصِ الإيمان، وإكرامُه مِن الإيمان. فانظُرْ في نفسِك وإيمانِك أهو زائدٌ أم ناقصٌ؟

٤ باع أبو الجَهمِ العَدَويُّ دارَه بمائة ألفِ درهمٍ، فلمَّا جاء المشتري ليأخُذَها، قال أبو الجَهمِ: هذا ثمن الدَّار، فبِكَم تَشترون جِوارَ سعيدِ بن العاص؟ قال: هل يُشترى جِوارٌ قطُّ؟! قال: رُدُّوا عليَّ داري وخُذوا مالكم، ما أَدَعُ جِوارَ رجُلٍ إنْ قعدتُ سأل عنِّي، وإنْ رآني رَحَّب بي، وإن غِبتُ حفِظني، وإنْ شَهدتُ قَرَّبَني، وإنْ سألتُه قَضى حاجتي، وإنْ لم أسأله بَدَأني، وإنِ نابتني جائحةٌ فَرَّج عنِّي. فبلغ ذلك سعيدًا فبعَث إليه مائة ألفِ درهمٍ، وقال: هذا ثمنُ دارِك، والدارُ لك[(١)].

٥ مِن حقِّ الجارِ على جاره أن يَحتمِل بعضَ أذاه، ولا يكون سريعَ الشَّكايةِ منه، قال الحسنُ البصري: «ليس حُسْنُ الجِوار كفَّ الأذى، ولكنْ حُسْنُ الجوار احتمالُ الأذى»[(٢)].

قال الشاعر:

ونُكْــرِمُ جــارَنا ما دامَ فينـــا ... ونُتبِعُــهُ الكَــرامَةَ حَيْثُ مَالا
لعَمــرُكَ مَـــا يبيتُ الجَـــارُ فِينا ... عَلى وَجَـــلٍ يُحـــاذِرُ أنْ يُغالا

قال غيره:

يَلُومُونَني أَنْ بِعْتُ بِالرُّخصِ مَنْزِلي ... وَمَا أَبْصَـرُوا جَارًا هُنَاكَ يُنَغِّصُ
فَقُلْتُ لَهُـمْ كُفُّــوا المَـلامَ فَإِنَّـمَا ... بجِيرَانِهَا تَغْلُو الدِّيَارُ وَتَرْخُصُ

(١) «ربيع الأبرار» للزمخشري (١/ ٣٩٣).
(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبليِّ (١/ ٣٥٣).

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه،

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[1].

(١) البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).

آيـــات

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

الراوي

هو: أنسُ بنُ مالكِ بنِ النَّضرِ بنِ ضَمْضَمٍ الأنصاريُّ، أبو حمزةَ، الإمامُ، المفتي، المقرئ، المحدِّث، راوية الإسلام، وخادم رسول الله ﷺ، وآخر أصحابه بالبصرة موتًا، قَدِمَ رسولُ الله المدينة وهو ابْنُ عَشْرٍ، وَمَاتَ وهو ابْنُ عِشْرِينَ، وكان يَخدُم النبيَّ ﷺ فَصَحِبَه أتمَّ الصُّحْبَةِ، وَلازَمه أكملَ الملازمة منذ هاجَر، إلى أن مات، وغزا معه غَيْرَ مَرَّةٍ، وبايَع تحت الشجرة. روى عن النبيِّ ﷺ عِلْمًا جمًّا، دعا له رسول الله ﷺ بكثرة المال والولد، وكانت نَخلاته تحمل في السَّنة مرتَين، تُوفِّي سنةَ: (٩٣هـ)[1].

خلاصة

لا يَكتمِلُ إيمانُ المسلمِ حتى يُحبَّ لأخيه من الخيرِ ما يُحبُّه لنفسه.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٢٣١)، «معجم الصحابة» للبغويِّ (١/ ٤٣)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ١٥١-١٥٣)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤١٧-٤٢٣).

فقه

أَلَّفَ الإسلامُ بين قلوبِ المؤمنين، فأصبحوا إخوانًا مُتحابِّين، يَفرحُ بعضُهم لفرحِ أخيه، ويَتألَّمُ لِألَمِه، كما قال ﷺ: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى»[1].

وأخبَر النبي ﷺ أنَّ إيمان العبدِ لا يَكْمُلُ حتَّى يُحِبَّ لأخيه من الطاعاتِ والخيرِ ما يُحبُّه لنفسِه، فإذا وجَد بابَ خيرٍ دلَّ إخوانَه عليه، وإنْ كانت لأخيه عليه مَظلمةٌ بادَر إلى إنصافِه من نفسِه وإعطائه حقَّه.

وليس معنى الحديث أن يُزيل الإنسانُ من نفسِه طَبْعَ حُبِّه الخيرَ لنفسه؛ فإنَّ ذلك لا يَقدِر عليه أحدٌ، وإنَّما المقصود أن يَتمنَّى لأخيهِ الخيرَ من غيرِ أن يؤذيَه ذلك، وذلك سَهلٌ على القلب السليمِ[2].

ولا يعني هذا ألَّا يَتنافَس المسلمُ في بُلوغ المنازل العالية؛ فإنَّ أبا بكرٍ وعُمرَ رضي الله عنهما كانا يتنافسانِ على أبوابِ الخيرِ، ولم يكُن ذلك نقصًا في إيمانهما؛ فالمطلوب تمنِّي حصولِ الخير في الجملة، وانتفاءُ الشَّرِّ في الجُملة، أمَّا الارتقاءُ إلى الفضائل العالية والمناقبِ السامية، فلا حرَجَ على الإنسانِ أن يُؤْثِر نفسَه على غيره فيها[3].

وقد اهتمَّ العلماءُ بهذا الحديثِ جدًّا، حتى قالوا: إنَّ الدِّينَ كلَّه مبنيٌّ على أربعةِ أحاديث، هذا أحدها. فهو بهذا رُبع الإسلام[4].

---

(١) البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» للنوويِّ (٢/ ١٧). والدَّغل: الفاسد. انظر: «لسان العرب» لابن منْظور (١١/ ٢٤٤).

(٣) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٣/ ٢٣٢).

(٤) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» للنَّوويِّ (١١/ ٢٧).

اتَّباعي

١ حُبُّ الخيرِ للمسلمين خصلةٌ تَصِل بصاحبها إلى أعلى درجات الكمال الأخلاقي ؛ حيث يَرتقي بنفسه عن الحسد والحقد والغِل والضَّغينة والكِبْر . نسألُ اللهَ أن يرزُقنا إياها .

٢ المطلوبُ من المسلم أن يُحبَّ الخيرَ لأخيه ، فإذا أحبَّ لنفسه خصلةً من دِينٍ أو غِنًى أو نحوهما أحبَّ أن يكون لصاحبِهِ مثلُها ، ولذلك كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : «إنِّي لَأَمُرُّ بالآيةِ مِن القرآنِ فأفهمُها ؛ فأودُّ أنَّ الناسَ كلَّهم فَهِموا منها ما أفْهَمُ»[١] .

٣ يَجدُر بكل مسلمٍ أن يُفتِّش في نفسه عن تلك الصِّفة ؛ وهي حُبُّ الخير لإخوانه المسلمين ، فإنَّ فاقدَها ناقصُ الإيمان .

٤ المؤمنُ يضعُ نفسَه موضعَ أخيه المسلم ؛ فإنْ سَرَّه شيءٌ تمنَّاه لأخيه ، وإن كَرِه شيئًا لم يَرْضَه له . قال الأحنَفُ بنُ قَيس رحمه الله : كنتُ إذا كرِهتُ شيئًا من غيري ، لم أفعلْ بأحدٍ مثلَه[٢] .

٥ أثنى اللهُ تعالى على الأنصار في كتابه الكريمِ حين آثَروا إخوانَهم المهاجِرين على أنفسِهم ، فقسَّموا أموالَهم بينهم ، حتى إنَّ سعدَ بن الرَّبيعِ رضي الله عنه عرَض على أخيه عبدِ الرحمن بن عَوف رضي الله عنه أن يُشاطرَه مالَه ، وأن يُطَلِّق إحدى امرأتيه من أجْل أن يتزوجها بعد انقضاءِ عِدتها[٣] . ولم يكُنْ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أقلَّ إيثارًا من أخيه سعد بن الربيع رضي الله عنه ؛ فإنَّه لم يَقبَل منه أن يَنزِل عن نِصف مالِه أو يطلِّق امرأته من أجْله ، على ما حلَّ به من الفقر ؛ حيث ترك مالَه ودارَه وكلَّ شيءٍ لله ، إلا أنَّه شكَر أخاه سعدًا وانصرف إلى السوق ليَكسِب قُوتَه بجهده .

٦ على الدَّاعية والمُرَبِّي أن يحرِص على تهذيبِ العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وتَقويتِها .

٧ لا يَتعارضُ حبُّ الخير للناس مع منافستِهم في منازلِ الدنيا والآخرة ؛ فحبُّ الخير لهم والسرورُ بتوفيقهم كافٍ .

٨ الطالبُ المؤمنُ يتمنَّى لجميع إخوانه النجاحَ والتوفيقَ ، ولا حرَج أن يحرِص مع ذلك أن يكون الأوَّل في دُفعتِه ، وكذلك التاجرُ يتمنَّى الخير لجميع التُّجَّار ، وأن يَرزقهم اللهُ تعالى الرزقَ الطيِّب ، ولا يَمنعه ذلك أن يتمنى الثراءَ والغِنَى ، وهكذا الطبيب والمهندِسُ والعامل وغيرهم .

قال الشاعر:

أخوكَ الذي يَحْميكَ في الغَيبِ جاهدًا ... ويَسترُ ما تَأتي مِن السُّوء والقُبْحِ
ويَنشـرُ ما يُرضيـكَ في الناسِ مُعلِنًا ... ويُغضي ولا يأْلو مِن البرِّ والنُّصحِ

(١) رواه الطبرانيُّ (١٠٦٢١) .
(٢) «شرح صحيح البخاريِّ» لابن بطَّال (١/ ٦٥) .
(٣) متفق عليه ، البخاري (٢٠٤٩) ، ومسلم (١٤٢٧) .

التعاطُف بين المُسلمين

الحديث ٨٨

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[1].

(١) البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

آيـــات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩].

الرّاوي

هو: النُّعمانُ بنُ بَشيرِ بنِ سعدِ بنِ ثَعْلبةَ الأنصاريُّ، الأمير، العالِم، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، وهو من الصحابة الصِّبيان باتِّفاق، حدَّث عنه: ابنه محمدٌ، والشعبيُّ، وغيرهما، وكان من أمراء معاوية، ولّاه الكوفة مدَّةً، ثم وَلِيَ قضاء دِمَشقَ بعد فَضالةَ، ثم وَلِيَ إمْرةَ حِمْص، أخرج حديثَه الأئمة الستةُ، وحديثُه قليلٌ، تُوفِّي سنةَ (٦٤هـ)[1].

خلاصة

مَثَلُ المؤمنين في وُدِّهم وعطفهم وحبِّهم ورحمتهم بعضهم بعضًا، وتواصُلهم، وتعاونهم، كمَثَلِ الجسد الواحد، إذا تألَّم منه عضوٌ أثَّر في بقيةِ الأعضاء، ونتَج عن ذلك الألمِ عدمُ النَّوم وارتفاعُ الحرارة.

(١) تُراجع ترجمته في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٦/ ٥٣)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٤٩٦)، «أُسْد الغابة» لابن الأثير (٤/ ٥٥٠).

اهتمَّ الإسلامُ ببناءِ مجتمعٍ مُتماسكِ البُنيان، تَسُوده المحبَّةُ والأُلفةُ والتعاونُ، وتَحكمُه قاعدة: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[1].

ولهذا يَضربُ النبيُّ ﷺ المَثَل الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمنون فيما بينهم من التماسُك والتكافُلِ؛ حيث صوَّرهم ﷺ في عَطفِهم وشَفَقتِهم على بعضهم، ومودَّتهم وتقرُّبهم من بعضهم؛ بالجسدِ الواحدِ الذي ما إنْ يَشكو عضوٌ منه حتى تَدعو سائرُ الأعضاءِ بعضُها البعضَ للأنينِ والتَّعبِ من أجْل ذلك العضو، فيُصيبُ الجسدَ كلَّه السَّهرُ والحُمَّى من أجْل ذلك العضوِ. وهكذا ينبغي أن يكونَ المسلمُ في إحساسِه بأخيه وشَفقتِه عليه؛ فيَألَم لألَمِه ويَفرَح لفرحِه، ويُفرِّج عنه كُرَبَه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وقد قال ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ[2].

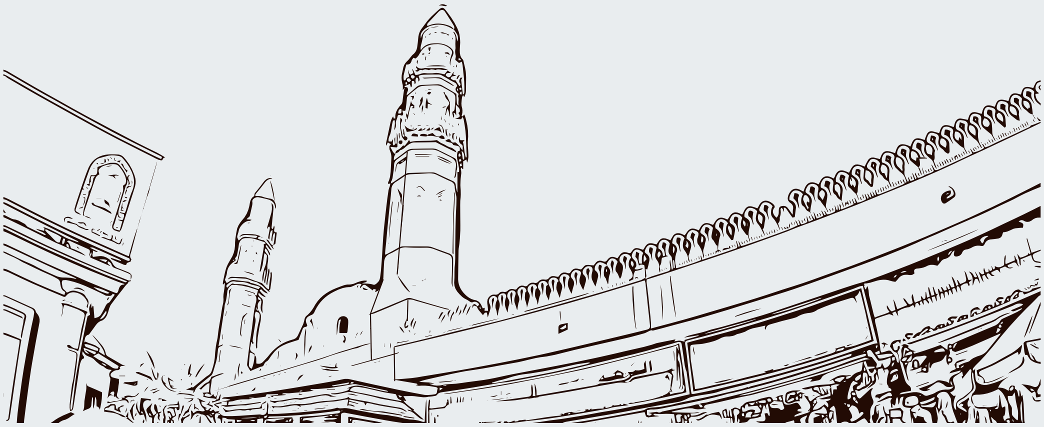

وأوجَب ﷺ على المؤمنِ أن يَهتمَّ بأمرِ المؤمنين، خاصةً الجيرانَ الذين هم أَلْصَقُ النَّاسِ بالرجلِ، قال ﷺ: «ليْسَ المؤمنُ بالذي يَشبعُ وجارُه جائعٌ إلى جَنبِيْهِ»[3]، وندَبَ ﷺ المؤمنين إلى مُعاونةِ إخوانهم والسعيِ في قضاء حوائجِهم، قال ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[4].

(١) البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٢) البخاريُّ (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده (٢٦٩٩).

(٤) مسلم (٢٦٩٩).

اتّباع

١ ضربُ الأمثال واستخدامُ الصورِ البيانيةِ مِن أبلغ الأساليب في إيضاح المعنى، فعلى الداعيةِ والخطيب والمُرَبِّي أن يُكثِر مِن استخدام الأمثلة وتقريب المعاني.

٢ مِن دلائل اكتمالِ الإيمان أن يكون المسلمُ مُهتمًّا بأمورِ المسلمين، يَفرَح لفرحِهم ويَحزنُ لمُصابِهم.

٣ السَّعيُ في قضاءِ حوائجِ النَّاس والتخفيفِ عنهم من أفضل العبادات التي يتقرَّب بها العبدُ إلى ربِّه، وقد قال ﷺ: «أحَبُّ الناسِ إلى اللهِ أنفعُهم للناسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سرورٌ تُدخِلُه على مسلمٍ، تَكشِفُ عنه كُربةً، أو تقضِي عنه دَيْنًا، أو تَطرُدُ عنه جوعًا، ولأَنْ أمشيَ مع أخٍ في حاجةٍ أَحَبُّ إليَّ من أن اعتكِفَ في هذا المسجدِ - يعني مسجدَ المدينةِ - شهرًا، ومن كظَم غيظَه ولو شاء أن يُمضِيَه أمضاه ملأ اللهُ قلبَه يومَ القيامةِ رِضًا، ومن مشى مع أخيه في حاجةٍ حتى يَقضِيَها له ثبَّتَ اللهُ قدمَيه يومَ تزولُ الأقدامُ»[١].

٤ مِن صُوَر التعاطُف والتكافلِ فيما بين المسلمين أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا استُشهد جعفرُ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «اصْنعُوا لآلِ جَعفَرٍ طعامًا؛ فقد أتاهم ما يَشغَلُهم، أو أمْرٌ يَشْغَلُهم»[٢].

٥ مِن توادِّ المؤمنين أن يَزُور المسلمُ المريضَ، ويعاوِن المحتاجَ، ويَصْل الأرحامَ، ويُكرِم الضَّيفَ، ويُشَيِّع الجنائز، ولا يُظهِر الفَرَحَ أمامَ الحزينِ.

قال الشاعر:

كُونوا جـميعًا يا بَنيَّ إذا اعترَى — خَطْبٌ ولا تتفرَّقوا آحــادَا
تأبى القِداحُ إذا اجتمعْنَ تَكسُّرًا — وإذا افترَقْنَ تكسَّرتْ أفرادَا

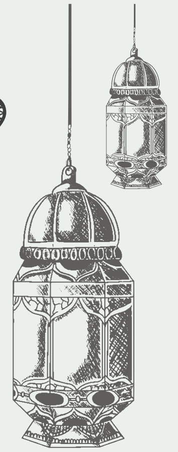

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦٠٢٦).

(٢) أبو داود (٣١٣٢)، والترمذي (٩٩٨)، وابن ماجه (١٦١٠).

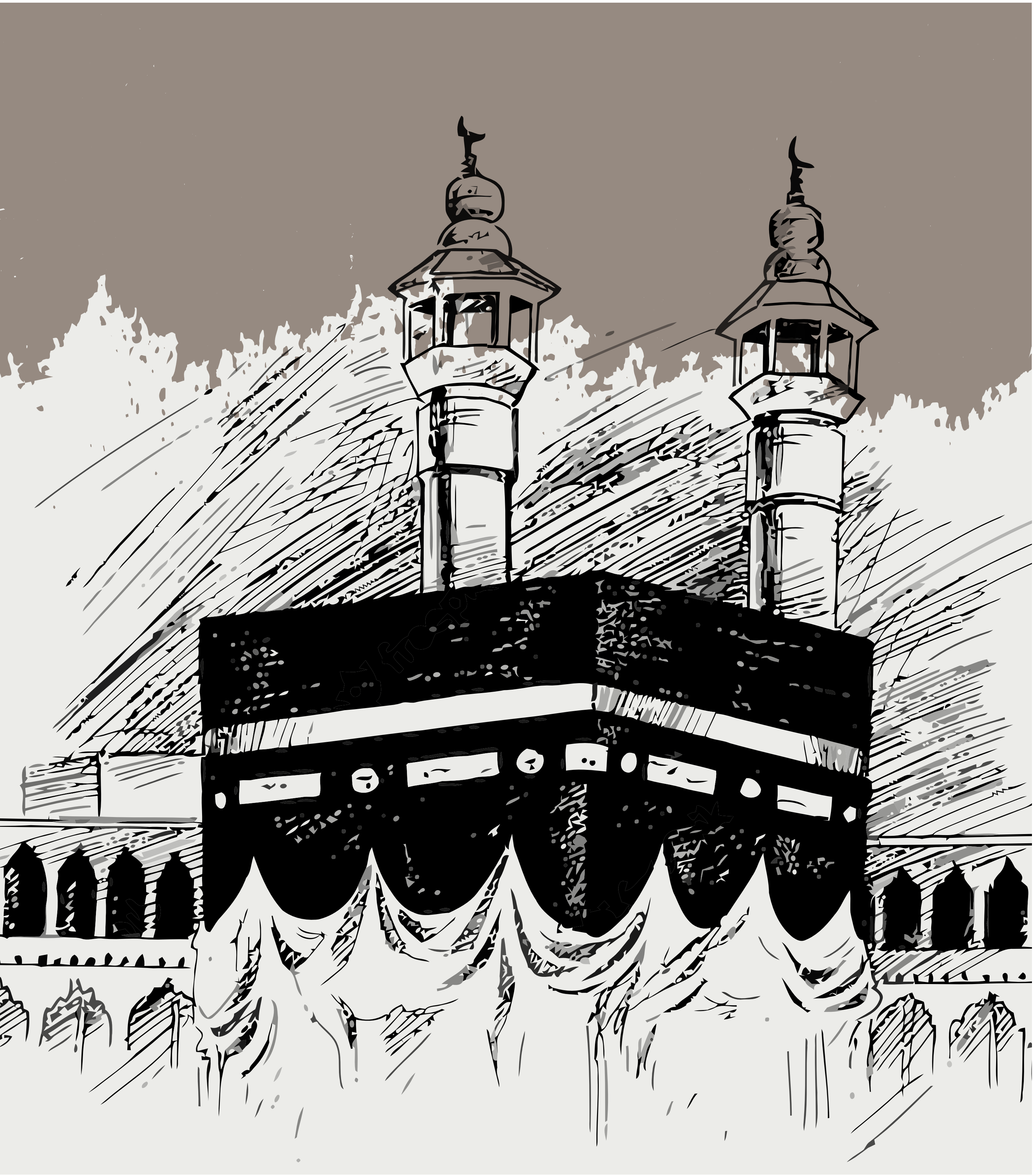

الحديث ٨٩

الرَّحمةُ بعمومِ الخلق من الإنسانِ والحيوانِ وغيرهم

عن جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ،

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»(١).

(١) البخاريُّ (٦٠١٣)، ومسلم (٢٣١٩).

آيـــات

- ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
- ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤].
- ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].
- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].
- ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد: ١٧].

الراوي

هو: جَرِيرُ بنُ عبدِ الله البَجَليُّ، ويُكْنَى بأبي عَمرٍو، وقيل: بأبي عبد الله، مَن أعيان الصحابة، أَسْلَمَ في السَّنة التي قُبِضَ فيها النَّبيُّ ﷺ، ووَجَّهه رسولُ الله ﷺ إلى ذي الخَلَصَةِ، فهَدَمه، ونَزَلَ الكوفةَ بعد ذلك، تُوفِّي سنةَ إحدى وخمسين، وقيل: سنةَ أربع وخمسين(١).

خلاصة

لا يَرحمُ اللهُ سبحانه مَن لا يَرحَمُ خَلْقَه من النَّاس والحيوان والطَّير.

(١) تُراجَع ترجمته في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٦/ ٢٢)، «التاريخ الكبير» للبخاريِّ (٢/ ٢١١)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٢/ ٥٣٠).

فقـــه

رحمةُ اللهِ تعالى واسعةٌ لا مُنتهَى لها؛ قال سبحانه: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وجزءٌ من مائةِ جزءٍ من رحمته سبحانه يَتراحمُ به الخَلْقُ فيما بينهم؛ حتى إنَّ الفَرَس لتَرفعُ حافرَها عن ولدها؛ خشيةَ أن تُصيبَه[١].

وقد أرسَل اللهُ تعالى أنبياءَه ورُسُلَه رحمةً بعبادِه؛ فهَداهم إلى الحقِّ، وأنعَم عليهم بالإيمان، ورزَقهم الهِدايةَ والتوفيقَ، وأسْكَنهم دارَ كَرامتِه في الآخرة، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولهذا قَصَر رحمتَه على عبادِه الرُّحَماء، فمَن لم يَقتدِ به سبحانَه في رحمته بالخلق، فهو المحرومُ مِن رحمته تعالى، قال ﷺ: «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»[٢].

وسببُ ذلك أنَّ المؤمن رحيمٌ بخَلْقِ اللهِ تعالى، يَرِقُّ قلبُه للضعيف، ويَأسى لحُزن المَكْلوم، ويألَمُ للمُبتلى، ويَحِنُّ على الضُّعفاء والمساكين، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، وأخبر ﷺ أنَّه: «لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ»[٣].

وليس المقصودُ بالرحمةِ أن يَرحَم المسلمُ ذَويه وأهله دون غيرهم؛ بل أن تَشمَل رحمتُه جميع الخلْقِ، قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَضَعُ اللَّهُ رَحْمَتَهُ إِلَّا عَلَى رَحِيمٍ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّنَا يَرْحَمُ، قَالَ: «لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ؛ يَرْحَمُ النَّاسَ كَافَّةً»[٤].

وقد كان ﷺ أرحمَ النَّاسِ؛ قال فيه ربُّه سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد امتلأ ﷺ رحمةً وعطفًا، فمِن ذلك قوله ﷺ: «إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»[٥].

ولم تَقتصِرْ رحمتُه على النَّاسِ فحسبُ، بل تعدَّت إلى الحيوانات والطيور؛ فعنْ عبد الله بن مَسعود قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا».

---

(١) البخاريُّ (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

(٢) البخاريُّ (٧٤٤٨) ومسلم (٩٢٣).

(٣) أحمد (٩٧٠٠)، وأبو داود (٤٩٤٢)، والترمذيُّ (١٩٢٣).

(٤) رواه أبو يعلى (٤٢٥٨).

(٥) البخاري (٧٠٧).

اتَّباع

١ الرَّحمةُ بالخلق من علامات السعادة؛ فإنَّ الشَّقِيَّ مَن حُرِم الرَّحمة، فالحذرَ الحذرَ من طبع أهل الشَّقاء.

٢ الرَّحمةُ من صِفات الله تعالى التي يُحبُّ أن يَقتدي عبادُه به فيها؛ فيحبُّ أن يرى عبْدَه رحيمًا لطيفًا رؤوفًا بالخلْق، كالمغفرة والصَّفح والعفو والجُود.

٣ النبيُّ ﷺ هو الأسوةُ الحَسَنةُ، وقد كان ﷺ رحيمًا بالكبار والصِّغار، قَبَّلَ ﷺ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ رضي الله عنهما وعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ رضي الله عنه جالِسًا، فقالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ، مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ»[١].

٤ لا أحد مُستغنٍ عن رحمةِ اللهِ تعالى، فكلُّ واحدٍ منا عنده عيوبٌ وذنوب وخَطايا، ولولا رحمتُه سبحانه لَهَلَكَ الخلقُ جميعًا. فمَن أراد أن يرحمه اللهُ تعالى، فلْيَرحَم خلْقَه، فهذه بَغِيٌّ مِن بَغايا بني إسرائيل رأت كلبًا يَلهَث يأكُلُ التُّراب من العطَش، فسَقَتْه فغفرَ اللهُ سبحانه لها بِرَحمتها للحيوانِ[٢].

٥ الجزاءُ من جِنس العمل، فمَن رَحِم رُحِم، ومَن عَذَّب عُذِّب، ومَن يَسَّرَ يَسَّر اللهُ سبحانه له.

٦ عدمُ رحمةِ الخلق سببٌ في دخول النار والعياذُ بالله؛ فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي، فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ، فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ»، أَوْ «لَمَسَّتْكَ النَّارُ»[٣].

قال الشاعر:

إنْ كُنتَ لا ترحَمُ المسكينَ إنْ عَدِما ... ولا الفقيرَ إذا يَشْكو لكَ العَدَما

فكَيْفَ تَرْجو منَ الرَّحمنِ رَحْمتَه ... وإنَّما يَرحَمُ الرحمنُ مَن رَحِما

قال غيره:

إنْ كنتَ ترجو مِن الرَّحمنِ رحمتَه ... فارْحَمْ ضِعافَ الورَى يا صاحِ مُحترِمَا

واقْصِدْ بذلك وَجْهَ اللهِ خالِقِنا ... سُبحانَه مِن إلهٍ قَدْ بَرَا النَّسَما

واطلبْ جَزا ذاك مِن مولاكَ رَحْمتَه ... فإنَّما يَرْحَمُ الرحمنُ مَن رحِمَ

(١) البخاريُّ (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

(٢) البخاريُّ (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٣) مسلم (١٦٥٩).

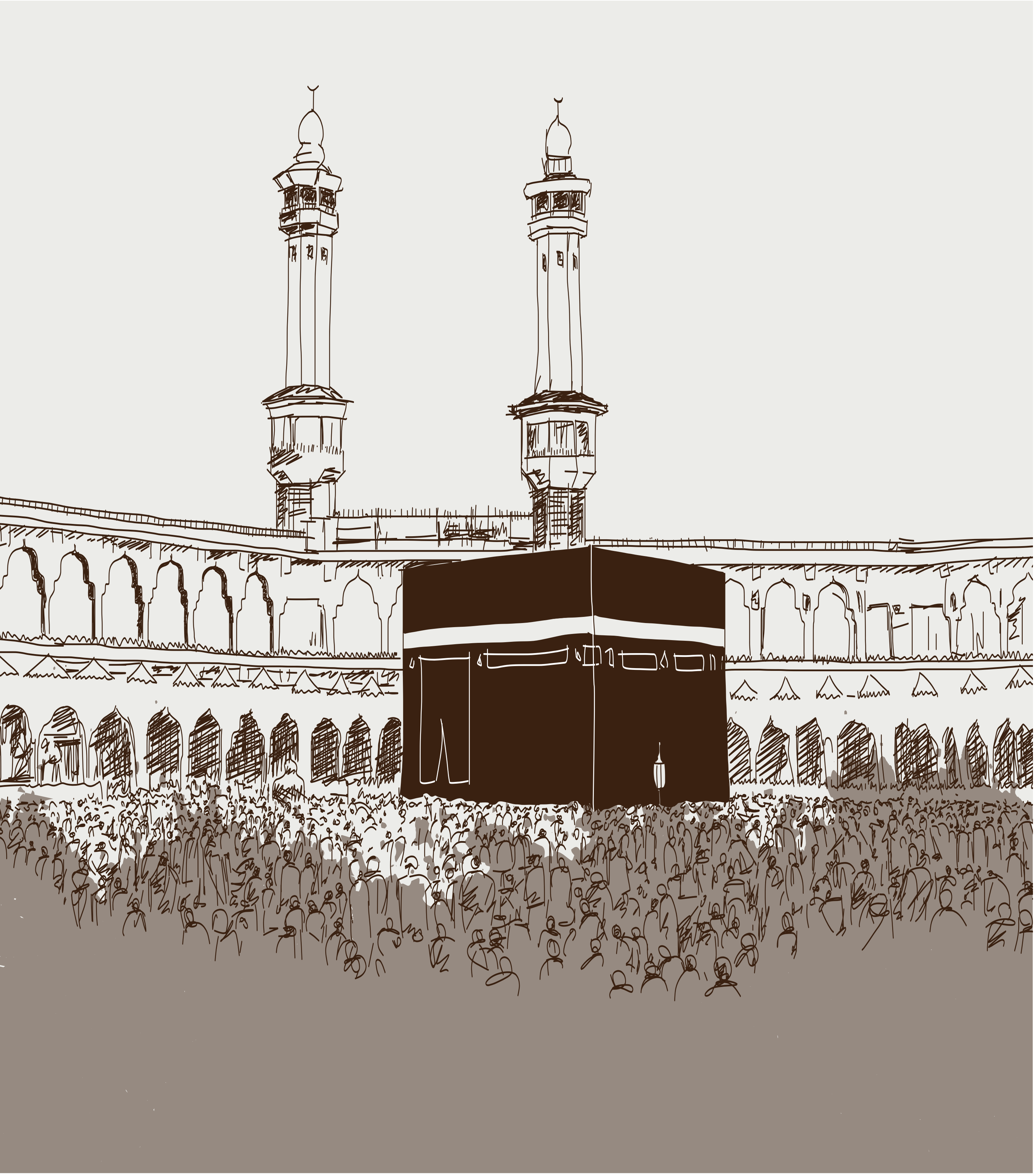

حقُّ الوصيّة

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ»(١).

(١) البخاريُّ (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٢٧).

آيات

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا﴾ [النساء: ١١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦].

الراوي

هو: عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطَّاب بنِ نُفَيْل، أبو عبد الرحمن القُرَشِيُّ، العَدَوِيُّ، أَسلَم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه وما زال صغيرًا لم يحتلِم، واستُصْغِرَ يومَ أُحدٍ فرده النبي ﷺ ولم يشارك في الغزوة، وأوَّلُ غزواته الخَنْدَقُ، وهو ممن بايع تحت الشجرة، وهو من المُكثِرين بالفُتيا والحديث، تُوفِّي سنة (٧٤هـ)(١).

خلاصة

يبيِّن النبيُّ ﷺ أنَّه لا ينبغي لمسلمٍ له شيءٌ يريدُ أن يُوصِي فيه، ثم يتأخر عن كتابةِ وصيَّته، بل عليه المبادرةُ قبل أن يَفجَأه الموت.

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ١٠٥)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٣٢٢)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ١٥٥).

يجوزُ للإنسان أن يتصرَّف في جزءٍ مِن تركتِه والوصيةُ بجُزءٍ منها، بشرطِ ألا يتعدَّى الثُّلُثَ، وألَّا تكون تلك الوصيةُ لوارثٍ؛ لقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ عِنْدَ وَفَاتِكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ زِيَادَةً لَكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ»[١]، وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ أَعْطَى لِكُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»[٢]. فربَّما أراد الرجلُ أن يُوصي بشيءٍ مِن ماله لِذَوي القُربى ممن لا يَرِثونه، أو أراد الصدقةَ من ماله.

ولذلك يَندُب النبيُّ ﷺ كلَّ مَن أراد أن يُوصي بشيءٍ من ماله أن يبادِر بكتابة وَصيتِه، فلا تمرُّ عليه ليلةٌ أو ليلتانِ إلا ووصيتُه مكتوبةٌ عنده؛ فإنه لا يَدري ربما يأتيه الموتُ فجأةً فيَحُول بينه وبين ما أراد. وقد خصَّ السَّلَفُ ذلك النَّدب إلى المسارعة بالمريض ومَن شارَف على الموت، وإنما لم يَأتِ ذلك التخصيصُ في الحديثِ لاطِّراد العادةِ بذلك[٣].

(١) ابن ماجه (٢٧٠٩).

(٢) أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (٢١٢٠)، وابن ماجه (٢٧١٣).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (٥/ ٣٦٠).

على أنَّ حكم الوصيةِ في الأصل مختلَفٌ باختلاف المُوصَى به؛ فقد تكون واجبةً، وذلك حين يكون على المُوصِي دَينٌ لا يَعلمه الورثة، لا سِيَّما إذا لم يكن للدائن بيِّنةٌ عليه؛ فإنه لو لم يُوصِ بذلك لَضاع حقُّ الدَّائن. وقد تكون محرَّمةً إذا كانت وصيةً بشيءٍ حرام؛ كالوصية بالمعصية، وكالوصيةِ للوارث. وقد تكونُ مَندوبةً إذا كانت على جِهات الخير والإنفاق في سبيل الله تعالى أو لذوي القُربى من غير الوارثين.

اتَّباع

١ على المسلِم أن يتذكَّر الموتَ دائمًا، وأن يَجعله نُصْب عينه، فيَعمَل لهذا الوقت ولا يَنشغِل عنه بملذَّات الدنيا وشَهواتها. قال الحسن رحمه الله: المَوْتُ معقودٌ في نَوَاصِيكم، والدنيا تُطوى من ورائكم[١].

٢ استأثَر اللهُ سبحانه بتقسيم المواريث بنفسه، فلا يجوز لمسلمٍ أن يُنازعَ ربَّه فيها، أو يظنُّ أنَّ قِسمتَه خيرٌ من قسمةِ أحكمِ الحاكمِين.

٣ تفضَّل اللهُ سبحانه على عِباده بثُلث أموالهم يتصرَّفون فيها بالوصايا كيْف شاؤوا، فالكَيِّسُ مَن استغلَّ ذلك الفضلَ في مَرضاةِ الله تعالى وطاعتِه، وصَرَف ذلك القدْرَ في سبيلِه.

٤ يَنبغي للمسلم أن يبادِر بكتابة وَصيتِه - إن كان له شيءٌ يجِب أن يوصِي به - قبل أن تُنسِيه الدنيا أو يُقعِدَه المرضُ أو يَفجَأَه الموتُ. وقد بادَر إلى ذلك الصحابةُ رضوانُ الله عليهم، فابنُ عُمر رضي الله عنهما راوي الحديث يقول: «مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَلِكَ إِلَّا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي»[٢].

٥ ليس معنى جوازِ التصدُّق والوصيةِ بالثُّلث أنَّه لا يجوزُ غيرُه، أو أنَّ أفضلَ الوصيةِ الوصيةُ بالثُّلث، بل إنَّ الأفضلَ للمسلِم أن يَترُك ورثته أغنياء لا يحتاجون شيئًا من النَّاس، ولهذا قال النبي ﷺ لسَعدِ بن أبي وقَّاص رضي الله عنه حين أراد الوصية بنصف ماله: «فَالثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ؛ إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ»[٣]. ولهذا كان ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما يقول: لو أنَّ النَّاس عَدَلوا من الثُّلث إلى الرُّبع، وأوصى أبو بَكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه بخُمس ماله، وقال: أرْضى لنفسي ما رَضِيه اللهُ تعالى لنفسِه؛ يُريد قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

٦ يَنبغي لطلبةِ العلمِ ومَن يكتبون للناس وَصاياهم أن يُبيِّنوا لهم أنَّ الأمرَ مُتفاوتٌ؛ فإذا كان الوَرَثةُ فقراء محتاجِين إلى المال فالأفضل عدمُ الوصية، وإن كانوا مُوسِرين استُحِبَّ له الوصيةُ بالثلث أو أقلَّ، بحسَب حالة الورثة.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٨٢).

(٢) مسلم (١٦٢٧).

(٣) البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨).

قال الشاعر:

نَسِيرُ إِلَى الْآجَالِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ　　وَأَيَّامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحِلُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْمَوْتِ حَقًّا كَأَنَّهُ　　إِذَا مَا تَخَطَّتْهُ الْأَمَانِيُّ بَاطِلُ
وَمَا أَقْبَحَ التَّفْرِيطَ فِي زَمَنِ الصِّبَا　　فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ لِلرَّأْسِ شَامِلُ؟!
تَرَحَّلْ مِنَ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التُّقَى　　فَعُمْرُكَ أَيَّامٌ وَهُنَّ قَلَائِلُ

قال غيره:

أَمْوالُنا لِذَوِي المِيراثِ نَجمَعُها　　ودارُنا لِخَرابِ البُومِ نَبنِيها
لا دارَ لِلمَرْءِ بعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُها　　إلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ يَبْنِيها
فمَنْ بَنَاهَا بخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهُ　　ومَنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيها

٩١ الحديث

كراهةُ طَلَب الوِلاياتِ

عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

١ «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ؛

٢ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ، وُكِلْتَ إِلَيْهَا،

٣ وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، أُعِنْتَ عَلَيْهَا،

٤ وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»(١).

(١) البخاريُّ (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

آيـــات

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

الرّاوي

هو: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ بْنِ حَبِيبٍ، أبو سعيد القُرَشِيُّ، العَبْشَمِيُّ، الأمير. أَسلَم يومَ فتح مكَّةَ، وكان أحدَ الأشراف. كان اسمُه عبدَ الكعبة، فلمَّا أسلم سمَّاه النَّبِيُّ ﷺ: عبدَ الرحمن. شَهِد غزوة تبوك مع النبيِّ ﷺ، ثم شهد فتوح العراق، وغزا خُراسانَ في زمن عثمان، وهو الذي فتح سِجِسْتَانَ وكابل وغيرهما. مات بالبصرة سنة (٥١هـ)(١).

خلاصة

ولاية أمور النَّاس أمانةٌ عظيمة، وخطرها كبير، فلا يليق لأحدٍ أن يطلبها، فإن أتت إليه من غير طلبه أعانه الله عليها. ولا ينبغي لمسلم أن يجعل يمينَه مانعًا له عن الخير، بل يُكَفِّر عن يمينه ويفعل الخير.

(١) تُراجع ترجمته في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٧/ ١٥)، «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للمزيِّ (١٧/ ١٥٨، ١٥٩)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٢/ ٥٧١، ٥٧٢)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ٢٦٣).

فقه

١ نهى النبيُّ ﷺ أن يطلب الرجلُ ولايةَ أمرٍ من أمور المسلمين - كأن يكون أميرًا أو وزيرًا أو نحو ذلك -؛ لأنها مسؤولية عظيمةٌ وأمانةٌ كبيرةٌ في رقبة صاحبها، وقد قال ﷺ لأبي ذرٍّ ﵁ حين سأله الإمارة: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»(١).

٢ ثم أخبر ﷺ أنَّ الرجلَ إن طلب الإمارةَ لنفسه فأُوتيها، تُركت إليه ولم يُعِنه اللهُ سبحانه على مشاقِّها، فلا يُوَفَّقُ غالبًا في مَقْصِدِه، ولهذا قال ﷺ: «إِنَّا وَاللهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ، وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ»(٢).

ويُستثنى من ذلك الأنبياء؛ فهم معصومون من الذنوب، ولا يطمعون في رئاسة أو منصب، ولهذا قال يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

٣ أما إن أتته الإمارةُ من غير طلبٍ منه، واستعان بالله تعالى ثم اجتهد في القيام بمسؤولياتها، فإن اللهُ تعالى يعينه على نوائبِها، ويجعل التوفيقَ حليفَه.

٤ ثم أخبر ﷺ أنَّه لا يصحُّ للمسلم أن يجعل يمينَه عائقًا له عن فعل الخير؛ فإن حلف على شيءٍ ثم رأى خيرًا مما حَلَفَ عليه، فليُكفِّر عن يمينه، وليفعل الذي رآه خيرًا.

فإن كان حلف على معصيةٍ من المعاصي كقطع الرحم أو هجر الزوجة أو شكوى المَدينِ أو نحو ذلك، فإنه ينبغي عليه أن يُكفِّر عن يمينه ويصل رحمه وزوجتَه ويُمهل غريمَه؛ فإنَّ ذلك كله خيرٌ مما حلف عليه.

(١) مسلم (١٨٢٥).
(٢) مسلم (١٧٣٣).

اتباع

١ (١) إياك أن تطلب إمارةً أو ولاية، واسأل اللهَ السلامةَ والخير؛ فقد تُعطاها ولا تقدر على مهامها.

٢ (١) لا ينبغي لحريصٍ على الآخرة أن تكون المناصبُ همَّه؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

٣ (١) احذر عاقبةَ الولايات؛ فقد قال ﷺ: «لَيُوشِكَنَّ رَجُلٌ يَتَمَنَّى أَنَّهُ خَرَّ مِنْ عِنْدِ الثُّرَيَّا، وَأَنَّهُ لَمْ يَلِ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ شَيْئًا»[1].

٤ (١) قال ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى اللَّهَ مَغْلُولًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَكَّهُ بِرُّهُ، أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ، أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ، وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ، وَآخِرُهَا خِزْيٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

٥ (١) كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه فِي إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ رضي الله عنهما، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ، فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ، وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ»[3].

٦ (٢) ليتَّقِ اللهَ أناسٌ طلبوا الإمارة وسعَوا إلى تولِّي أمور المسلمين؛ لِيَصِلوا بذلك إلى شهوات خسيسة، وأغراضٍ مِن أعراض الدنيا الزائلةِ البخيسة؛ فوكَلَهم اللهُ إلى أنفسهم، فضاعوا وأضاعوا، وخسروا الدنيا والآخرة.

٧ (٢) ينبغي على وُلاة الأمور ألَّا يستعملوا من طلب أمرًا من الرئاسة والولاية؛ فإنَّ عاقبةَ ذلك الخذلان، وقد قال ﷺ: «إِنَّا وَاللهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ، وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ»[4].

٨ (٣) إذا أتتك المناصبُ طواعيةً من غير طلبٍ منك، فإن رأيتَ في نفسِك قوةً وأمانةً يُؤهلانك إلى قضاء حوائج النَّاس فلك أن تقبل ذلك محتسبًا، والله يعينك.

(١) أحمد (١٠٩٤٠).
(٢) أحمد (٢٢٦٥٦).
(٣) مسلم (٢٩٦٥).
(٤) مسلم (١٧٣٣).

٩ (٣) على وليِّ الأمر أن يُحسن اختيار نُوَّابِه وعُمَّاله ؛ فإنه مسؤولٌ عن أفعالهم .

١٠ (٤) اليمين اللغو لا يؤاخذ به ، فلا تشغل نفسك بما يسبق على لسانك من الأيمان من غير قصدٍ .

١١ (٤) إذا حلفت يمينًا على شيءٍ من الطاعات أو المعاصي أو المباحات ، ثمَّ رأيتَ أنَّه يمنعك عن خيرٍ مما حلفت عليه ؛ كأن تحلف على عدم الكلام اليومَ ، ثم رأيت احتياج النَّاسِ إلى فتواك ووعظك ، فكَفِّر عن يمينك وقدِّم الأهمَّ على المهم .

١٢ (٤) الأصلُ في الأيمان أن يُوَفِّي الحالِف بما حلف ، فلا يُحَنِّث نفسه إلا أن يكون السببُ مندوبًا إليه ؛ فلو حلف لا يلبس هذا الثوب ، فحِفْظُ اليمينِ أولى من التكفير عنه وإخلافه ، قال سبحانه : ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة : ٨٩] .

الحديث ٩٢

حقُّ وُلاةِ الأمور

عن ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

١ «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ

٢ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ؛

٣ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»[1].

(١) البخاريُّ (٧١٤٤)، مسلم (١٨٣٩).

آيـــات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢].

الراوي

عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ بنِ نُفَيلٍ، أبو عبد الرحمن القُرَشِيُّ العَدَوِيُّ، أَسلَم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه وما زال صغيرًا لم يَحتلِم، واستُصْغِرَ يومَ أُحدٍ فردَّه النبي ﷺ ولم يشارك في الغزوة، وأوَّلُ غزواته الخَنْدَقُ، وهو ممن بايع تحت الشجرة، وهو من المُكثِرين بالفُتيا والحديث، توفِّي سنة (٧٤هـ)[1].

خلاصة

يجِبُ على المسلم أن يَسمع لأُولي الأمر ويُطيعهم فيما ولاهم الله تعالى من أمور الولايات، إلا أن يُؤمَر بمعصيةٍ؛ فلا طاعةَ لمخلوقٍ في مَعصية الخالق.

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ١٠٥)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٣٢٢)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ١٥٥).

فقه

١ يَأمرُ النبيُّ ﷺ أُمَّته بوجوبِ السَّمعِ والطَّاعةِ لأُولي الأمر من الملوك والرؤساء ونُوَّابِهم؛ فإنَّ بهم استقرارَ الحياةِ التي ييسر اللهُ بها نشْرَ الدِّينِ وتطبيقَ أحكامِه، ولو اعتاد الناسُ عصيانَ الأنظمةِ لَصارت الأمور فَوضى، ولتَفكَّكت جماعةُ المسلمين، وسهُلَ على عدوِّهم القضاءُ عليهم.

٢ وسواء كان ذلك فيما تهواه النفوس من الأحكام أو الأشخاص؛ أو فيما تكرهه، فالواجب الصبر؛ قال ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَكَرِهَهُ فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ لَيسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَيَمُوتُ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»(١).

٣ لكنَّ تلك الطَّاعةَ ليست مطلَقةً؛ بل مُقَيَّدةً بما ليس مَعصيةً، فإنْ أَمَر بمعصيةٍ فلا سمْعَ ولا طاعةَ، قال ﷺ: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»(٢)، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]؛ فلم يَقُل: وأطيعوا أُولي الأمر منكم، وإنما جعلها تابعةً لطاعةِ اللهِ تعالى وطاعةِ رسوله ﷺ.

فإذا أمَر وليُّ الأمر بما فيه مَعصيةٌ لله تعالى، فلا تجوز طاعته في هذه المعصية فقطْ، لا في مُطلَق أمرِه ونهيِه، ولا يجوز الخروجُ عليه لأجل ذلك؛ بل يُشرَع للمسلم مُراجعتُه ومناصَحتُه بالحِكمة والموعظة الحَسنة بحسب ما تيسر من طبيعة كل عصر وحال.

(١) البخاري (٧١٤٣).

(٢) البخاريُّ (٧١٤٥)، مسلم (١٨٤٠).

اتباع

١ المسلم العاقل ينظر إلى أوامر الشرع قبل أن ينظر لهوى نفسه ومصلحتها الخاصة .

٢ جاءت طاعة ولاة الأمر بضوابطها في الآيات والأحاديث ، لأن فيها مصلحة الدين والدنيا ، ولو فكّر الإنسان في نظام بيته ، ونظام عمله ، ومجتمعه ؛ لرآها لا يستقيم أمرها إلا بوجود ولاةٍ للأمور .

٣ ينبغي على المسلمِ إذا رأى ما يُنكِر مِن ولاة الأمر شيئًا أن يُبادِر إلى أهلِ العلم ، فيَسألهم ويَستنصِحهم ، فربَّما ظنَّ الطاعةَ معصيةً ، والمعصيةَ طاعةً ، وربما لم يحسن التعامل معها .

٤ إذا تحقَّق المسلمُ مِن أنَّ وليَّ الأمر يأمرُ بمعصيةٍ لم يَجُزْ له طاعتُه فيما أمَر ، بل إن تيسر له النُّصحُ للأميرِ بلا فتنة نصحَه ، وإلا لم يعمل بما فيه معصية .

٥ لا تجوزُ طاعةُ أحدٍ في معصيةِ اللهِ تعالى ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ بايَع النَّاس على طاعته في المعروف ، وهو ﷺ لا يأمُرُ بمعصيةٍ ولا يَرضاها ، فكيف بغيرِه من النَّاس؟

٦ إذا أمَر الأميرُ بمعصيةٍ لم يكُن ذلك حاملًا على تركِ طاعته مطلقًا ، بل نُطيعُه في غيرِ ذلك الأمرِ .

الحديث ٩٣

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﵁ قَالَ:

١ بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي رَهْطٍ، فَقَالَ: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلا تَسْرِقُوا، وَلا تَزْنُوا، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ،

٢ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأُخِذَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَطَهُورٌ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَذَلِكَ إِلَى اللَّهِ؛ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»[(١)].

(١) البخاري (٦٨٠١).

آيـــات

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ۝٣١ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣١، ٣٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

الراوي

هو عُبَادَةُ بنُ الصامتِ بن قَيْس، أبو الوليد الأنصاريُّ، من أعيان البَدْرِيِّينَ، شَهِد العقبةَ مع السَّبعين من الأنصار، وهو أحدُ النُّقَباء الاثْنَيْ عَشَرَ، شهد بدْرًا وأُحُدًا والخَندق والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، وكان رَجُلًا طُوَالًا جَسِيمًا جميلًا، وجَّهه عمرُ قاضيًا إلى الشَّام ومعلِّمًا، فأقام بحِمْص، ثم انتقل إلى فِلَسْطِينَ، فسكَنَ بَيْتَ المَقْدِسِ، ومات بالرَّمْلة، ودُفِن بالقُدس، سنةَ (٣٤هـ)، وهو ابْنُ اثنتين وسبعينَ سنةً[(٢)].

خلاصة

بايَع النبيُّ ﷺ الأنصار ليلةَ العَقَبة على التوحيد والطاعة، وألَّا يَسرِقوا ولا يَزْنوا، ولا يَقتلوا أولادهم، ولا يَختلقوا الأكاذيب. فمَن حافَظ على بيعتِه فجزاؤه عند الله مِن الرِّضوان والجنة، ومَن أصاب شيئًا مِن معصية الله مما يَستوجِب الحَدَّ، فأُقيم عليه في الدنيا؛ فذاك مُكَفِّرٌ لذنبه، ومَن لم يُؤخَذ به فأمرُه إلى الله؛ إنْ شاء عذَّبه بذنْبه ثم أدخَله الجنة، وإن شاء غفر له.

(١) تراجع ترجمته في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ٤١٢)، «تهذيب الكمال» للمِزيِّ (١٤/ ١٨٣)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٣/ ٣٤١)، «الوافي بالوفيات» للصفديِّ (١٦/ ٣٥٣).

١ يُخبِر عبادةُ بن الصامت ﷺ عن مُبايعةِ النبيِّ ﷺ لنُقَباءِ الأوس والخَزْرَج من الأنصار ليلة العقبة الثانية بِمِنًى، حيث خرَج إليه ﷺ اثنا عشَرَ نَقيبًا يَنُوبون عمَّن آمَن من أهل يَثرِب، فيَذكُر عبادةُ ﷺ أنَّه بايَع النبيَّ ﷺ في جماعةٍ، فبايعهم على التوحيد ونبْذِ الشِّرك، وعلى ألَّا يَسرقوا أو يَزنوا، أو يَقتلوا أولادَهم، أو يَختلِقوا الشائعاتِ والأكاذيبَ، وعلى الطاعة لرَسول الله ﷺ.

وبدأ ﷺ بالتوحيدِ ونبذِ الشركِ لأنه أصل الإيمانِ والإسلام، فأولُ أركان الإسلام «لا إله إلا الله» كلمة التوحيد، والشرك أكبرُ الكبائرِ وأعظم الذُّنوب؛ قال ابن مسعود ﷺ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»(١)، وأخبر سبحانه أنَّ جميعَ المعاصي داخلةٌ في المشيئة إلا الشِّركَ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

ثُمَّ نَهاهم عن السرقة والزنا لأن الإسلامَ يَحمي أعراضَ النَّاسِ وأموالَهم، فلو استحلَّ النَّاسُ الزِّنا والسَّرقة، لَبغى بعضهم على بعضٍ، وأكَل القويُّ حقَّ الضعيفِ، واختلَطَت الأنسابُ، وانتشَر أولادُ الزنا؛ ولهذا نفى النبيُّ ﷺ الإيمانَ عن السَّارقِ والزاني، فقال: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(٢).

وقد كان العربُ يَقتلون أولادَهم لفقرِهم الحاصل، أو خَوفًا مِن حُدوثه بسببِهم، فنهاهم اللهُ عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وهذا في شأن الفقيرِ الذي يَقتل ولده لفقرِه، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٣١]، وهذا للرجلِ يَقتل ولدَه خشيةَ أن يُصيبه الفقرُ. ومنهم مَن كان يَدفِن بِنته حيَّةً خوفَ العارِ، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

---

(١) البخاريُّ (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) البخاريُّ (٢٤٧٥)، ومسلم (١٠٠).

ونَهاهم ﷺ عن افتراء الكذب ورمي الناس بالباطل، فيَشملُ ذلك شَهادةَ الزُّورِ وقذْفَ المؤمنين والمؤمنات، واغتيابَهم بما ليس فيهم، ومنه قوله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»(١).

٢ ثم أخبَرهم ﷺ أنَّ مَن ثبَت منهم على ما بايَع عليه فله الأجرُ من اللهِ تعالى، وهو رضوانُه جلَّ وعلا ودخولُ الجنَّة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الفتح: ١٠]. ومَن أصاب شيئًا ممَّا نهى اللهُ عنه من الحُدُودِ، فأُخِذَ به في الدنيا وأُقيم عليه الحدُّ فيه، فهو تَطهيرٌ لنفسِه من الذنْب ومُسقِطٌ عنه العقوبة في الآخرة؛ فمَن أُقيم عليه حدُّ الزنا أو السَّرقة أو شرب الخمر أو القذف ونحو ذلك في الدُّنيا، لم يُعاقَب عليه في الآخرة. ومَن ستَره اللهُ عزَّ وجلَّ فلم يُؤاخَذ بذنْبه ذلك في الدُّنيا، فأمرُه إلى الله تعالى؛ إن شاء عذَّبه بذنْبِه ذاك ثم أدخله الجنة، وإن شاء غفَر له.

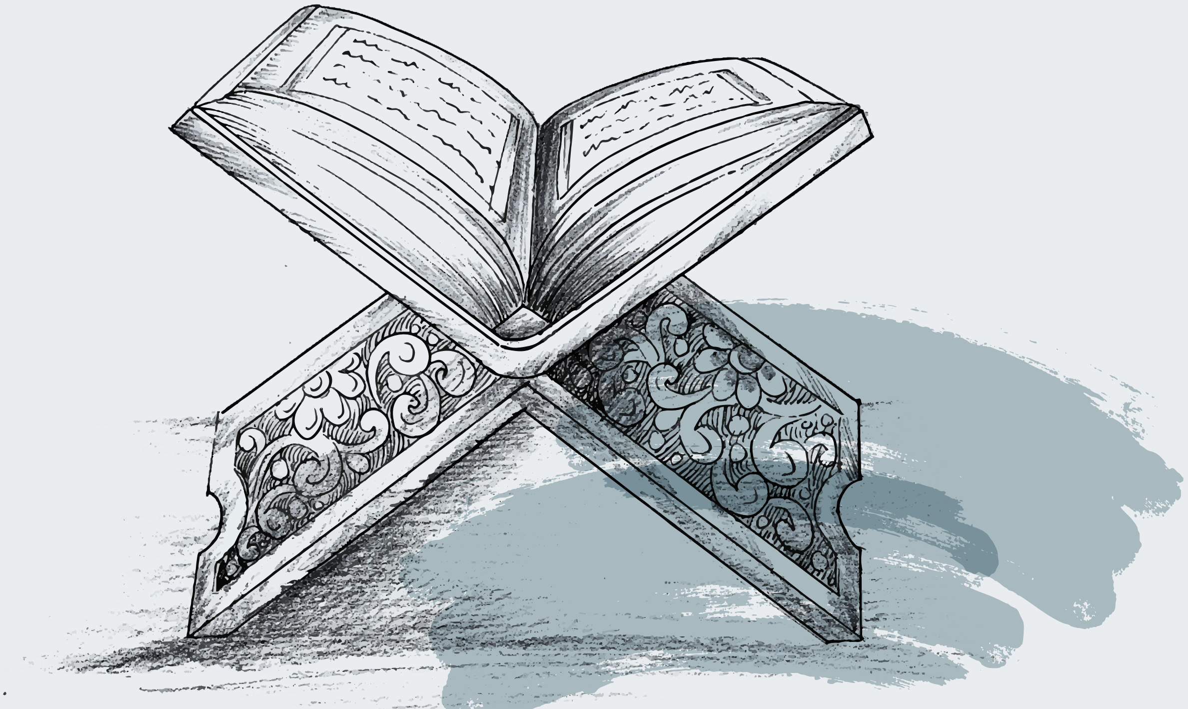

(١) مسلم (٢٥٨٩).

اتباع

١ (١) التوحيدُ أعظمُ الطاعاتِ التي يتقرَّب بها العبدُ إلى الله، ولهذا كان «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»[١]، والشركُ أكبرُ الكبائرِ، وهو الظُّلْمُ العظيمُ الذي لا يَغفِره الله سبحانه. فعلى كلِّ مسلم أن يُصحِّح توحيده لله تعالى، ويُهَذِّبه مِن دقائق الشِّرك.

٢ (١) بدأ النبيُّ ﷺ بالأهمِّ فالمُهم، فابتدأ البيعةَ بالتوحيد ونبْذِ الشِّرك، ثم ثنَّى بالزنا والسرقة والقتل ونحوها. فعلى الدَّاعية والعالم والمُرَبِّي أن يَحرِص على أهمِّ الأمورِ، فيُقدِّمها على غيرها.

٣ (١) المؤمنُ لا يَسرقُ أبدًا، ولا يَتطلَّع إلى ما ليس عنده، بل يَعلم أنَّ اللهَ تعالى قسَّم الأرزاقَ بحكمتِه، وأنَّ رِزقَه مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظ قبْل أن يخلُق اللهُ تعالى السماوات والأرض.

٤ (١) المؤمن يَعلمُ أنَّ اللهَ تعالى سيُحاسِبه على ماله؛ مِن أين اكتسَبه وفِيمَ أنفقه؟ ولهذا فهو أبعدُ النَّاسِ عن أخذ مالِ النَّاس بغير وجه حقٍّ.

٥ (١) المؤمنُ يَتجنَّب الزِّنا؛ فهو يَعلمُ أنَّ اللهَ تعالى حرَّم الزِّنا، وشدَّد في تحريمه حتى جعَله من الكبائر، فعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»[٢]، وتصديقُ ذلك من كتابِ اللهِ جلَّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

٦ (١) قتلُ النفسِ جريمةٌ عظيمةٌ عند الله تعالى، توعَّد سبحانه القاتلَ بأشدِّ العقوبات، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. فلا يجوزُ لمسلمٍ أن يَستبيحَ دماءَ النَّاس بغير وجهِ حقٍّ، كما أنَّه لا يُعقَل أن يُقدِم عاقلٌ على القتل وقد علِم هذا العقاب الأليمَ الذي يَنتظِره في الآخرة.

---

(١) الترمذيُّ (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠).

(٢) البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

٧ (١) الإيمانُ باللهِ تعالى والرضا بقَضائه أصلُ السعادةِ والرَّاحة في الدنيا؛ فالعبدُ إذا عَلِم أنَّ رزقَه بيَدِ الله تعالى، لا يُؤثِّرُ عليه كثرةُ النَّسل أو قِلتُه، لاطْمَأنَّ وارتاح قلبُه، ولم يَنزعِج بكثرة أولاده، فضلًا عن أن يَقتُلهم خَوف الفقر.

٨ (١) إذا كان القتلُ كبيرةً من الكبائر، فقتلُ الأولادِ أعظم جُرمًا؛ إذ فيها قطيعةُ الأرحام والشَّحناء بين الأهل، وخَراب البيوت، فضلًا عن سُوء الظنِّ باللهِ عزَّ وجل.

٩ (١) إثارةُ الشائعاتِ واختلاقُها ونشرُها من غيرِ تأكُّدٍ منها يخالِفُ الدِّينَ القويمَ، ولهذا نهانا اللهُ عزَّ وجلَّ عن ذلك فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٦، ١٧]، وتوعَّد مُثيري الفتنِ بقوله جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

١٠ (١) قيَّد النبيُّ ﷺ وجوبَ طاعته في المعروف، مع أنَّه ﷺ لا يَأمر إلا بالمعروف؛ ليكون ذلك أصلًا في جميع الطاعات؛ فلا يجوزُ أن تُطيع أحدًا أيًّا كان - والدًا أو وليَّ أمرٍ أو نحوهما - إلا في المعروف، فلا طاعةَ لمخلوقٍ في مَعصية الخالِق.

١١ (٢) إقامة الحدِّ كفَّارةٌ لصاحبه، فلا يجوز لمسلمٍ أن يسُبَّ رجلًا أُقيم عليه الحدُّ، فلمَّا سبَّ خالدٌ ﷺ المرأةَ التي أُقيم عليها الحدُّ، قال النبيُّ ﷺ له: «مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ»[١].

١٢ (٢) اعلم أنَّ حقوقَ العبادِ لا تَسقُط بمجرَّد التَّوبة، بل حتى تُرَدَّ المظالِمُ إلى أهلها، فاحرِص على التَّحَلُّلِ من ذنوب النَّاس قبل أن يكونَ التراضِي بالحسناتِ والسيئات.

١٣ (٢) يُستحَبُّ للمسلم إذا اقترَف ذنبًا أن يَستُر نفسَه ويتوبَ إلى اللهِ تعالى ولا يُعرِّض نفسَه لإقامةِ الحدِّ والتعرُّض للفضيحة؛ فقد جاء ماعزٌ إلى أبي بكرٍ الصدِّيق ﷺ، فأخبَره أنه قد زنى، فقال أبو بكر ﷺ: هل ذكرتَ هذا لأحدٍ غيري؟ قال: لا. قال: فتُبْ إلى الله واستَتِرْ بسَترِ الله؛ فإن الله يَقبل التوبةَ عن عباده، فلم تُقرَّه نفسُه حتى أتى عمر بن الخطَّاب ﷺ، فقال له كما قال أبو بكر ﷺ، فلم تُقرَّه نفسه حتى أتى رسول الله ﷺ فأقام عليه الحدَّ[٢].

---

(١) مسلم (١٦٩٥).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٦٩٩٩)، عن سعيد بن المسيب رحمه الله مرسلاً.

الحديث ٩٤

الصَّبرُ والشُّكر

عن أبي يحيى صهيب بن سنان ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

١ «عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ،

٢ إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له،

٣ وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له»[(١)].

(١) مسلم (٢٩٩٩).

آيات

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [إبراهيم: ٥].

﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧].

الرّاوي

هو: أبو يحيى، صهيب بن سنان النَّمِريّ الرُّومِيُّ، أَسَرَته الرُّوم وأقام فيهم ونطق بلسانهم فعُرف بذلك، من السَّابقين الأولين، وكان ممَّن عُذِّب في ذات الله تعالى، شهد بدرًا وما بعدها، وصلَّى بالمؤمنين عند مقتل عمر بن الخطاب ﵁، واعتزل الفتنة ومات ﵁ سنة (٣٨هـ)[(١)].

خلاصة

يُبَشِّرُ النبيُّ ﷺ المؤمنين بأنَّ مآل جميع أمرهم إلى خيرٍ؛ فإن أُنعم عليهم شكروا فأُجروا، وإن ابتُلُوا صبروا فأُجروا.

(١) انظر ترجمته في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٢/ ٧٢٦)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢/ ١٧).

١ يتعجب النبيُّ ﷺ لشأن المؤمنِ وحالِه مع اللهِ سبحانه، وهو تعجُّب استحسانٍ وفرحٍ؛ إذ إنَّ المؤمن في جميع أحوالِه غانمٌ مأجورٌ.

٢ فإنه إذا أنعم اللهُ عليه بنعمةٍ تسرُّه في نفسه أو مالِه أو أهله، قابَل تلك النعمة بشُكرِ اللهِ تعالى عليها، فكانت عاقبةُ الشكر خيرًا له؛ حيث يزيده اللهُ تعالى بنعمه، ويأجُره على شُكرِه.

٣ وإذا ابتلاه بما يضرُّه ويؤذيه، صَبرَ على البلاء، ورَضِي به، واحتسب الأجرَ والثَّوابَ عند اللهِ تعالى، فألهمه اللهُ الصبرَ والسلوان، وأجزل له العطاءَ مكافأةً لصبره ورضاه.

وهذا الحديث يشمل جميع أقضية اللهِ تعالى لعباده؛ فإنه إما أن يبتليهم بالشرِّ أو بالخير، وقد قال سبحانه: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥]؛ فإذا صبر المؤمن على الشرِّ وشكر على الخير فقد استوفى الإيمان، ولهذا قال السَّلَف: الإيمان نصفان؛ نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [إبراهيم: ٥][(١)].

(١) «جامع المسائل» لابن تيمية – المجموعة الأولى (ص: ١٦٥).

اتّباع

١ (١) المؤمن الحقُّ الراضي بقضاء اللهِ تعالى وقدَرِه، الصابرُ على ما أصابه، الشاكرُ نعمةَ اللهِ تعالى عليه - جميع أمورِه تجري على أفضل مطلوب. فاحرص على بلوغ درجة الراضي الشاكر تعظم منزلتُك وتتضاعف حسناتك.

٢ (٢) اشكر نعم الله سبحانه عليك التي لا تُعَدُّ ولا تحصى، فكم من نعمةٍ في دينك ودنياك ونفسك وصحتك وتعليمك وتجارتك وعملِك ومالك وأهلك أنت غارقٌ مغبونٌ فيها، لم تؤدِّ حقها من الشُّكْر والاعتراف!

٣ (٢) الشكر يستوجب الزيادة والبركة. فاشكرْ تُزَد.

٤ (٣) واجِه البلاءَ بقلبِ مؤمنٍ يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنَّ قدرَ اللهِ نافذٌ.

٥ (٣) إياك والجزع من قدر الله، فإنَّ البلاءَ نازلٌ لا محالة، فالصابر مأجورٌ مُعانٌ، والقانط مأزورٌ مُهان.

٦ (٣) قال سعيد بن جبير -رحمه الله-: «الصبر اعتراف العبد لله بأنَّ ما أصابه منه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجلُ وهو يتجلد لا يُرى منه إلا الصبر»(١).

٧ (٣) قال ابن رجب-رحمه الله-: «أهل الرضا تارةً يلاحظون حكمة المبتَلِي وخيرته لعبده في البلاء، وأنه غير مُتَّهم في قضائه، وتارة يلاحظون ثواب الرضا بالقضاء، فينسيهم ألم المَقْضِيِّ به، وتارة يلاحظون عظمة المُبْتَلِي وجلالَه وكمالَه، فيستغرقون في مشاهدة ذلك، حتى لا يشعرون بالألم، وهذا يصل إليه خواص أهل المعرفة والمحبة، حتى ربما تلذذوا بما أصابهم لملاحظتهم صدوره عن حبيبهم، كما قال بعضهم: أوجدهم في عذابه عذوبة»(٢).

٨ (٣) سئل بعض التابعين عن حاله في مرضه، فقال: «أَحَبُّه إليه أَحَبُّه إِلَيَّ»(٣).

٩ (٢، ٣) قال عمر بن الخطاب ﷺ: لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبتُ(٤).

---

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم (ص: ٩٧).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٤٨٧).

(٣) المصدر السابق.

(٤) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم (ص: ٩٤).

قال الشاعر:

وَمِنَ الرَّزِيَّةِ أنَّ شُكْري صامتٌ　　　عـمَّا فعلتَ وأنَّ بِرَّكَ نـــــاطقُ
وأرى الصَّنِيعةَ منك ثم أُسِرُّها　　　إنـي إذًا لنَدَى الكَـرِيمِ لَســـارِقُ

قال غيره:

إذا كان شُكري نعمةَ اللهِ نعمةً　　　عليَّ له في مِثْلِها يجـبُ الشـــكرُ
فكَيْفَ وقوعُ الشُّكْرِ إلَّا بفضلِه　　　وإنْ طالتِ الأيامُ واتَّصـــلَ العمرُ
إذا مسَّ بالســـرَّاءِ عمَّ سرورُها　　　وإن مسَّ بالضـــرَّاءِ أعقبَها الأجْرُ
فمـــا منهمـــا إلا لهُ فيه نعمـــةٌ　　　تَضِيقُ بها الأوهامُ والسِّرُّ والجهرُ

الحديث ٩٥

الصِّدق

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

١ «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا،

٢ وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[1].

(١) البخاريُّ (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

آيـــات

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

الراوي

هو: عبدُ الله بنُ مسعودِ بنِ غافلِ بنِ حبيبٍ، الهذليُّ، أبو عبد الرحمن، صاحبُ رسول الله ﷺ، أَسلم بمكَّةَ قديمًا، وهاجر الهجرتَين، وشهد بَدْرًا والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، وهو صاحبُ نَعْلِ رسول الله ﷺ، كان يُلبِسُه إيَّاها إذا قام، فإذا جلس أدخلها في ذراعه، تُوفِّيَ بالمدينة سنةَ (٣٢هـ)، أو (٣٣هـ)[1].

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ الصدقَ دليلٌ إلى كلِّ خير، فيؤدي ذلك إلى دخول الجنة، وإنَّ الرجل ليعتاد الصدق حتى يَدخل في زُمرة الصِّدِّيقين. وفي المقابل فإنَّ الكذب بابُ كلِّ معصيةٍ وفسادٍ، وهو باعثٌ إلى دخول النار، وإنَّ الرجل ليعتاد الكذب حتى يُختم له بختم الكذابين.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ١٧٦٥)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ٩٨٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ١٩٨).

فقه

١ يأمرُ النبيُّ ﷺ أُمَّتَه بأن تلتزمَ الصِّدْقَ ؛ فإنَّ الصِّدق يهدي صاحبَه إلى البر ، وهو اسمٌ جامعٌ لكل خيرٍ ، فيقودُه ذلك إلى دخول الجَنَّة . وإنَّ المسلمَ ليصدقُ ويعتاد الصِّدْق ويألفُه في الرَّخاءِ والشِّدةِ حتى يُكتبَ عند الله صِدِّيقًا .

والصِّدِّيقُ : المُلازمُ للصِّدقِ الذي لا يَكذِب . فإذا أدمنَ العبدُ الصِّدْقَ كتبه اللهُ سبحانه عنده صِدِّيقًا ، فيشتهر بين النَّاس بذلك إكرامًا له كما يُوضعُ له القَبُول بينهم ، ويشتهر بذلك في الملأ الأعلى جزاءً لِصِدْقِه ، وحَشَرَه جلَّ وعلا في زُمْرَةِ الصِّدِّيقين ، وهم أعلى النَّاس منزلةً بعد الأنبياء ، قال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء : ٦٩] .

وقد أَمَر اللهُ تعالى عبادَه بالصِّدق والدُّخولِ في كَنَفِ الصَّادقين ، قال جلَّ وعلا : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وأخبر ﷺ أنَّ أفضلَ النَّاسِ الصَّادقون ؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قَالَ : قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : «كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ ، صَدُوقِ اللِّسَانِ»[١] .

٢ وحذَّر ﷺ من الكَذِب ؛ فهو رأسُ كلِّ شرٍّ ، وهو القائدُ إلى الفساد والمعاصي ، وذلك مُفْضٍ إلى أن يُكَبَّ الكاذبُ في النَّار . وأخبر ﷺ أنَّ الرجلَ إذا أَلِفَ الكذبَ واعتادَه كُتب عند الله تعالى كَذَّابًا ، فيشتهر بين النَّاس وصفُه بذلك تعييرًا له وتوبيخًا ، ويُذَمُّ بذلك بين أهل الملأ الأعلى ، ويُحشر يومَ القيامةِ في زُمرة المنافقين .

وقد أخبر ﷺ أنَّ الكذب من صفات المنافقين وأماراتهم ، قال ﷺ : «آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذَبَ ، وإذا وعَدَ أخلَفَ ، وإذا اؤتمنَ خانَ»[٢] .

وقد جعل النبيُّ ﷺ المُعوَّل في صلاحِ العبدِ وفساده على اللسان ؛ فقال ﷺ : «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»[٣] .

---

(١) ابن ماجه (٤٢١٦) .

(٢) البخاريُّ (٣٣) ، ومسلم (٥٩) .

(٣) أحمد (١٣٠٧٩) .

اتّباع

١ (١) الزم الصدق؛ فإنَّه الفاصلُ المميز بين النفاق والإيمان، والحكم العدل بين أهل الجنة وأهل النيران.

٢ (١) الصِّدْقُ هو المرتبة العليا في الإسلام، ولهذا أرشد اللهُ تعالى عباده أن يكونوا مع الصَّادقين، وجعل جزاءَ أصحابِ الطاعات أن يُحشروا مع الصِّدِّيقين، وهذا يدلُّ على عظيم منزلتهم وقُربهم من اللهِ تعالى. أفلا يُطَمِّعنا هذا أن نحرص على الصِّدق؟!

٣ (١) فضَّلَ اللهُ سبحانَه اللسانَ على سائر الجوارح، ورفع درجته، وأبان فضيلتَه، بأن أنطقه من بين سائر الجوارح بتوحيده. فلا يحسن بالمسلم أن يعوِّد لسانه على الكَذِب؛ بل يجب عليه أن يعوده لزوم الصدق، وما يَعُود عليه بالنفع في دارَيْهِ؛ لأنَّ اللسان يقتضي ما عُوِّد؛ إن صدقًا فصدقًا، وإن كذبًا فكذبًا.

٤ (١) إذا أردتَ أن يحسن أثرُك في النَّاس، فلا تجعلهم يتهمونك بكذبٍ أو رِيبةٍ، فكن صادقًا يكتبك الله في الصِّديقين ويُوضع لك القبول في الأرض.

٥ (١) الصِّدْق في القول يرفع درجات العبدِ في الدُّنيا والآخرة؛ قيل للقمان الحكيم ﵁: «ما بلغ بك ما نرى؟ قال: صدق الحديث، وأداءُ الأمانة، وتركي ما لا يَعنيني»[(١)].

٦ (١) الصِّدقُ صفةٌ من صفات الله تعالى، قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢]. فهلَّا تشبَّهنا باللهِ عزَّ وجلَّ في صفته!

٧ (١) إذا أردتَ صلاح الأعمال فابدأ بإصلاح الكلام، فلا تنطق إلا صدقًا؛ فإن الصِّدق يهدي إلى البرِّ. قال يونسُ بنُ عبيد رحمه الله: «ما رأيت أحدًا لسانُه منه على بال، إلا رأيت ذلك صلاحًا في سائر عمله»[(٢)].

٨ (١) إياك أن تظنَّ أنَّ النَّجاةَ في الكَذِب؛ فربما تنطلي حِيَلُك وأباطيلُك على النَّاس، لكنَّها لن تمرَّ على ربِّك. فالزم الصِّدْقَ تنجو. فهذا كعبُ بنُ مالكٍ ﵁ لمَّا تخلَّف عن غزوةِ تبوك، وجاء المنافقون إلى النبيِّ ﷺ يعتذرون إليه بالأباطيل والأكاذيب، أبى إلا أن يَصْدُق النبيَّ ﷺ القولَ، فكانت عاقبةُ ذلك أن قَبِلَ اللهُ تعالى توبته، وأنزل فيه آياتٍ تُتلى، وختمها بقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩][(٣)].

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٣٢٨).

(٢) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (١١٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٦٠).

(٣) البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

قال الشاعر:

وإذا الأُمورُ تزاوجتْ فالصِّدْقُ أكْرَمُها نِتَاجَـا
الصِّدْقُ يَعْقِدُ فَوْقَ رَأْ سِ حَلِيفِهِ بالصِّدْقِ تاجَا
والصِّدْقُ يَقْدَحُ زَنْدَهُ في كُلِّ ناحيةٍ سِــرَاجَا

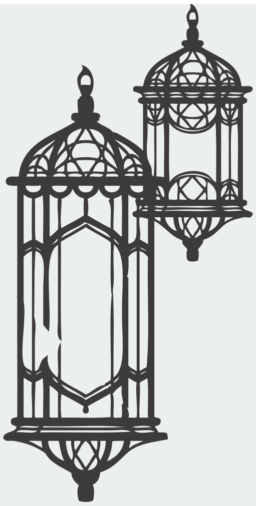

١٠ (٢) توعَّد اللهُ تعالى الكاذبين بالعقابِ في النَّار والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧]. فالحذرَ الحذرَ من عذاب الله تعالى.

١١ (٢) أشدُّ أنواعِ الكذبِ: الكذبُ على اللهِ تعالى بتحريم ما أحلَّ وتحليل ما حرَّم، افتراءً على اللهِ تعالى وتَقوُّلًا عليه بغير علم. قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦- ١١٧]. فإياكَ أن تقول في شرعِ اللهِ سبحانه بغير علم، قل: اللهُ أعلم، ودُلَّ السَّائلَ على أهلِ العلمِ والفتوى، فذلك خيرٌ من الوقوع في الإفك والافتراءِ على اللهِ جلَّ وعلا.

١٢ (٢) ابتعد عن الكَذِب مطلقًا، فلا تكذب جادًّا ولا هازلًا، فقد قال ﷺ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ»(١).

قال الشاعر:

كَذَبْتَ وَمَنْ يَكْـذِبْ فَإِنَّ جـزَاءَهُ إذا مَا أَتَى بالصِّـدْقِ أَنْ لا يُصَدَّقَا
إذا عُرِفَ الكذَّابُ بالكِذْبِ لَمْ يَزَلْ لَدَى النَّاسِ كذَّابًا وإنْ كَانَ صَادِقَا
ومِنْ آفَةِ الكـذَّابِ نِسْـيَانُ كِـذْبِهِ وتَلْقَـاهُ ذا ذِهْنٍ إذا كَـانَ حاذِقَا

(١) أبو داود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥).

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ ﵁، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[(١)].

(١) البخاري (٣٤٨٤).

آيـــات

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ [القصص: ٢٥].

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

الراوي

هو: عُقْبَةُ بنُ عَمْرِو بنِ ثَعْلَبَةَ الأَنْصَارِيُّ، من بني الحارثِ بنِ الخَزْرَج، أبو مسعود، وهو مشهورٌ بكُنْيته، ويُعرَف بأبي مسعود البَدْريِّ، قيل: لم يَشهَد بَدْرًا؛ إنما نزل بِمَوْضِعٍ يقال له: بَدْرٌ، فَشُهِر بذلك، وكان مِمَّن شَهِد بَيْعَة العقَبة، وكان شَابًّا من أَقْران جابر ﵁ في السِّنِّ. روى أحاديثَ كثيرةً، وهو معدودٌ في علماء الصحابة. نزل الكُوفَةَ، واستخلفه عَليٌّ يومَ خُروجه إلى صِفِّينَ، وَتُوفِّي سنة إحدى أو اثنتين وأربعين للهجرة»[(١)].

خلاصة

توارث النَّاسُ من كلام الأنبياء السابقين وشرائعهم قولَهم: «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت» أي: إن الحياء يمنع صاحبَه عن كثيرٍ من المُنكرات، فمن لم يكن لديه حياءٌ لم يصرفه شيءٌ عن صُنع ما بدا له.

(١) تراجع ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ١٠٥)، «الوافي بالوفيات» للصفديِّ (٢٠/ ٦١)، «البداية والنهاية» لابن كثير (٧/ ٣٥٦).

يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ النَّاسَ توارثوا جيلًا عن جيلٍ من كلام النبوةِ المتقدمةِ مِمَّا لا يتغير ولا يُنسخ قولَهم: «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»، وهو أمرٌ قد عُلم صوابُه، واتَّفقت العقول على حُسنه، وما كان هذا صفتَه، لم يَجُزْ عليه النَّسخ والتبديل»[١].

ومعنى تلك المقولة أنَّ الحياء هو الذي يمنع الإنسانَ عن كثيرٍ من القبائح، فمن لم يكن له حياءٌ لم يزجره شيءٌ عن الفحشاءِ والمنكر.

والحياءُ خُلُقٌ حميدٌ يبعث في صاحبه الانقباضَ عن الشيءِ وتركَه حذرًا من اللوم فيه أو المَذَمَّةِ به، وهو رأسُ الفضائلِ والشِّيم والأخلاق، وهو عِمادُ شُعَب الإيمان، وبه يتمُّ الدين، وهو دليلُ الإيمان، ورائدُ الإنسان إلى الخير والهدى، وهو خُلُقٌ يَبعَث صاحبَه على اجتناب القَبِيح، ويَمنَعه من التقصير في حقِّ ذي الحقِّ.

وأول الحياء وأَوْلاه: الحياءُ من الله تعالى، وهو ألَّا يراك حيث نهاك، وذلك لا يكون إلا عن معرفة بالله تعالى كاملة، ومُراقبة له حاصلة، وهي المعبَّر عنها بقوله: «أن تعبُدَ اللهَ كأنك تراه؛ فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراكَ»[٢]. وهو ما أراده النبيُّ ﷺ بجعله من شُعَب الإيمان؛ حين قال ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ؛ وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ»[٣].

ولهذا أخبر ﷺ أنَّ الحياءَ شُعْبَةٌ من الإيمان[٤]، ومَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَجُلٍ، وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخَاهُ فِي الحَيَاءِ، يَقُولُ: إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي، حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ: قَدْ أَضَرَّ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعْهُ، فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ»[٥].

والحياءُ نوعان؛ أحدهما: غريزيٌّ، وهو خُلُقٌ يمنحُه اللهُ سبحانه للعبدَ ويجبُلُه عليه، فيكُفُّه عن ارتكاب القبائح والرذائل، ويحثُّه على فعل الجميل، وهو من أعلى مواهب الله للعبد، فهذا من الإيمان باعتبار أنه يؤثِّر ما يؤثِّره الإيمان من فعل الجميل والكَفِّ عن القبيح، وربما ارتقى صاحبُه بعده إلى درجة الإيمان.

---

(١) «معالم السنن» للخطابيِّ (٤/ ١٠٩، ١١٠).

(٢) البخاريُّ (٥٠)، ومسلم (٨).

(٣) الترمذيُّ (٢٤٥٨).

(٤) البخاريُّ (٩)، ومسلم (٣٥).

(٥) البخاري (٦١١٨).

والنوع الثاني يكون مُكتَسَبًا ، إما من مقام الإيمان ؛ كحياء العبد من مقامه بين يدَيِ الله يوم القيامة ، فيوجِب له ذلك الاستعدادَ للقائه ، أو من مقام الإحسان ؛ كحياء العبد من اطِّلاع الله عليه وقُربه منه ؛ فهذا من أعلى خصال الإيمان[(1)] .

(١) انظر : «فتح الباري» لابن رجب (١/ ١٠٢) .

اتّباع

(١) الحياءُ خُلُقٌ جميلٌ، يهذب النفوس ويدعوها إلى التحلي بالأخلاق الحميدة، والبعد عن الفواحش والمعايب. فينبغي على كلِّ مسلمٍ أن يتعاهد حياءَه ويُنَمِّيه.

(٢) الحياءُ خُلُقٌ نَبوِيٌّ؛ فقد كان ﷺ حيِيًّا، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ»[١]، وقال ﷺ في حقِّ كليم اللهِ موسى ﷺ: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلاً حَيِيًّا سِتِّيرًا، لاَ يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ؛ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ»[٢]. أفلا يجبُ أن نتشبَّه بأنبياءِ اللهِ تعالى؟!

(٣) مَن أراد دخول الجنة فليحرص على الحياء؛ فإنَّ من أعظم فضائل الحياء أنه يُفضي إلى جنةٍ عَرْضُها السماوات والأرض؛ قال النبيُّ ﷺ: «الْحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ»[٣].

(٤) الحياءُ زينةُ الأخلاقِ، فمَن تزيَّن به فهو المحمودُ عندَ اللهِ تعالى وعند الناس، ومَن نَزَع حياءَه كان مذمومًا عند اللهِ تعالى وعند النَّاس. قال النبيُّ ﷺ: «مَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَه»[٤].

(٥) الحياءُ خُلُقٌ ربَّانيٌّ، يكفي الحَيِيَّ شرفًا أنَّه مُتَشَبِّهٌ بالحقِّ تبارك وتعالى في صفته؛ قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ، فَيَرُدَّهُمَا صِفْرًا - أَوْ قال: خَائِبَتَيْنِ»[٥].

(٦) قال الفُضَيْل بنُ عِيَاضٍ رحمه الله: «خمسٌ من علاماتِ الشَّقاوة: القَسْوَةُ في القلب، وجُمودُ العَيْن، وقِلَّةُ الحياء، والرغبة في الدنيا، وطولُ الأمل»[٦].

---

(١) البخاريُّ (٣٥٦٢)، ومسلم (٦٧).
(٢) البخاري (٣٤٠٤).
(٣) أحمد (١٠٥١٢)، والترمذيُّ (٢٠٠٩)، وابن ماجه (٤١٨٤).
(٤) الترمذيُّ (١٩٧٤)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٦٠١).
(٥) ابن ماجه (٣٨٦٥).
(٦) البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (١٠/ ١٨٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٤١٦).

قال الشاعر:

إذا لم تَخْـشَ عـاقِبَةَ الليالي ... وَلَمْ تَسْـتَحْيِ فَاصْنَعْ ما تَشـاءُ

فَلا واللهِ ما في العَيْـشِ خَيْرٌ ... ولا الدُّنيـا إذا ذَهَـبَ الحيَاءُ

يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ ... وَيَبْقَى الْعُـــودُ ما بَقِيَ اللِّحَاءُ

قال غيره:

إِذَا حُرِمَ الْمَرْءُ الحَيَـاءَ فإنَّـــهُ ... بِكُـلِّ قَبِيـــحٍ كَانَ مَنْهُ جَدِيرُ

لَهُ قِحَـــةٌ في كُلِّ شَيْءٍ، وسِـرُّهُ ... مُبَاحٌ، وَخِـدْنَاهُ خَنًا وغُـــرُورُ

يَرَى الشَّتْمَ مَدْحًا وَالدَّنَاءَةَ رِفْعَةً ... وَللسَّمْعِ منه فــي العِظَاتِ نُفُورُ

وَوَجْهُ الحَيَاءِ مُلْبَسٌ جِـلْدَ رِقَّةٍ ... بَغِيضٌ إليـه مــــا يَشِينُ كَـثِيرُ

لَـهُ رَغْـبَةٌ في أَمْـرِه وَتَجَـــرُّدٌ ... حَلِيمٌ لَدَى جَـهْلِ الجَهُولِ وَقُورُ

فَرَجِّ الفَتَى مـا دَامَ يَحْيَا فإنـــَّهُ ... إلى خَيْرِ حَـــالاتِ الْمُنِيبِ يَصِيرُ

الحديث ٩٧

حسنُ الكلامِ والمُعاملة

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الكَعْبيِّ ﵁، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ:

١ «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جارَهُ،

٢ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ» قَالَ: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ،

٣ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»(١).

(١) البخاريُّ (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨).

آيـــات

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٧].

الرّاوي

هو: أبو شُرَيْحٍ الكَعْبيُّ ﵁، صحابيٌّ جليل، مشهور بكُنْيَته، واختُلف في اسمه، فقيل: اسمُه كعبُ بنُ عمرٍو، وقيل: عمرُو بنُ خُوَيْلِدٍ، والأصحُّ: خُويلدُ بنُ عمرِو بنِ صخرِ بنِ عبدِ العزَّى، كان من عقلاء الرجال، أسلَم قبل فتح مكَّة، وكان يحمِل أحد ألوية بني كعبِ بنِ خُزاعةَ يومَ فتحِ مكَّة، ثم نزل المدينة، وتوفِّي بها سنةَ ثمانٍ وستِّين من الهجرة(١).

خلاصة

يحث النبيُّ ﷺ المؤمنين على الإحسان إلى الجار، وعلى إكرام الضيف؛ فيتخير له في اليوم الأول أطيب الطعام، ثم يأكل من طعام أهل البيت بعد ذلك، كما يحضُّ كذلك على حفظ اللسان، فلا يتكلم المؤمن إلا بخير.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٢/ ٩٦٠)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٢/ ٤٥٥)، «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير (٦/ ١٦٠)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٧/ ١٧٣).

١ يخبر النبيُّ ﷺ عن بعضِ خصال الخير، فيذكر منها إكرامَ الجارِ، فالمؤمنُ مطالبٌ بإكرام جارِه وحفظِ حقوقه، فيتعاهده بالبرِّ والخير، ويتفقَّدُ حالَه، ويلاطفه في القول، ويعاونه فيما يحتاج، ولا يؤذيه بقولٍ أو فعلٍ.

ولهذا أوصى اللهُ سبحانَه بالإحسانِ إلى الجار، قال سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، ونزل جبريل مرارًا على النبيِّ ﷺ يُوصيه بجارِه، قال ﷺ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[١].

وقد أقسم ﷺ على نقصِ إيمان مَن آذى جارَه، قال ﷺ: «وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[٢].

٢ كما ذكر أيضًا إكرامَ الضيفِ، وجعله من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر، وقد أخبر ﷺ أَنَّ هَدِيَّةَ المُضَيِّف لضيفه وعَطِيَّتَه له أن يُكرمه ويجودَ عليه بأطيب الطعام والفراش في يومِه وليلته، ثم بعد ذلك يُطعمه مِمَّا يأكل من غير تَكَلُّفٍ، وتمام الضيافةِ ثلاثةُ أيام، فإن أحبَّ المُضَيِّفُ أن يُقيم الضيفُ عنده بعدَ ذلك فهو صدقةٌ وتَفَضُّلٌ منه، ولا لَوْمَ عليه إن لم يفعل؛ فقد أدَّى ما عليه بإكرامِه إلى ثلاثة أيام.

وإنَّما جعل ﷺ للضيفِ جائزةً في أولِ يومٍ وليلةٍ لما حصل له من التعب والمشقَّة في سَفَرِه، فيرتاح بذلك، ويأنس إلى مُضَيِّفِه، فتشتدُّ أواصرُ المحبة والتوادِّ بين المسلمين، فإذا حَصَل ذلك لم يَتَكَلَّفِ المُضَيِّفُ بعدُ، وإنَّما يُطعمُه ممَّا يجد.

٣ ثم ذكر ﷺ الخصلة الثالثة، وهي أنَّ المؤمن عليه أن ينظر في كلامِه الذي يُريد أن يتكلم به؛ فإن وجده خيرًا أو سبيلًا إلى خيرٍ قالَه، وإن وجده غيرَ ذلك سَكَتَ؛ فإنَّ السكوتَ غنيمةٌ إذا كان الكلامُ فيه معصيةٌ أو مفضيًا إلى معصية، والمرءُ مُحاسَبٌ على كلِّ ما يتلفَّظُ به، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، و «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»[٣].

وهذا الحديثُ من جوامع أبواب الخير، حتى إنَّ أهلَ العلم ذكروا أنَّ الآداب الإسلامية تدور حول أربعة أحاديث؛ هذا الحديث، وحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وقوله ﷺ للذي اختصر له الوصية: «لا تغضب»، وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه»»[٤].

(١) البخاريُّ (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) البخاري (٦٠١٦).
(٣) البخاريُّ (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨).
(٤) ينظر: «شرح النوويِّ على مسلم» (٢/ ١٩).

اتّباع

١ (١) من علامات استقرارِ الإيمان وزيادته في قلب العبد المؤمن أن يُكرم جارَه ولا يؤذيَه. ففَتِّش عن تلك الأمارةِ في نفسك.

٢ (١) إياك أن تؤذيَ جارَك فتُحرم دخول الجنة؛ فقد قال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[١].

٣ (١) كُلَّما كان الجارُ أقربَ بابًا كان آكدَ حقًّا، وأولى بالإكرامِ. فينبغي على الجار أن يحفظ حقوقَ جارِه، فلا يتطلع إلى عوراته، بل يتعاهده بالهدايا والدعوة، ويلاطفه بالقول والفعل.

٤ (١) ليس حسنُ الجوارِ مقتصرًا على إكرامِ الجارِ فحسب، بل كذلك أن تتحمَّلَ منه الأذى غير المتعمد، قال الحسن البصري رحمه الله: «ليس حُسْنُ الجِوار كفَّ الأذى، ولكنْ حُسْنُ الجوار احتمالُ الأذى»[٢].

٥ (٢) إكرامُ الضيف من الإيمان باللهِ تعالى، والاقتداءُ بأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام؛ فقد وصف القرآنُ كرمَ خليل الرحمن إبراهيم ﷺ، وكان نبيُّنا محمد ﷺ كريمًا جوادًا، أجودَ بالخير من الرِّيح المرسلة، ولهذا قال عبدُ الله بن عمرو رضي الله عنهما: من لم يُضِفْ، فليس من محمّد، ولا من إبراهيمَ[٣].

٦ (٢) على المسلم أن يتصف بإكرام الضَّيف، وألَّا يردَّ نازلًا نزل به إن وجد خيرًا، وألَّا يقتصر ذلك منه على مَن يعرِف دون مَن لا يعرف؛ وقد نزل أبو هريرة رضي الله عنه على قومٍ لا يعرفونه، فأَبوا أن يُضَيِّفوه، ثم إنَّه أتى بطعامٍ فدعاهم إليه فأَبَوا أن يأكلوا معه، فقال لهم: لا تُنزلون الضَّيف ولا تُجيبون الدّعوة! ما أنتم من الإسلام على شيء. فعَرَفه رجلٌ منهم، فقال له: انزل عافاك اللّه، فقال رضي الله عنه: هذا شرٌّ وشرٌّ، لا تُنزلون إلَّا من تعرفون؟!؟[٤].

٧ (٣) ينبغي على المسلم أن يتعاهد كلامَه، فلا يُطلق لسانَه فيما حلَّ وحرُم، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من كَثُر كلامه، كثر سَقْطه، ومن كَثُر سقطه، كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه، كانت النّار أولى به»[٥].

---

(١) مسلم (٤٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبليّ (١/ ٣٥٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٣٥٦).

(٤) المصدر السابق.

(٥) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٣٣٩).

٨ (٣) قال محمّدُ بنُ عجلانَ رحمه الله: «إنّما الكلام أربعة: أن تَذكُر اللّه، وتقرأ القرآن، وتُسأل عن علم فتُخبر به، أو تكلَّم فيما يَعنِيك من أمر دنياك»[١].

٩ (٣) قال رجل لسلمانَ ﵁: «أوصني، قال: لا تَكَلَّمْ، قال: ما يستطيع من عاش في النّاس أن لا يتكلَّم، قال: فإن تكلَّمتَ، فتكلَّمْ بحقٍّ أو اسكُتْ»[٢].

١٠ (٣) كان أبو بكر الصّدّيق ﵁ يأخذ بلسانه ويقول: «هذا أَوْرَدني الموارد»[٣].

١١ (٣) قال ابن مسعود ﵁: «واللّه الّذي لا إله إلّا هو، ما على الأرض أحقُّ بطول سجن من اللّسان»[٤].

١٢ (٣) احفظ لسانَك تدخل الجنة؛ قال ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»[٥].

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٣٤٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) البخاري (٦٤٧٤).

الإحسانُ في كلِّ شيء

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﵁، قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال:

١ «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،

٢ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ،

٣ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[١].

(١) مسلم (١٩٥٥).

آيـــات

﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

الراوي

هو: شَدَّادُ بنُ أَوْسِ بنِ ثابتِ بنِ المنذرِ الأنصاريُّ ﵁، أبو يعلى، من فضلاء الصحابة وعلمائهم، قال عبادة بن الصامت ﵁: «كان شدادُ بنُ أوسٍ ممن أُوتيَ العلم والحِلم»، وقال أبو الدرداء ﵁: «إن الله عزَّ وجلَّ يؤتي الرجلَ العلمَ ولا يؤتيه الحِلمَ، ويؤتيه الحِلمَ ولا يؤتيه العلمَ، وإن أبا يعلى شدَّادَ بنَ أوسٍ ممَّن آتاه الله العلم والحلم»، سَكَن مدينة حِمْصَ بالشام، وولَّاه عمرُ بنُ الخطَّاب ﵁ إمارتها، ولمَّا قُتل عثمانُ بنُ عفَّانَ ﵁ اعتزل ولايتها، وكان كثيرَ العبادة والوَرَع والخوفِ من الله تعالى، توفِّي بفِلَسْطِينَ سنةَ ثمانٍ وخمسين من الهجرة، وعُمره خمس وسبعون سنةً[١].

خلاصة

أَمَر اللهُ سبحانَه بالإحسان إلى جميع خلقِه، حتى إلى الحيوان في ذبحه، ففي القتلِ نختارُ أسهلَ الطُّرُق وأخفَّها إيلامًا للقتيل، وفي الذَّبح نُحِدُّ السِّكين لتُريح الحيوان، ولا نُعذِّبه.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١٤٥٩/٣)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٢/ ٦٩٤)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٦١٣/٢)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٢٥٨/٣).

فقه

١ أمر اللهُ سبحانه بالإحسان في كلِّ أمرٍ من الأمور، قال سبحانه: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]. والإحسانُ: فِعْلُ الحَسَنِ، وذلك شاملٌ لجميع أمورِ الحياة؛ ففي العبادات: أن تعبدَ اللهَ سبحانه كأنك تراه، والإحسانُ إلى نفسك ألَّا تُلْجِئَها إلى النَّار، وألَّا تُحَمِّلْها ما لا تطيق، والإحسانُ إلى النَّاسِ أن تُخالِقَهم بأخلاق الإسلام؛ فلا تظلمُ أحدًا، ولا تهضم النَّاسَ حقوقَهم، وتعاملَهم بالحُسْنى فتقبل من مُحسنِهم وتُكافئه بالإحسان، وتصفح عن مُسِيئهم ولا تجازي السيئةَ بالسيئة.

والإحسانُ المأمورُ به نوعان: واجبٌ، وهو العدلُ والإنصافُ وإيتاءُ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، والقيامُ بما عليك من الواجبات. ومستحبٌّ وهو ما زاد على ذلك من بذلِ النَّفعِ البدنيِّ أو الماديِّ أو العلميِّ للنَّاس، وتوجيههم إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وكلُّ معروفٍ صدقةٌ.

٢ حتَّى إنَّ الإحسانَ ليجب في إزهاقِ الرُّوحِ، فلا يجوز سفكُ دم آدميٍّ مسلمًا أو كافرًا بغير وجه حقٍّ، بل إذا وجب قتلُه لَزم الإحسانُ في القتل؛ فلا يُعذَّب حتى الموت، ولا يُقتلُ بسُمٍّ أو يُضربُ في غير مقتلٍ ويترك حتى يموت، وإنما يُختار أسهلُ الطرقِ وأقلُّها إيلامًا عليه.

واستثنى الشرعُ من ذلك الساعي في الأرضِ فسادًا حين يُقام عليه حدَّ الحرابة؛ زجرًا وترهيبًا لغيره عن القيام بما قام به.

واستثنى كذلك القِصاصَ في القتل؛ حيث يُقتل القاتلُ بمثل ما فعل؛ فإنْ قَتَلَ بسقي السُّمِّ أو رميًا بالرصاصِ أو إلقاءً من شاهقٍ أو غير ذلك فُعِل به مثل ما فَعَل بالقاتل، قال سبحانه: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقتَلَ يهوديٌّ جاريةً بالمدينة بحجرٍ، فأتى به النبيُّ ﷺ فرضخ رأسه بين حَجَرَين[١].

ومن الإحسان في القَتْلِ أيضًا ألَّا يُمَثَّل بجثة القتيل ولا يُنَكَّل به أو يتشفَّى منه؛ فإنَّ ذلك من الإسرافِ في القتل الذي نهى اللهُ سبحانه عنه بقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ [الإسراء: ٣٣].

---

(١) البخاري (٥٢٩٥)، ومسلم (١٦٧٢).

٣ كذلك يجب الإحسانُ في ذَبْحِ الحيوانِ، فلا يجوز ابتداءً ذبحُ حيوانٍ لغير مأكلةٍ، ولا يجوز اتخاذ الحيوان هدفًا يرميه النَّاس تسليةً أو مسابقةً، قال عبدُ اللهِ بن عمر رضي الله عنهما: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا»[1]، ثُمَّ إذا أرادَ ذبح حيوانٍ فإنَّه يُحسن ذبحه، فلا يجرُّه إلى موضع الذبح جرًّا، ولا يذبحه بين الحيوانات، ولا يبدأ بسلخه وتقطيعه قبل أن يبرُد وتخرج روحُه، بل يفعل ما يساعد على إراحةِ الحيوانِ وإخراج روحه بسهولةٍ من غير إيلامٍ، فيُحِدُّ الشفرةَ أو السكين التي يذبحُ بها، ويتخيَّر الهيئة التي تُريحُها، ويقطع الوَدَجين والحلقوم والمريء حتى يُسَهِّل خروجَ الرُّوح، ثم يتركها إلى أن تبرد وتخرج الرُّوح تمامًا.

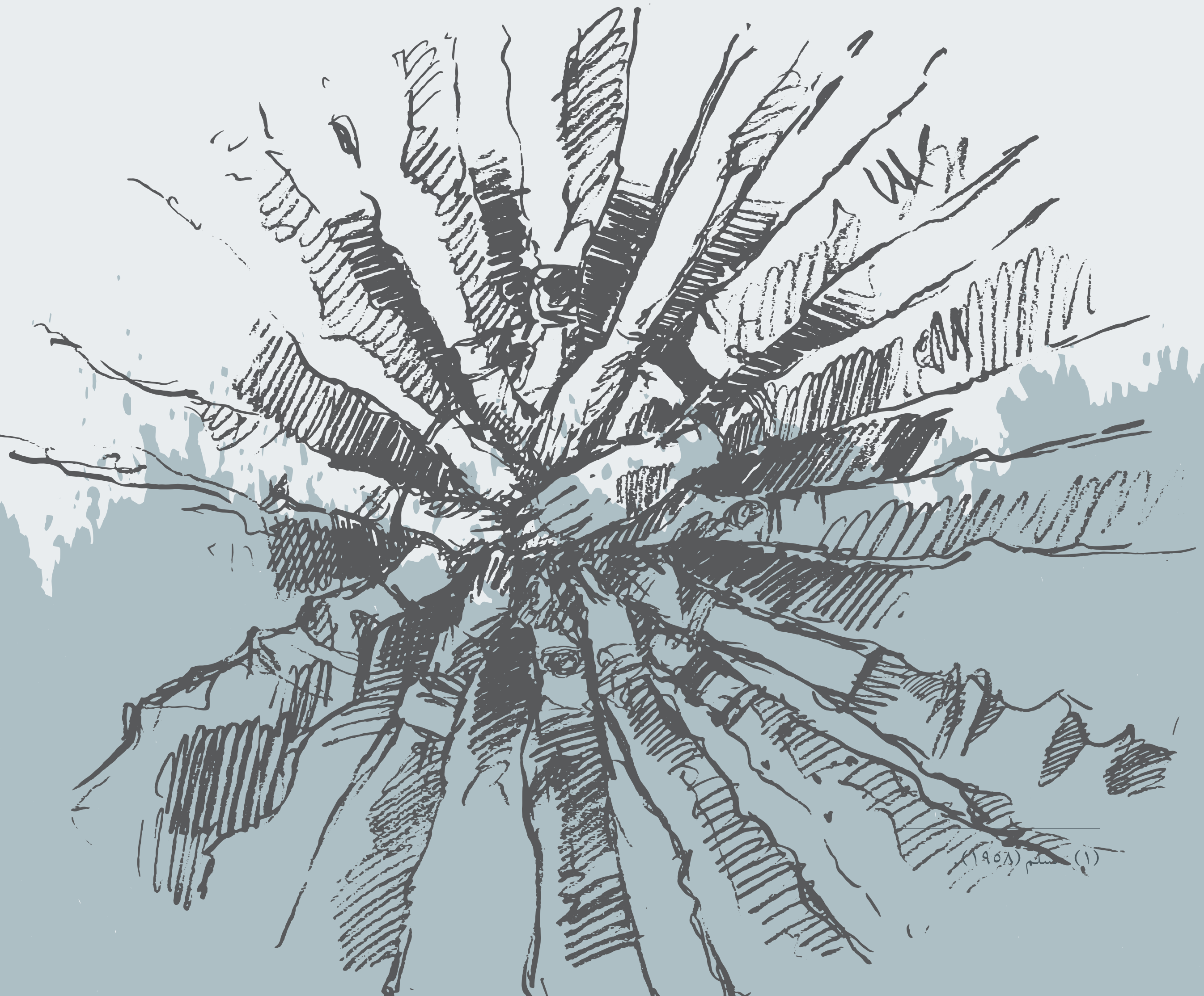

(١) مسلم (١٩٥٨).

اتَّباعي

١ (١) مِن أَجَلِّ أنواع الإحسانِ: الإحسانُ إلى مَن أساء إليك، ذكر اللهُ سبحانه أنها مرتبةٌ عظيمةٌ لا يصل إليها إلا مَن أوتي حظًّا عظيمًا من الإيمان والصبر. قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

٢ (١) الجزاءُ من جنس العمل، فأحسِن يُحسِن اللهُ تعالى إليك، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

٣ (١) من أنواعِ الإحسانِ الواجبِ: الإحسانُ إلى الأهل؛ بتقويمهم، والتلطُّف معهم، والقيام على شؤونهم، وتلمُّس حاجاتهم.

٤ (١) من الإحسانِ الواجب على المسلم: أداءُ الواجباتِ وتركُ المنهيَّات؛ فيؤدي الواجبات كاملةً لا نقص في أركانها وواجباتها، وينتهي عن المُحَرَّمات وما يؤدي إليها من الوسائل.

٥ (٢) إذا كان الإنسانُ مأمورًا بالإحسان في قتلِ مَن وجب قتلُه، فلا شكَّ أنَّ حفظَ دماءِ النَّاس وتحريمَها، والسعيَ في حقنِها من أوجب أنواع الإحسان.

٦ (٢) مِن إحسان القِتْلةِ ألَّا نَسُبَّ المقتول في حدٍّ أو قصاصٍ، وقد قال ﷺ في شأن المرأة التي رُجمت في الزنا حين سبَّها خالدُ بنُ الوليدِ رضي الله عنه: «مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ»[1].

٧ (٣) مِن إحسانِ الذَّبح أن يتولاه مَن يُحسن القيامَ به، ولا يقوم بذلك كلُّ أحدٍ.

٨ (٣) إذا هممتَ بالذبحِ فاشكر الله تعالى على ما أَوْلَاك من النِّعمة، حيث سخَّر لك من الأنعام ما لو شاء لسخَّره عليك.

٩ (٣) احرص على استخدام السكين الحادَّة، وأن تُنَحِّي الذبيحة عن سائر الحيوانات، وأن تتمكن منها بحيث لا تفرُّ منك عند الذَّبح فتتألم، وأن تُسرع في ذبحها ولا تريَها السكينَ قبل الذَّبح، وأن تقطع الوَدَجين والحلقوم والمريء فإنَّ ذلك أدعى إلى سرعة إخراج روحها.

---

(١) مسلم (١٦٩٥).

قال الشاعر:

أَحْسِنْ إلى النَّاسِ تَسْتَعبِدْ قُلوبَهمُ ... فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ

مَنْ جَادَ بالْمَالِ مَالَ النَّاسُ قاطبةً ... إليه والمالُ للإنسانِ فتَّانُ

أَحْسِنْ إذا كان إمكانٌ ومَقْدِرَةٌ ... فَلَنْ يَدُومَ على الإنسانِ إمْكَانُ

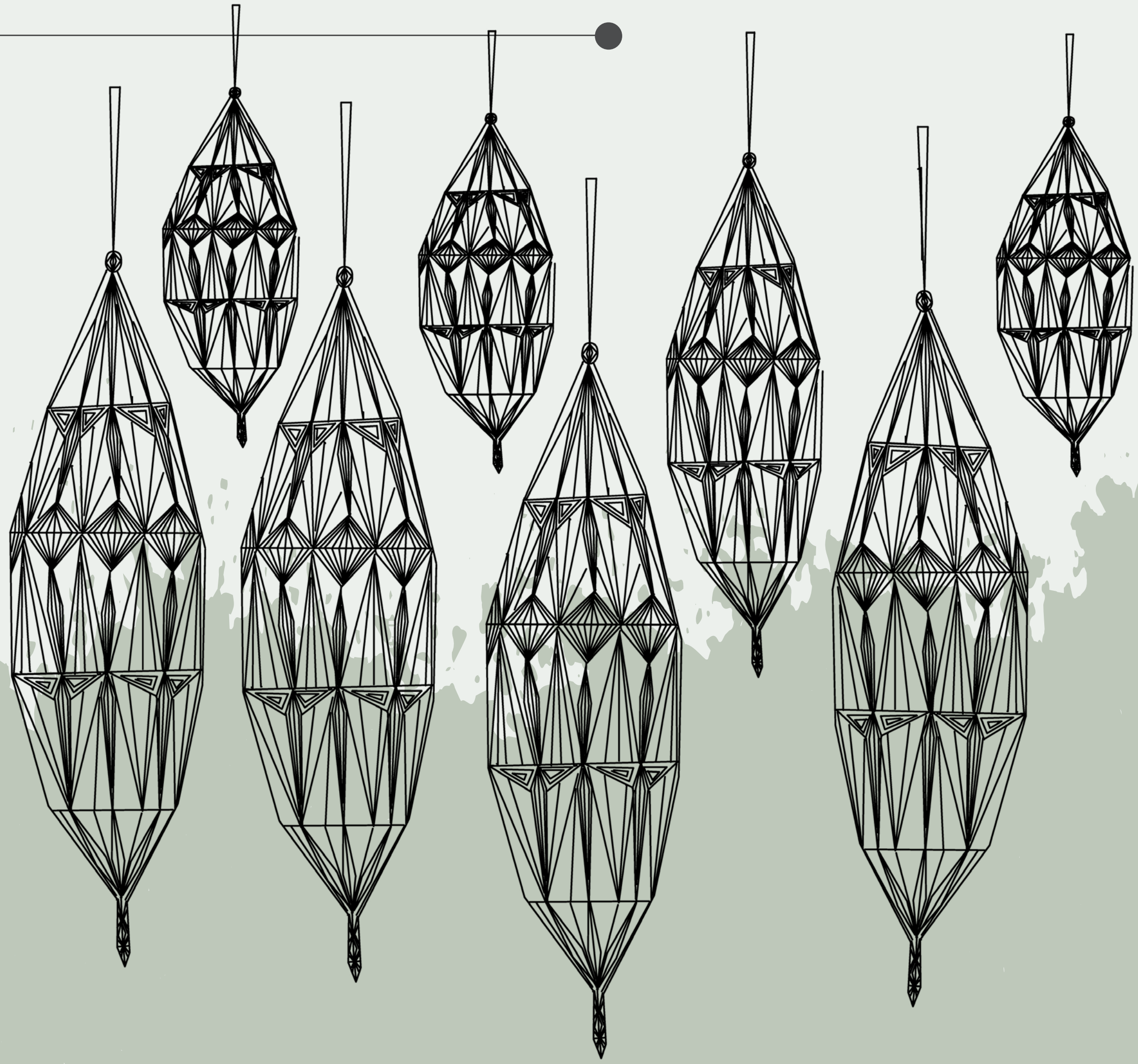

الحديث ٩٩

ذمُّ الكِبرِ والتعاظُم

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: قال اللهُ - عزَّ وجلَّ -:

١ «الكِبْرياءُ رِدائي، والعَظَمةُ إزاري،

٢ فمَن نازَعَني واحدًا منهما، قَذَفْتُه في النارِ»[1].

(١) أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وأصله في مسلم (٢٦٢٠).

آيـــات

- ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].
- ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].
- ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].
- ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

الراوي

هو: أبو هريرة، واختلف في اسمه، فقيل هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ، وهو من قبيلة دوسٍ، من الأزد، من اليمن، ولد يتيمًا، وأسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، وهاجر للمدينة رغم صعوبة الطريق، ولازمَ النبيَّ ﷺ واشتهر بالحديث والفتوى، ولزمه طلابٌ كثر، وكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٨٥هـ)[1].

خلاصة

يروي النبيُّ ﷺ عن ربِّه عزَّ وجل أنَّ صفة الكبرياء وصفة العظمة مختصَّتان بالله عزَّ وجلَّ، فمَن اتَّصف بهما من خلقه ألقاه الله في النَّار.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

يخبر النبي ﷺ بهذا الحديث الذي أوحي إليه من الله تعالى أن:

١ الكبرياء تدل على ترفع صاحبها على كل من سواه، وأن يرى لذاته فضلاً وشرفًا عليهم، وهي لا تكون إلا لله تعالى وحده، لأنه مستحق لها بصفاته، فهي مثل الرداء، والرداء للإنسان ثوبٌ يوضع كتفَيه يستر به أعلى جسده، ، فحقيقته أنه ستر وملكٌ خاصٌ بصاحبه، وحاجبٌ له بينه وبين غيره، فلا ينازع فيه.

٢ والعظمة يدل على معاني الكمال في الأسماء والصفات، وهذه لا تكون إلا لله تعالى، لأنه مستحق حقيقة بصفاته، وهي له مثل الإزار، والإزار للإنسان ثوبٌ يشدُّ في وسطه يستر أسفلَ جسده، فحقيقته أنه ستر وملكٌ خاصٌ بصاحبه، وحاجبٌ له بينه وبين غيره فلا ينازع فيه كذلك، فالعظمة صفة انفرد بها سبحانه لنفسه، فلا يحِقُّ لمخلوقٍ أن يشاركه فيها فيعتزَّ ويتعاظم على النَّاس.

والفرقُ بين الكبرياء والعظمة: أن المتكبِّر يستدعي متكبَّرًا عليه؛ ولذلك لَمَّا فسَّر ﷺ الكِبْرَ، قال: «الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمطُ النَّاسِ»[1]، أي احتقارُهم، أما المعظِّمُ فيلاحِظ كمالَ نفْسه مِن غير ترفُّع لها على غيره، وهذا التعظيمُ هو المعبَّر عنه بالعُجْبِ[2]، ولهذا لمَّا كان الكبرياء أعلى من العظمة وأرفع، شبَّهه الله بالرداء، وشبَّه العظمة بالإزار، وهذا أعلى الثوب وذاك أدناه.

٢ فمَن أراد أن يشاركه في تلك الصفات بأن تكبَّر وتعظَّم على الناس، قذَفه الله في النار، وعذبه فيها؛ إذ لا ينبغي لمخلوق أن يتَّصِف بتلك الصفات؛ لأن صفةَ المخلوق هي التواضعُ والتذلُّل[3]، وقد نهى اللهُ تعالى عبادَه عن التكبُّر في الأرض والإعجاب بالنفس، فقال جل جلاله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وأخبر أنَّه جعل النارَ عاقبة المتكبرين الباغين، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

(١) مسلم (٩١).
(٢) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبيِّ (١/ ٢٨٦).
(٣) انظر: «معالم السنن» للخطابيِّ (٤/ ١٩٦).

اتّباع

١ (١) (٢) اعرض الحق بأوضح ما يكون وأجمل ما يكون، فانظر لما في الحديث القدسيِّ من استخدام التشبيهات والتصويرات البلاغية التي توضح المعاني وتقربها؛ فينبغي على الدعاة والوُعَّاظ والعلماء أن يستعملوا مثل تلك الأساليب.

٢ (١) هل نراقب أنفسنا لنرى: هل نتكبر على غيرنا؟، وربما لو حاسب الإنسان نفسه لرأى أنه يتعاظم في نفسه ويتكبر على غيره، إما بسبب مال، أو منصب، أو علم، أو قوة، أو درجة اجتماعية، أو غيرها، فيستصغر غريبًا، أو فقيرًا، أو شعبًا، أو غير ذلك.

٣ (١) ليس من الكبرياء والعظمة أن يحرص الإنسانُ على حسنِ مظهره وتجمُّله؛ فعن عبدِ الله بنِ مسعودٍ ﵁، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قلبه مِثقالُ ذرَّةٍ من كِبرٍ»، قال رجُلٌ: إن الرجُل يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حَسَنًا ونعلُه حسنة؟ قال: «إن اللهَ جميلٌ يحب الجمالَ، الكبرُ بطَرُ الحقِّ، وغَمطُ الناس»[١]؛ فالكِبرُ المنهيُّ عنه هو دفعُ الحقِّ إنكارًا وترفُّعًا، واحتقارُ الناس.

(١) مسلم (٩١).

٤ (١) ليكن تعظيم الله تعالى في قلوبنا وألسنتنا ومجالسنا، ولنمحُ به كبرياء النفوس، وقد جعل اللهُ تعالى التكبيرَ بقول: (الله أكبر) شعارًا للصَّلوات والأذان والأعياد، وكان مستحبًّا في الأمكنة العالية كالصَّفَا والمروة، وإذا علا الإنسان شرفًا أو ركب دابّةً ونحو ذلك، وقد جاء أنه يُطفَأ به الحريق وإن عَظُم، وعند الأذان يَهرُب الشّيطان[1].

٥ (١) راجع نفسك في أي نقاش علمي أو اجتماعي، فالكبر من أكبر أسباب ردِّ الحق، وهو سببُ هلاك كثير من الأمم السابقة؛ باستكبارهم عن اتباع النبيِّ الذي أرسله اللهُ إليهم، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؛ ولهذا قرن اللهُ الحديثَ عن استكبارهم ببيان هلاكهم؛ فعلى المسلمِ أن يجتهد في طرد الكبر والعُجب عن نفسه.

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ١٩٦).

٦ (٢) تأمل ضعفك عن إدراك مصالحك، وعن القدرة على تحصيلها، وأن عامتها أسباب ليست بيديك، وأنك ترى الرأي اليوم وتستسخفه غدًا، وأنك ترى القدرة على الشيء فتحجزه عنه أتفقه الأسباب، وبه تعلم أنه إنما حرَّم اللهُ التكبُّر لأنَّه صفةُ للهِ تعالى؛ فليس لمخلوقٍ صفته النقص والتذلل أن يتكبر أو يتعاظم؛ ولهذا حرَّم الشرع اتِّصافَ الإنسان بهاتين الصفتين، وجعلهما من الكبائر؛ لأن مَن ظنَّ كمال نفْسه ونسِيَ مِنَّة الله تعالى فيما خصَّه به، كان جاهلًا بنفْسه وبربِّه، وهي صفة إبليس الحاملة له على قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، وصفة فِرْعونَ الحاملةُ له على قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، فكان جزاؤهما أنهما أشدُّ أهل النار عذابًا[١].

٧ (٢) بعض صفات الله تعالى يحبُّ الله تعالى أن يتصف ويتحلى به عباده، كالرحمة والمغفرة والكرم ونحو ذلك، لأنها في أصلها كمال، فإذا طلبها الإنسان طلب الكمال، وبعض الصفات اختص الله تعالى بها، ونهى عباده أن يتصفوا بها كالكبرياء والعظمة، لأنها إنما تحسن حين يكون صاحبها كاملاً، فإذا ادعاها غير المستحق لها كان باطلًا.

٨ (٢) على الإنسان أن يحرص على البُعد عن الكبر والعظمة، وأن يكسر تطلّع نفسه لها كلما نال شيئًا من الدنيا؛ فإنهما من الصفات التي توجِب للعبد النَّار، قال سفيان بن عيينة -رحمه الله-: «مَن كانت معصيتُه في الشهوة فارجُ له التوبة، فإنَّ آدمَ - عليه السلام - عصى مُشْتَهيًا فغُفر له، فإذا كانت معصيتُه في كِبْر، فاخْشَ على صاحبه اللعنةَ؛ فإن إبليسَ عصى مُستكبرًا فلُعِن»[٢].

٩ (٢) عالج كبر نفسك بتحذيرها من نقيض قصدها؛ فلما كان المتكبِّر يرى نفْسه كبيرًا، فإن الله يُعاقبه بنَقيض قصده من الذُّل والصَّغار والحَقارة؛ يقول ﷺ: «يُحشَر المتكبِّرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صور الرجال يَغشاهم الذلُّ من كل مكان»[٣]، وقد يُعَجِّلُ اللهُ تعالى له العقابَ في الدنيا قبل الآخرة، كما حدَث مع قارون حين خَسَف الله به الأرض، ومع فرعون حين أغرقه سبحانه. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «بينما رجُل يتبختَرُ، يمشي في بُردَيْه قد أعجبته نفْسُه، فخسفَ اللهُ به الأرض، فهو يَتجَلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة»[٤].

---

(١) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبيِّ (١/ ٢٨٧).

(٢) «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للمزِّيِّ (١١/ ١٩١).

(٣) الترمذيُّ (٢٤٩٢).

(٤) البخاريُّ (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨) واللفظ له.

(٢) رأى مُطَرِّفُ بن عبد الله بن الشِّخِّير رحمه الله يزيدَ بن المهلبِ بنِ أبي صفرة يتبخترُ في مشيته لابسًا ثوبًا يجرُّه، فقال مُطَرِّفٌ: يا عبد الله، هذه مشية يبغضها اللهُ ورسولُه. قال يزيدُ: ألا تعرفني؟! قال: أعرفك. أوَّلُك نطفةٌ مَذِرَةٌ، وآخرك جيفةٌ قذرةٌ، وأنت بين ذلك تحمل العَذِرَة. فاعتدل وترك مِشيته[1].

قال الشاعر:

كم جـاهلٍ متواضعٍ ... سَـتَرَ التواضُــعُ جَهْـلَهُ
ومميَّـزٍ فـي عِلْمِه ... هَــدَم التَّكَبُّرُ فَضْـلَهُ
فَدَعِ التَّكَبُّرَ ما حَيِيـ ... ـتَ ولا تُصـاحِبْ أهـلَهُ
فالْكِبْرُ عَيْـبٌ للفتى ... أَبَـــدًا يُقبِّحُ فِعْلَـهُ

قال غيره:

يا صَـاحِ إن الكِبْرَ خُلْقٌ سَيِّئٌ ... هَيْهَاتَ يُوجَدُ في سوى الجُهَلاءِ
والعُجْـبُ داءٌ لا يُنـالُ دَوَاؤه ... حتى يُنَالَ الخُـلْدُ في الدُّنْيَاءِ
فَاخْفِضْ جَنَاحَكَ للأنامِ تَفُزْ بِهِمْ ... إنَّ التواضُـعَ شِـيمَةُ الحُكَماءِ
لَوْ أُعْجِـبَ القَـمَرُ الْمُنِيرُ بنَفْسِهِ ... لرأيتَـهُ يَهْـوِي إلى الغَبْـرَاءِ

(١) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٦/ ٢٨٤)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٤/ ٥٠٥).

الحديث ١٠٠

ذمُّ الغَضب

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

١ أنَّ رَجُلًا قالَ للنبيِّ ﷺ: أوْصِني،

٢ قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»،

٣ فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»(١).

(١) البخاري (٦١١٦).

آيـــات

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٧].

الراوي

هو: أبو هريرة، واختلف في اسمه، فقيل هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ، وهو من قبيلة دوسٍ، من الأزد، من اليمن، ولد يتيمًا، وأسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، وهاجر للمدينة رغم صعوبة الطريق، ولازمَ النبيَّ ﷺ واشتهر بالحديث والفتوى، ولزمه طلابٌ كثر، وكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٨٥هـ)(١).

خلاصة

طَلَبَ رجلٌ الوصيةَ من النبيِّ ﷺ، فأوصاه بعدم الغضب، فأراد الرجلُ أن يستزيده ﷺ فلم يزِد النبيُّ ﷺ على ذلك.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يطلب منه وصيةً جامعةً لأنواعِ الخيرِ وأسبابِ الفلاح، حتى يحفظَها ويعملَ بما فيها،

٢ فأوصاه النبيُّ ﷺ بألَّا يغضب، فالغضبُ مفتاحُ كلِّ شرٍّ، والتَّحَرُّزُ منه سبيلُ كلِّ خيرٍ، حتى إنَّ بعضَ العلماءِ فسَّروا حُسْنَ الخلق بترك الغضب؛ فإنَّ الغضبَ يدفعُ المرءَ إلى القتلِ والضَّربِ والسَّبِّ والفُحش في القول، كما يحملُ الإنسانَ على الأيمانِ الغِلاظ، وكثيرًا ما يدفعه إلى تطليق امرأتِه أو هجر ذوي رَحِمِه، بل رُبَّما أدى الغضبُ إلى إيقاعِ العبدِ في الكُفر والشركِ، والعياذُ بالله.

٣ فكرَّر الرجلُ السؤالَ ليستزيدَه النبيُّ ﷺ بشيءٍ آخر ينفعه في دنياه وآخرته، فلم يزده النبيُّ ﷺ على قوله: «لا تغضب».

ونَهْيُ النبيِّ ﷺ عن الغضبِ يُرادُ به تركُ أسبابِه المؤدية إليه من الجدالِ والمِراء بغير حقٍّ، وإتيانُ ما يمنعُهُ من الحِلم والسَّخاءِ وكظمِ الغيظ واحتمالِ النَّاس والطلاقةِ والبِشْر؛ فإذا تحقَّقت في النَّفس تلك الخِصال أوجبتْ دفعَ الغضبِ عند حصولِ أسبابه.

ويُرادُ به أيضًا عدمُ العملِ بمقتضى الغَضبِ إذا حدث؛ فإذا غَضِبَ المسلمُ وبلغَ الضِّيقُ منه مبلغًا وجب عليه أن يكظِمَ غيظَه، وألَّا يصدر عنه قولٌ أو فعلٌ ناتجٌ عن غضبِه، فيُورِثُه ذلك إثمًا.

وقد امتدح اللهُ تعالى عبادَه الذين يتحكمون في انفعالاتهم، فيكظمون غيظَهم ويغفرون للمسيءِ إليهم، فقال سبحانه: ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٤]، وأخبر ﷺ عن عظيم جزاءِ الذين لا يغضبون فقال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ»[١].

(١) أحمد (١٥٦٣٧)، وأبو داود (٤٧٧٧)، وابن ماجه (٤١٨٦).

اتّباع

١ (١) يجدر بكلِّ مسلمٍ أن يطلب النَّصيحة من أهل العلم وأصحاب الخبرات؛ فوصاياهم تجمع للمرء خلاصةَ خبراتهم وعلومهم.

٢ (١) اهتمَّ الصحابةُ رضوان الله عليهم بسؤال النبيِّ ﷺ عن كل ما بدر لهم، وأكثروا من طلب النصيحة والموعظة منه، وذلك دليلٌ على صدق اتباعهم وحرصهم على العلم ومعرفة شرع الله تعالى. وحَرِيٌّ بنا أن نقتدي بهم.

٣ (٢) ينبغي على الداعية والمُرَبِّي أن ينصحَ كلَّ أحدٍ بما يلائم حالَه، فهذا الرجلُ الذي طلب الوصيَّة من النبيِّ ﷺ يبدو أنه كان غضوبًا، ولهذا أوصاه بعدم الغضب، ولم يُوصِ غيرَه به.

٤ (٢) إياكَ والغضبَ؛ فإنَّه يحجبُ العبدَ عن شرعِ اللهِ تعالى، فيحملُ المسلمَ على الكذب، واتهام الآخرين وسَبِّهم والتطاول عليهم، ورميهم بما ليس فيهم. ولهذا كان من دعائه ﷺ: «أَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا»[1].

(١) أحمد (١٨٥١٥).

٥ (٢) اعلم أنَّ مجاهدتك نفسَك أقوى من مجاهدة الأعداء؛ فإنَّ النَّفس أمَّارةٌ بالسُّوء، تُحرِّضُ المرءَ أن يبطش بمَن أساءَ إليه، عدوًّا كان أم حبيبًا، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ؛ إِنَّما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»[١]، فليس الشَّديدُ الذي يصرع النَّاس ويهزمهم، وإنَّما الشديدُ حقًّا الذي يملك نفسَه عند الغضب. ولهذا قال الحسن البصريُّ رحمه الله حين سُئل: أيُّ الجهاد أفضلُ؟ فقال: «جهادُك نفسَكَ وهَواك»[٢].

٦ (٢) النبيُّ ﷺ هو القدوة الحسنة لنا جميعًا، لم يكن ﷺ يغضب لنفسه، ولا ينتصر لنفسه، إنما كان يغضبُ للهِ تعالى، قالت أمُّ المؤمنين عائشةُ رضي الله عنها: «وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا»[٣]. فالغضبُ مذمومٌ إلا للهِ عزَّ وجلَّ فهو واجبٌ على كلِّ مسلم.

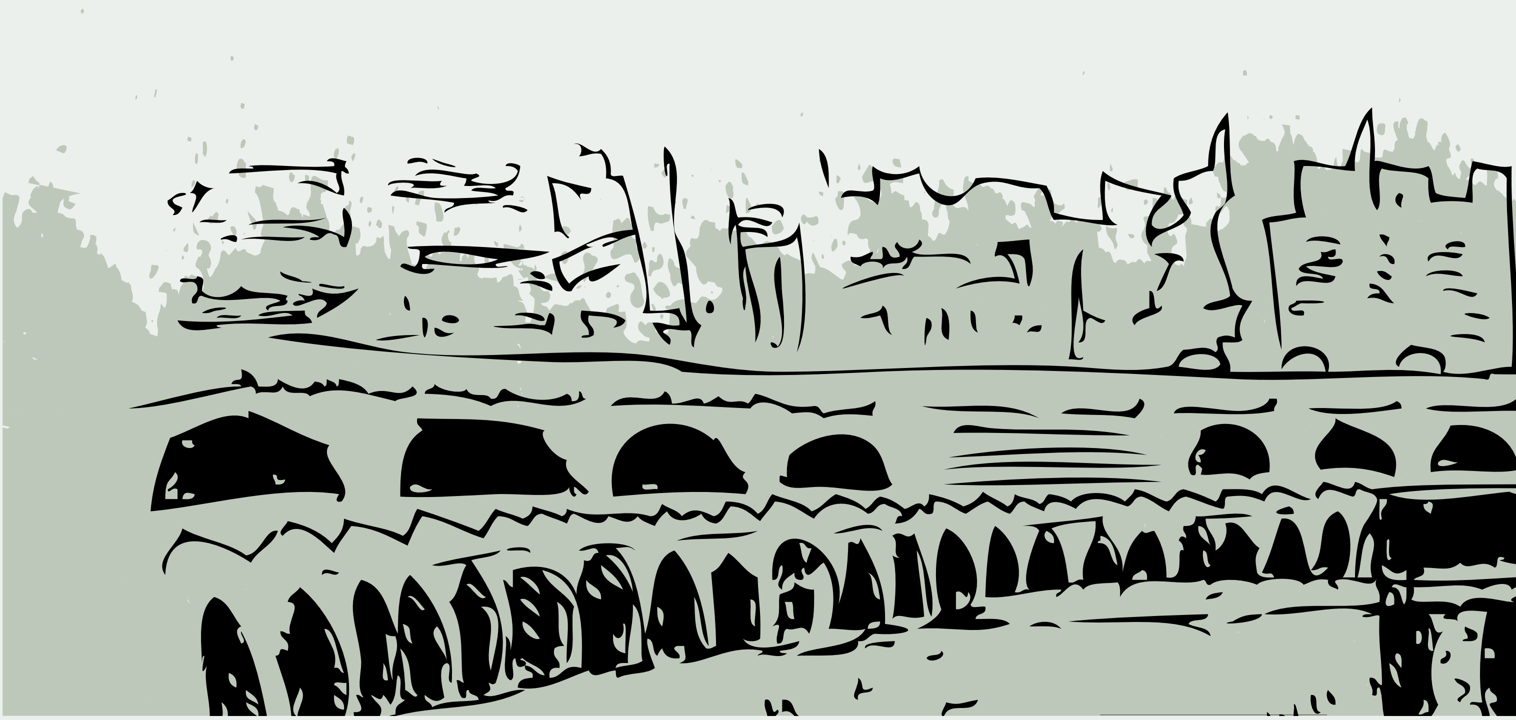

(١) البخاريُّ (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) «شرح صحيح البخاريِّ» لابن بطال (٩/ ٢٩٦).

(٣) البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

٧ (٢) وجّه النبيُّ ﷺ إلى طُرُقِ مقاومةِ الغضبِ وعلاجِه، فمن ذلك الاستعاذةُ باللهِ تعالى من الشيطان الرجيم؛ اسْتَبَّ رجلانِ عند النَّبيِّ ﷺ، وأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ، مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»(١). فإذا رأى المسلمُ في نفسه بوادرَ الغضب فليستعذ بالله عزَّ وجلَّ من الشيطان الرجيم.

٨ (٢) من طُرُقِ علاج الغضب والتحكم فيه كذلك الجلوسُ إن كان المرءُ واقفًا، والاضطجاعُ إن كان جالسًا؛ فإنَّ الواقفَ مُتهَيِّئٌ للانتقام، والجالسَ دونه، والمضطجع أبعدَ منهما من ذلك؛ قال ﷺ: «أَلَا إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَفَمَا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ، وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ، فَمَنْ أَحَسَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَلْصَقْ بِالْأَرْضِ»(٢)، وقال أيضًا: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ»(٣).

٩ (٢) من وسائل التحكم في الغضب كذلك أن يسكت الإنسانُ ولا يتكلم؛ فإنه إن تكلَّم تَحَكَّم فيه الغضبُ، فكان هو النَّاطقَ بدلًا منه، ولهذا قال سبحانه: ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ** ﴾ [الأعراف: ١٥٤]. وقال ﷺ: «وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ»(٤).

١٠ (٢) إياك وأن تتلفظ في غضبك بما يُضَيِّعُ عليك عمرك، ويصرفك إلى الندم ما بقيت، فكم من غضبةٍ أورثت صاحبها ذُلًّا وندمًا. قال عطاء بن أبي رباح رحمه الله: «ما أبكى العلماءَ بكاءٌ آخِرَ العُمر من غضبة يَغضَبها أحدهم، فتَهدِم عمر خمسين سنةً، أو ستّين سنةً، أو سبعين سنةً، وربَّ غضبةٍ قد أَقحمت صاحبها مُقحَمًا ما استَقالَه»(٥). وقال مورق العجليُّ رحمه الله: «ما قلتُ في الغضب شيئًا إلَّا ندِمْتُ عليه في الرضا»(٦).

١١ (٣) لم يزد النبيُّ ﷺ في وصيته على ترك الغضب؛ لأنَّه رأس كلِّ قبيحٍ؛ قيل لابنِ المبارك رحمه الله: «اجْمَعْ لنا حُسنَ الخُلق في كلمة، قال: تركُ الغَضَب»(٧).

---

(١) البخاريُّ (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).

(٢) أحمد (١١٦٠٨)، والترمذيُّ (٢١٩١)، وقال الترمذيُّ: هذا حديث حسن.

(٣) أحمد (٢١٣٤٨)، وأبو داود (٤٧٨٢)، وصححه الألبانيُّ في «مشكاة المصابيح» (٥١١٤).

(٤) أحمد (٢٥٥٦)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (١٣٢٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد».

(٥) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٣٧٤).

(٦) «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ١٦٦).

(٧) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٣٦١، ٣٦٤).

قال الشاعر:

وكَظْمِيَ الغيظَ أَوْلى مِن مُحَاولتي   غَيْظَ العَـدُوِّ بإضـراري بإيمـاني
لا خَـيْرَ فـي أمرٍ تُرْدِيني مَغَبَّتُهُ   يَـوْمَ الحسابِ إذا ما نَصَّ مِيـزاني

قال غيره :

ولـم أرَ فضـلًا تـمَّ إلا بشِـيمةٍ   ولم أرَ عقـلًا صـحَّ إلَّا على الأدبْ
ولم أرَ في الأعداءِ حين اختبرتُهم   عدوًّا لعقلِ المرءِ أعدَى مِن الغَضَبْ

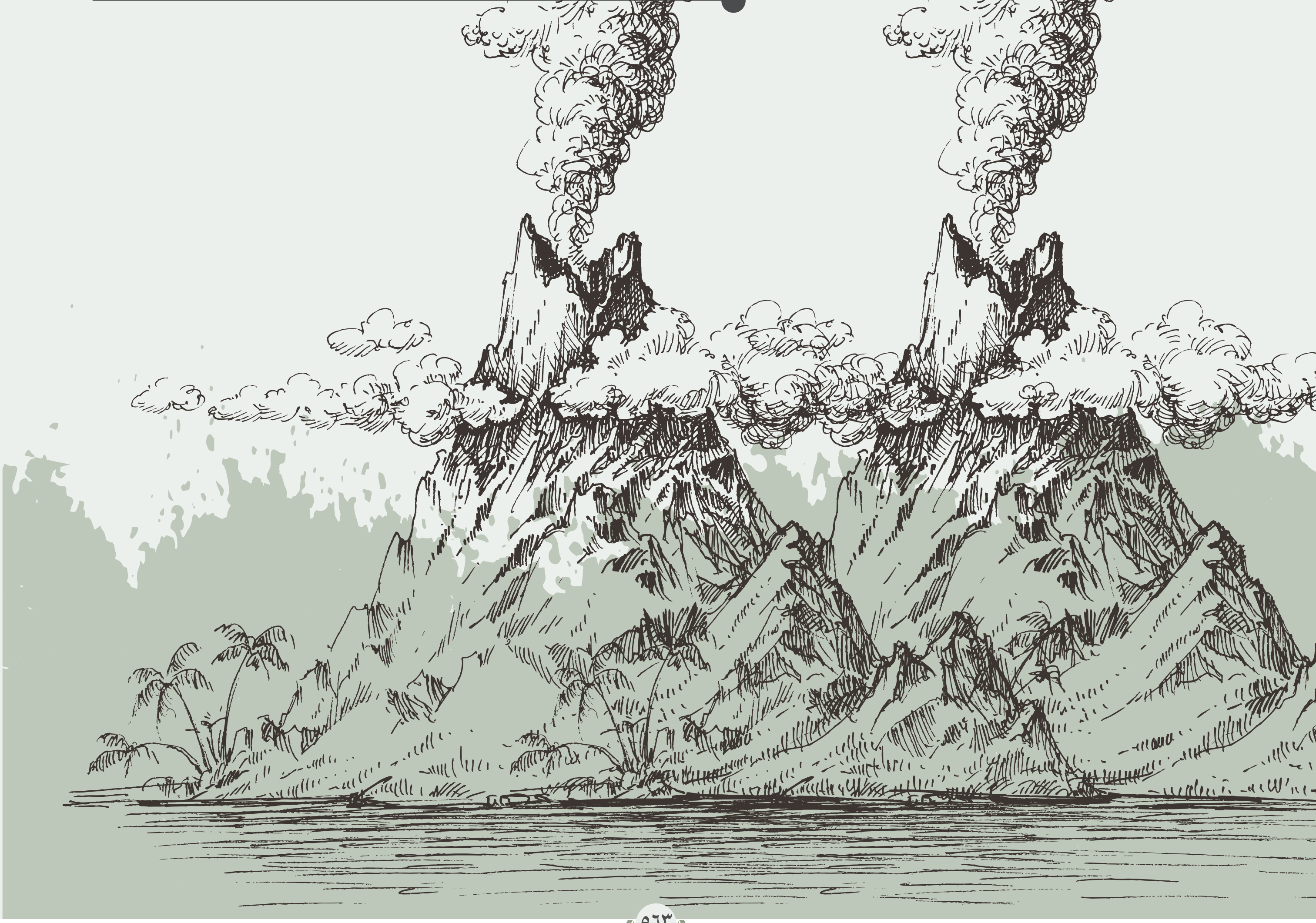

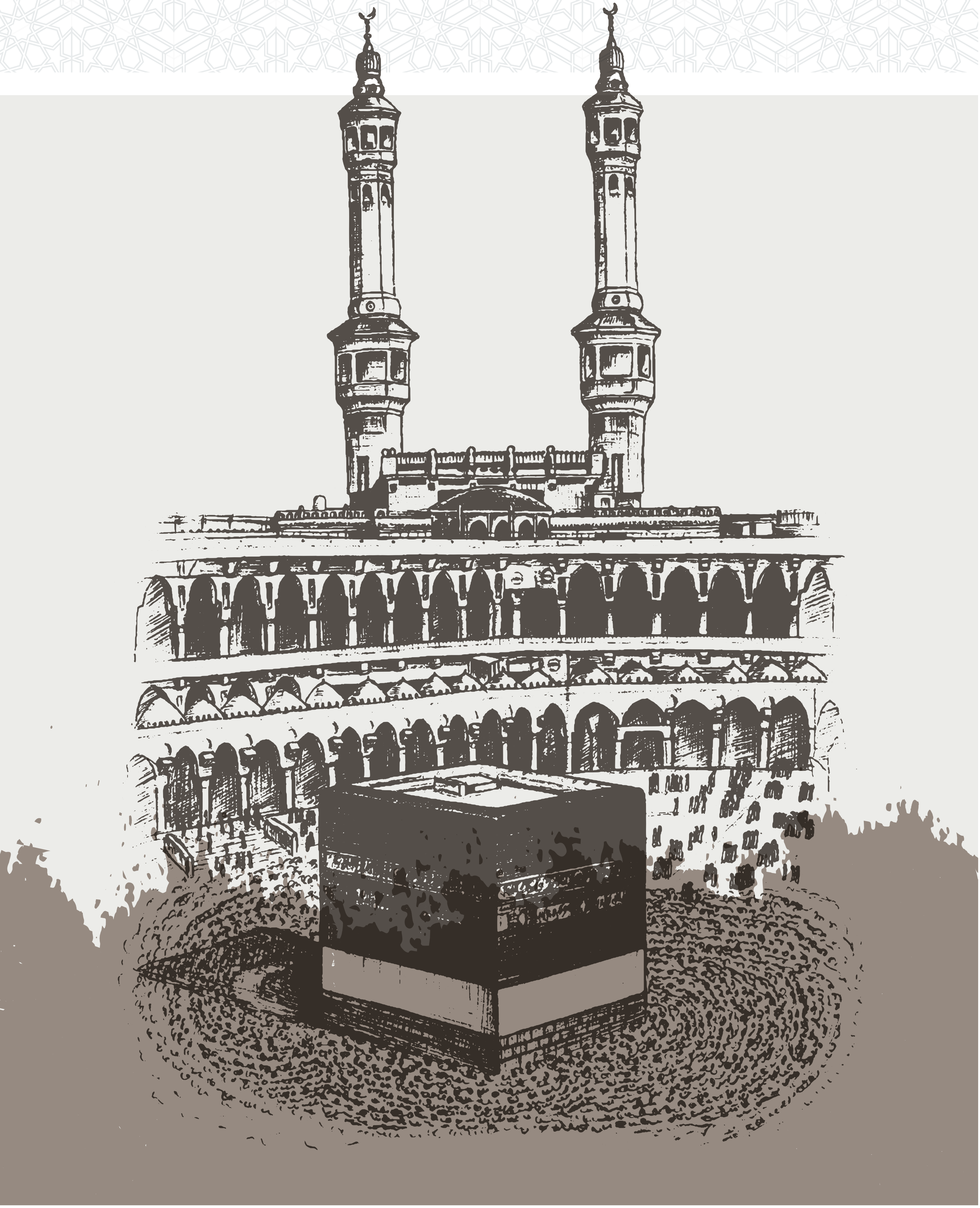

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

١ «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ،

٢ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»(١).

(١) مسلم (٢٨٢٢).

آيات

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٢، ١٤٣].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١].

الرّاوي

هو: أبو حمزةَ، أنسُ بنُ مالكِ بنِ النضر الأنصاريُّ، خادم رسول الله ﷺ، وآخر أصحابه بالبصرة موتًا، قَدِمَ رسولُ الله المدينة وهو ابنُ عَشْر، وغزا معه غَيْرَ مَرَّةٍ فخرج مع رسول الله ﷺ إلى بدر وهو غُلَام يخدُمُه، وإنما لم يعُده أصحابُ المغازي في أهل بدر، لكونه حضرها صبيًا ولم يكن في سن من يقاتل، وقد بايَع بعد ذلك تحتَ الشجرة، وكان من أهل الفقه والفتوى، تُوفِّي سنةَ: (٩٣هـ)(١).

خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ أنَّ الله تعالى أحاط الجنة بما يكرهه الإنسان من التكاليف ونحوها، وأحاط النَّار بما يشتهي الإنسان من الملذَّات والشهوات؛ زيادةً في الابتلاء.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٢٣١)، «معجم الصحابة» للبغويِّ (١/ ٤٣)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ١٥١-١٥٣)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤١٧-٤٢٣).

فقـــه

١ يذكر النبيُّ ﷺ أنَّ الله تعالى قد **أحاط** الجنَّة بالمكاره التي تثقل على الإنسان، فالإنسان لا يرى الطريق إلى الجنة إلا بشيءٍ من المكاره، كأداء الفرائض التي قد تثقل على النفس لوجوب أدائها، والابتعاد عن المناهي التي قد تثقل على النفس لمخالفتها لشهوات النفس.

٢ وأُحيطت النَّارُ بالشهوات التي يحبها الإنسان؛ فالإنسان لا يرى الطريق إلى النار إلا بشيءٍ من الشهوات التي يحبها الإنسان؛ سواء كان شهوات في الرأي، أو شهوات الغضب والقوة، أو في الشهوات بين الرجال والنساء، أو شهوات المال وغيرها، فلولا الشهوات وتسويل الشيطان وغواية النفس بتلك الشهوات لَمَا رغب أحدٌ في سلوك طريق النار.

والمقصود هو الشهوات الَّتي حرَّمها اللهُ تعالى على خلقه، لا ما أباح لهم من الاستمتاع به، كالأكل والشراب الطَّيِّب المباح، والاستمتاع بالزوجة ومِلْكِ اليمين، وملاعبة الأولاد والأهل والتحدث إليهم.

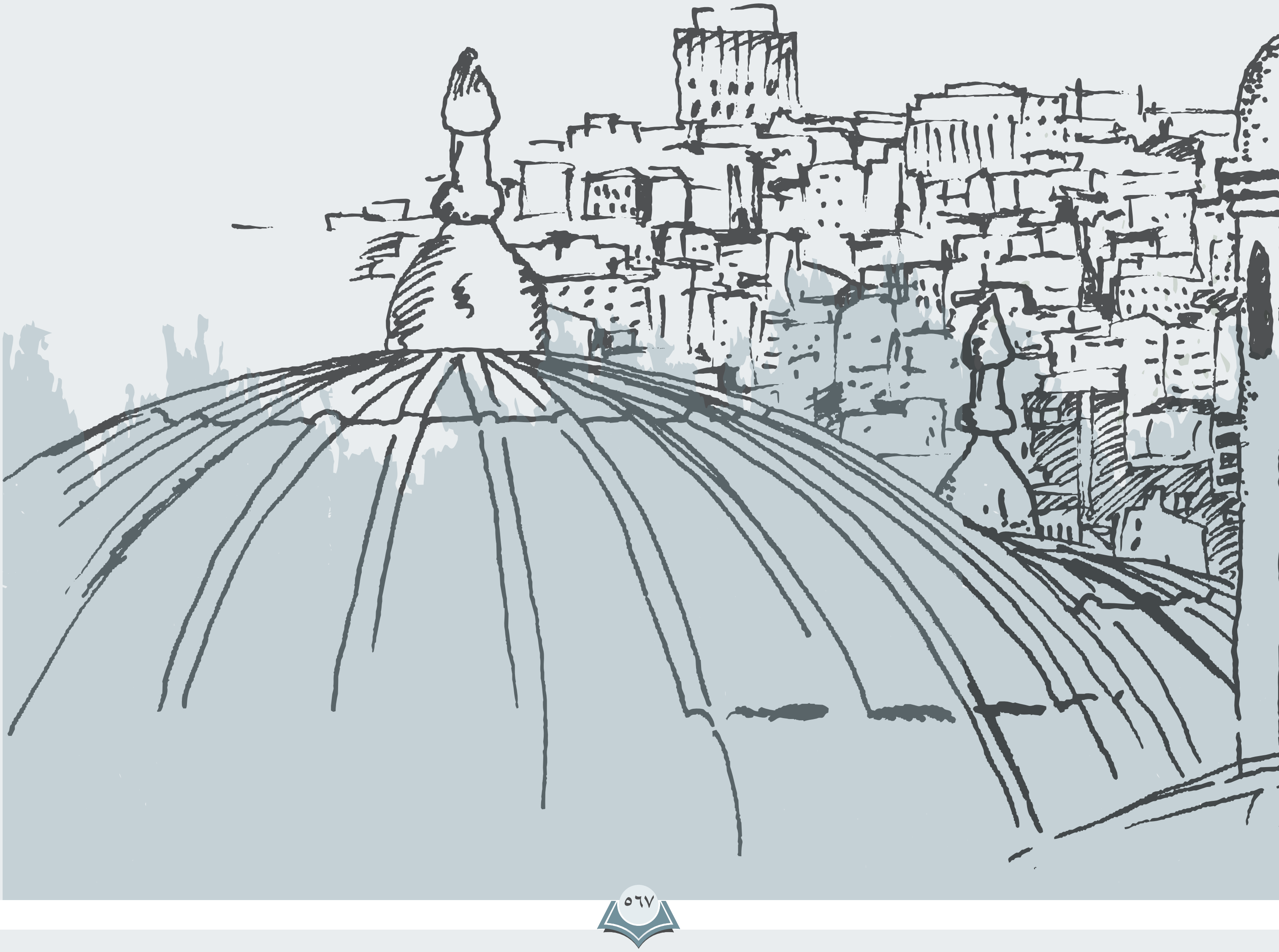

اتباعي

١ تذكر هذه الصورة التي صورها لك رسول الله ﷺ ليسهل عليك سلوك طريق الجنة، وتجنب طريق النار، فكلما استثقلت طاعة أو ترك شهوة فتذكر أن وراءها الجنة، وكلما استحليت شهوة محرمة فتذكر أن وراءها النار.

٢ وطِّن نفسك على أن للجنة ثمناً، فهي تطلب فعل الفرائض ولو ثقلت، وترك المحرّمات ولو اشتهيت..، فالعاقل يوطن نفسه أن يقطع وقتَه كلَّ حينٍ لأداء صلاةٍ من الصلوات، ولو مع اشتداد البرد أو الحر، أو لذة النوم لصلاة الفجر، أو غيرها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وكذلك يبذل المال المحبوب عن طيب نفسٍ للفقراء والمحتاجين، وكذلك الصيام والحج، وبر الوالدين، وسائر الفرائض، ويترك التسلط على دماء الناس وأموالهم، والزنا ومقدماته، وشُرب المُسكرات، وسائر المنهيات.

ويدخل في المكاره: الاجتهاد في العبادات، والمواظبة عليها، والصّبر على مشاقِّها، وكَظم الغيظ، والعفو، والحِلم، والصَّدقة، والإحسان إلى المسيء، والصّبر عن الشَّهوات، وجميع أعمال الخير[١].

٣ من صبر على شيء في الدنيا لأمر الله تعالى عوضه الله من جنسه ما هو خير منه يوم القيامة، فيجنبه الله تعالى مكاره النار، ويرزقه ما تشتهيه الأنفس في الجنة.

٤ الفائز من باع دنياه بآخرته، والخاسر من باع آخرته بدنياه.

٥ لا تنال مكارم الدنيا والآخرة إلا بالمكاره، فالنعيم لا يدرك بالنعيم، وفي الحديث بيان أن العبد يحتاج في الحياة الدنيا إلى مُجاهدة عظيمة، يُجاهد نفسه في الله - عزَّ وجلَّ - فمن كانت نفسُه شريفةً، وهِمَّته عاليةً، لم يَرْضَ لها بالمعاصي؛ فإنَّها خيانةٌ، ولا يرضى بالخيانة إلا مَن لا نَفْسَ له[٢].

٦ قال ابن القيم -رحمه الله-: «اذعُ نفسك إلى ما أَعَدَّ الله لأوليائه وأهلِ طاعته من النعيم الْمُقيم، والسعادة الأَبَدية، والفوز الأكبر، وما أَعَدَّ لأهل البَطالة والإضاعة من الخِزْيِ والعِقاب والحَسَرات الدائمة، ثم اخْتَرْ أيَّ القِسمينِ أَلْيَقُ بك، وكلٌّ يَعمَل على شاكِلته، وكلُّ أحد يصبو إلى ما يناسِبه، وما هو الأَوْلى به، ولا تَستطِلْ هذا العلاج؛ فشِدَّةُ الحاجة إليه من الطَّبيب والعَليل دَعَت إلى بَسْطِه»[٣].

(١) «شرح النوويِّ على مسلم» (١٧/ ١٦٥).

(٢) «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٢٠٣).

(٣) «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم (٤/ ١٧٩، ١٨٠).

٧ لمَّا انطلقت شرارة الحربِ يوم بدر، حفَّز النبيُّ ﷺ أصحابَه إلى القتال، وقال: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»، فقال عُمَيْرُ بنُ الحُمَام الأنصاري رضي الله عنه: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ. فانظر وتأسَّ: كيف اشترى الجنَّة بالجهاد في سبيلِ الله، وهو كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وآثر نعيمَ الجَنَّةِ الخالدةِ على متاع الحياة الدنيا الزائل الزائف.

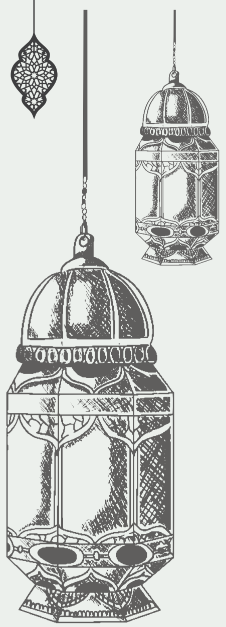

قال الشاعر:

وَإِنَّ جِنَانَ الْخُلْدِ تَبْقَى وَمَنْ بِهَا ... مُقِيمًا عَلَى طُولِ الْمَدَى لَيْسَ يَرْحَلُ
أُعِدَّتْ لِمَنْ يَخْشَى الْإِلَهَ وَيَتَّقِي ... وَمَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ فَهْوَ مُهَلِّلُ

وقال غيره:

إِذَا أَذْكَرَتْكَ النَّفْسُ دُنْيَا دَنِيَّةً ... فَلَا تَنْسَ رَوْضَاتِ الْجِنَانِ وَخُلْدَهَا
أَلَسْتَ تَرَى الدُّنْيَا وَتَنْغِيصَ عَيْشِهَا ... وَإِتْعَابَهَا لِلْمُكْثِرِينَ وَكَدَّهَا
وَأَدْنَى بَنِي الدُّنْيَا إِلَى الغَيِّ وَالعَمَى ... لِمَنْ يَبْتَغِي مِنْهَا سَنَاهَا وَمَجْدَهَا
هَوَى النَّفْسِ فِي الدُّنْيَا إِلَى أَنْ تَغُولَهَا ... كَمَا غَالَتِ الدُّنْيَا أَبَاهَا وَجَدَّهَا

الحديث ١٠٢

لُزومُ الاستقامة

عن سفيانَ بنِ عبد الله الثقفيِّ رضي الله عنه قال:

١ قلتُ: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدكَ – وفي حديث أبي أسامة: غيرَك –

٢ قال: «قل: آمنتُ بالله، فاستقم»(١).

(١) مسلم (٣٨).

آيـــات

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

الراوي

هو: سفيانُ بنُ عبد الله الثقفيُّ، له صُحبةٌ ورواية، وكان قد وَلي الطائف لعمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه، وكان في الوفد الذين قَدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، سكن المدينةَ، روى عنه عروةُ بنُ الزُّبير، وابنُه أبو الحكم بنُ سفيانَ، توفِّي سنةَ (٤١هـ)(١).

خلاصة

أراد أحدُ الصحابةِ من النبيِّ صلى الله عليه وسلم قولًا شاملًا وجامعًا لأمر الإسلام، فأمره بالإيمان والاستقامة عليه.

(١) تراجع ترجمته في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٥/ ٥١٤)، «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٣٨٥)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٢/ ٢٥٣).

فقه

١ يسأل الصحابيُّ ﵁ النبيَّ ﷺ عن قولٍ جامعٍ لمعاني الإسلام، بحيث يكون واضحًا في نفسه، فلا يحتاج إلى الاستفسار، بل يأخذه فيعمل به ويعكف عليه.

٢ فأجابه النبيُّ ﷺ إلى ذلك، وأرشده إلى أن يقول: آمنتُ باللهِ، يقول ذلك بلسانه مؤمنًا بقلبه عاملًا بمقتضاها بجوارحه، فلا يأتي بما يخالف قولَه ذلك من القول أو الفعل أو الاعتقاد. ثم أمره بأن يستقيم على ذلك، فلا يفعل معصيةً ولا يترك طاعةً.

وهذه النصيحةُ نظير قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

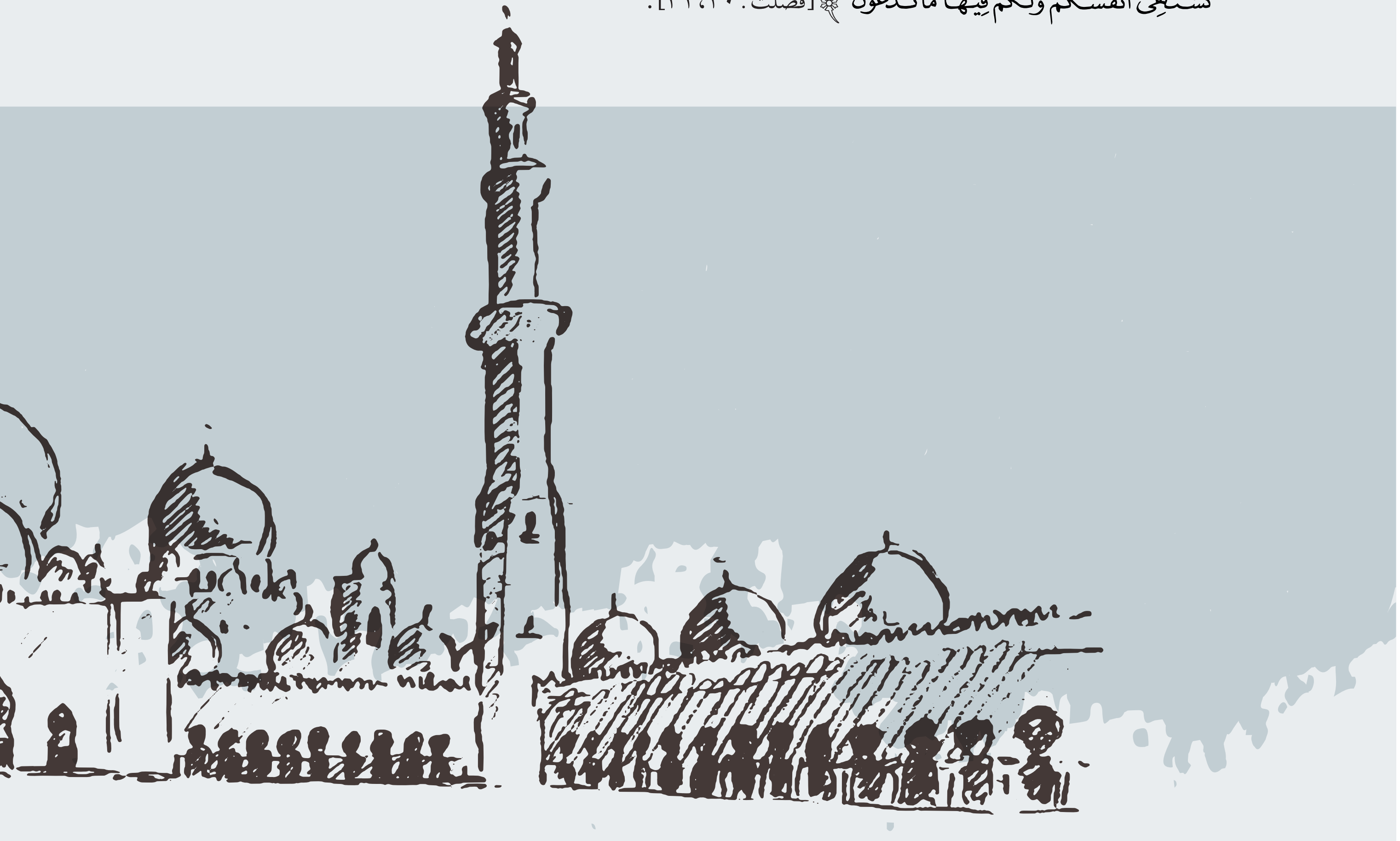

والاستقامة في ذاتها أمرٌ جامعٌ للإتيان بجميع الأوامر، والانتهاء عن كافَّة النواهي؛ فإن العبد لو تَرَك أمرًا، أو اقترف مَنهيًّا عنه، لم يَكُ مستقيمًا[1].

وقد كثُرت عبارات الصحابة في تعريف الاستقامة، وهي تحومُ جميعًا حولَ معنًى واحد؛ قال أبو بكر الصديق ﵁: «الاستقامة: ألَّا تُشركَ بالله شيئًا». يريد الاستقامة على محضِ التوحيد. وقال عمرُ بنُ الخطَّاب ﵁: «الاستقامة: أن تستقيمَ على الأمر والنهيِ، ولا تَرُوغَ رَوَغان الثعالب». وقال عثمانُ بنُ عفَّانَ ﵁: «استقاموا: أخلَصوا العمل لله». وقال عليُّ بنُ أبي طالب ﵁، وابن عبَّاس ﵄: «استقاموا: أدَّوُا الفرائضَ». وقال الحسن رحمه الله: «استقاموا على أمر الله، فعَمِلوا بطاعته، واجتنبوا معصيته»[2].

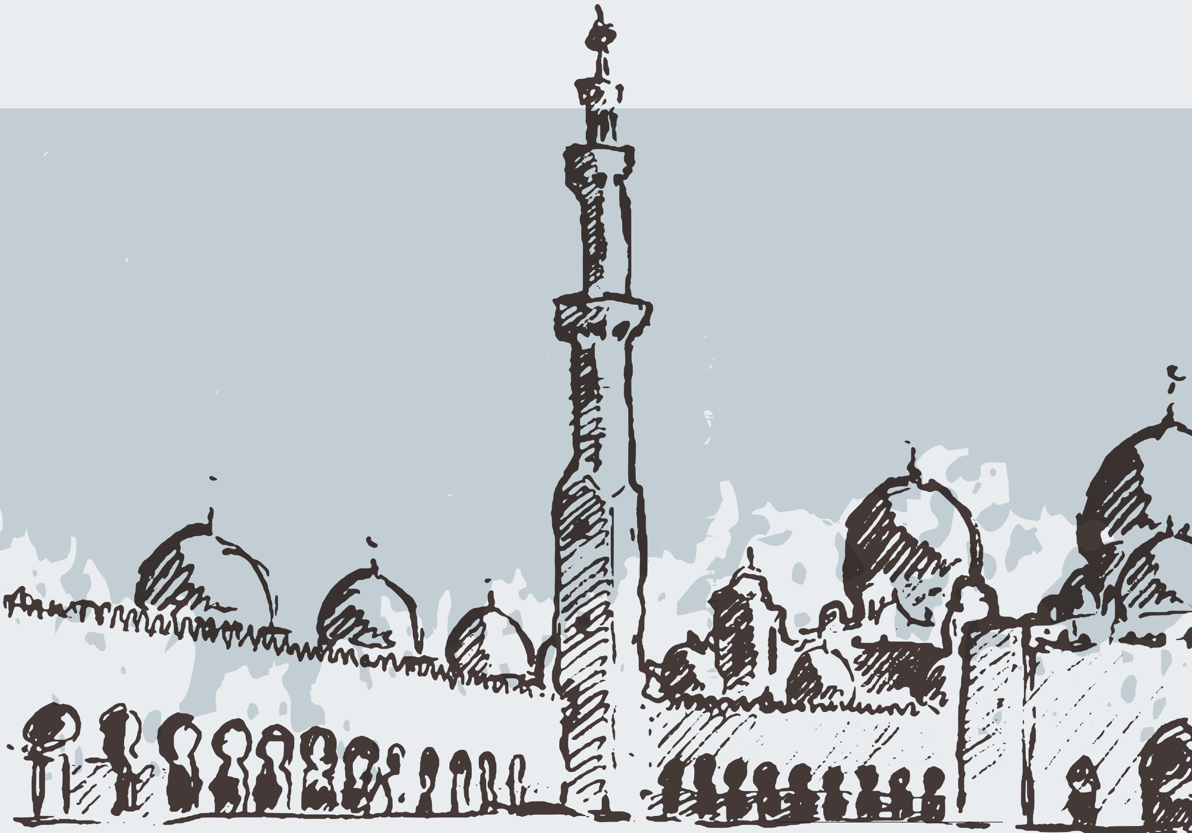

(١) انظر: «المفاتيح في شرح المصابيح» للمظهريِّ (١/ ٨٧)، «شرح المشكاة الكاشف عن حقائق السنن» للطِّيبيِّ (٢/ ٤٥٧).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ١٠٤)، «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٥٠٨).

اتباعي

١ (١) ينبغي على العاقل أن يسأل عمَّا يشمل الدين ويَعمُّه، ولا تكون أسئلته فيما لا طائلَ من ورائه[١].

٢ (١) إياك أن تستحي من السؤال أو تتكبر عليه؛ فإن العلمَ يضيع بين الكِبر والحياء، وإن أصحاب النبيِّ ﷺ لم يمنعهم شيءٌ عن السؤال.

٣ (١) السؤال مفتاحُ العلم، وعلى كلِّ عاقل أن يُبادر بالسؤال عما يجهله من أمور الدين والدنيا، مما يُحقِّق له السعادة والنجاة في العاجل والآجل.

٤ (٢) من المؤهِّلات الواجب توافرها في الداعية والمربِّي: امتلاكُ القدرة البيانية على صياغة المعاني الكثيرة في كلمات سهلة وقليلة؛ اقتداءً بالنبيِّ ﷺ؛ حتى لا يَكثُر الكلام على المدعوِّين فينسوا أو يسيئوا فهمه.

٥ (٢) الاستقامة للحال بمنزلة الروح للبدن؛ فكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميِّت، فكذلك الحال إذا خلا عن الاستقامة، فهو فاسد، وكما أن حياة الأحوال بها، فزيادة أعمال الزاهدين أيضًا وزكاؤها بها، فلا زكاء للعمل، ولا صحَّة للحال بدونها[٢].

٦ (٢) من اللائق التعبير بالاستقامة، فيقال: فلانٌ مستقيمٌ، ولا يقال: ملتزمٌ؛ لأن الاستقامة هي اللفظ القرآنيُّ، ولأن الالتزام يعني لزومَ أمرٍ معيَّن، سواءٌ كان صالحًا، أم فاسدًا[٣].

٧ (٢) لا ينافي الاستقامة الوقوع في الخطأ والزلل واتباع خطوات الشيطان ثم التوبة إلى اللهِ تعالى؛ فإن الاستقامة أمرُها عسيرٌ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]؛ أي استقيموا واستغفروا عمَّا خالف الاستقامة.

---

(١) انظر: «شرح الأربعين النووية» للعثيمين (ص: ٢١٣).

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ١٠٦).

(٣) انظر: «شرح الأربعين النووية» للعثيمين (ص: ٢١٤).

٨ (٢) الاستقامة شاملةٌ لكل جوانب الحياة: في الاعتقاد والعبادات والمعاملات والأخلاق وغيرها؛ ففي الاعتقاد أن يستقيم العبدُ على الإيمان بالله تعالى وتوحيده، ونبذ الشرك والبدع والضلالات، وفي العبادات لزوم المأمور والبعد عن المحظور، وفي الأخلاق تحري الصفات الطيبة ومعاملة الناس بالأخلاق الحسنة المحمودة والبعد عن الأخلاق السيئة المذمومة، وفي المعاملات تحري الكسب الطيب، وعدم الغش والظلم والخيانة.

قال الشاعر:

اسْتَقِمْ فالحياةُ لا تَسْتَقِيمُ ... طالما أنتَ في الضلال مُقِيمُ
استقِمْ لا تُقِمْ على الشَّرِّ إن كنْـ ... ـتَ حكيمًا فالشَّرُّ رأيٌ سَقِيمُ
استقِمْ إن تُرِدْ مَقامًا رفيعًا ... كيف يُعطي الثِّمارَ فكرٌ عقِيمُ؟!
استقِمْ فاسِتقَامَةُ المَرْءِ عُنْوَا ... نُ على أنه حَصِيفٌ حَكِيمُ

المُحاسَبة

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

١ «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ

٢ عَنْ عُمُرِهِ: فِيمَ أَفْنَاهُ؟

٣ وَعَنْ عِلْمِهِ: فِيمَ فَعَلَ؟

٤ وَعَنْ مَالِهِ: مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟

٥ وَعَنْ جِسْمِهِ: فِيمَ أَبْلَاهُ؟»[1].

(١) الترمذيُّ (٢٤١٧).

آيـــات

- ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].
- ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].
- ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].
- ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].

الرّاوي

هو: أبو بَرْزَةَ الأسلميُّ ﷺ، صحابيٌّ جليل، اشتُهر بكُنْيته، واختُلف في اسمه؛ فقيل: نَضْلَةُ بنُ عُبيدِ بن الحارث، وقيل: نضلةُ بنُ عبدِ الله بنِ الحارث، أَسْلَم قديمًا، وشَهِد فتح خَيبَر، وفتح مكَّة وحُنَينًا، وسَكَن البصرة، وغزا خُراسانَ، وهو الذي قتَلَ عبدَ العزَّى بنَ خَطَلٍ تحت أستار الكعبة يومَ الفتح لمَّا أمَرَ النبيُّ ﷺ بقتله، تُوفِّي سنة (٦٥هـ)[1].

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ الإنسان مسؤولٌ عن أربعة أمور؛ عن عُمره وعلمه وماله وجسمه، فعليه الاستعداد لتلك الأسئلة، واستعمال تلك الأشياء في طاعة الله ومرضاته.

(١) ينظر ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥/ ٢٦٨٢)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٤٩٥)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٥/ ٣٠٥).

١ يُنَبِّهُ النبيُّ ﷺ أُمَّتَه إلى أنَّ العبد لا بدَّ أن يُسأل عن أربعة أمور بين يدي الله تعالى، فعليه أن يَستعدَّ لتلك الأسئلة، وأن يُعِدَّ للسؤال جوابًا. ومِن رَحمته سبحانه أنَّه لم يجعل تلك الأسئلة مُبهَمةً لا يعلمها أحدٌ، بل بيَّنَها وأخبر بها النبيُّ ﷺ.

٢ وأوَّلُ تلك الأسئلة أن يُسأل عن عُمُره الذي عمَّره الله تعالى في الأرض، كيف قضاه وفِيم ضيَّعه؟ أفي طاعةِ الله تعالى أم في معاصيه؟ ولهذا حرَص النبيُّ ﷺ على توجيهِ أُمتِه إلى اغتنام عُمرها بقولِه لابن عباس رضي الله عنهما: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[١].

٣ ثُمَّ يَسأله جلَّ وعلا عن عِلمه - إن كان من أهل العلم -؛ هل تعلَّم ذلك العلمَ مخلِصًا لله تعالى أم رياءً وسُمعةً فيكون مَن أوَّل مَن يُقضى فيه يوم القيامة؛ ففي الحديث: «وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[٢].

وهل نشَر ذلك العلم وصَدَق فيه أم كَتمَه ودلَّس في إبلاغه وكذَب على النَّاس يبتغي رِضا بعضِهم به؟ وهل عَمِلَ بما عَلِم أم خالَفه بفِعله فدخَل في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

٤ وثالث الأسئلة أن يُسأل العبدُ عن ماله؛ مِن أين اكتسَبه وأتى به، أمِن حلالٍ أم حرام، وفِيم أنفقه؟ هل سخَّرها في الطاعة وخِدمة الإسلام أم ضيَّعها على المعاصي والشهواتِ والذُّنوب؟

٥ وآخِرُ تلك الأسئلة أن يُسأل المرءُ عن جِسمه وقوته وصحَّته وشَبابه؛ كيف أبلاها وفي أيِّ الأبواب استعمَلها.

وليس معنى الحديث أنَّ العبدَ لا يُسأل عن غير تلك الأمور، بل إنَّه سبحانه سيُحاسِب كلَّ عبدٍ على ما قدَّم من الأعمال والأقوال، إلَّا أنَّ تلك الأسئلة أهمُّ ما يُسأل عنه العبدُ، وتَنتظِمُ تحتها جميعُ الأسئلة الأُخرى.

(١) رواه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٧٨٤٦).
(٢) مسلم (١٩٠٥).

اتّباع

١ (١) على العبد أن يسارِع في الاستعداد لتلك الأسئلة التي يُسأل عنها بين يدَي الله تعالى ؛ فالشقيُّ مَن عرَف السؤال ولم يَستعِد له بالجواب .

٢ (١) يَدخل بعضُ المؤمنين الجنَّة بغير حساب ، فلا يُسألون ولا يَقِفون بين يدَي ربهم للسؤال ؛ قال ﷺ : «يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ ، هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[١] . فما أعظمَ دخول الجنة ، وأعظم منه دخولها بغير حسابٍ ! فالحرصَ الحرصَ على أن نكون من هؤلاء .

٣ (١) قال الفُضَيل بن عِياضٍ رحمه الله لرجلٍ : كَمْ أتتْ عليك؟ قال : سِتون سنةً ، قال : فأنت منذ سِتين سنةً تَسير إلى ربك ، يُوشِك أن تَبلغ ، فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون! فقال الفُضيل : أتعرِف تفسيرَه؟ تقول : أنا لله عبدٌ وإليه راجعٌ ، فمَن عَلم أنه لله عبدٌ ، وأنه إليه راجعٌ ، فلْيَعلَم أنه موقوفٌ ، ومَن عَلم أنه موقوفٌ ، فلْيَعلم أنه مسؤولٌ ، ومَن عَلم أنه مسؤول ، فلْيُعِد للسؤال جوابًا ، فقال الرجل : فما الحِيلة؟ قال : يسيرةٌ ، قال : ما هي؟ قال : تُحسِن فيما بَقِيَ يُغفَر لك ما مَضَى ؛ فإنك إن أسأتَ فيما بَقِي ، أُخِذْتَ بما مَضَى وبما بَقِي[٢] .

٤ (٢) عُمر الإنسان أهمُّ شيءٍ يملِكه ؛ فإنَّما هو أيامٌ معدودةٌ وساعاتٌ محسوبةٌ . فينبغي على العبد أن يعرِف قيمةَ وقته ، وأن يَغتنم ساعاتِه في طاعة الله تعالى ؛ فإن الله سائلُه يوم القيامة عن حياتِه كلِّها ، فإنْ أدَّى ما عليه من الفرائض والطاعات ، نَجا وسَلِم ، وإنْ لم يفعل ذلك ، هَلَك وخَسِر .

٥ (٢) احرِص على اغتنام وقتِك في الطاعات وتحصيلِ أعلى الدرجات ؛ قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ : «إن الدنيا قد ترحَّلت مُدبِرةً ، وإن الآخرةَ قد ترحَّلت مقبِلةً ، ولكلٍّ منهما بَنُون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا مِن أبناء الدنيا ؛ فإن اليوم عملٌ ولا حسابَ ، وغدًا حسابٌ ولا عملَ»[٣] .

٦ (٣) العلم حُجَّةٌ على صاحبه ؛ فربما اعتذَر الجاهل بالجهْل ، ولا عُذرَ لعالِمٍ عرَف حُكمَ اللهِ تعالى وخالَفه متبِعًا هواه .

---

(١) البخاري (٦٤٧٢) ، ومسلم (٢٢٠) ، عن ابن عباس ﷺ .

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٨٣) .

(٣) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ٧١) .

٧ (٣) زكاةُ العلم نشرُه وتعليمُه للنَّاس، وكَتمُ العلم كبيرةٌ من الكبائر توعَّد اللهُ تعالى عليها بأقصى العقوبات؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقال ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

٨ (٤) أمرُ المال عند اللهِ سبحانه عظيمٌ، ولهذا سَأل عن العُمر والعلم والجسم سؤالًا سؤالًا، وسأل عن المالِ سؤالين؛ مِن أين أتى به، وكيف أنفقه؟ فعلى العبد أن يَتحرَّى في ماله؛ فلا يَأخذ المال إلا مِن حلال، ولا يُنفِقه إلا في حلال.

٩ (٤) اشتدَّ حِرصُ الصحابة رضي الله عنهم على تحرِّي الأكل من الحلال وتركِ الحرام وما فيه شُبهة، فأبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه أكل يومًا من طعامٍ جاء به غلامُه، فلما أكل رضي الله عنه أخبره الغلام أنَّ هذا الطعام جاء به رجلٌ كان قد تكهَّن له الغلامُ في الجاهلية، وهو لا يُحسِن الكهانةَ، غير أنَّه خدعه، فصادف ذلك قضاءَ اللهِ تعالى، فجاء الرجل بالطعامِ جائزةً للغلام، فأدخَل أبو بكر رضي الله عنه يده في فَمِه حتى قاء ما في بطنِه[٢].

١٠ (٥) جسدُك أمانةٌ استودَعها اللهُ تعالى عندك، فاحفَظْها بطاعة الله تعالى والتَّقرُّب إليه، وامنَعْها عن مَوارد الهَلَكة والعصيان.

قال الشاعر:

نَلْهُو ونَأْمُلُ آمَالًا نُسَرُّ بِهَا ... شَرِيعَةُ المَوتِ تَطْوِينا وتَطْوِيهَا
فاغْرِسْ أُصُولَ التُّقَى ما دُمْتَ مُقْتَدِرًا ... واعلَمْ بأنَّكَ بعدَ الموتِ لاقِيهَا
تَجْنِي الثِّمَارَ غَدًا فِي دارِ مَكْرُمَةٍ ... لا مَنَّ فيها ولا التَّكْدِيرُ يأتِيهَا

(١) أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٤).
(٢) البخاري (٣٨٤٢).

الحديث ١٠٤

الوَرَع

عن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول - وأَهْوى النُّعمانُ بإصْبَعَيْهِ إلى أُذُنَيْه -:

١ «إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ،

٢ وبَيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ،

٣ فَمَنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدينِهِ وعِرْضِهِ،

٤ ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ وقَعَ في الحَرامِ، كالرَّاعِي يَرْعى حَوْلَ الحِمى، يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فِيهِ،

٥ ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنَّ حِمى اللهِ مَحارِمُهُ،

٦ ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ»[(١)].

(١) البخاريُّ (٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩) واللفظ له.

آيـــات

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٨٣].

﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ۝٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩].

الرّاوي

هو: النُّعمانُ بنُ بَشيرِ بنِ سعدِ بنِ ثَعْلبةَ الأنصاريُّ، الأمير، العالم، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، وهو من الصَّحابة الصِّبيان باتِّفاق، وكان من أُمراء معاوية، ولَّاه الكوفة مدَّةً، ثم وَلِي قضاء دِمَشْق بعد فَضالة، ثم وَلِي إمْرة حِمْص، أَخرج حديثَه الأئمة الستةُ، وحديثُه قليل، تُوفِّي سنة (٦٤هـ)[(١)].

خلاصة

يُخبِر النبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ تعالى قد بيَّن الحلالَ والحرامَ للناس، غير أنَّ بعض الأمور قد تَشتبِه على أكثر النَّاس من غير أهل العلم، فمَن اجتنب تلك الأمور حَفِظ دينه، ومن وقع فيها أوشَك أن يقع في الحرام.

ثم أخبر ﷺ أنَّ صلاح الجسد وفساده موقوفٌ على القلب.

(١) تُراجع ترجمته في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٦/ ٥٣)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٤٩٦)، «أُسْد الغابة» لابن الأثير (٤/ ٥٥٠).

هذا الحديث من أهم أحاديث الدِّين؛ حتى قال جماعة من أهل العلم: هذا الحديث ثُلُثُ الإسلام، وإن الإسلام يَدُور عليه وعلى حديث «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، وحديثِ «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المرء تركه ما لا يَعْنِيه». وقال أبو داود: يَدور الإسلام على أربعة أحاديثَ: أولها حديث: «الحلال بيّن والحرام بيّن»(١).

١ يذكر النبيُّ ﷺ في الحديث أنَّ أحكامَ الشريعة ظاهرةٌ واضحةٌ؛ فالحلالُ الذي أحلَّه اللهُ تعالى وأباحه واضحٌ لا اشتباه فيه، وكذا الحرامُ الذي نهى الله تعالى عنه وحظَره ظاهرٌ واضحٌ، لا يخفى على أحدٍ ممن بلغته دعوة الإسلام ودخل فيها.

فمِن الحلال الواضح الأكلُ من الطيِّبات التي أحلَّها الله في كتابه، والاستمتاع بزينة الحياة الدنيا من الزوجات، ولُبس أنواع الثياب الطاهرة التي أحلَّها اللهُ.

ومن الحرام البَيِّن: الشِّرك بالله وأسبابه ووسائله الموصلة إليه، وأكل النجاسات والميتة والخنزير، وشُرب المسكرات، وظلم الناس وأكل أموالهم بالباطل، ونحو ذلك.

٢ وبيْن تلك المرتبتينِ من الحلال الواضح والحرام الواضح أمورٌ تشتبه على كثيرٍ من النَّاس، فلا يَدْرون أهي من الحلال أم من الحرام. وليس ذلك لأنَّ الشرع لم يبينها؛ فإنَّ الله تعالى قد أرسلَ نبيَّه ﷺ ليُبَيِّنَ أحكام الشرع بيانًا تامًّا، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وإنما قد يغيب حُكمُها عن كثيرٍ من النَّاسِ؛ لنقص علمهم، وقد تغيب عن بعض أهل العلم لأمر عارضٍ عليهم، لكن يبقى من أهل العلم من اتَّضح لديهم حكمُها بدليلها من الكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ والقياسِ(٢).

٣ فمَن اجتنب تلك الأمور المشتبِه في حُكمها وتورَّع عنها، **حصلت له البراءة** لدِينه، فسَلِم من الذَّمِّ والعقوبة، ولعِرْضِه فكفَّ ألسنةَ الناس عن الطعن فيه.

والورع هو من هذا، فالورع اتِّقاء الشُّبهات وترك ما يُخشى ضررُه في الآخرة، وأما الزُّهد فهو تركُ التعلق بما ينقص الدرجة في الآخرة وإن كان مباحًا(٣)؛ فالزُّهد مرتبةٌ لا تجب وهي مرتبة أعلى، والورعُ حَقٌّ على كل مسلِم.

---

(١) «شرح النَّوويِّ على مسلم» (١١/ ٢٧).

(٢) انظر: «شرح الأربعين النووية» لابن دقيق العيد (٤٤)، و«شرح النوويِّ على مسلم» (٤/ ١٩٠).

(٣) ينظر بسياق آخر: «الفوائد» لابن القيم (ص: ١٨١).

٤ ومَن اقترف تلك الأمور وخاض فيها، ولم يتورَّع عنها، أفضى به استخفافُه ذلك إلى ارتكاب المُحَرَّمات؛ فإنه يَعتاد التساهل ويَأْلَفه حتى يتجاسَر على الشُّبهات، ثم يقع في الحرام، عمدًا أو جهلًا[1]. كما أنَّ الراعي إذا رعى ماشيته وأغنامه حول الحِمَى - **وهو ما يحميه المِلِكُ من الأرض فيمنع الناسَ من دخوله بغير إذن، ومَن اقتحمه عاقبه** - يوشِكُ أن **تَنزِله بهائمُه وتأكل فيه**؛ لأنه قد تَنفرِد الفاذَّة وتَشِذُّ الشاذَّة، ولا ينضبط، وربما استَهْوته نفسه وسوَّل له الشيطانُ دخولَه، فكما أن الراعيَ إذا جرَّه رعيُه حول الحمى إلى وقوعه، استحقَّ العقاب لذلك؛ فكذا مَن أكثَرَ من الشُّبهات وتعرَّض لمقدِّماتها، وقعَ في الحرام؛ فاستحقَّ العقابَ[2].

٥ فكما أنَّ لكل مَلِكٍ حِمًى يحميه ويحظر على النَّاس دخوله، ويعاقِب من خالَف أمره؛ فلله تعالى المثل الأعلى، وحِمَاهُ التي حرَّمها على خلْقه محارِمُه، وهي الكفر والمعاصي، مَن دخلَه بارتكابه شيئًا من المعاصي استحقَّ العقوبة، ومَن قاربَه يوشكُ أن يَقع فيه، ومَن احتاط لنفْسه ولم يقاربْه فلا يتعلَّق بشيء يقرِّبه من المعصية، ولا يَدخل في شيء من الشُّبهات[3].

٦ ثُمَّ أخبر ﷺ أنَّ في الجسد **قطعةً صغيرةً من اللحم بقدْر ما يَمضُغه الإنسان في فمِه**، وهي القلب، وهذا القلب الحسي له علاقة وارتباط بالقلب المعنوي الذي يكون فيه الإيمان، ويحصل فيه الصلاح أو الفساد.

٧ إذا صلَحت واستقامت أحوال القلب صلَح حال الإنسان وسائر جسده، وإذا فسَدت فسَد؛ فإنَّ الْقلب مَلِك والأعضاء جُنُوده، فإذا طَابَ الْمَلِك طابت جُنُوده، وَإِذا خَبُثَ الْمَلِك خَبُثَت جُنُوده[4].

والقلبُ الصالح هو الذي امتلأ بحُبِّ الله تعالى وتوحيده، وسَلِم عن جميع ما يَكرهه الله تعالى، فيُحِبُّ ما يرضاه الله تعالى ويحبه، ويَكرهُ ما يَكرهُ سبحانه ويأباه. والقلب الفاسد على الضِّدِّ من ذلك[5].

وقد جعلَ اللهُ سبحانه في القلب مُستقرًّا للإيمان والكفر، فقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨].

(١) «شرح النوويِّ على مسلم» (٤/ ١٩٠).
(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ١٩٤)، و«إرشاد الساري» للقسطلانيِّ (٤/ ٧).
(٣) «شرح النوويِّ على مسلم» (٤/ ١٩٠).
(٤) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ١٩٣).
(٥) «فتح الباري» لابن رجب (١/ ٢٢٩).

اتّباع

١ (١) بيّن اللهُ لعباده جميع الأحكام الشرعية؛ فعلى العبدِ أن يتعلَّم تلك الأحكام من أهل العلم، ويستفتيهم فيما غاب عنه، وليس له عُذرٌ في ارتكاب المحرَّمات دون أن يسأل أهل العلم ويستشيرهم.

٢ (١) أتمَّ اللهُ على عباده نِعمته بإكمال الدِّين وبيان الحلالِ والحرامِ، فلا يَتنطَّع متنطِّعٌ ويزعم أنَّ أحكام الشرع لا تَستوفي الدينَ كُلَّه.

٣ (١) على العُلماء والدُّعاة أن يحققوا بيان الحلال والحرام، بأن يُعلِّموا الناسَ أحكامَ الشريعةِ، ويُفتونهم فيما يطرأ عليهم ويَستجِد من الأحكام والمعاملات.

٤ (٢) في الحديث بيان فضل العُلماء، فهُم الذين يعلمون مُشتبِهات الأمور دون سائر الناس، فمن أراد أن يلتحق بذاك الصِّنف فلْيَحرِص على طلب العلم والجدِّ في تحصيله.

٥ (٢) اشتباه تلك الأمور هو بسبب جهل أكثر النَّاس بأحكامها وأدلتها؛ فبعض الأحكام تشتهر عند كثيرٍ من الناس، وبعضها الآخر يخفى إلا على خواصِّ النَّاس من أهل العلم والدِّين؛ فلا يظنَّنَّ أحدٌ قُصورًا في إيصال دِين الله تعالى إلى البشر.

٦ (٢) الواجب على المسلم إذا بادره أمرٌ يَجهل حُكمَه أن يسارع بسؤال أهل العلم؛ فهم الذين عَلِموا الأحكام الشرعية وأدلتها التفصيلية.

٧ (٣) يجب على المسلم أن يَبتعد عن الشُّبهات حفاظًا على دِينه وعِرضه.

٨ (٣) على المسلم أن يحفظ عِرضَه من خَوض النَّاس فيه وإن كان تقيًّا نقيًّا.

٩ (٣) اتِّقاء الشبهات امتثالٌ كذلك لقول النبيِّ ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»[١].

(١) الترمذيُّ (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١)، عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١/ ٤٤).

١٠ (٤) مَن لم يتَّقِ الله وتجرَّأ على الشُّبهات، أفضَت به إلى المحرَّمات، ويَحمِله التساهل في أمرها على الجُرأة على الحرام؛ كما قال بعضهم: الصغيرة تجرُّ الكبيرة، والكبيرةُ تجرُّ الكُفْرَ، وكما رُوِي: المعاصي بَرِيد الكُفر[1]؛ فالورعَ الورعَ عن الشُّبُهات حتى لا ننجرفَ في تيار المعاصي والكبائر.

١١ (٤) إدمان المباحات والعُكوف عليها يبعث الإنسان على اقتراف المُحَرَّمات شيئًا فشيئًا؛ فعلى العبدِ أن يهتمَّ بالعبادةِ، ويحرِص على الإكثار من النوافل والعبادات ولا ينخرِط في سلك المباحات ووسائل اللهو.

١٢ (٤) الشيطان لا يُوَسوِس للعبدِ أن يأتي الكبائرَ أو الكفرَ دفعةً واحدةً، بل يُزَيِّنُ له ذلك شيئًا فشيئًا، فيُسَوِّل له الغفلة بالمباحات، ثم يُلجئه إلى الشُّبُهات والمكروهات، حتى إذا أدْمَن ذلك لم يَصعُب عليه أن يَجرُؤ على حدود الله ومحارمه. فالحذرَ من وساوس الشيطان ومَكْره، وتراجع من أول الطريق.

١٣ (٤)، (٥) استخدم النبيُّ ﷺ التصويرات والتشبيهات التي تبيِّن المعاني وتؤكدها وتقربها، وذلك بتشبيه الذي وقع في الشبهات بالذي يرعى حول الحمى، وبضرب المثل على عقوبة الواقع في الحُرُمات بعقوبة المنتهك لِحمى الملوك في الدنيا؛ فعلَى الداعية والمُرَبِّي أن يقرب المعاني إلى الأفهام بضرب الأمثال واستخدام الوسائل البلاغية.

١٤ (٦) الاهتمام بتصحيح القلب والنَّظَر في أمراضه وعلاجها أهمُّ ما تنسَّك به الناسِكون؛ فإن القلب لهذه الأعضاء كالْمَلِك المتصرِّف في الجنود، الذي تَصدُر كلُّها عن أمره، وتكتسِب منه الاستقامةَ والزَّيغ، وتَتبَعه فيما يريد؛ فهو مَلِكُها وهي المنفِّذة لما يَأمُرها به[2].

١٥ (٦) لا تحسن الظن بباطنك وقد ساء ظاهرك، فقد دلَّ الحديث على أنَّ صلاح الباطن يستلزم صلاح الظاهر، فإذا صلح القلب وجب أن تعمل بذلك الجوارح؛ فليس صالحَ القلبِ مَن أساء العمل وأطلق جوارحه للحرام وانتهك حدودَ الله تعالى.

(١) «شرح الأربعين النووية» لابن دقيق العيد (ص: ٤٧).

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» لابن القيم (١/ ٥).

الحديث ١٠٥

عن عبد الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما قال:

١ أخَذَ رَسولُ اللهِ ﷺ بمَنْكِبي، فقالَ: «كُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غريبٌ

٢ أوْ عابرُ سَبيلٍ»،

٣ وكانَ ابنُ عُمَرَ يقولُ: «إذا أمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرِ الصَّباحَ، وإذا أصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ المَساءَ،

٤ وخُذْ مِن صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ،

٥ ومِنْ حَياتِكَ لِمَوْتِكَ»[(١)].

(١) البخاريُّ (٦٤١٦).

آيـــات

- ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].
- ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].
- ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].
- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]
- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

الراوي

هو: أبو عبد الرحمن عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطَّاب بن نُفَيل، القُرَشيُّ، العَدويُّ، أسلَم وهو صغير، وكان صغيرًا يومَ أُحدٍ، فأوَّلُ غزواته الخَنْدَقُ، وهو ممن بايَع تحت الشجرة، وروى عِلمًا كثيرًا نافعًا عن النَّبيِّ ﷺ وعن أبيه عمر، وأبي بكر، وعثمانَ، وعليٍّ، وبلالٍ، وصُهيب، وغيرهم رضي الله عنهم، وهو من المُكثِرين بالفُتيا والحديث، تُوفِّي سنة (٧٤هـ)[(١)].

خلاصة

في الحديث الأمرُ بالزهد عن الدنيا، وأن يكون الإنسانُ فيها كالغريب الذي يأخذ منها ما يتزوَّد به في سفره فحسبُ.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يَعِظ الناسَ بمثل هذا، وألَّا يُطيل الإنسانُ أملَه في الدنيا ويَغترَّ بها، ويوصي أن يعمل الإنسان في وقت صحته قبل المرض، وفي حياته قبل الموت.

(١) انظر: "الطبقات الكبرى" لابن سعد (٤/ ١٠٥)، "سير أعلام النبلاء" للذهبيِّ (٤/ ٣٢٢)، "الإصابة في تمييز الصحابة" لابن حجر (٤/ ١٥٥).

١ أخذ النبيُّ ﷺ بمَنْكِبِ -**وهو ما بين الكتف والعَضُد**- ابنِ عمر رضي الله عنهما، موصيًا له بالزُّهد في الدُّنيا، وأن يكون فيها كالذي عاش في غير أهله وبلده، ولا يعبأ بصُحبةِ أحدٍ، ولا يتَّخِذَ سكنًا ولا يبني قصرًا، ولا يحمل لأحدٍ حقدًا أو غِلًّا؛ فإنَّ هَمَّه الوحيد هو التزوُّد للرجوع إلى الوطن، فكذلك ينبغي أن يكون المسلمُ في الدُّنيا؛ فهي دارُ غُربته التي لا يهتمُّ فيها إلا بالتزوُّدِ للآخرة حيث وطنُه الأوَّل، وهي الجنَّة.

٢ ولمَّا كان الغريبُ يقيمُ مُدَّةً في ديار الغُربة ويسكنها، ويَلتمِس العلاقات مع أهلها، ارتقى النبيُّ ﷺ إلى مرتبةٍ أعلى في الزُّهد في الدُّنيا، وهي أن يكون كالمسافر المار بطريق؛ فعابرُ السَّبيلِ لا يَتوقفُ عن سَيْرِه إلا للتزوُّد والراحة، لا يأنسُ بحبيبٍ ولا يَميل لصاحبٍ ولا يطمع في إقامة، فكذا المسلم، ينبغي ألَّا تَشغله الدُّنيا وما فيها عن رحلته إلى وطنه.

٣ وكان ابنُ عمر رضي الله عنهما يَعِظ النَّاس ويُحذِّرهم من طول الأمل وعدم الاستعداد للموت، فينبغي على الإنسان أن يَضع الموت نُصب عينيه كأنَّه لن تمر عليه ساعاتٌ معدودةٌ، فإذا أمسى عَمِل للآخرة كأنه يموت قبل أن يطلع الصبح، وإذا أصبح أيقنَ أنَّه لن يأتي عليه الليل، فمَن تهيَّأ لهذا عَمِل لآخرته وترك شهوات الدُّنيا وزيناتها، كما قال أحمد بن حنبل رحمه الله حين سُئل: أيُّ شيءٍ الزُّهْدُ في الدنيا؟ قال: قِصَرُ الأمل، مَن إذا أصبح قال: لا أُمسي[١].

وطول الأمل رأسُ كُلِّ بَليَّة؛ فإبليس حين وَسْوَس لآدم وحواء الأكل من الشجرة أغواهما بالمُلك والخلود، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، كذلك فالإنسانُ لا يظلِم أخاه ولا يأكل حقَّه إلا بدافعِ الاغتراف مِن كنوز الدنيا والتنعُّم فيها.

٤ وكان يَعِظهم أيضًا بأن يغتنموا أوقات العافية قبل أن يمنعهم المرضُ والشُّغل عن العمل الصالح؛ فإنَّ الصِّحَّةَ من أعظم النِّعَم التي يغفُل الإنسانُ عن استغلالها، ولهذا قال ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ»[٢].

٥ وبأن يعملوا للآخرة قبل أن يَفجأهم الموتُ فينقطع العملُ وتعظُم الحسرات، ويصرخُ العبدُ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

ونصيحة ابن عمر رضي الله عنهما معتمِدةٌ على كلام النبيِّ ﷺ السَّابق، ومُستنبَطة من قوله ﷺ لرَجُلٍ وهو يَعِظُه: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[٣].

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٨٦).
(٢) البخاري (٦٤١٢).
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١١١)، والحاكم في المستدرك (٧٨٤٦).

اتّباع

١ (١) في الحديث بيان اهتمام النبيِّ ﷺ بتربيةِ الصِّغار وتعليمهم أحكام الدين ووعظهم بالزهد في الدُّنيا. فلا يغفُل الدعاةُ والمُربُّون ذلك.

٢ (١) ينبغي على الدُّعاة تربيةُ النَّشْء على إيثار الآخرة والعمل لها، وعدم الالتفات إلى زينة الدنيا ومتاعها.

٣ (١) أمسك النبيُّ ﷺ بمَنكِب ابن عمر رضي الله عنهما ليجذب انتباهه وحواسَّه؛ فعلى العلماء والدعاة استعمال أمثال تلك الأساليب المُشَوِّقة في استمالة القلوب والأسماع.

٤ (١) كان عطاءٌ السُّلَيْميُّ يقول في دعائه: «اللَّهمَّ ارحم في الدُّنيا غُربتي، وارحم في القبر وَحشتي، وارحم موقفي غدًا بين يَدَيك»[١].

٥ (١)، (٢) ضرب النبيُّ ﷺ مثلًا لحالِ المسلم بالغريب وعابر السبيل، وضرب الأمثال واستعمال الأساليب البيانية والتشبيهات مما يُقرِّب المعاني ويوضِّحها للأفهام. فلا ينبغي لمن يُعَلِّم ويُوَجِّه ترك استعمال مثل هذه الأساليب.

٦ (١)، (٢) في الحديث بيان أن الله تعالى كتب على الدنيا الفناءَ والزوال، فلا يحياها المؤمنُ إلا ليتزوَّد منها لدار البقاء في الآخرة، فمَن ركن إلى الدنيا، واطمأنَّ إليها، خَسِر آخرتَه.

٧ (١)، (٢) كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «ارتحلت الدنيا مدبِرةً، وارتحلت الآخرةُ مُقبلةً، ولكلٍّ واحدة منهما بَنُون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليومَ عملٌ ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عمل»[٢].

٨ ليس معنى الحديث تَرْكَ السعي للرزق، وتحريم ملذَّات الدنيا؛ لأن أفعالَ النبيِّ ﷺ وصحابته الكرام تَنفي هذا.

٩ (٣) سِر دائمًا، ولا تَفتُر عن السَّير ساعةً؛ فإنك إن قصَّرت في السَّير، انقطعتَ عن المقصود، وهَلَكْتَ في تلك الأودية[٣].

١٠ (٣) كان السَّلفُ أكثر النَّاس استعدادًا للآخرة؛ قيل لمحمَّدِ بنِ واسع -رحمه الله-: كيف أصبحت؟ قال: ما ظنُّكَ برجل يَرتحل كلَّ يوم مرحلةً إلى الآخرة؟![٤] وقال الحسن البَصري -رحمه الله-: إنَّما أنت أيَّام مجموعة، كلَّما مضى يومٌ، مضى بعضك[٥].

١١ (٤) ينبغي للمسلم أن يبادر إلى فعل الخيرات ما استطاع، وأن يستثمر فرصة صحته وفراغه وحياته، يعمل حسابَ النوائب والأمراض والشواغل التي قد تشغله لاحقًا عن الطاعات.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٧٨، ٣٧٩).

(٢) البخاريُّ (٨/ ٨٩).

(٣) «الكاشف عن حقائق السنن» للطِّيبيِّ (٤/ ١٣٦٤).

(٤) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٨٢).

(٥) المصدر السابق.

١٢ كتب الأوزاعيُّ –رحمه الله– إلى أخ له: أمّا بعدُ، فقد أُحيط بك من كلِّ جانب، واعلم أنَّه يُسار بك في كلِّ يوم وليلة، فاحذر اللهَ والمَقام بين يديه، وأن يكون آخر عهدك به، والسَّلام»[١].

١٣ قال الفُضيل بن عياض –رحمه الله–: لرجل: كم أتت عليك؟ قال: ستُّون سنةً، قال: فأنت منذ ستّين سنةً تسير إلى ربِّك يوشِك أن تبلغ، فقال الرَّجل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، فقال الفضيل: أتعرِف تفسيره؟ تقول: أنا لله عبد وإليه راجع، فمَن علم أنَّه لله عبد، وأنَّه إليه راجع، فلْيَعلم أنَّه موقوف، ومَن عَلم أنَّه موقوف، فليعلم أنَّه مسؤول، ومن عَلم أنَّه مسؤول، فليُعِدَّ للسُّؤال جوابًا، فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: يَسيرة، قال: ما هي؟ قال: تُحسِن فيما بَقِيَ يُغفَر لك ما مَضَى، فإنَّك إنْ أسأتَ فيما بَقِيَ، أُخذت بما مَضَى وبما بَقِيَ[٢].

١٤ كان رواي الحديث: ابن عمر رضي الله عنهما ممن يطبق هذا الحديث، قال طاووس: ما رأيت رجلاً أورع من ابن عمر[٣]، وعن نافع أن ابن عمر اشتهى عنبًا وهو مريض، قال: فاشتريتُ له عنقودًا بدرهم، فجئتُ به فوضعتُه في يده، فجاء سائل فقام على الباب فسأل، فقال ابن عمر: ادفعه إليه. قال: قلت: كُل منه، ذقه. قال: لا، ادفعه إليه. قال: فدفعتُه إليه، ثم اشتريتُه منه بدرهم، فجئتُ به إليه فوضعتُه في يده، فعاد السائل، فقال ابن عمر: ادفعه إليه. قلتُ: ذقه، كُل منه. قال: ادفعه إليه. قال: فدفعتُه إليه ثم اشتريتُه منه بدرهم، فجئتُ به إليه فوضعتُه في يده، فعاد السائل، فقال لي: ادفعه إليه. قال: قلتُ: كُل منه، ذقه. قال: ادفعه إليه، قال: فدفعتُه إليه وقلت: ويحك ما تستحيي؟ فاشتريته منه بدرهم، فذهبت فجئت به إليه فأكله[٤].

١٥ أكرهم إقبالاً على الله تعالى يأعلمه قال إلَّا في الرابعة، شك يزيد– قال: فاشتريته منه بدرهم، فذهبت فجئت به إليه فأكله

قال الشاعر:

نَسِيرُ إِلَى الْآجَالِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ   وَأَيَّامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحِلُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْمَوْتِ حَقًّا كَأَنَّهُ   إِذَا مَا تَخَطَّتْهُ الْأَمَانِيُّ بَاطِلُ
وَمَا أَقْبَحَ التَّفْرِيطَ فِي زَمَنِ الصِّبَا   فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ لِلرَّأْسِ شَامِلُ؟!
تَرَحَّلْ مِنَ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التُّقَى   فَعُمْرُكَ أَيَّامٌ وَهُنَّ قَلَائِلُ

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٨٢- ٣٨٤).
(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٨٣).
(٣) «الزهد» لأحمد (٢٤٠).
(٤) «الزهد» لأحمد (٢٣٧).

مَنزِلَة الفِقْهِ في الدِّين

عن معاويةَ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

١ «مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ،

٢ وإنَّما أنا قاسمٌ، واللهُ يُعطِي،

٣ ولن تزالَ هذه الأُمَّة قائمةً على أمر الله، لا يَضرُّهم مَن خالَفهم، حتى يأتيَ أمرُ الله»(١).

(١) البخاريُّ (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

آيــات

▌ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١].

▌ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

▌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

▌ ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

▌ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٢، ٢٣]

الراوي

هو: معاويةُ بنُ أبي سُفيانَ صخرِ بنُ حرب، وأمُّه هندُ بنتُ عُتبةَ، أسلم في عمرة القضاء، وأظهر إسلامه يوم الفتح حين أسلم أبوه، وأخته أمُّ حبيبةَ زوجُ النبيِّ ﷺ، كان من كتبة الوحي للنبي ﷺ، وولَّاه عمرُ بنُ الخطَّاب الشام، تولى الخلافة بعد فتنة مشهورة، وبايع له الحسن رضي الله عنه بالخلافة، تُوفِّي سنةَ (٦٠هـ)(١).

خلاصة

رغَّب النبيُّ ﷺ في طلب العلم الشرعي والتفقه في دين الله، فذكر أن الله إذا أراد بعبدٍ خيرًا علَّمه الدين وفقَّهه فيه. ثم ذكر ﷺ أنه إنما يقسم ما أعطاه الله وفق ما أراد الله، لئلا تبالغ أمَّتُه في حقِّه فيرفعونه فوق قدره. ثم بشَّر أمته بأن هذا الدينَ باقٍ ما بقي الليل والنهار.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة لأبي نعيم» (٥/ ٢٤٩٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر» (٣/ ١٤١٦)، «أسد الغابة لابن الأثير» (٤/ ٤٣٣).

١ من أراد الله له تعالى الخير العظيم في الدنيا والآخرة؛ يسر له **حسن الفهم لأحكام الإسلام**، وأوامره، ونواهيه، ومقاصده، ويزداد ذلك بما يعلمه من معرفة المسائل بأدلتها، والنظر في الآيات والأحاديث والآثار، وتعلُّم أصول العلوم المساعدة على فهمها، والاجتهاد لمعرفة الصواب.

ومفهومُ الحديث أن مَن لم يتفقَّهْ في الدين فقد حُرِم الخيرَ[1]، وإنما خصَّ عِلمَ الدين بالذِّكر دونَ سائر العلوم؛ لأنه أشرفُها، فهو الموصِّلُ إلى الله، وبه تكون عبادتُه وطاعته واجتنابُ نواهيه، ومِن ثَمَّ مصالح الدنيا والآخرة، والنجاة من مهالكهما، وسائر العلوم هي تبعٌ وخدَمٌ لعلوم الدِّين، وقاصرةٌ دونها[2].

٢ ثمَّ بيَّن ﷺ أنَّه **خازنٌ يتولى قسمة ما أعطاه الله تعالى**، سواءً كان عطاءَ المال والرزق أو عطاءَ العلم.

فمعنى أنه ﷺ قاسمٌ في العلم أنه يُبلِّغ ما أُمر ببلاغه، دون أن يبخس أحدًا منه، وأن الفَهْم والفقه إنما هو هِبةٌ وعطاء من الله عزَّ وجلَّ على ما أراد بحكمته.

٣ ثم بشَّر ﷺ أُمَّته أن الله تعالى سيجعلها مستمرةً في كل زمنٍ على دينها، وناصرة له، محفوظة من هلكتها بأيدي أعدائها، لا ينقص درجتها عند الله تعالى، مهما خالفها العدو بحرب فكرية أو عسكرية.

ويكفي في تحقق ذلك بقاء طائفة من الأمة على ذلك، وأما بعض الأمة فقد يتخلى عن القيام عن بعض أمر الله تعالى.

٤ ويستمر قيام هذه الأمة **إلى آخر الزمان**، ولعل المراد به ما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن اللهَ يبعثُ ريحًا من اليمن ألْيَن من الحرير، فلا تدعُ أحدًا في قلبه مثقالُ حبَّة إيمان»[3]. فالساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق.

---

(١) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلانيِّ (١/ ١٦٣- ١٦٤).

(٢) انظر: «شرح صحيح البخاريِّ لابن بطَّال» (١/ ١٥٤).

(٣) مسلم (١١٧).

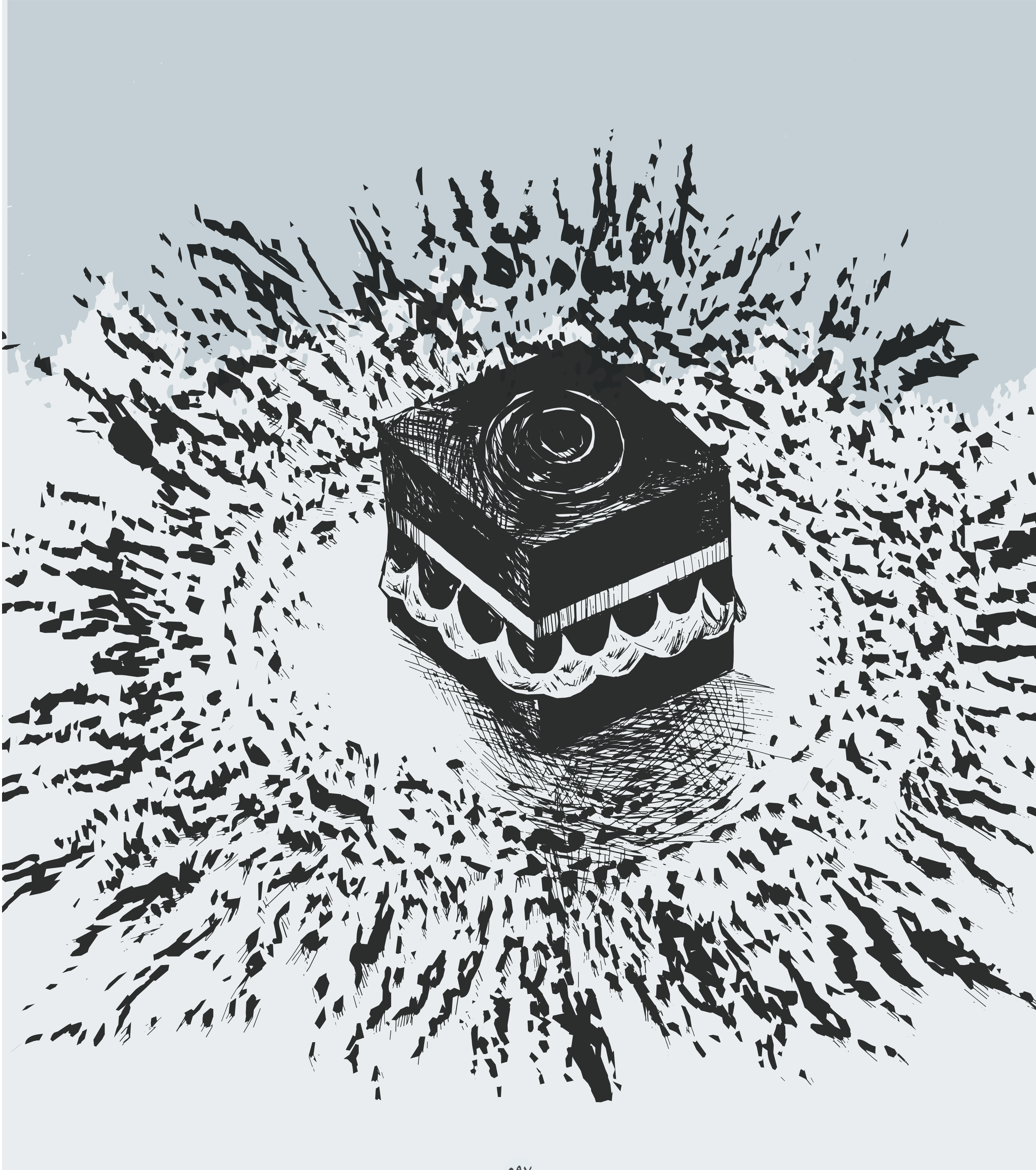

اتّباع

١ إذا أردت الخير فاطلبه في مظانه، وذلك فيما أرشدك إليه رسول الله ﷺ، فاللهُ هو الذي يعلم أين الخيرُ وييسره لمن أراد، وهو الفقه في دين الله تعالى.

٢ ليكن لك بحث دائمٌ عن طرق الفقه في الدين، فالباحث عنها باحثٌ عن الخير في الدنيا والآخرة.

٣ اطلب كمال الفقه عند أصحاب رسول الله ﷺ، فهذا ابن عباس رضي الله عنهما –وهو دون الخلفاء الراشدين– كان ممن دعا النبيُّ ﷺ له حين وضع له ماءً لوضوئه، فقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[1].

٤ تقويم الناسِ يكون بمقدار ما ظهر عليهم من الخير والفقهُ في الدين، وظهورُ آثاره هو من أعظم ما يوزن به الناس: عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ، أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ رضي الله عنه **بِعُسْفَانَ**، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، فقال: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ فقال: **مَوْلًى** مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[2].

٥ التفقُّه فعل مستمر، و في كل تفقُّهٍ جديد خيرٌ مزيد، ولم يأمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يطلب الزيادة إلا في العلم فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فلا تقف في العلم على حدٍّ معين، أو عُمُر معين.

(١) البخاريُّ (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧).

(٢) مسلم (٨١٧)، وعُسفان منطقة شمال مكة بقرابة ٨٥ كلم، قرب شمال شرق جدة، و«مولى» أي كان أو كان آباؤه عبيدًا فأعتقوا، وهو نقص عند العرب.

٦ كان النبيُّ ﷺ قائمًا على الناس بمصالحهم في العلم والمال ونحوهما، فكلُّ من ولّاه تعالى إرثًا من إرثِ النبي ﷺ بالمسؤولية على علم أو مال فليعلم أنه مجرد قاسم لما أعطاه الله تعالى، فلا يغترَّ، ولا يقصِّر، وليقسم على ما أراده الله تعالى.

٧ لا تخف على دين الله تعالى، ولا تحزن لما يصيب هذه الأمة مما قدره الله تعالى من العوارض في أمر دينها ودنياها، فلا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على دين الله ونصرته، لا يضرها المخالف وإن استعمل يده وفكره في حربها، فكن من تلك الفئة الخاصة عند ربها.

قال الشاعر:

العلـمُ مُبلِـغُ قـوم ذِرْوَةَ الـشَّرَفِ ... وصاحبُ العِلْمِ محفوظٌ من التَّلَفِ
يـا صاحـبَ العِلْـمِ مَهْـلًا لا تُدَنِّسُـه ... بالمُوبقـاتِ فـما للعلـمِ مـن خَلَـفِ
العلـمُ يَرْفَـعُ بَيْتًـا لا عِـمَادَ لـهُ ... والجهلُ يَهْـدِمُ بَيْتَ العزِّ والشَّرَفِ

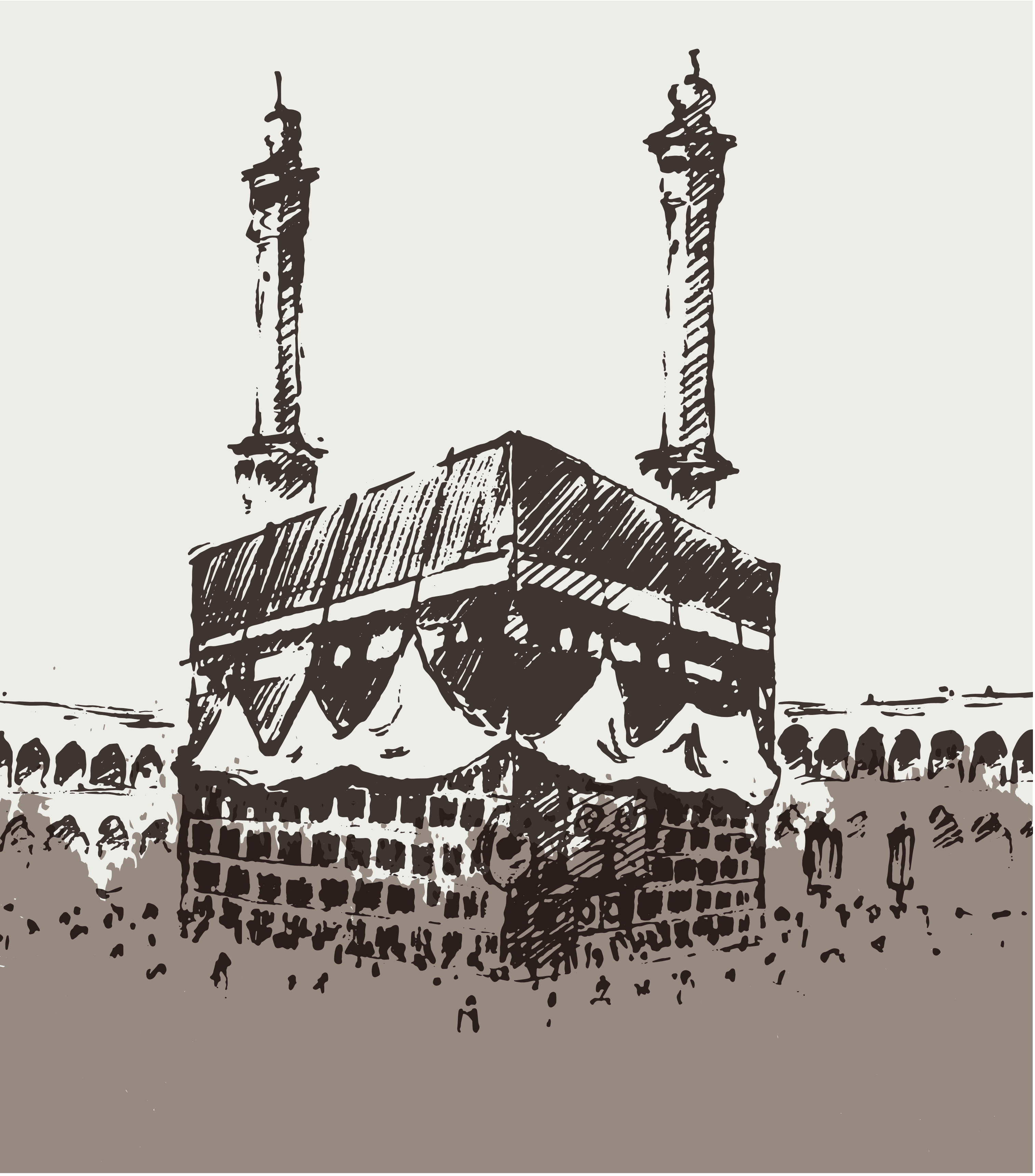

فَضلُ العلمِ وأهلِه

عن أبي الدَّرْداءِ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ:

١ «مَن سلكَ طريقًا يَلتمِسُ فيه عِلمًا، سهَّلَ اللهُ له طريقًا إلى الجنةِ،

٢ وإنّ الملائكةَ لَتضَعُ أجنحتَها رِضًا لطالب العلم،

٣ وإنَّ طالبَ العلم يَستغفِرُ له مَن في السماء والأرض، حتى الحيتانُ في الماء،

٤ وإنَّ فضلَ العالِم على العابد كفضل القمرِ على سائر الكواكب،

٥ وإنَّ العلماءَ ورَثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا؛ إنما ورَّثوا العلمَ، فمَن أخذه أخَذ بحظٍّ وافرٍ»[(١)].

(١) الترمذيُّ (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) واللفظ له.

آيـات

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١]

الرّاوي

هو: أبو الدرداء، عُوَيْمِرُ بنُ زيدٍ الأنصاريُّ، تأخَّر إسلامُه قليلًا، كان آخِرَ أهل داره إسلامًا، وحسُن إسلامُه، وكان فقيهًا عاقلًا حكيمًا، انصرف عن الدنيا إلى عبادة الله تعالى، آخى رسولُ الله ﷺ بينه وبين سلمانَ الفارسيِّ رضي الله عنه، تُوفِّي سنة (٣٣هـ)[(١)].

خلاصة

إنَّ الله عز وجل يسهل طريق الجنة لمن طلب العلم، وتكرمه ملائكة السماء، ويستغفر له من في السموات والأرض والبحر.

فهم كالأقمار وغيرهم كالكواكب، وورثة الأنبياء الذين أخذوا عنهم أعظم إرث، وهو علمهم.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة لأبي نعيم» (٤/ ٢١٠٢)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر» (٣/ ١٢٢٧)، «أسد الغابة لابن الأثير» (٥/ ٩٧).

يخبر النبيُّ ﷺ عن فضلِ من طلب العلم :

١ فيذكر أنَّ من سعى إلى طريق يطلب فيه العلم النافع، كان جزاؤه أن يسهِّل الله عليه الأعمال الصالحة الموصِّلة إلى الجنة، ويوفقه لها.

والحديث ذكر طريق العلم بألفاظ عامة (طريقا.. علما)؛ ليشمل جميع الطُّرق الحِسِّية والمعنوية الموصِّلة للعلم، وليشمل جميع فروع عِلم الدين ومسائله، وليندرجَ فيه القليل والكثير[١].

وطالب العلم محتاجٌ في طريقه لهذه الأمور[٢].

٢ وأخبر ﷺ بأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم، إما تواضعًا له، وتعظيمًا لحقِّه، أو تضع أجنحتها فتكفُّ عن الطيران وتنزل عند طالب العلم تظلله وتحفُّه، كما قال ﷺ: «لا يقعد قومٌ يذكُرون الله عز وجل إلا حفَّتهم الملائكة..»[٣].

٣ ثم ذكر ﷺ فضيلةً أخرى لطالب العلم، وهو أنَّ الله تعالى يُسَخِّر جميع الكائنات لتستغفرَ له وتدعو؛ لأن آثار عِلمه وعمَله سببٌ لنزول الرحمة للعالَمين بسبب كثرة الطاعات[٤]، ولأنَّ من علامات الساعة رفعَ العلم وانتشار الجهل، وهي علامة على لقرب الهلاك.

وهذا الفضل كقوله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلُّون على معلم الناس الخير»[٥].

٤ وذكر أنَّ العالمَ الذي أدى حقَّ العلمِ بالعمل والتعليم خيرٌ من العابد الذي تفرَّغ للعبادات، كفضل القمر مع الكواكب؛ فإن القمر يضيء الآفاق، ويهتدي بنوره المسافرون في الصحراء، وينتفع به البلاد والعباد، بينما يقتصر نور الكوكب على نفسه، ولا يتعدى إلى إضاءة ما حوله، فكذلك العالِم والعابد؛ فنفع العالِم متعدٍّ، وعبادة العابد يقتصر ثوابها عليه فحسب.

---

(١) انظر: «فتح الباري» ابن حجر (١/ ١٦٠)

(٢) انظر: «شرح رياض الصالحين لابن عثيمين» (٥/ ٤٣٣-٤٣٤).

(٣) مسلم (٢٧٠٠)، عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ﭫ.

(٤) «شرح الطِّيبيِّ على مشكاة المصابيح» (٢/ ٦٧٣).

(٥) الترمذي (٢٦٨٥)، عن أبي أمامة الباهلي ﭬ، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ولعل النبي ﷺ شبَّه العالِمَ بالقمر دون الشمس مثلًا؛ لأن نور القمر لَمَّا كان مستفادًا من غيره -وهو الشمس-، فقد أشبهه العالِمُ الذي استفاد نورَه من شمس الرسالة: من وحي الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

٥ ثم يَسُوق ﷺ فضيلةً أُخرى للعلماء، فيَذكر أنهم ورَثةُ الأنبياء، فالعلماء **بمنزلة الأبناء والأقارب بالنسبة للأنبياء**، وكما أن أبناء الرجُل يَرِثون ماله بعد وفاته، فإن العلماء هم مَن يرثون عِلم الأنبياء، وينقُلونه عنهم، وينشرونه بين الناس؛ ولأن الأنبياء لم يورِّثوا دِينارًا من ذهبٍ، أو درهمًا من الفضة، أو أيَّ لون من ألوان المال؛ وإنما ورَّثوا العلم، فمَن أخَذه فقد أخذ الحظ العظيم، الذي هو فوق المال، وقد أخذ من ميراث النبوَّة بنصيب كامل[1].

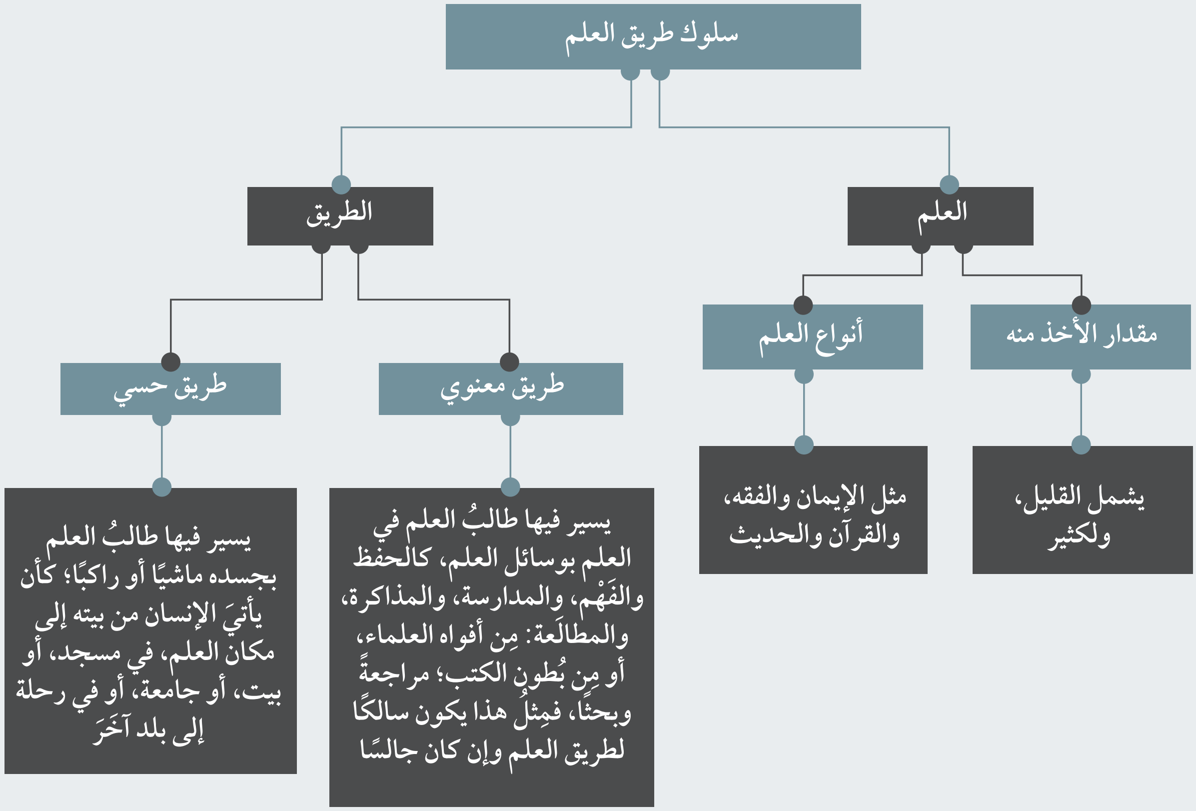

(١) انظر: «المفاتيح في شرح المصابيح للمظهري» (١/ ٣١٣) «إرشاد الساري للقسطلاني» (١/ ١٦٧).

اتباع

١ كلما اشتاقت نفسُك للجنة، أو عسر عليك مطلبها فعليك بالعلم، فالعلمُ نفسه عبادة، وهو يبين لك أي العبادات أعظم أجرًا، وهو يبعثُ في النفس الحماسَ والرضا والصبرَ على العبادات.

٢ من أراد الرفعة والبركة وتيسير الأمر فعليه بالعلم، فإن الملائكة -وهم من أشرف خلق الله تعالى- يكرمون طلاب العلم، ويحفّونهم، وينفذون ما أمر الله تعالى به من تيسير أمورهم.

٣ على طالب العلم أن يوقِّر العلم، فإن لله تعالى ملائكة موكلة بمجالس أهل العلم، وعليه أن يوقِّر الملائكة، فيجتنب في مجلسه أن يكون فيه كلب أو صورة، وليعلم أن الله تعالى وكّل به ملائكة كرامًا، حافظين كاتبين.

٤ ما أكثر ذنوبنا!، وإذا كنا نحتاج أن نستغفر كثيرًا كما أذنبنا كثيرًا فإن في العلم ونشره سببًا لاستغفار من في السماء والأرض لنا، بمن فيهم من الصالحين.

٥ هذا الكون الذي تظنه جامدًا يعيش مع الله تعالى، فحتى الحيتان التي تظنها عجماء هي تستغفر لطالب العلم بأمر ربها الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

٦ فضَّل الله تعالى العالم على العابد لأن له نورًا كالقمر ينشره بين الناس، وأما إذا احتجب العالم عن الناس، وبخِل بعلمه، أو تثاقل عنه، ورضي بأن تغطيه الآفات: فما فضلُه على غيره؟

٧ دلَّ الحديث على أنَّ أعظم الناس منزلةً العلماءُ؛ إذ هم ورثة خير الناس وصفوتهم، ولم يوجَد بعد الأنبياء من يحمل رسالتهم إلى الدنيا أحقُّ منهم، ولهذا فهم أفضل الناس بعد الأنبياء. وهذه منزلةٌ لو عرفها الإنسان لجاهد ملذات الدنيا وعوائقها لأجلها.

٨ في قوله ﷺ: «إن الأنبياءَ لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا» إشارة إلى زُهد أنبياء الله -عليهم السلام- في مُتَع الدنيا الزائلة[١].

---

(١) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» لأبي العباس القرطبي (١/ ٦٨٧).

٩ العلماء ورثة الأنبياء، وقد ورّثوهم كذلك الصبرَ على العلم ونشره، فقد سافر موسى عليه السلام، وتحمّل الجوع لأجل طلب العلم عند من هو دونه وهو الخضر، وتحمل ﷺ الأذى في نشر العلم، فكذلك ورثة الأنبياء، ومن لطيف ذلك أنَّ ابن أبي حاتم الرازي قال: «كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة، نهارنا ندور على الشيوخ وبالليل ننسخ ونقابل، فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا، فقالوا: هو عليل؛ فرأيت سمكًا أعجبنا فاشتريناه، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ، فمضينا، فلم يزل السمك ثلاثة أيام، وكاد أن ينضى فأكلناه نيًّا لم نتفرغ نشويه»؛ ثم قال: «لا يستطاع العلم براحة الجسد»[(١)].

١٠ إذا أراد الإنسان أن يخشى الله حق خشيته فعليه أن يتعلم العلم؛ فإنَّ من تعلم العلم عرف قدرَ الله، فخافه وهابه وأحبَّه، وأنزله منزلته وقَدَره حقَّ قدره، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] استخدم الحصر بـ«إنما» كأنه يقول: إنَّه لا يخشى اللهَ أحدٌ غير العلماء؛ لأن خشيتهم له هي الخشية الحقيقية الناتجة عن علمٍ ومعرفة به.

قال الشاعر:

إِذا مـا لَم يُفِـدكَ العِلـمُ خَـيرًا ... فَخَـيرٌ مِنـهُ أَن لَـو قَـد جَهِلتَـا
وَإِن أَلقـاكَ فَهمُـكَ في مَهـاوٍ ... فَلَيْتَـكَ ثُـمَّ لَيْتَـكَ مـا فَهِمتـا
سَـتَجني مِـن ثِـمارِ العَجـزِ جَهـلًا ... وَتَصغُـرُ في العُيـونِ إِذا كَبِرْتـا

(١) «تذكرة الحفاظ للذهبي» (٣/ ٣٥).

الحديث ١٠٨

أقسامُ النَّاسِ مع الوَحْي

عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال:

١ «مَثَلُ ما بعَثَني اللهُ به من الهُدى والعِلم، كمَثَل الغَيث الكثيرِ أصاب أرضًا:

٢ فكان منها نَقِيَّةٌ، قبِلَت الماءَ، فأنبتَت الكَلأَ والعُشبَ الكثير.

٣ وكانت منها أجادِبُ، أمسكت الماءَ، فنفعَ اللهُ بها الناسَ، فشَربوا وسَقَوْا وزرعوا.

٤ وأصابت منها طائفةٌ أخرى، إنما هي قِيعانٌ لا تُمسِك ماءً ولا تُنبتُ كلأً.

٥ فذلك مثَلُ مَن فَقُه في دِين الله، ونفعه ما بعَثَني الله به فعَلِم وعَلَّم، ومَثلُ مَن لم يرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يَقبَلْ هُدى الله الذي أُرسِلْتُ به»

متفق عليه[1].

(١) البخاريُّ (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

آيـــات

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

الرّاوي

هو: أبو موسى، عبدُ الله بن قَيس بن سليم بن حُضَّار بن حرب بن عامر بن الأشعر، الأشعريُّ، الإمام الكبير، الفقيه، صاحب رسول الله ﷺ، ذو الهجرتَين: هجرة الحبشة والمدينة، تولَّى البصرةَ في زمان عمر، فعلَّم أهلَها وفقَّههم في الدين، وأقرأهُم القرآن، وكان أحسنَ الصحابة صوتًا بالقرآن. تُوفِّي سنة: (٥٠هـ)[1].

خـلاصة

شبه النبيُّ ﷺ أحوال الناس في تلقي الهُدى الذي أنزل الله على نبيه ﷺ؛ بمثال واقعي في حياتهم، فقلوب الناس كالأرض، والعلم كالغيث؛ فمنهم مَن وعاه، وفهِم ما فيه، وعمِل به، فنفع نفسَه وأفاد غيره، ومنهم من حفظ العلم لغيره أكثر من فهمه له، ومنهم قومٌ أهملوا العلم، لا استفادوا ولا أفادوا غيرهم.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة لأبي نعيم» (٤/ ١٧٤٩)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر» (٤/ ١٧٦٢)، «أسد الغابة لابن الأثير» (٥/ ٣٠٦).

فقه

١ يصوّر النبيُّ ﷺ حالَ الناس في قبولهم العلمَ الذي أتى به ﷺ، فجعل ذلك **كالمطر الكثير الذي فيه نفع للناس**، وذكر النبيُّ ﷺ الغيثَ لأنَّ حاجة الناس إليه عظيمةٌ، فكما أنَّ المطر تحيا به الأرضُ، فكذلك العلم يحيي اللهُ به القلوب.

وقد تفاوتت آثار المطر باختلاف طبائع الأراضي التي نزل عليها، كما صوَّر ذلك الحديث الشريف:

٢ فأول نوعٍ من تلك الأرضِ: **نقيَّةٌ طيبة خصبةٌ**، خالية من الآفات، صالحة للزراعة، نزل عليها الماء فتشربته الأرض، وأنبتت **الكَلَأَ -وهو عموم نبت الأرض-، والعُشبَ -وهو النبت الرطب-**، فانتفعت الأرضُ حين أحياها الماءُ، ونفعت غيرها حين أنبتت ما يأكله الإنسان والحيوان.

٣ النوع الثاني: **أرضٌ صلبةٌ غير صالحة للزراعة، لا تتشرب الماء سريعًا، وإنما تحتفظ به**، فلا تنتفع بالماء في الزراعة وإنما ينتفع بها الناس حين تجمع لهم مياه الأمطار، فيشربون منها ويسقون دوابَّهم وزروعهم.

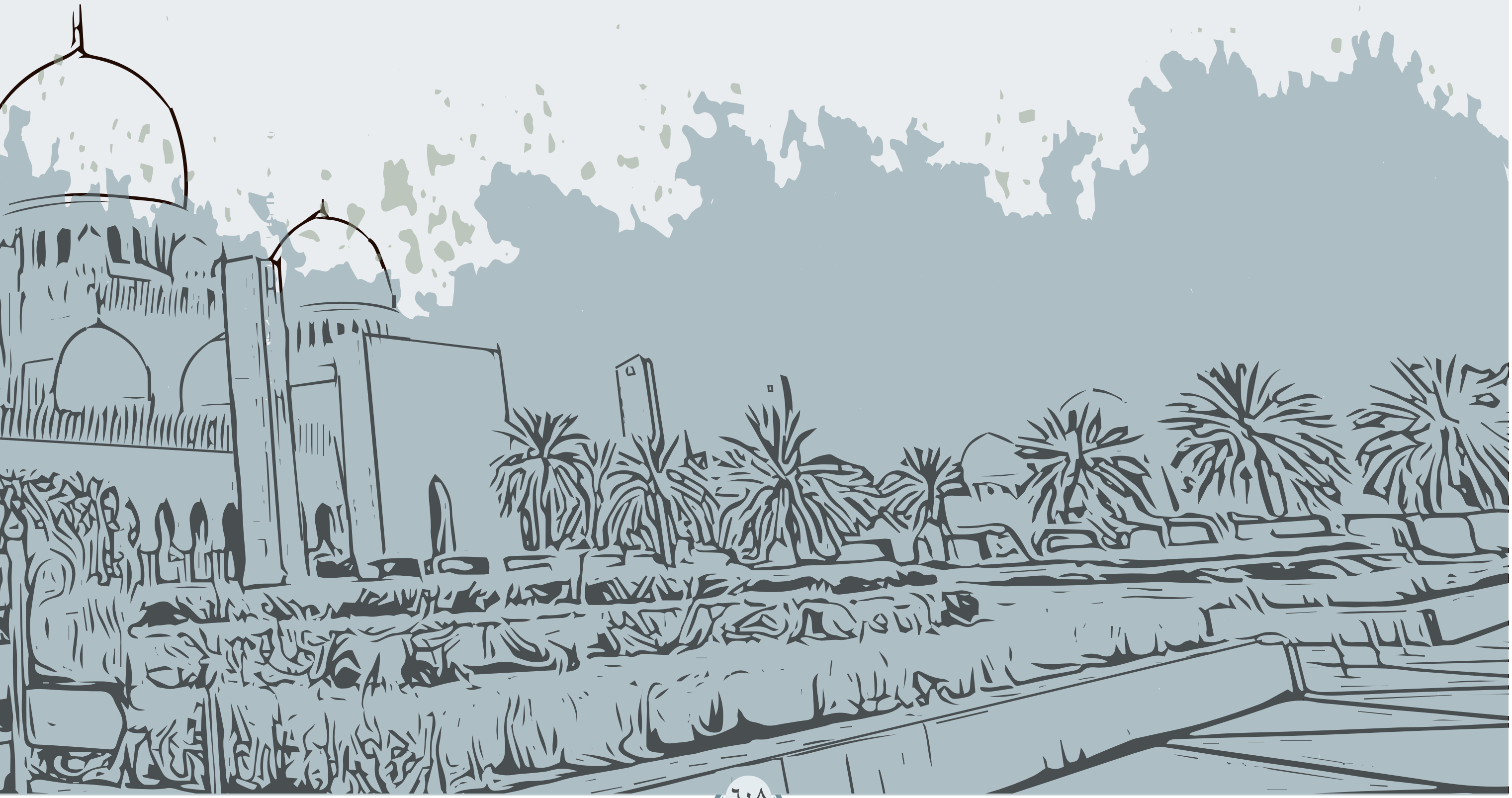

٤ والنوع الثالث: **قيعان؛ أي: أرضٌ مستويةٌ ملساءُ، لا تصلح للزراعة ولا تُمسك الماء،** فلا هي انتفعت بالماء فأخصبت وأنبتت، ولا انتفع بها الناس في سُقيا أو زراعة.

٥ ثم فسَّر النبيُّ ﷺ ذلك التصوير: فذكر أن النوع الأول هم العلماء، الذين **فهموا –والفِقْهُ: الفَهْم–** مراد الله ومراد رسوله، فعملوا به وعلَّموه للناس، والنوع الثاني: هم من يكون وسيلة لتوصيل العلم، وإن لم يكن من أهله الخبراء فيه، والنوع الثالث هم الذين لم يقبلوا ما جاء به ﷺ، فلا هم حفظوا وبلَّغوا، ولا فهموا وعملوا. وهؤلاء هم الكُفَّار والفُسَّاق الذين رغبوا عن شرع الله تعالى.

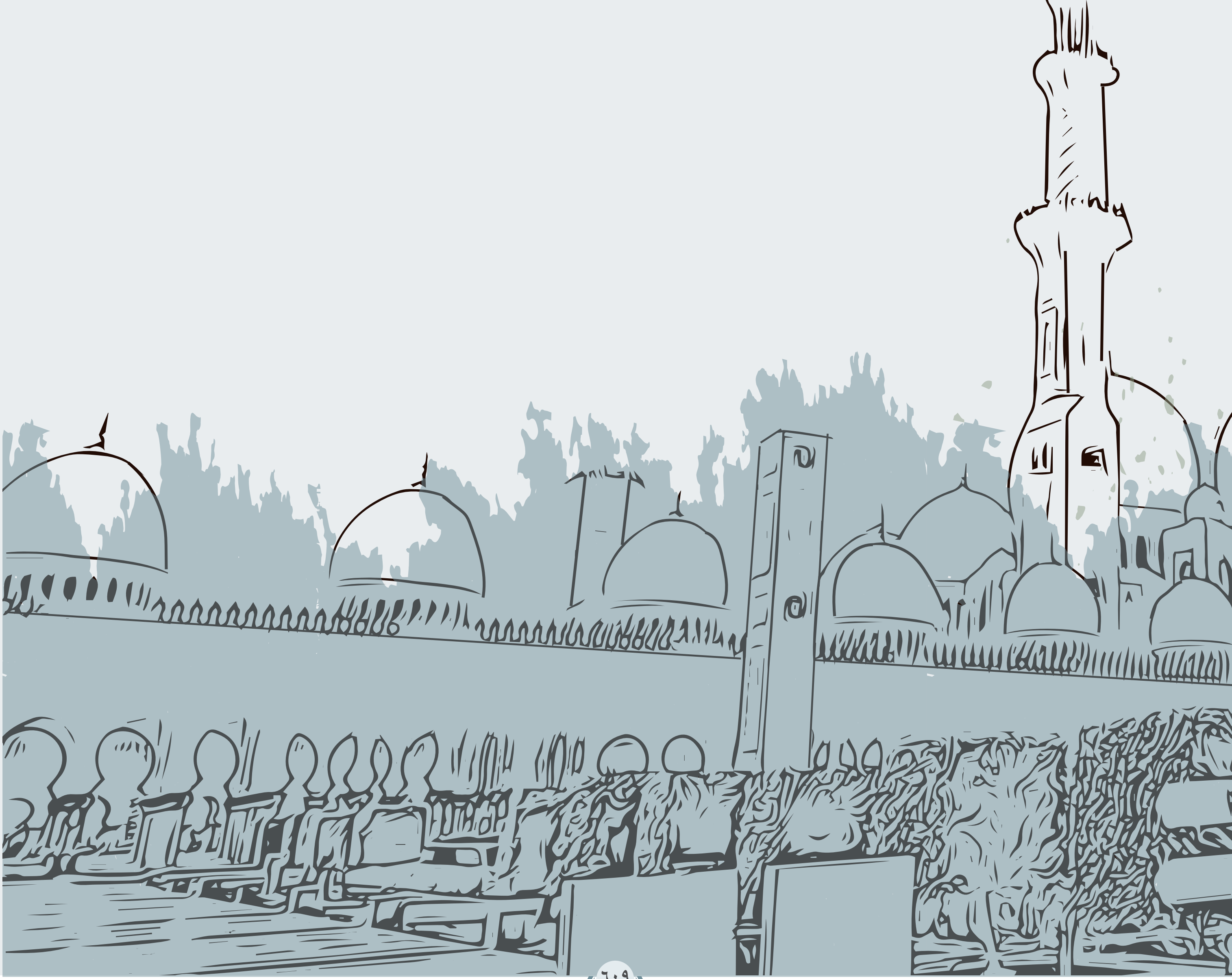

اتباع

١ كان النبيُّ ﷺ أحسنَ الناس تعليمًا، وقُدرةً على البيان، وحرصًا على هداية الخَلْق، فسلك جميع السُّبل لتبليغ دعوة ربه، وهو هنا: يضرب الأمثال الحسية؛ لأن ذلك يقرِّب المعانيَ العقلية ويساعد في الفهم والتحصيل، فعلى كل داعية أن يستخدم الوسائلَ التي تُيَسِّر فهمه واتباعه.

٢ حاجةُ الناس إلى العلم كحاجةِ الأرض إلى المطر بل أشد، فليكن أول ما تغيث به الناس، وتنفعهم به، وتنفق عليهم منه: هو تعليم دين الله تعالى.

وأنت محتاج للعلم كذلك أبد الدهر، فتزود بالعلم وزوِّد غيرك، واصبر على العلم واستعن بالله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

٣ العلمُ ينبُت في القلوب الطيبة، كما ينبتُ العشبُ في الأرض الطيبة، فمن أراد العلم فليطهِّر قلبه من آفات الشرك والحسد والخساسة، وليلجأ إلى الله في ذلك، قال ابن تيمية: «إنّ القلب إذا كان رقيقًا ليّنًا، كان قبوله للعلم سهلًا يسيرًا، ورَسَخ العلم فيه، وثَبَت وأثّر، وإن كان قاسيًا غليظًا، كان قبوله للعلم صعبًا عسيرًا. ولا بدَّ مع ذلك أن يكون زكيًا صافيًا سليمًا حتّى يزكوَ فيه العلم ويُثمر ثمرًا طيّبًا، وإلّا فلو قَبِل العلم وكان فيه كَدَر وخَبَث، أفسد ذلك العلم، وكان كالدَّغَل في الزّرع، إن لم يَمنَع الحَبَّ من أن يَنبُت، منعه من أن يزكوَ ويَطِيب، وهذا بيِّن لأولي الأبصار»[١].

٤ أعلى المراتب هي لمن جمع العلم والعمل والتعليم، كالأرض الطيبة قبلت الماء وأنبتت العشب لغيرها، وهم على درجات بقدر جهدهم، فاجتهد في تكميل كل ذلك.

واعرف فضل العلماء الذين يحيون القلوب، وتجنب الخوض في أعراضهم.

ولا تستصغر شيئًا من العلم تُعلِّمه الناس، ولا تنتظر حتى تكون عالمًا، فلو علَّمتَ إنساناً ذكرًا نبويًا، فكان يردده حتى مات فكم لك من الأجور؟، وحتى لو كان يعلمه فربما ذكَّرته، ولو لم ينتفع هو فقد انتفعت أنت بتثبيت العلم والأجر..

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٣١٥، ٣١٦).

٥ من لم يستطع أن يكون عالمًا فلينقل العلم عن أهله، وقد قال ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[١]، وربما كان ذلك أنفع من فهمهم وتعليمهم الخاص، كقول النبي ﷺ: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»[٢]، وهو شريك في الأجر لمن ينقل عنه.

٦ متى رأيت في نفسك استثقالًا لهدى الله تعالى وهدى رسوله ﷺ ومدافعة له بالجدل: فراجع نفسك، وطهرها من الكبر والهوى، واحذر أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال الشاعر:

ما الفضلُ إلا لأهلِ العلمِ إنهمُ ... على الهُدى لمن استهدى أَدِلَّاءُ
وقيمةُ المرءِ ما قد كان يُحْسِنُهُ ... والجاهِلونَ لأهلِ العلمِ أعداءُ
فقمْ بعلمٍ ولا تَطلُبْ به بدلًا ... فالناسُ مَوْتى وأهلُ العلمِ أحياءُ

وقال غيره:

كن عالمًا في الناسِ أو متعلِّمًا ... أو سامعًا فالعلمُ ثوبُ فَخارِ
من كلِّ فنٍّ خُذْ ولا تجهلْ به ... فالحُرُّ مطَّلِعٌ على الأسرارِ

(١) البخاريُّ (٣٤٦١)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
(٢) البخاريُّ (١٧٤١)، عن أبي بكرة رضي الله عنه.

الحديث ١٠٩

بَلاغُ الدِّين

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قالَ:

١ «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً،

٢ وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ،

٣ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١).

(١) البخاريُّ (٣٤٦١).

آيـــات

- ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].
- ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].
- ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].
- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

الرَّاوي

هو: أبو محمَّدٍ، وقيل: أبو عبد الرحمن، عبدُ اللهِ بنُ عمرو بنِ العاص بنِ وائلٍ القرشيُّ، السهميُّ، كان يَكتُب في الجاهلية، ويُحسن السريانية، وأسلَم قبلَ أبيه، وكان يصوم النهار، ويقوم الليل، تُوفِّي سنةَ (٦٥هـ)(١).

خلاصة

يحضُّ النبيُّ ﷺ أُمَّته على تبليغ سُنَّته، ويُبيحُ لهم أن يُحَدِّثوا النَّاس بأخبار بني إسرائيل، وينهى عن الكذب عليه ﷺ؛ فمن كذب عليه متعمدًا فالنارُ مصيره.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٧٢٠)، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ٩٥٦)، و«أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٢٤٥).

فقه

١ يأمرُ النبيُّ ﷺ أُمَّةَ الإسلام بتبليغ رسالته وشرعه، كلٌّ حسب مقدرته وطاقته، فإذا لم يجد المسلمُ ما يُبَلِّغُه غير آيةٍ يحفظها ويفهم معناها أو حديثٍ صحيحٍ ينشره فهو كافٍ في حقِّه، مُسْقِطٌ للوجوبِ عنه.

وفي قوله ﷺ: «ولو آية» دليلٌ على أنَّه لا يُشترط في الداعية أن يكون عالمًا فقيهًا، بل يدعو إلى اللهِ تعالى بما تيسَّر له، بشرط أن يكون فاهمًا لِما يدعو به، وأن يتيقن من صحة الحديث الذي ينقله للنَّاس.

وليس معنى ذلك أن يُبَلِّغَ أيَّ شيءٍ لأيِّ أحد؛ فالدعوةُ تحتاج إلى حكمة وبصيرةٍ، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، فيجب في الدعوة مراعاة حال المَدْعُو؛ فلا يُخاطب بما لا يفهمه عقلُه، وإلا كان له فتنةٌ، قال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: «حَدِّثُوا النَّاسَ بما يَعْرِفُونَ؛ أَتُحِبُّون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه؟!»(١).

٢ ثم أخبر ﷺ بإباحة الإخبارِ وذكر قصص بني إسرائيل، فبيَّن ﷺ أنَّه **لا إِثْمَ** في نقل أحاديثهم وأخبارهم.

وهذا مُقيَّدٌ بما لم نتيقَّن كذبَه من أخبارهم، أما ما تيقَّنَّا صدقَه أو جوَّزناه فالأمرُ فيه على الإباحة(٢).

٣ ثم شدَّد ﷺ في تحريم الكذب عليه ﷺ والتَّقَوُّل عليه ما لم يقل؛ فإنَّ مَن نسب إليه ﷺ ما لم يقله عمدًا فجزاؤه جهنم والعياذ بالله.

وإنما كان الكذبُ عليه ﷺ أشدَّ حرمةً من الكذب على غيره؛ لأنَّ الكاذبَ عليه يكذبُ على اللهِ تعالى وعلى شَرْعِه؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ لا ينطقُ عن الهوى، فإذا كذب عليه أفَّاكٌ فقد أحلَّ وحرَّم بهواه، وقد قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦](٣).

---

(١) البخاريُّ (١٢٧).

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٤٩٨، ٤٩٩).

(٣) انظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٥/ ٤٣١).

اتّباع

١ (١) احرص على أن تكون من الدعاة إلى الله تعالى؛ فهم أشرف النَّاس، قال سبحانه في حقِّهم: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: ٣٣].

٢ (١) الدعوة إلى الله سبحانه فرضٌ على جميع المسلمين؛ كلٌّ بحسب مقدرته؛ فإن كنت تقدرُ على نشر العلم وتبليغ الشرع، وإلَّا فادعُ إلى اللهِ تعالى بحسن خُلُقك وبيانِ ما يجب أن يكون عليه المسلم في الظاهر والباطن.

٣ (١) الدعوة إلى الله سبحانه يسيرةٌ سهلةٌ على كل أحدٍ، فلا يُشترط أن تكون عالمًا فقيهًا حتى تدعوَ إلى اللهِ تعالى. عليك بالمتاح ولا يكلف اللهُ نفسًا إلا وسعَها.

٤ (١) أصبحت الدعوة أكثر سهولةً وسلاسةً وانتشارًا مع وسائل التقنية الحديثة؛ فالمسلمُ صار قادرًا على البحث عن معنى الآية التي يريدها من أكثر من كتاب، وعن صحة حديثٍ أو أثرٍ أو قصة، وبضغطة زرٍّ واحدة يتيسر له نشر الآيات والأحاديث ومقاطع العلماء الصوتية والمرئية والدعوة إلى اللهِ تعالى لملايين النَّاس.

٥ (١) ألا يكفيك أن يكون لك أجرُ جميع من اتَّبعك من النَّاس، وقد قال ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»[1]. وقال أيضًا: «فوالله، لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[2].

٦ (١) يجب على العلماء والدعاة القائمين على أمر الدعوة، أصحاب الخبرة والبذل والعطاء، الذين وهبوا حياتهم للدعوة إلى الله، أن يوجِّهوا الناس إلى القيام بواجبهم تُجاهَ الدعوة إلى الله، ودعوتهم للانخراط في مجالات العمل الدعويِّ المختلفة، ويحفِّزوهم ويحضُّوهم على ذلك، ويوجِّهوا كلًّا منهم إلى ما يُحسنه، مستغلِّين المواهب والإمكانياتِ المختلفة لديهم، فيفتحوا لهم آفاق الدعوة التي يمكِنهم العمل من خلالها.

٧ (١) السَّعيد مَن كان إمامًا في الخير، وقائدًا إليه، والشقيُّ مَن كان عونًا على الشرِّ، وطريقًا إليه.

---

(١) مسلم (٢٦٧٤).

(٢) البخاريُّ (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

٨ (٢) لا بأس أن تروي من أخبار بني إسرائيل وقصصهم ما لا تتأكد من كذبه؛ شريطةَ أن تُبيِّن للنَّاس أن ذلك من الإسرائيليات؛ لئلا يغترَّ السامع ويقطع بصحةِ ذلك.

٩ (٣) إياك والكذب على النبيِّ ﷺ، عامدًا أو جاهلًا، فلا تُحدِّث إلا بما استبان لك أنَّه صحيحٌ ثابتٌ عنه ﷺ، وإلَّا كنتَ أحد الكاذبين على رسول اللهِ ﷺ.

١٠ (٣) يدخل في الكذب عليه ﷺ القولُ بالجهل في دين اللهِ تعالى، فتُحَلِّل ما حرَّم اللهُ وتُحَرِّم ما أحلَّ.

١١ (٣) من الكذب على رسولِ اللهِ ﷺ الكذبُ على العلماء وأهلِ العلم؛ فإنَّ الرجلَ إذا قيل له: إن العالمَ الفلاني يقول بجواز كذا، أيقن أنَّه قاله عن علمٍ، فاعتقده دِينًا، وهذا أشدُّ من الكذب على عامَّة الناس[1].

قال الشاعر:

دَعَوْتُ إلى اللهِ بين الورى ... فهذا استَجابَ وذا اسْتَكْبَرَا
وظَلْتُ على دَعوتي مُؤْجَرًا ... فَمَنْ يَدْعُ للهِ لن يَخْسَرا
أيا قَومِ توبوا إلى ربِّكُمْ ... فرِضوانُه لم يَزَلْ أكْبَرا

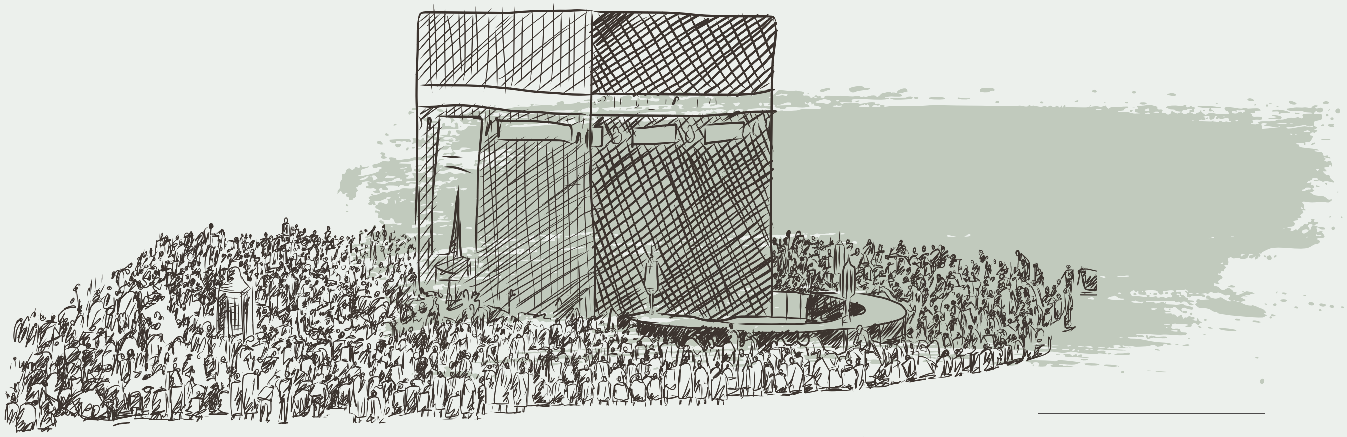

(١) ينظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٥/ ٤٣١).

حِفظُ الحديثِ وبلاغُه

عن زيدِ بنِ ثابتٍ ﵁، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

١ «نضَّر اللهُ امرأً سَمِعَ منَّا حديثًا، فحفِظَه حتى يُبلِّغَه؛

٢ فرُبَّ حاملِ فِقهٍ إلى مَن هو أفقهُ منه،

٣ ورُبَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيهٍ»[1].

(١) أبو داود (٣٦٦٠)، واللفظ له، والترمذيُّ (٢٦٥٦)، وقال الترمذيُّ: حديث حسن صحيح.

آيــات

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]

الراوي

هو: أبو سعيدٍ، زَيْدُ بنُ ثابتِ بنِ الضحَّاكِ الأنصاريُّ، النَّجَّاريُّ، المدنيُّ، كان يَكتب الوحيَ لرسول الله ﷺ، قدِم النبيُّ ﷺ المدينة وهو ابن إحدى عشْرة، شهد أُحدًا وما بعدها من المشاهد، وكان حَبْرَ الأُمَّة عِلمًا وفِقهًا وفرائضَ، وقيل: إن أول مَشاهده الخندقُ، وهو أحدُ الذين جَمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ، تُوفِّي سنةَ: (٤٥هـ)[1].

خلاصة

يحثُّ النبي ﷺ على حفظ الحديث وإبلاغه للناس، ويدعو بالخير لمَن يفعل ذلك؛ فإن الأمة بحاجة إلى معرفة شرع الله عز وجل، وربَّما الذي سَمع الحديثَ ولم يفهمه يُبلِّغه إلى من يفهمه ويعلم المراد منه ويعلِّمُه للناس.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة لأبي نُعيم» (٣/ ١١٥١)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر» (٢/ ٥٣٧)، «أسد الغابة لابن الأثير» (٢/ ١٢٦).

فقه

١ **النضارة: حُسن الوجه والبريق فيه**، والنبي ﷺ يحث أصحابَه والأمةَ من بعدهم إلى حفظ سُنَّته ونشرها في الناس، ويشجِّعهم على ذلك: بأن يدعو اللهَ تعالى أن يُنَضِّر وجهَ من يفعل ذلك -جزاء لتجديدهم السنة-، وتمامُ ذلك بحفظ حروفه، الدال على حسن الاستماع والحرص والأمانة في النقل، حتى يوصله لغيره كما هو.

ويجوز نقل الحديث بمعناه عند الحاجة لمن كان عالمًا بمعناه، ويحرم الكذبُ عليه ﷺ ولو زعم أن ذلك لمصلحة.

٢ ثمَّ علَّل النبيُّ ﷺ ذلك بأنَّه ربَّما كان المبلِّغ بالحديث أقل فهمًا من المُبَلَّغُ به، فلو أن كل من سمع أحاديثَ النبيِّ ﷺ اكتفى بأن ينقل ما فهمه من السُّنَّة دون نصوصها لضاع علينا فضلٌ كثيرٌ؛ **وكلمة «رُبَّ» هنا تدل على كون ذلك أكثر من المتوقع.**

٣ ثم أخبر ﷺ أنه لا يُشترط في المُبَلِّغ أن يكون فقيهًا عالمًا؛ وإنما شرطه الحفظُ وسلامةُ النقل، وكثيرًا ما يكون الناقل للخبر ليس عالِمًا؛ لكنه كسب الأجر بنقله لغيره[1].

(١) انظر: «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» للمباركفوري (٧/ ٣٤٨).

اتّباع

١ قرَّب النبيُّ ﷺ زيدَ بنَ ثابت إليه مع صغر سنِّه لعلمه ونبوغ عقله، فجعله كاتبًا للوحي بين يديه، كما استعمله أبو بكر الصديق ثم عثمان رضي الله عنهما في جمع القرآن وفي كتابة المصحف الجامع، وكان زيدٌ من أعلم الصحابة بالفرائض، فلا تحقر نفسك ولا غيرك لصغر السن.

٢ دعا النبيُّ ﷺ لمن بلَّغ سُنَّته بالجمالِ ونَضارةِ الوجه والحسنِ والبهاء، فمن أراد ذلك فليحرص على تبليغ سُنَّته، والدخول في سلك حفظة الحديث، رجلًا كان أو امرأة. قالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة: لا تَجِدُ أحدًا من أهل الحديث إلَّا وفي وجهه نَضْرَةٌ؛ لدعوة النَّبِيِّ ﷺ[1].

٣ عوّد نفسك على ملكة الحفظ، خصوصًا للألفاظ المنقولة عن الله تعالى ورسوله ﷺ، ففي حروفها من الفقه ما قد يغيب عنك مؤقتًا أو دائمًا، فيكفي أن تنتفع بما قدرتَ عليه منها، وربما استذكرت تلك الألفاظ في ذهنك مرة أخرى فزاد فهمك، أو ربما نقلتها لغيرك فانتفعوا بها بما لم تنتفع به.

٤ لا تغترَّ بدعوات المُزَهِّدِين في الحفظ، فإن الحفظ لا يعارض الفهم، بل هو معين عليه، وهو مفيد لصاحبه ولغيره، وقلَّ علمٌ إلا وفيه قواعد علمية ينبغي حفظها وضبطها بحروفها.

٥ احرص أن تُبلِّغ كما سمعت، فالتثبت في التلقي والرواية دليلُ كمال عقل الإنسان.

٦ لا يشترط فيمن يبلّغ السُّنَّة كمالُ الفقه أو فهم جميع ما ينقله، بل متى سمع آيةً، أو حديثًا صحيحًا، أو علمًا مأخوذًا من عالم ثقة: فلا يتحرج من تبليغ السُّنَّة وأداء العلم.

٧ العاقل ينتفع بالحكمة المنقولة عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ وأصحابه، ولو كان من نقله إليه دونه في العلم، فينتفع بالنقل، ولو حصل النقص في الناقل.

٨ أفاد الحديث بيان عظيم منزلة أهل الحديث الذين يبلغون أقوال النبيِّ ﷺ، قال الشافعي: «إذا رأيتُ رجلًا من أهل الحديث فكأنّي رأيتُ رجلًا من أصحاب النّبيِّ ﷺ»[2]. وإنّما قال الشّافعيُّ هذا؛ لأنّهم في مقام الصّحابة من تبليغ حديث النّبيِّ ﷺ. فينبغي أن نُجِلَّ أصحاب الحديث ونوقِّرهم، كما فعل أهل العلم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ١١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ١١).

قال الشاعر:

رَأَيتُ العِلمَ صاحِبُهُ كَريمٌ   وَلَو وَلَدَتْهُ آباءٌ لِئامُ
فلَيسَ يزالُ يَرفَعُهُ إلى أَن   يُعَظِّمَ أَمرَهُ القَومُ الكِرامُ
وَيَتَّبِعونَهُ في كُلِّ حالٍ   كَراعي الضَّأنِ تَتبَعُهُ السَّوامُ
فَلَولا العِلمُ ما سَعِدَت رِجال   وَلا عُرِفَ الحَلالُ وَلا الحَرامُ

الحديث ١١١

مَنزِلَة الاجتهادِ

عن عمرِو بنِ العاصِ ﵁، أنه سَمعَ رسولَ الله ﷺ يقول:

١ «إذا حكَم الحاكمُ فاجتهدَ، ثم أصاب، فله أجران،

٢ وإذا حكم فاجتَهدَ، ثم أخطأ، فله أجرٌ» متفق عليه[1].

(١) البخاريُّ (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

آيـــات

﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٨٣].

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٩١].

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]

الرّاوي

هو: أبو عبدِ الله، عمرُو بنُ العاص بن وائل، القرشيُّ، السَّهميُّ، من دُهاة العرب، أَرسلته قُريش قبل إسلامه إلى النجاشيِّ ليُسلِّمَ إليهم مَن التجأ إليهم من المسلمين، أسلم سنة ٧هـ، وقيل: عند النجاشيِّ، وهاجر إلى النبيِّ ﷺ، وولّاه قيادة سرية ذات السلاسل، وولّاه عمرُ جيش فتح مصر، تُوفِّي سنة (٤٣هـ)[1].

خلاصة

يدل الحديث على أن الحاكمَ -ويدخل فيه القاضي والمفتي وغيرهما- مأجورٌ على بذل الوسع والاجتهاد في الوصول إلى الحق، فإن وافق الحقَّ أُجر على الإصابة كما يؤجر على الاجتهاد، فيكون له أجران، وإن جانب الصواب بعد اجتهاده فله أجر الاجتهاد.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ١٩٨٧)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١١٨٤)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٧٤١).

١ يرغّب النبيُّ ﷺ في الاجتهاد وهو **بذل الوسع** في النظر في الأدلة وتحري الحقِّ بقَدْر ما عنده من جُهد[١]، لكل حاكم، أي **صاحبِ سلطة** علمية -كالمفتي والمعلم-، أو عمليّة -كالقاضي والأمير والأب-، فإذا امتلك الأدوات التي تساعده على الوصول للحق[٢] وسعى في ذلك؛ فوُفّق في إدراك الصواب، بأن وافق حكمُه حكمَ الله - عزَّ وجلَّ - في المسألة التي يفصِّل فيها؛ فله على ذلك من الله تعالى أجرانِ: أجرُ الاجتهاد، وأجرُ الإصابة[٣].

٢ أما إذا اجتهد وبذل وسعه في تحري الحق والوصول إلى حُكم الله تعالى في مسألةٍ ثم أخطأ فيها، فهو معذورٌ لا إثم عليه، بل له أجرُ الاجتهاد. والخطأ معفوٌّ عنه بعد ذلك[٤].

وخيرُ مثالٍ لهذا ما ورد في القرآن في شأن داود وسليمان عليهما السلام، إذ احتكم صاحبُ زرعٍ إلى داود عليه السلام، حيث اعتدت غنمٌ على الزرع فأفسدته، فقضى داود بأن يأخذ صاحب الزرعِ الغنمَ جزاءَ ما أفسدته. فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله! بل يأخذ صاحب الغنمِ الزرعَ فيقوم عليها حتى يصلحها، ويأخذ صاحب الزرع الغنمَ فيستفيد منها حتى يَصْلُح الزرع ويعود كما كان[٥]. قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]. فصوّب فعل سليمان وأثنى عليهما جميعًا[٦].

وهذا الفضلُ مخصوصٌ بالحاكم المؤهَّل للحكم، أما إذا اجترأ الجاهلُ على الحكم بدون مؤهلاتٍ، فهو عاصٍ غيرُ مأجور، حتى وإنْ أصاب، لأن إصابته ليست صادرةً عن أصل شرعيٍّ، فمن قضى على جهلٍ فهو آثمٌ. سواءً أصاب الحق أم لا[٧]، وفي الحديث: «القضاةُ ثلاثة: قاضٍ في الجنة، واثنانِ في النار؛ قاضٍ عرَف الحق فقضى به، فهو في الجنة، وقاضٍ عرَف الحق فقضى بخلافه، فهو في النار، وقاضٍ قضى على جَهْل فهو في النار»[٨].

(١) انظر: «التنوير شرح الجامع الصغير» للأمير الصنعانيِّ (٢/ ٢٥).
(٢) انظر: «الكاشف عن حقائق السنن» للطِّيبيِّ (٨/ ٢٥٩٤).
(٣) انظر: «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» للقسطلانيِّ (١٠/ ٣٤٣).
(٤) انظر: «التنوير شرح الجامع الصغير» للأمير الصنعانيِّ (٢/ ٢٥).
(٥) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٥٥).
(٦) انظر: «شرح صحيح البخاري لابن بطّال» (١٠/ ٣٨١).
(٧) «شرح النوويِّ على مسلم» (١٢/ ١٣- ١٤).
(٨) أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذيُّ (١٣٢٢) من حديث بريدة رضي الله عنه.

اتّباع

١ ابذل جهدك في امتلاك أدوات الاجتهاد -من العلم والتأني ونحوها- قبل أن تحكم، بل عليك أن تمتلكها قبل أن تجتهد في الحكم، لأن من اجتهد في الحكم، ولم يجتهد في امتلاك أدوات الاجتهاد فليس بمجتهد حقيقة.

٢ من اجتهادك أن تسأل المجتهدين في العلم، فإن لم تكن تملك كامل أدوات الاجتهاد فاسأل أهل العلم والشورى في كل تخصص.

٣ اجتهد في كل حكم تتولاه، وأبشر بالأجر، واحذر من التفريط في المسؤولية لكسل أو غضب، ولا يخلو الإنسان من أن يكون حاكمًا على شيء، كالأب يحكم بين أولاده، والمعلم بين طلابه، والمفتي مع سائله، والقاضي، والأمير، ومدير العمال، والمستأمن على الأموال، وغيرهم.

٤ لا تقف متهيبًا من خوض الحياة بمهماتها خوفًا من الخطأ، فالإسلام يهبك القوة والشجاعة على خوض التجارب والمسؤوليات، ويرفع عنك لوم نفسك متى كنت مجتهدًا.

٥ الصواب واحدٌ فابحث عنه، واطلبه بصدق، ولا تقع في فخ النسبية التي تميّع وجود الحقيقة.

٦ لا تفترض أن كل من يخالفك فهو ضالٌّ ظالم، فقد يكون مجتهدًا فأخطأ في مسألةٍ، فهو مأجورٌ، معفوٌّ عن خطئه، وليكن لك سعة صدر للمسلمين، وتجنب اتهام العلماء والطعن فيهم لِمَا أدَّاه إليه اجتهادهم.

قال الشاعر:

مَـا الْفَخْـرُ إِلَّا لِأَهْـلِ الْعِلْـمِ إِنَّهُـمُ   عَـلَى الْهُـدَى لِمَـنِ اسْـتَهْدَى أَدِلَّاءُ

وَقَـدْرُ كُلِّ امْـرِئٍ مَـا كَانَ يُحْسِـنُهُ   وَالْجَاهِلُـونَ لِأَهْـلِ الْعِلْـمِ أَعْـدَاءُ

فَفُـزْ بِعِلْـمٍ تَعِـشْ حَيًّـا بِـهِ أَبَـدًا   فَالنَّـاسُ مَوْتَـى وَأَهْلُ الْعِلْـمِ أَحْيَـاءُ

الحديث ١١٢

العملُ بالسُّنة وتجنُّب المُحْدَثات

عن العِرباضِ بنِ سارية ﵁ قال:

١ قام فينا رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم، فوعَظَنا موعظةً بليغةً، وَجِلَتْ منها القلوبُ، وذَرَفَت منها العيونُ،

٢ فقيل: يا رسول الله، وعظْتَنا موعظةَ مُوَدِّع، فاعهَدْ إلينا بعهدٍ،

٣ فقال: «عليكم بتقوى الله،

٤ والسمعِ والطاعة، وإنْ عبدًا حبشيًّا،

٥ وسترَوْنَ من بعدي اختلافًا شديدًا، فعليكم بسُنَّتي، وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين، عَضُّوا عليها بالنَّوَاجِذ،

٦ وإيَّاكم والأمورَ المُحدَثاتِ؛ فإن كلَّ بِدعة ضلالة»[(١)].

(١) أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذيُّ (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه ابن الملقِّن في «البدر المنير» (٩/ ٥٨٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في الإرواء (٢٤٥٥).

آيـــات

▌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

▌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

▌ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

▌ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

الرَّاوي

هو: أبو نَجِيح، العِرْباضُ بنُ سَارِيَة، السُّلَميُّ، من أهل الصُّفَّة، نزل الشام، وسكن حمص، وهو ممن نزل فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، توفي سنة (٧٥هـ)، وقيل: في فتنة ابن الزبير[(١)].

خلاصة

وعظ النبيُّ ﷺ أصحابَه موعظةً مؤثرة، ثم أوصاهم بتقوى اللهِ وطاعة أولياء الأمور، والتمسك بالسُّنَّة، والحذر من البدع.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ٢٢٣٤)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١٢٣٨)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤٣١).

١ وعظَ النبيُّ ﷺ أصحابَه يومًا موعظةً مؤثرة، خوَّفهم باللهِ تعالى وأنذرهم غضبه وعقابه، حتى **فزعت** القلوب **ودَمَعت** العيون خشيةً وخوفًا.

٢ فقال أحد الصحابة ﷺ: بالغتَ في الموعظةِ ووفَّيتَها حقَّها، وشملت موعظتك ما يهمُّ المسلم من أمور دينِه؛ كالمُوَدِّع إذا وعظ مَن يرحل عنهم لسفرٍ أو دُنُوِّ أجلٍ؛ فإنه لا يترك شيئًا يمسُّ حاجةَ المُوَدَّع إلا أورده واستقصى فيه[١]. فاعهد إلينا يا رسولَ اللهِ ﷺ بعهدٍ وأوصِنا بوصية جامعة.

٣ فكان أول ما أوصى به ﷺ تقوى الله سبحانه، وهي أن **يتخذ الإنسانُ بينه وبين ما يُغضب اللهُ تعالى وقايةً وسِترًا**، ولا يكون ذلك إلا بطاعته سبحانه واتباع رسولِه ﷺ[٢]. وقد عرَّفها طلق بن حبيبٍ رحمه الله فقال: «التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثوابَ الله، وأن تتركَ معصيةَ الله، على نور من الله، تخافُ عقابَ الله»[٣].

٤ ثم ثنَّى ﷺ بالسمع والطاعة لأولي الأمر، فتجب طاعتُهم في الطَّاعةِ والمعروف، فإن أمروا بمعصيةٍ لم يجز لأحدٍ أن يطيعهم في معصيتهم، قال ﷺ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ»[٤].

وقوله ﷺ: «وإن عبدًا حبشيًا» أي: وإن كان وليُّ الأمرِ عبدًا حبشيًّا فاسمعوا له وأطيعوا. وقد اشترط النبيُّ ﷺ في الأميرِ أن يكون حُرًّا قُرَشيًّا، لكنَّه ذكر ذلك هنا إما للمبالغة في وجوب اتباع الأمير حتى لو كان على صورةٍ لا تحدث، وإما أنَّه ﷺ عَلِم أن الحالَ سيختلُّ بعد ذلك حتى يلي أمورَ النَّاس مَن لا يجوز له ذلك، فإذا كانت فاسمعوا وأطيعوا تغليبًا لأهون الضررين، وهو الصبرُ على ولاية مَن لا تجوز ولايته؛ لئلَّا يُفضي إلى فتنة عظيمة. وإما أنَّه ﷺ أراد الولايات الصغيرة والعُمَّال. وعلى كلِّ تلك المعاني فقد أوجب ﷺ طاعةَ أولي الأمر وحرَّم مخالفتهم إلا إذا أمروا بالمعصيةِ أو ظهر منهم الكفر[٥].

---

(١) انظر: «شرح المشكاة الكاشف عن حقائق السنن» للطِّيبيِّ (٢/ ٦٣٣)، «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ١١٤).

(٢) «شرح رياض الصالحين» للعثيمين (٢/ ٢٧٦).

(٣) انظر: «الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه» لابن تيمية (١/ ٩)، «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٤٥٩).

(٤) البخاريُّ (٧١٤٤).

(٥) انظر: «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» للبيضاويِّ (١/ ١٣٧)، «شرح الأربعين النووية» لابن دقيق العيد (ص: ٩٧).

٥ ثم أخبر ﷺ أننا سنرى بعده فتنًا وأمورًا عظيمة، فالنجاة منها حينئذ التمسُّك بسنته ﷺ، وسُنَّةِ الخلفاء الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وأمر بالتمسك بها والحرص عليها كما يعضُّ الإنسانُ **بأنيابِه** على شيءٍ يتمسَّك به ويخشى تفلُّتَه.

وإنما خصَّ سُنَّة الخلفاءِ بالذِّكر لأنَّه أيقن أنهم لا يُخطئون سُنَّته، وأنَّ بعض سُنَنِه إن لم تشتهر في زمانه، اشتهرت في زمانهم وحرصوا على إحيائها فنُسبت إليهم، وهي في الأصل سُنَّتُه ﷺ[1].

وربما يكون المراد بالخلفاءِ العلماءَ وأئمةَ الإسلام؛ فإنهم خلفاؤه في إحياء الحقِّ، وإعلاء الدين، وإرشاد الناس إلى الطريق المستقيم[2].

٦ **ثمَّ حذَّر النبيُّ ﷺ من الأمور المستحدثة التي لم تكن على عهده ﷺ؛ فإنَّ كُلَّ أمرٍ مُستحدَثٍ في الدِّين ضلالةٌ وهلاك.**

على أنَّ البدعَ مختصَّةٌ بأمرين:

- أن تكون في الدِّين، فما استُحدِثَ من الاختراعات والتطورات ونحوها في أمور الدنيا ليست من البِدَع.
- وأن تكون لا أصل لها في الشَّرع، قال ﷺ: «مَن أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ»[3]؛ فكلُّ مَن أحدث شيئًا ونَسَبه إلى الدين، ولم يكن له أصلٌ من الدين يرجع إليه، فهو ضلالة، والدين بريءٌ منه، وسواءٌ في ذلك مسائل الاعتقادات، أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة[4].

فإن كان لها أصلٌ في الشرع تُقاس عليه فليست ببدعةٍ ولا محظورة، وإن سُمِّيت بدعةً فالمرادُ الاصطلاح اللغوي، وهو كل أمر حديثٍ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمَّا جمع النَّاس في رمضان في صلاة القيام خلف أُبَيٍّ رضي الله عنه: «نِعمَ البدعةُ هذه»[5]؛ إذ كان النبيُّ ﷺ قد جمع النَّاس ثم خشي أن تُفرض عليهم فترك ذلك.

(١) انظر: «الميسر في شرح مصابيح السنة» للتوربشتيِّ (١/ ٨٩)، «المفاتيح في شرح المصابيح» للمظهريِّ (١/ ٢٧٢).
(٢) «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» للبيضاويِّ (١/ ١٣٧).
(٣) البخاريُّ (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).
(٤) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ١٢٨).
(٥) البخاريُّ (٢٠١٠).

اتّباع

١ (١) على كلِّ داعيةٍ وواعظٍ وعالمٍ ومُرَبٍّ أن يتخوَّل أصحابه بالموعظة، ولا يُكثر عليهم، كان عبد الله بن مسعود ﷺ يُذَكِّرُ الناس في كلِّ خميس، فقال له رجُل: يا أبا عبد الرحمن، لوددتُ أنَّك ذكَّرتنا كلَّ يوم، قال: «أما إنه يمنعني من ذلك أني أكرَهُ أن أُمِلَّكم، وإني أتخوَّلكم بالموعظة، كما كان النبيُّ ﷺ يتخوَّلنا بها؛ مخافةَ السآمة علينا»[1].

٢ (١) من علامات المؤمنين أنهم إذا سمعوا كلامَ اللهِ تعالى أو قولَ النبيِّ ﷺ أصغوا إليه، وتاقت نفوسهم لمعناه، ووجلت قلوبهم وذرفت عيونهم من خشية اللهِ تعالى. قال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا**﴾ [الأنفال: ٢]. فانظر في نفسك هل تتحقق فيك تلك العلامات.

٣ (٢) على الواعظ أن تشتمل موعظته القواعد العامَّة، والأمور الكلية.

٤ (٢) يُستحب للمسلم أن يطلب الموعظة والنصيحة من الحُكماء وأهل العلم والدين.

٥ (٣) احرص على تقوى اللهِ تعالى والحرص على مرضاته في السِّرِّ والعلن؛ فإنَّها النجاةُ من الفتن والكروب في الدنيا، ومن النار في الآخرة.

٦ (٣) قال الشاعر:

إذا المرءُ لم يلبسْ ثيابًا من التُّقى ... تجرَّد عريانًا ولو كان كاسيًا

وخيرُ لباس المرءِ طاعةُ ربِّه ... ولا خيرَ فيمن كان للهِ عاصيًا

٧ (٤) اسمع لولِيِّ الأمرِ وأطع، ما لم يأمر بمعصيةٍ أو يحصل منه كفرٌ.

٨ (٤) الصبر على جور ولاة الأمور خيرٌ من الخوض في فتنة تسفك الدماء وتشقُّ وحدة المسلمين وتفرق جماعتهم.

٩ (٥) النَّجاةَ النجاةَ في اتباع السُّنَّة؛ فإنَّ صاحبها ﷺ ما ترك خيرًا إلا دلَّنا عليه، ولا شرًّا إلا حذَّرنا منه.

(١) البخاريُّ (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).

١٠ (٥) الاقتداءُ بأصحاب النبيِّ ﷺ خيرُ وسيلةٍ إلى بلوغ الحقِّ؛ فإنهم أبصر النَّاس بالوحي ومعانيه، وأعرفُ النَّاس بالنبيِّ ﷺ وطريقته.

قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: «قِفْ حيث وقف القوم، وقل كما قالوا، واسكت كما سكتوا؛ فإنّهم عن عِلْم وقفوا، وببصر ناقد كفُّوا، وهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى. أي: فلئن كان الهدى ما أنتم عليه، فلقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتُم: حَدَث بعدَهم، فما أحدثه إلّا من سلك غيرَ سبيلهم، ورَغِب بنفسه عنهم، وإنّهم لهم السّابقون، ولقد تكلَّموا منه بما يكفي، ووصفوا منه ما يَشفي، فما دونهم مقصِّر، ولا فوقهم مجسِّر، ولقد قصَّر عنهم قوم فجَفَوْا، وطَمَح آخرون عنهم فغَلَوْا، وإنّهم فيما بين ذلك لعلى هدًى مستقيم»[١].

١١ (٥) كان التَّابعون رحمهم الله أحرصَ النَّاس على اقتفاءِ سُنَّةِ النبيِّ ﷺ وأصحابه؛ قال إبراهيم النَّخَعِيُّ -رحمه الله-: «لو بلغني عنهم - يعني الصّحابةَ - أنّهم لم يجاوزوا بالوضوء ظُفْرًا ما جاوزتُه به، وكفى على قوم وِزْرًا أن تُخالف أعمالهم أعمال أصحاب نبيِّهم ﷺ»[٢].

١٢ (٦) إياك والبدعَ والعمل بما لا أصل له من شرع اللهِ تعالى وسُنَّته؛ فالحقُّ في القرآن والسُّنَّة لا يخرج عنهما.

١٣ (٦) ليس في الدين بدعة حسنة وبدعة سيئة؛ فكلُّ ما استُحدث في دينِ اللهِ تعالى ولم يكن على نهجِ النبيِّ ﷺ فهو باطلٌ وصاحبه مأزورٌ عليه.

---

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (٤/ ١١٥).

(٢) المصدر السابق.

الحديث ١١٣

الأعمالُ بالنيّات

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

١ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ.

٢ وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى.

٣ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ.

٤ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» متفق عليه[(١)].

(١) البخاريُّ (٦٦٨٩)، ومسلمٌ (١٩٠٧).

آيات

- ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].
- ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]
- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].
- ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].
- ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]

الراوي

عمرُ بنُ الخطَّاب القرشيُّ العَدويُّ رضي الله عنه، ثاني الخلفاء الراشدين، وأحدُ العشَرة المبشَّرين بالجنَّة، لُقِّب بالفاروق، لكونه يميز بين الحق والباطل، أسلم سنة ٦ من البعثة، وكان إسلامه عزًّا للإسلام والمسلمين، وشهد المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، وتولَّى الخلافة بعد وفاة أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه سنة (١٣هـ)، واشتهر بالعدل والإنصاف مع الشدة والجرأة في الحق، وفي عهده فُتحت أكثر البلاد مثل العراق والشام ومصر وغيرها، استُشهد سنة (٢٣هـ)، ودُفن في حجرة عائشة رضي الله عنها، بجوار النبيّ ﷺ وأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه[(١)].

خلاصة

أخبر النبي ﷺ أنَّ الأصل في اعتبار وقبول الأعمال: النية، فبها تتميز العادات من العبادات، ويتميز العمل الصالح من الفاسد. وقد يتفق العمل المباح أو المشروع من رجلين، إلا أنَّ أحدهما نوى نية الطاعة فأُجر عليها، والآخر لم ينوها فلم يُؤجر. فمن هاجر من بلده إلى بلدٍ آخر مخلصًا لله تعالى ومتبعًا لسنة نبيه ﷺ فهو مأجور، ومن هاجر لغير ذلك فلن يحصل على غير نيته.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة لأبي نعيم» (١/ ٣٨)، «أسد الغابة لابن الأثير» (٤/ ١٣٧)، «الإصابة لابن حجر» (٤/ ٤٨٤).

هذا الحديث من أهم أحاديث الدين كلِّه، حتى قال أهل العلم: إنَّ هذا الحديث يمثل ثُلُثَ الإسلام[١].

١ بالنية تكتسب الأعمال صفة معتبرة، **والنية ما يتوجه له القلب ويقصده بعمله**، فتتميز العبادات من العادات، وتتميز أنواع العبادات عن بعضها، وتُقبل الأعمال إن كانت لله تعالى أو تُرَدُّ.

٢ وقد تتشابه الأعمال والنيات مختلفة، وإنما يؤجر الإنسانُ بحسب ما نواه من العمل، فإن نوى خيرًا أُجر عليه، وإن نوى شرًّا عُوقب عليه، وإن لم ينوِ شيئًا فلا له ولا عليه، بل تتفاوت درجات العمل بدرجة النية.

والنية الصالحة لا تُصلح العمل الفاسد، فقد ابتدع قومٌ طريقة في الذِّكر غير مشروعة، فلما أنكر عليهم عبد الله بن مسعود ﷺ قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير. قال: «وكم من مريد للخير لن يصيبه»[٢].

٣ ثم فصَّل النبيُّ ﷺ المسألة، وضرب المثال على ذلك **بالهجرة** -**وهي الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام**-؛ فمن كانت هجرته **إلى الله** تعالى؛ مخلصًا له فيها ومتعبدًا له، **وهجرته للرسول** ﷺ انقيادًا لأمره، ومتابعة لسنته، فتلك الهجرة الحقيقية التي تستحق الذكر والتعظيم.

ولم يذكر النبيُّ ﷺ الأجرَ هنا تعظيمًا لهذا الأجر، كما أخفى الله عز وجل أجر الصوم عندما قال في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به»[٣].

٤ ومن هاجر لغرضٍ دنيوي -كتجارة يحصّلها أو امرأة يتزوجها-، فإن هجرته لا عبرةَ بها شرعًا، ولا يؤجر عليها، مع أن الهجرة من أعظم الطاعات -فكذلك سائر العبادات-، وهجرته إنما تنسب لعمله الذي نواه.

ولم يذكر النبيُّ ﷺ أن له أجرًا، لأن مقصوده ليس عبادة محضة، ولتفاوت الناس في هذا المقصود.

(١) «شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد» (ص: ٢٤)، «جامع العلوم والحكم لابن رجب» (١/ ٧١).
(٢) سنن الدارميّ (٢١٠).
(٣) البخاريُّ (٥٩٢٧)، ومسلمٌ (١١٥١).

اتّباع

١ حسِّن نيتك، وراقب قلبك، واجتهد أن تكون أعمالُك كلها لأجل طاعة الله تعالى؛ فإن النبي ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ؛ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[١].

٢ لا تغترَّ بظاهر عملك أو عمل غيرك مع سوء السريرة، فالأعمال مرتبطة بالنية.

٣ أكثر من نية الخير، فنية المؤمن أبلغ من عمله، لأن إن نوى العمل الصالح أُجِر، سواء تيسر له العمل أو لم يتيسر، قال النبي ﷺ وهو راجعٌ من غزوة تبوك: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»[٢]، وفي الحديث: «رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ، يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا، وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ: فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ....»[٣].

٤ كان السلفُ ﷺ يتعلمون النية -بالمراقبة والتهذيب وقصد الخير- كما يتعلمون العمل. قال يحيى بن أبي كثير: «تعلموا النية؛ فإنها أبلغ من العمل»، وقال سفيان الثوري: «ما عالجت شيئًا أشدَّ عليَّ من نيّتي؛ لأنّها تنقلب عليَّ»[٤].

٥ بالنيةِ تتحول العادات إلى عبادات؛ فإذا أكل نوى تقوية بدنه على الطاعات والعبادات والأعمال، وإذا عمل أو تاجر نوى إعمار الأرض، ونفع المسلمين، وتحصيل المال الذي ينفق منه على أهله بالحلال الطيب، وإذا طلب العلم نوى نفع نفسه والناس بسلوك طريق الأنبياء والعلماء، وإذا أراد النوم نوى إراحة جسده ليستطيع مواصلة العمل والعبادة، فيؤجر على جميع ذلك. قال معاذ بن جبل ﷺ: «أَمَّا أَنَا فَأَنَامُ وَأَقُومُ، فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي»[٥].

---

(١) مسلم (٢٥٦٤).

(٢) مسلم (٤٤٢٣).

(٣) أحمد (١٨٠٢٤)، وابن ماجه (٤٢٢٨).

(٤) «جامع العلوم والحكم لابن رجب» (١/ ٧٠).

(٥) البخاريُّ (٤٣٤٤).

٦ إذا كنت ستعمل عملًا ولا بد فاستحضر نية العبودية الله تعالى فيها، قال زُبيد اليمامي: «إنّي لأحبُّ أن تكون لي نيّة في كلِّ شيء، حتّى في الطّعام والشّراب»، وإذا كان العمل صغيرًا في نظرك فاستحضر عظمة الله تعالى ومجازاته ومحبته لتقرب العبد إليه، قال عبد الله بن المبارك: «رُبَّ عمل صغير تُعظّمه النية، ورُبَّ عملٍ كبير تصغِّره النية»[1]، ففي الوضوء طهارة لله عز وجل لأجل الصلاة، ومتابعة للرسول ﷺ في إحسان الوضوء، وحطٌّ لخطاياك التي أثقلتك.. وهكذا، حتى وأنت تغلق إضاءة الغرفة؛ فأنت تبر والدك كي لا تهدر ماله، وتعين المسلمين وتحفظ مالهم باستهلاك أقل للطاقة.. وهكذا.

٧ كن يقظًا، وتجنب مداخل الشيطان بأن يحرف عباداتك لمراءاة الناس بعملك، وتعظيمهم لك، فتخسر، قَالَ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[2].

٨ اجمع بين النية الصالحة والمتابعة للرسول ﷺ، فتلك حقيقة الهجرة إلى الله تعالى ورسوله ﷺ، قال الفُضيلُ بن عياض في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال: «أحسنُ العملِ: أَخلَصُه وأَصوَبه، وأخلصه أن يكون لله تعالى وحده، وأصوبه أن يكون على السُّنَّة، فالعمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا، لم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبَل»[3].

جاء هذا الحديث العظيم ليضرب مثلًا، بصورةٍ مصغَّرة عن حياة المسلم، فهو مهاجر إلى الله في حياته هذه، فلينظر موقع أعماله في هذه الهجرة.

قال الشاعر:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُدْعَى كَرِيمًا مُهَذَّبًا ... تَقِيًّا سَرِيًّا مَاجِدًا فَطِنًا حُرًّا
فَكُنْ مُخْلِصًا لِله جَلَّ جَلالُهُ ... وَكُنْ تَابِعًا لِلْمُصْطَفَى تُحْرِزِ الأَجْرَا

(١) «البحر المحيط الثجاج للإتيوبي» (٣٢/ ٦٠٦).
(٢) مسلم (٢٩٨٥).
(٣) «جامع العلوم والحكم لابن رجب» (١/ ٧٢).

الحديث ١١٤

فضل الذِّكر

عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعريِّ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:

١ «مَثَلُ البَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ».

٢ وَلِلْبُخَارِيِّ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ، وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ»[١].

(١) البخاريُّ (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).

آيـــات

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

الرّاوي

هو: عبدُ اللهِ بنُ قَيْس بن سليم الأشعريُّ، أبو موسى، أَسلَم بمكَّةَ، وهاجر الهِجرتين؛ هجرتَي الحَبَشةِ والمدينة، كان حَسَنَ الصوت بالقرآن، استعمله النبيُّ ﷺ على بعض اليَمَن، واستعمله عمرُ ﵁ على البَصرة، ثم استعمله عثمانُ ﵁ على الكوفة، ثم كان أَحَدَ الحَكَمين بصِفِّينَ، ثم اعتزل الفريقين، توفِّيَ سنةَ (٥٢هـ)[١].

خلاصة

ذِكرُ اللهِ تعالى حياةُ القلوبِ والأرواحِ؛ فالذي يذكر اللهَ تعالى حيٌّ سعيدُ القلبِ، والبيتُ الذي يُذكر فيه اللهُ سبحانه مبتهجٌ تألفه الملائكة. والبيتُ والقلبُ الخاليان من الذكر مَيْتَان مهجوران لا خيرَ فيهما.

(١) يراجع ترجمته في: «الاستيعاب» لابن عبد البرِّ (٤/ ١٧٦٢)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٦٤)، «الإصابة» لابن حجر (٤/ ١٨١).

فقه

١ يذكر النبيُّ ﷺ أنَّ ذكرَ اللهِ تعالى حياةُ الأرواح والأماكن؛ فالبيتُ الذي يُذكر اللهُ سبحانه فيه يَنْعَمُ بالطمأنينة والراحة، ويضجُّ بالسعادة والبهجة، وتألفه الملائكةُ، فتتنزل عليه بالسكينة، فهو كالحيِّ الذي يتمتع بروحه ويأنسُ بغيره ويُؤنَسُ به. أما البيتُ الذي لا يُذكر الله تعالى فيه فهو مُوحِشٌ لا روحَ فيه ولا حياة، ينفر منه النَّاس كما ينفرون من الأموات، وتهجره الملائكة.

والذِّكرُ: **استحضار عظمة اللهِ تعالى في القلب، وجريان اللسان بالثناء على اللهِ عزَّ وجلَّ،** وبمعنًى أعم يدخل فيه جميع الأعمال الصالحة من الصلاة والدعاء والتسبيح وقراءة القرآن ونشر العلم وغير ذلك.

٢ وفي الرواية الأخرى جعل ﷺ الذَّاكرَ نفسَه حيًّا والغافلَ مَيْتًا؛ إذ بالذِّكر تحيا الأرواح وتطمئن القلوب؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، والذِّكْرُ غذاءُ الأرواح كما أن الطعام والشراب غذاءُ الأبدان، فإن اهتمَّ الإنسانُ بغذاء بدنه وترك غذاءَ قلبه وروحه كان كالبهائم التي لا يُرتجى منها نفعٌ، وكالأموات حين تعطَّل قلبُه عن ذكرِ ربِّه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

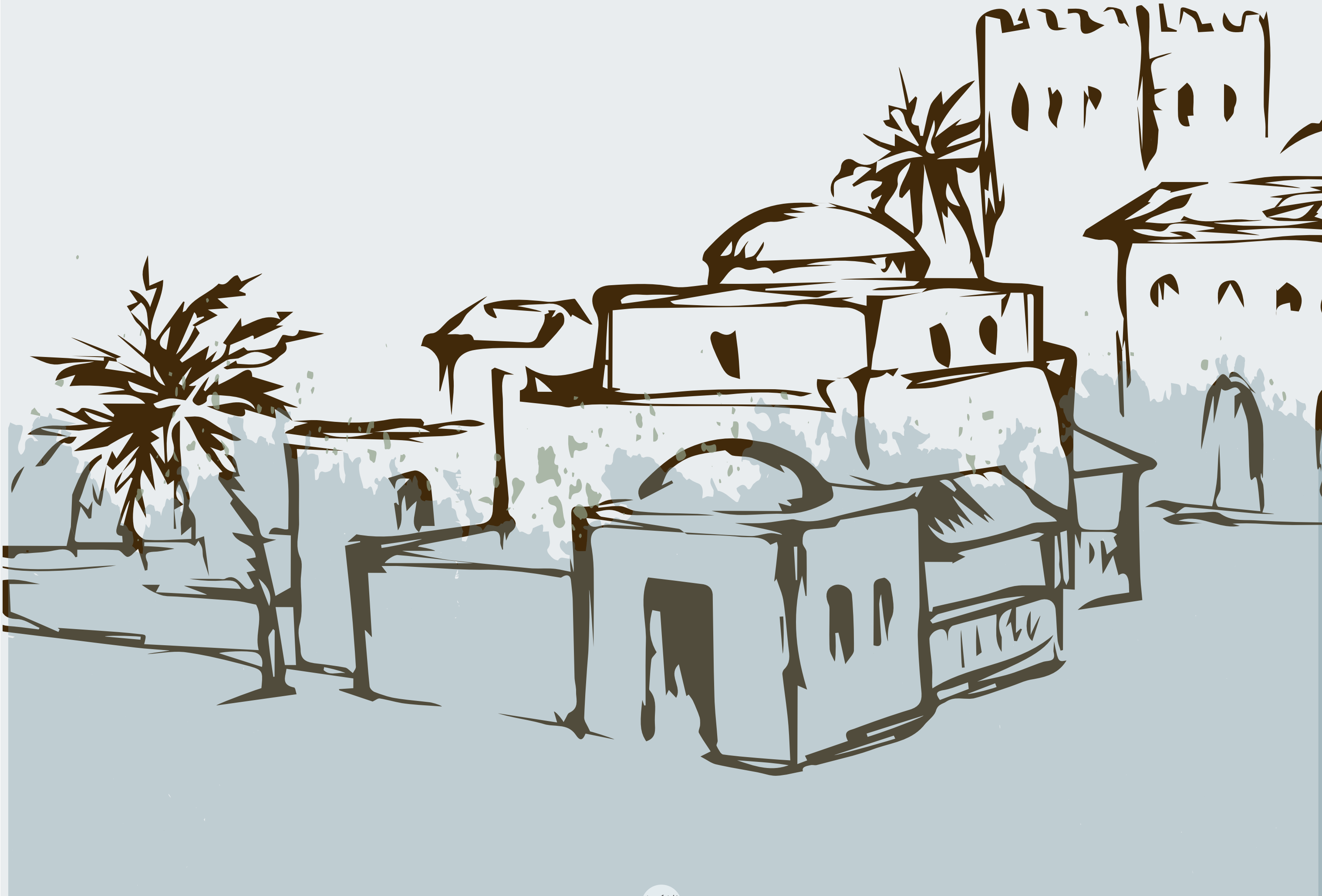

اتباعي

١ (١) من أنفع وسائل التعليم والإفهام ضربُ الأمثالِ؛ حيث تُقَرَّب المعاني وتُوَضَّح، وتُصاغُ الفكرة العقلية في صورةٍ حِسِّيَّةٍ يفهمها جميع النَّاس. فيجدر بكل داعيةٍ ومُرَبٍّ أن يستخدم ذلك الأسلوب.

٢ (١) لا يشترط في الذكر حضورُ الذِّهن واستحضار معانيه، بل يستطيع المسلم أن يذكر ربَّه في فراغه وشُغله، يُجري ما تيسَّر على لسانِه من الأذكار، وإن كان ذكرُ القلبِ واللسانِ معًا أعلى مراتب الذِّكر وأعظمها أجرًا.

٣ (١) لا تجعل بيتَك خَرِبًا مهجورًا تنفر منه الملائكة، عَمِّره بالذِّكر وقراءة القرآن.

٤ (١) الذَّاكرُ حيٌّ وبيتُه عامرٌ بالخير والبركة، والغافلُ عن الذِّكرِ ميْتٌ كأنه يسكن قبرًا.

٥ (٢) الذِّكر حياةُ القلوب، فلا تُمِتْ قلبك بتركه.

٦ (٢) ما تَلَذَّذَ المتلَذِّذون بِمِثْلِ ذكرِ الله – عزَّ وجلَّ – فليس شيءٌ من الأعمال أخفَّ مؤنةً منه، ولا أعظم لذَّةً ولا أكثرَ فرحةً وابتهاجًا للقلب(١).

٧ (٢) حافظ على الذكر؛ فإنه يُرضي الرحمن ويطرد الشيطان، ويُزيل الهمَّ ويجلب السعادة، ويستجلب الرزقَ والنضارةَ والمهابةَ، ويستوجبُ محبةَ اللهِ تعالى.

٨ (٢) ذكرُ الله تعالى أنواعٌ؛ فمنه المطلق الذي يُقال في كلِّ وقتٍ؛ كالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء وقراءة القرآن، ومنه مُقَيَّدٌ بأسبابٍ؛ كأذكار الصباح والمساء والنوم، ودخول البيت والخروج منه، ودخول الخلاء والخروج منه، ولبس الثوب وخلعه، ودخول المسجد والخروج منه، وغير ذلك.

٩ (٢) داوِم على الذِّكر؛ فإنَّ الذَّاكر لله ينشرحُ صدرُه وتسعد نفسُه، والمُعرض عن الذكر قاسي القلب جاف الروح، قال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن القيم (ص ٨١).

قال الشاعر:

عَلَيْكَ بذِكْرِ اللهِ يا طالبَ الأَجْرِ ... وَيا راغِبًا في الخَيْرِ والفَضْلِ والبرِّ
عليكَ بِهِ تُعطَى الرغائبَ كلَّها ... وتُكفَى به كلَّ المُهِمَّاتِ والضُرِّ
فمَنْ يَذْكُرِ الرحمنَ فهْوَ جَليسُهُ ... ومَنْ يَذْكُرِ اللهَ يُكافِئْهُ بالذِّكْرِ
ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الإلهِ فإنه ... قَرِينٌ له الشَّيْطَانُ في داخِلِ الصَّدْرِ
ومَن يَنْسَ مَوْلاهُ الكَرِيمَ فَرَبُّهُ ... له ناسيًا، أَعْظِمْ بذلك من خُسْرِ!
له استحوذَ الشَّيْطَانُ نسَّاهُ ذِكْرَ مَنْ ... تفضَّلَ بالإيجادِ في أوَّلِ الأمرِ

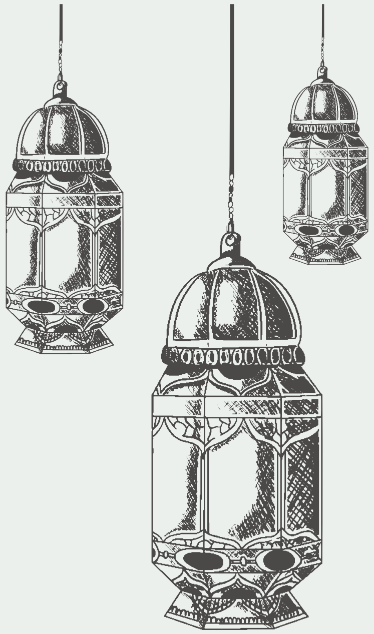

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ ﷺ،

١ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ،

٢ قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»[(١)].

(١) أحمد (١٨١٦٧)، والترمذيُّ (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٩١).

آيـــات

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

الرّاوي

هو: عبدُ الله بنُ بُسْر المازنيُّ ﷺ، أبو صفوانَ، له ولأبيه وأمِّه وأخيه وأخته صُحبةٌ ﷺ، وضع النبيُّ ﷺ يده على رأسه ودعا له، وصلَّى مع رسول الله ﷺ إلى القِبلتين، نزَل الشامَ، وغزا قُبرصَ مع معاويةَ بنِ أبي سفيانَ ﷺ في عهد عثمانَ ﷺ، وهو آخر من مات من الصحابة ﷺ بالشام، توفِّي سنةَ (٩٦هـ)، وعمرُه مِائةُ عام[(١)].

خلاصة

جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يشكو إليه كثرة السُّنَن والنوافل عليه، ويسأله أن يَدُلَّه على عملٍ عظيم يتمسك به ويعظم أجره، فدلَّه ﷺ على الذِّكر.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٥٩٥)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ٨٧٤)، «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير (٣/ ١٨٥)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ٢٠).

فقـــه

١ جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يشكو إليه كثرة النوافل والسُّنَنِ حتى عجز عن أدائها كلِّها، وطلب من النبيِّ ﷺ أن يخبره بعملٍ من تلك السُّنن التي يعظم أجرها ويدرك بها ما فاته من أجور النوافل والسُّنَن، ليتمسك به ويحرص عليه.

ولا يُفهم من كلامه هذا أنَّه يشمل الفرائض كذلك؛ إذ لا يُتصور ذلك منه، ولا أن يُقرَّه عليه النبيُّ ﷺ، كما أنَّ جميع النوافل لا تسدُّ مسدَّ فريضةٍ واحدة(١).

٢ فأمره النبيُّ ﷺ بكثرة ذكر اللهِ سبحانه، وأن يظل لسانُه رطبًا نَديًّا بذكره تعالى، فيداوم عليه ليلًا ونهارًا.

وإنما اختار له ﷺ الذكرَ لسهولته وخفَّته على اللسان، ولعظيم أجره؛ فقد قال ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى»(٢).

ويكفي في فضل الذِّكر أنَّ اللهَ سبحانه يقول في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(٣).

(١) «كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه» لنور الدين السنديِّ (٢/ ٤١٨).

(٢) أحمد (٢١٧٠٢)، والترمذيُّ (٣٣٧٧).

(٣) مسلم (٢٦٧٥).

اتَّباع

١ (١) إذا تكاثرت عليك الطاعات والنوافل، فتحرَّ أفضلَها جزاءً واغتنم وقتك بها.

٢ (١) ينبغي على الدُّعاةِ أن يبينوا للنَّاس ثواب الطاعات والنوافل حتى يحفزهم ذلك على المداومة عليها.

٣ (١) على الدُّعاة والمُربِّين أن يتخيروا للنَّاس من النَّوافل ما يليق بحالهم، ويعظم أجره عند اللهِ تعالى.

٤ (٢) ما أيسرَ عبادة الذكر! يؤديها العبدُ من غير مشقةٍ أو تعبٍ. فالسعيد مَن حرص على مثل تلك العبادة.

٥ (٢) داوِم على ذكر اللهِ سبحانه؛ فبالذكر تُغفر الذنوب، وتُرفع المراتب، ويُطرد الشيطان، ويرضى الرحمن، وتُكشف الكُرَب، وتزول الهموم، ويُبارَك في الرزق، ويَقوى القلبُ والبدن.

٦ (٢) آية المحبة: الذكرُ وعدم النسيان. فاختبر قلبَك أتراك مُحِبًّا دائم الذكر لربك أم مُدَّعِيًا تلك المحبة؟

٧ (٢) الذكر مراتب؛ فأعلاها أن تذكرَ اللهَ تعالى بقلبك ولسانك، ثم أن تذكره بقلبك، ثم أن تحرك لسانك بذكره من غير تفكُّرٍ. وبين كلِّ مرتبةٍ بونٌ بعيدٌ وأجرٌ عظيم.

٨ (٢) الذكرُ حياةُ القلوبِ، ولهذا قال ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ»[١].

قال الشاعر:

عَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ يا طالبَ الأَجْرِ ... وَيا راغِبًا في الخَيْرِ والفَضْلِ والبِرِّ

عليكَ بِهِ تُعطى الرغائبَ كلَّها ... وتُكفى بِهِ كلَّ المُهِمَّاتِ والضُرِّ

فمَنْ يَذْكُرِ الرحمنَ فَهْوَ جَلِيسُهُ ... ومَنْ يَذْكُرِ اللهَ يُكافِئْهُ بالذِّكْرِ

ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الإلهِ فإنه ... قَرِينٌ له الشَّيْطَانُ في داخِلِ الصَّدْرِ

ومَن يَنْسَ مَوْلاهُ الكَرِيمَ قُرْبَهُ ... له ناسيًا، أَعْظِمْ بذلك من خُسْرِ!

له استحوَذَ الشَّيْطَانُ نسَّاهُ ذِكْرَ مَنْ ... تفضَّلَ بالإيجادِ في أوَّلِ الأمرِ

(١) البخاريُّ (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).

سَيِّدُ الاستغفار

عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﵁: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

١ «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ،

٢ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ،

٣ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ،

٤ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي

٥ فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»

٦ قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»(١).

(١) البخاريُّ (٦٣٠٦).

آيـــات

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢]

الرّاوي

هو: أبو يعلى، شَدَّادُ بْنُ أَوْسِ بنِ ثابتِ بنِ المنذرِ الأنصاريُّ ﵁، من فضلاء الصحابة وعلمائهم، ممن آتاهم الله سبحانه العلمَ والحلمَ، سَكَن مدينة حِمْصَ بالشام، وولَّاه عمرُ بنُ الخطَّاب ﵁ إمارتها، ولمَّا قُتل عثمانُ بنُ عفَّانَ ﵁ اعتزل ولايتها، وكان كثيرَ العبادة، والوَرَع، والخوفِ من الله تعالى، تو فِّي بفِلَسْطِين سنة (٥٨هـ)، وعُمره خمس وسبعون سنةً(١).

خلاصة

يدلُّ النبيُّ ﷺ أُمَّته على صيغةٍ في الاستغفار تضمن لصاحبها إن قالها ثم مات عليها الجنة.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٤٥٩)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٢/ ٦٩٤)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٢/ ٦١٣)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٣/ ٢٥٨).

فقـــه

١ للاستغفار صِيغٌ كثيرةٌ دلَّ عليها الكتاب والسُّنَّة، إلَّا أنَّ أفضلَها وأعظمَها أثرًا وأقربَها للقبول ما سمَّاه النبيُّ ﷺ سيدَ الاستغفار، وهو قول العبد: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك» فيبدأ استغفارَه بالإقرار للهِ تعالى بالوحدانية، فهو ربُّه وسيِّده ومالكه ومُدَبِّرُ أمره، خلقَه بيده، ولا يستحقُّ العبادةَ غيرُه؛ إذ ليس الخالقُ كغيرِه، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

٢ ثم يجدد العهد بينه وبين ربِّه، ويذكر أنَّه ما زال على عهد الإيمان والعبادة التي أخذها عليه ربُّه حين كان في صُلبِ أبيه؛ قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. يقول: إنني ما زلت على عهدي بربي أن أُطيعه ولا أعصيه، ولا أشركَ به شيئًا، قدر استطاعتي، فإن قصَّرتُ في حقِّ شكرِ نِعَمِك أو أذنبتُ في حقِّك فبمقتضى ضعف النفس البشرية لا جهلًا بقدْرِك ولا استخفافًا بجلالِك. وذلك يتضمن الاعتراف بالعجز والتقصير عن القيام بحقوق اللهِ سبحانه.

٣ ثم **يلجأ إلى ربه مستجيرًا** من شرِّ ما عملت يداه؛ من الإساءة في حقِّ ربِّه أو التقصير في القيام بشكره؛ فإنه لا يليق باللهِ تعالى إلا عبادته حقَّ العبادة، فما جاء على خلافِ ذلك فأنا مستجيرٌ بك منه، مُستغفِرُك عنه.

٤ ثم **يُقِرُّ** لله تعالى بنعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، **ويعترف** له بذنوبه وزلَّاته.

٥ فإذا استهلَّ دعاءه بذلك الإقرارِ المتضمن للثناءِ على اللهِ والإقرارِ بنعمه والاعتراف بذنوبه، عَدَلَ إلى الاستغفار مما اقترف، وسألَ اللهَ تعالى أن يغفر له؛ فإنه لا يغفر الذنوب غيره.

٦ ثم يبين النبيُّ ﷺ فضلَ ذلك الدعاء، فيذكر أنَّ مَن قاله حين يصبح موقنًا به، مخلصًا من قلبه، ثم مات قبل أن يُمسي دخل الجنة، ومن قاله حين يمسي كذلك فمات قبل أن يطلع الصبح دخل الجنة.

وإنما كان هذا الدعاء سيِّدَ الاستغفار لتضمنه الإقرارَ بالوحدانيةِ والاعترافَ بالنِّعم، ولأنَّه مهَّد بين يدي الاستغفار بالثناء على اللهِ تعالى بما هو أهله.

اتباع

١ (١) «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك» فتُقِرَّ لله عزَّ وجلَّ بلسانك وبقلبك أن الله هو ربُّك المالك لك، المدبِّر لأمرك، المعتني بحالك، وأنت عبده كَوْنًا وشَرْعًا، عبدُه كونًا يفعل بك ما يشاء، إن شاء أَمرَضك، وإن شاء أصحَّكَ، وإن شاء أغناك، وإن شاء أفقرك، وإن شاء أضلَّكَ، وإن شاء هداك، حسبما تقتضيه حكمته عزَّ وجلَّ، وكذلك أنت عبده شرعًا تتعبَّد له بما أَمَر، تقوم بأوامره، وتنتهي عن نواهيه[١].

٢ (١) احرص على أن تُمهِّد لدعائك بالثناء على الله تعالى؛ سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ، وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا» ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ، ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ»[٢].

٣ (١) أفضل الاستغفار أن يبدأ العبد بالثناء على ربه، ثم يُثْنِّي بالاعتراف بالنِّعَم، ثم يُقِرُّ لربِّه بذنبه وتقصيره، ثم يسأل بعد ذلك ربَّه المغفرة.

٤ (١) ينبغي على العلماء والدعاة والمربِّين أن يبينوا للنَّاس أفضل صيغ الثناء على الله تعالى، وخير أدعية الاستغفار، وأطيب ألفاظ الصلاة على النبيِّ ﷺ، ويُعلِّموهم ما يحتاجون إليه في يومهم من الأوراد والأدعية والأذكار.

٥ (٢) يجب على العبد أن يُخبر ربَّه بلسان الحال والمقال أنه ما زال على عهده معه بالطاعة والإيمان بقدر استطاعته، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

٦ (٣) ينبغي على المسلم أن يتبرأ إلى الله من معاصيه، ويستجير به منها، فإنه لا يليق بحقِّ الله سبحانه إلا تمام الطاعة.

٧ (٣) إياك والتفاخر بالمعصية، والجهر بها؛ فإن الله سبحانه يغفر لكل مسلم إلا المجاهر بالمعصية، قال ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ»[٣].

٨ (٤) الاعتراف بالنِّعم التي أنعم الله سبحانه بها على الإنسان يستوجبُ شكرَها، وذلك بألا يستخدمها العبدُ في المعصية.

٩ (٤) الاعترافُ بالذنب أَوَّلُ التوبة، فلا تُكابِر في الإقرار بالذَّنب لعل الله يغفره لك.

١٠ (٤) إياك واحتقار الذنب؛ فإن احتقارَه والاستهانة به تدفعك إلى المزيد من الذنوب، ولا تحضك على التوبة، ولهذا قال الفُضَيل بن عياضٍ رحمه الله: «بقدرِ ما يصغُرُ الذنبُ عندك، يَعظُمُ عند الله، وبقدر ما يَعظُمُ عندك، يَصغُرُ عند الله»[٤].

---

(١) «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٦/ ٧١٧).

(٢) أحمد (٢٣٩٣٧) وأبو داود (١٤٨١) والترمذي (٣٤٧٦).

(٣) البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).

(٤) «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٨/ ٤٢٧).

١١ (٤) المؤمن يرى ذنوبَه وإن صَغُرتْ عظيمةً، فيندم على فعلها، ويلجأ إلى ربِّه بالاستغفار والإنابة، قال عبد الله بن مسعودٍ ﷺ: «إن المؤمنَ يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبلٍ يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجرَ يرى ذنوبه كذُبابٍ مرَّ على أنفه، فقال به هكذا»[١].

١٢ (٥) لا يغفر الذنبَ إلا الله تعالى، فالجأ إليه وحده بالاستغفار وطلب الرحمة، وإياك وسؤالَ الأموات والتوسل إليهم.

١٣ (٥) من أراد الله به خيرًا، فتح له باب الذُّلِّ والانكسار، ودَوَام اللجوء إلى الله تعالى، والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه، وجهلها، وعُدْوانها، ومشاهدة فضل ربِّه، وإحسانه، ورحمته، وجُوده، وبِرِّه، وغناه، وحمده[٢].

١٤ (٦) احرص على حفظ دعاء سيد الاستغفار، وحافظ عليه صباحًا ومساءً، فإنك إن متَّ من يومكَ، فأنت من أهل الجنة، وإن متَّ من ليلتكَ، فأنت من أهل الجنَّة.

١٥ (٦) اغتنم الأدعية والأذكار التي ذكر النبيُّ ﷺ فضائلها، مثل هذا الدعاء الذي يضمن للعبد الجنة.

١٦ (٦) على الدُّعاةِ والمُربِّين والعلماءِ أن يُبيِّنوا للنَّاس ثوابَ الذِّكرِ والدعاءِ المأثورِ؛ فإن ذلك مما يشجع على المداومة عليه.

قال الشاعر:

يَـا ربِّ إنْ عَظُمَـتْ ذُنُـوبِي كَثْـرَةً ... فلقـد عَلِمْـتُ بِـأَنَّ عفـوَكَ أَعْظَـمُ
إنْ كَانَ لَا يَرْجُـوكَ إِلَّا مُحْسِـنٌ ... فَبِمَـنْ يلـوذُ ويسـتجيرُ المجـرِمُ؟!
أَدْعُـوكَ رَبِّ كـما أمـرتَ تَضَرُّعًـا ... فَـإِذَا رَدَدْتَ يَـدِي فمـن ذا يَرْحَـمُ؟!
مَـا لِي إِلَيْـكَ وَسِـيلَةٌ إِلَّا الرَّجَـا ... وَجَمِيـلُ عَفْـوِكَ ثُـمَّ أَنِّي مُسْـلِمُ

وقال غيره:

إلهـي لا تعذِّبنـي فـإني ... مُقِـرٌّ بالـذي قـد كان مِنِّـي
ومـا لي حيلـةٌ إلَّا رجائـي ... لعفوكَ إن عفوتَ وحُسْنُ ظَنِّي
فكـم مـن زلَّـةٍ لي في البرايـا ... وأنـتَ علـيَّ ذو فضـل ومَـنِّ
يظـنُّ النـاسُ بي خـيرًا وإنِّي ... لـشرُّ النَّـاسِ إن لم تعـفُ عنِّـي

(١) البخاريُّ (٦٣٠٨).

(٢) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن القيم (ص: ٧).

الحديث ١١٧

فضلُ القرآنِ الكريم وتعلُّمه وتعليمِه

عَنْ أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ، عن عثمانَ بنِ عفَّانَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال:

١ «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[1].

٢ قَالَ: وَأَقْرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي إِمْرَةِ عُثْمَانَ، حَتَّى كَانَ الحَجَّاجُ

٣ قَالَ: وَذَاكَ الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدِي هَذَا.

(١) البخاريُّ (٥٠٢٧).

آيـــات

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

الراوي

هو: أبو عمرو - ويقال: أبو عبد الله - عثمانُ بن عفَّانَ بنِ أبي العاصِ بنِ أميَّةَ، القرشيُّ، أمير المؤمنين، ذو النورين، وُلد بعد عام الفيل بست سنين، وكان من الأوائل السابقين الذين دخلوا في الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وهاجَر الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة، وتزوَّج ابنتَيْ رسول الله ﷺ رُقَيَّة ثم أمَّ كلثوم، غاب عن غزوةِ بدرٍ لتمريض زوجته رُقَيَّة بإذن النبيِّ ﷺ، تولى الخلافة بعد استشهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٢٤هـ، وقُتل شهيدًا بالمدينة سنة (٣٥هـ)[1].

خلاصة

أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ أفضلَ الناس من تعلَّم القرآن حفظًا وتلاوةً وتفسيرًا وغير ذلك، ثمَّ علَّمه للناس.

(١) ينظر ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٥٨)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١٠٣٧)، «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير (٣/ ٥٧٨)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٢/ ٣٤٩).

١ يُخبِر النبيُّ ﷺ أن خيرَ الناس، وأعلاهم درجةً عند الله تعالى مَن أَقبَل على القرآن الكريم، فتَعلَّمه تلاوةً وحِفظًا وعَملًا، فأصبح عالِمًا بمعانيه وأحكامه، ثم أقبل على تعليمه للناس، فيَنال بتعلُّمه درجة المتعلِّمين، وبتعليمه درجة العالِمين.

ويُشترط مع العلم والتعليم أن يكون الشخص عاملًا بما عَلِم؛ وجاء عن عيسى ﷺ أنه قال: «من عَلِم وعَمِل وعلَّم يُدعى في الملكوت عظيمًا»[١].

٢ وسار التابعون رحمهم الله على خُطى الصحابة في حفظ القرآن وتعلُّم أحكامه ومعانيه، وتعليمه للناس، فهذا أبو عبد الرحمن السُّلَمي رحمه الله التابعي راوي ذلك الحديث عن عثمان ؓ يجلس للإقراء والتعليم، منذ عهد عثمان بن عفان ؓ إلى زمان الحجاج بن يوسف، ما يقارب أربعين سنة.

وأبو عبدالرحمن هو عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفي، من أولاد الصحابة، مولده في حياة النبي ﷺ، قال أبو عمرو الداني: أخذ القراءة عرضًا عن عثمانَ، وعليٍّ، وزيدٍ، وأبيٍّ، وابنِ مسعود، وأخذ عنه القرآن: عاصم بن أبي النجود - شيخ حفص صاحب القراءة المشهورة: حفص عن عاصم- . . ، توفي سنة أربع وسبعين[٢].

٣ يقول السلميُّ: «فذاك الذي أقعدني في مقعدي هذا»؛ أي: أن سبب بقائه المدة الطويلة لتعليم القرآن هو العمل بهذا الحديث، ورغبته في الدخول في مدلول «خيركم».

قال الشاعر:

اسْـلُكْ دُرُوبَ العلـم غـيرَ مُفَـرِّطٍ ... والْـزَمْ كتـابَ الله غـيرَ مبـالِ
فهُـوَ المُعِـينُ عَـلَى الشَّدَائـدِ وَطْـأَةً ... وهُـوَ المُهَيْمِـنُ فَـوْقَ كلِّ مَجَـالِ
وَهُـوَ الشَّـفِيعُ عَـلَى الخلائـقِ شاهـدٌ ... في مَوْقِـفٍ يُنْجِـي مِـنَ الأَهْـوالِ

(١) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» للملا علي القاري (٤/ ١٤٥٢، ١٤٥٣).
(٢) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٤/ ٢٦٨).

اتّباع

١ استمع لهذا الحديث ثم اجتهد في تعلم القرآن الكريم، ومعرفة أحكامه، وضبط تلاوته، والوقوف على معاني ألفاظه وتدبر آياته، ثم نشر ذلك في الناس؛ فإنَّ المغبون من تكاسل أن يكون من خير الناس.

٢ الناس يتنافسون أن يكونوا الأفضل، فهذا بمنزله، بسيارته، وهذا بلباسه، وهذا بمنصبه، لكنَّ النبيَّ ﷺ جعل خيرَ الناسِ مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه، فليكن ميزانك وتقويمك لنفسك وللناس بما أخبر الله تعالى.

٣ من أراد خير الدنيا فعليه بالقرآن، ومن أراد خير الآخرة فعليه بالقرآن، ومن أرادهما معا فعليه بالقرآن.

٤ كمال العلم بالعمل وبالتعليم، فعلى المعلم أن يبذل ما في وسعه في تعليم طلابه، ولا يبخل عليهم بشيء، وعلى الطالب أن يعلم أقرانه ما تعلمه من معلمه.

٥ لا تتحقق في العالم المُعَلِّم الخيرية حتى يكون عاملًا بما عَلِم؛ قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، فيتأدب بآداب القرآن الكريم؛ حتى يكون قدوة معلّمًا لغيره حقا، وباعثاً لهم على تعلم القرآن، قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بِلَيْلِه إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا عليمًا سكيتًا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا، ولا غافلًا، ولا صَخَّابًا، ولا صَيَّاحًا، ولا حديدًا»(١).

٦ متى رأيت صاحب قرآن علمه وعمل به وعلّمه: فأحبه، وأكرمه، ولو كان شيخاً من فقراء الناس، ومن غرباء الأرض، فلعله من خير الناس، خصوصًا إذا كان ممن علمك القرآن، فله عليك حقوق.

٧ قولوا لمعلِّم القرآن أن يصبر على جلوسه للناس، وعلى الساعات الطوال في مسجد أو معهد أو عبر وسائل التواصل، ولا يقع في ذهنه أنه كبُر عن ذلك، فقد جلس أبوعبدالرحمن السلمي أربعين سنة يطلب فضل تعليم القرآن.

٨ من لم يعلّم القرآن بطريق مباشرة، فليعلّمه بما تيسر له ، كالحث على ذلك بالكتابة والخطابة، وطباعة الكتب، وبناء البرامج التقنية، وتأسيس حلقات القرآن الكريم، ومكافأة معلميها وطلابها، ونشر المقاطع الصوتية، وغير ذلك.

(١) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» لأبي نعيم (١/ ١٣٠).

الحديث ١١٨

فضلُ الفاتحة

عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رضي الله عنه، قَالَ:

١ كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ،

٢ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي،

٣ فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال: ٢٤]».

٤ ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ».

٥ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: «أَلَمْ تَقُلْ: لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟»،

٦ قَالَ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»(١).

(١) البخاريُّ (٤٤٧٤).

آيات

- ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].
- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].
- ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ① ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ② ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ⑦﴾ [الفاتحة].

الراوي

هو: أبو سعيدِ بنُ الْمُعَلَّى رضي الله عنه، صحابيٌّ جليل مشهور بكُنْيَته، واسمه على الأصح: الحارث بن نُفيع بن المُعَلَّى المدنيُّ الأنصاريُّ، ولا يُعرَف في الصحابة إلا بحديثين، سَكَن الشام، وتوفِّي سنة ٧٣هـ، وعُمره أربعٌ وستُّون سنة(١).

خلاصة

بيَّن الحديثُ أنَّ إجابةَ نداء النبيِّ ﷺ واجبةٌ حتى وإن كان المُنادَى في صلاةٍ، وأخبر أنَّ فاتحة الكتاب أعظمُ سور القرآن.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٢/ ١٠٥٤)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٢٨١)، «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير (٢/ ٢٤٦)، «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للمزِّيِّ (٣٣/ ٣٤٨)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٧/ ١٤٨).

١ يذكر أبو سعيد بن المُعَلَّى رضي الله عنه أنه كان يُصَلِّي، فناداه النبيُّ ﷺ فلم يردَّ عليه واستكمل صلاته.

٢ فلمَّا أنهى صلاتَه ذهب إلى النبيِّ ﷺ مجيبًا، ومُبَرِّرًا عدم إجابته له بأنه كان في الصلاة، ظنًا منه أنَّه لا يجوز له أن يقطعها، أو يتكلم فيها عند كلام رسول الله ﷺ له، وأن إجابة رسول الله ﷺ واجبة فقط لمن هو خارج الصلاة، فلهذا لم يُجبه.

٣ فأخبره النبيُّ ﷺ بأنَّ إجابته واجبة على الفور سواء كان في الصلاة أو في خارجها، لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] فالنبي ﷺ لا يدعوه إلا لأمر مهم.

٤ ثم أخبره ﷺ أنه سيذكر له أعظم سورة في القرآن قبل أن يخرج من المسجد.

وهذا يدل على أنَّ سور القرآن تتفاضل في الأجر وثواب القراءة، قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وذلك لما فيها من معاني أسماء الله تعالى وصفاته، وتوحيده والثناء عليه وصيغ دعائه وتمجيده، ولذلك كانت آية الكرسي أعظم آية في القرآن، وفاتحة الكتاب أفضل سورة فيه، وتعدل سورةُ الإخلاصِ ثُلثَ القرآن.

٥ ثُمَّ إنَّ النبيَّ ﷺ أخذ بيد أبي سعيد وَهَمَّ بالخروج من المسجد، إما نسيانًا لوعده بإخبار أبي سعيد عن أعظم سورة، وإما اختبارًا لأبي سعيد لينظر حرصه على العلم، فذَكَّره أبو سعيد بقوله قبل أن يخرج من الباب.

٦ فأجابه النبيُّ ﷺ بأن سورة الفاتحة هي أعظم سورة في القرآن الكريم، فهي السبع المثاني؛ **سُمِّيت بذلك لما فيها من الثناء على الله، ولأنها تُثنَّى -أي تُعاد- في الصلاة، ولأنها مما استثناه الله تعالى لأمة نبيه ﷺ**، وهي سبعٌ لأنها سبع آيات، وهي القرآن العظيم اللذان امتنَّ الله على نبيِّه ﷺ بإيتائهما له في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

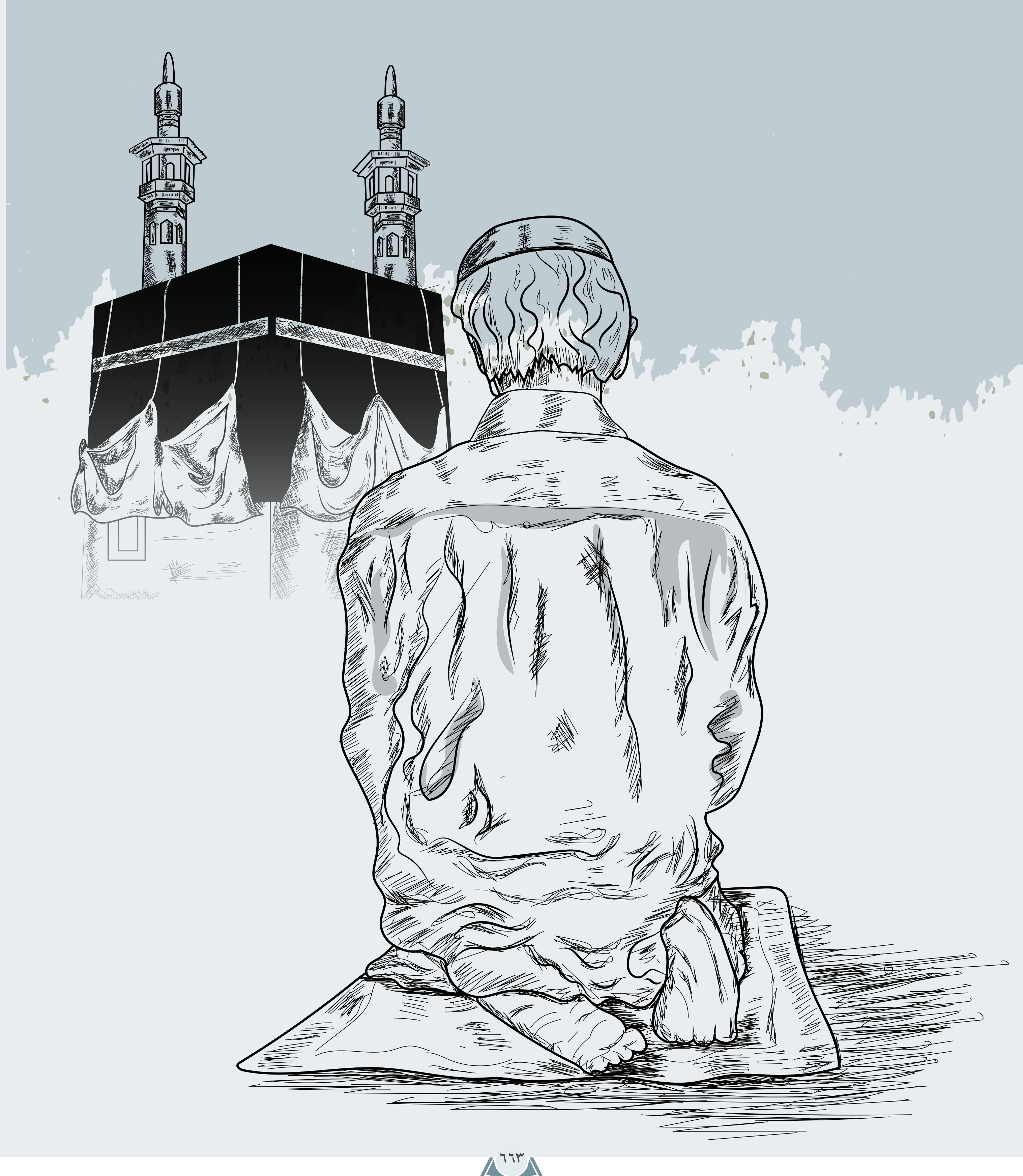

اتّباع

١ إذا كانت الاستجابة لأمرِ النبيِّ ﷺ واجبةً على المسلم، حتى لو كان في الصلاة، فمن باب أولى الاستجابة لأوامر النبيِّ ﷺ في جميع شؤون حياته، وعدم تقدِّيم رأيَ الإنسان وهواه على سُنَّةِ النبيِّ ﷺ وشرعه، فوطِّن نفسك لذلك دائمًا.

٢ في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٢٤] إشارةٌ إلى أنَّ الحياة المُعتبرة المَرجُوَّة إنما هي حياة القلوب والأرواح لا مجرد حركة الأجساد وابتغاء الشهوات، وهي التي تُورث السعادة في الحياة الأبدية في الآخرة، لا تلك الحياة الفانية، فمن أراد أن يحيا حقًّا فليلزم طاعةَ الله ورسوله ﷺ، فهي وحدها سبيل الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.

٣ احرِص على طلب العلم ولا يشغلك عنه شيءٌ، ولا يصدَّنَّك عن السؤال حياءٌ أو استكبار؛ فإنَّ أبا سعيد رضي الله عنه لم يستحِ من أن يُذَكِّر النبيَّ ﷺ بما نسيه من وعده بإخباره أعظم سورة في القرآن، ولا من أن يتباطأ عن الخروج معه، على عظيم مكانته ﷺ في قلوب أصحابه، لحرصه على الحديث ومعرفة العلم.

٤ في الحديث دليل على رحمة النبي ﷺ بأصحابه، وحرصه على تعليمهم ما ينفعهم، فعلى المعلم أن يتخلق بخلق النبي ﷺ في التعليم، وعلى الطالب أن يتخلق بخلق أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه في التعلم والحرص.

٥ على طالب العلم ألا يترك الخير حتى يضيع من يده، فلو أن أبا سعيد بن المعلى رضي الله عنه ترك النبي ﷺ حتى خرج من المسجد، لما تعلم هذه الفائدة العظيمة.

٦ إذا تفاضلت سور القرآن في الأجر والثواب؛ فإنَّه ينبغي على المسلم أن يتدارك ذلك الفضل بأن يُكثر من قراءة الآيات والسور التي ورد في فضلها الأحاديث الصحيحة، فضلًا عن أن يحفظها، ويتدبر معانيها ويفهم سرَّ رفعتها.

٧ من أسرارِ علوِّ منزلة الفاتحة: أنَّ الله تعالى ابتدأها بالحمد والثناء والتمجيد قبل الدعاء، وهذا من آداب الدعاء التي ينبغي على العبد أن يحرص عليها ليستجاب دعاؤه؛ فعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه، قَال: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللهَ تَعَالَى، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: - أَوْ لِغَيْرِهِ - «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ»[1].

(١) أبو داود (١٤٨١)، والترمذيُّ (٣٤٧٧)، والنسائي (١٢٨٤).

قال الشاعر:

اقْـرَأْ كِتَـابَ اللهِ وَافْهَـمْ حُكْمَـهُ ... تُـدرك عطـاءَ اللهِ في إحسـانِ
فَهُـوَ الخِطَـابُ لِـكُلِّ عَقْـلٍ نَابِـهٍ ... وَهُـوَ الضِّيَـاءُ بِنُـورِهِ الرَّبَّـانِي
يَهْـدِي إِلَى الخَـيْرِ العَمِيـمِ وَإِنَّـهُ ... أَمْـنُ القُلُـوبِ وَرَاحَـةُ الأَبْـدَانِ
قَـدْ أَنْـزَلَ القُـرْآنَ رَبٌّ حَافِـظٌ ... لِيُعَلِّـمَ الإِنْسَـانَ خَـيْرَ بَيَـانِ

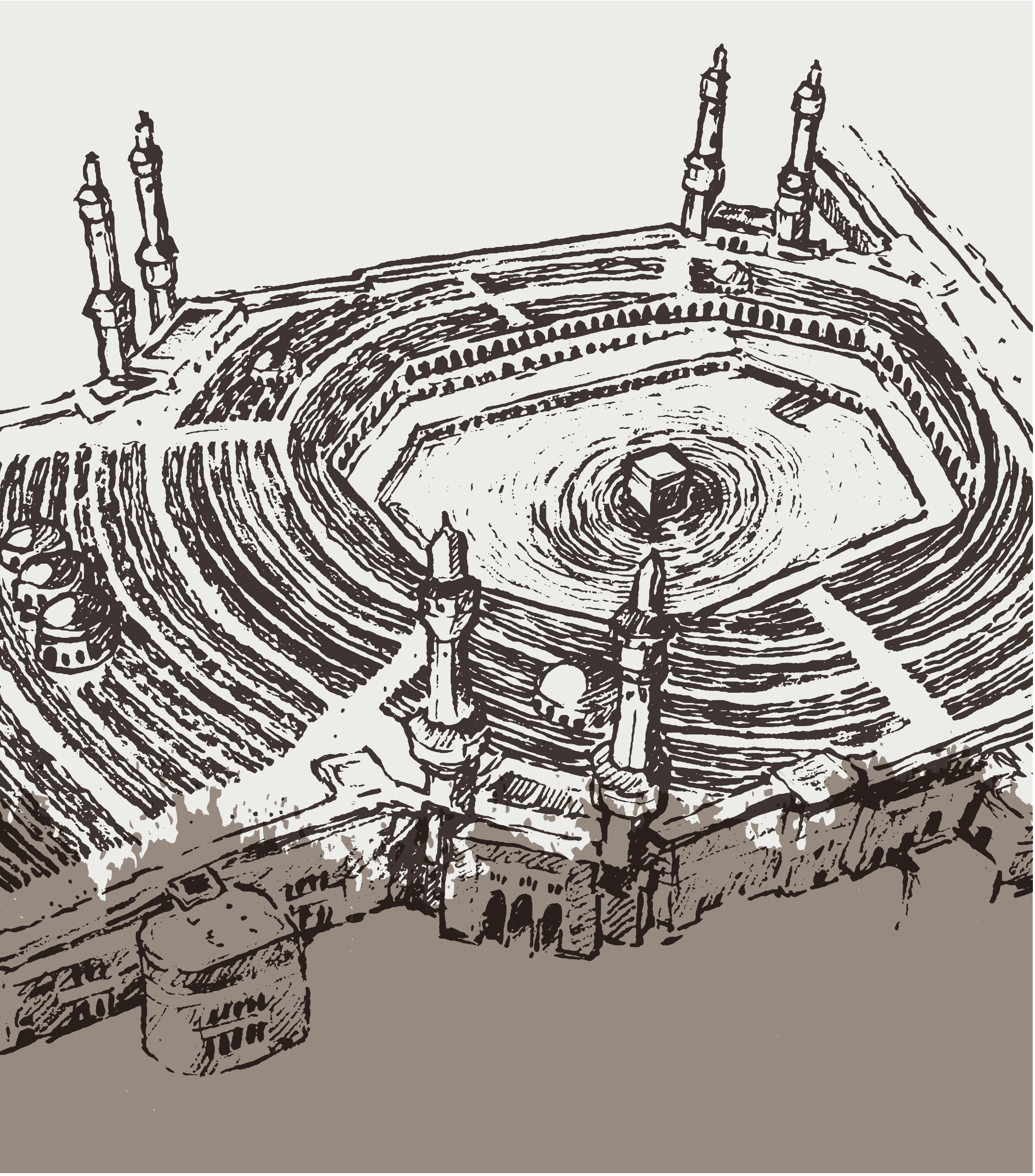

الحديث ١١٩

فضلُ آيةِ الكُرسيِّ

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

١ «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»

٢ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

٣ قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»

٤ قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾.

٥ قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي،

٦ وَقَالَ: «وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»(١).

(١) مسلم (٨١٠).

آيـــات

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
- ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة: ١٠٦].
- ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

الراوي

هو: أُبَيُّ بنُ كعبِ بن قيس، أبو الْمُنذِر المدنيُّ، سيِّد القُرَّاء، من فضلاء الصحابة ﵃، كان من أصحاب العقبة الثانية، وشَهِد بدرًا والمشاهد كلَّها، وهو أوَّل مَن كَتب للنبيِّ ﷺ، توفِّي في خلافة عثمانَ بنَ عفَّان ﵁ سنةَ (٣٠هـ)(١).

خلاصة

دلَّ الحديث على أنَّ آية الكرسي أعظمُ آي القرآن.

(١) ينظر ترجمته في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (١/ ٦٥)، وأسد الغابة لابن الأثير (١/ ١٦٨)، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١/ ١٨٠).

فقـــه

١ أخبر أُبيٌّ ﵁ أن النبيَّ ﷺ سأله مرةً، فقال: أتعلم أي آية من كتاب الله تعالى أعظم، وأعلى في الثواب والفضل وعظيم المنزلة؟

٢ فأجاب أُبيٌّ ﵁ بإسناد العلم إلى الله تعالى وإلى نبيه ﷺ عنده بالجواب؛ تعظيمًا للكلام في الدين، ورعايةً للأدب وتواضعًا، وإنما أسند العلمَ إلى النبيِّ ﷺ بعد اللهِ تعالى لأنَّ ذلك من أمور الشرع التي بيَّنها اللهُ تعالى لنبيه ﷺ، أما أمور الغيبيات فلا يجوز فيها إسناد العلم إلى غير الله تعالى، قال جل وعلا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

٣ ثم كرَّر النبيُّ ﷺ السؤالَ على أُبَيِّ بن كعب ﵁ يستحثه على الجواب، دون اكتفاءٍ منه بتفويض العلم إلى الله ورسوله.

٤ فلمَّا رأى أُبَيٌّ ذلك أجاب بأن تلك الآية هي آية الكرسي، وإنما لم يُجب من المرة الأولى لأنَّه اعتاد أنَّ النبيَّ ﷺ يسأل لاستثارة الأفهام وجلب الأسماع، ولأنَّه ﷺ ربَّما يُجيب بغير المعتاد؛ كأن يكون نزل الوحي عليه يُخبره بأفضلية آية أخرى مثلًا، أو يزيده فائدة أخرى، فلمَّا كرَّر النبيُّ ﷺ السؤال، علم أُبَيٌّ ﵁ أنَّه ﷺ يريد استظهار ما عنده من العلم والفهم، ولهذا أجاب بأنها آية الكرسيّ(١).

وإنما كانت آية الكرسيِّ أعظم آيات القرآن لما فيها من بيان توحيد الله تعالى، وإثبات صفات الكمال له سبحانه، وذكر أسمائه الحسنى، ونفي كل ما يُوهم النقص في حقِّه سبحانه مثل النَّوم ومقدماته.

٥ فضرب النبيُّ ﷺ في صدر أُبيٍّ ﵁ إشارةً إلى انشراحه وامتلائه علمًا وحكمة، وهذا تلطُّف منه ﷺ؛ ليتمكَّن العلمُ في صدره، وتنشيطٌ له، وترغيبٌ في أن يزداد علمًا وبصيرة، وفَرَحٌ بما ظهر عليه من آثاره المباركة(٢).

٦ ثم دعا له النبيُّ ﷺ: **هنيئاً لك بأن يكون العلمُ يسبب له الهناء والسعادة**، وأن يكون راسخًا في العلم متقنًا له، وهو دعاءٌ متضمن معنى الإشادة والإخبار بعلم أُبَيٍّ ﵁(٣).

ولآية الكرسي فضائل كثيرة، فجاء أنها أعظم آية، وأنها حفظ من الشيطان، وتقرأ بعد الصلاة المفروضة، وقبل النوم، وغير ذلك(٤).

(١) «البحر المحيط الثجاج» للإتيوبيِّ (١٦/ ٣٩٥).
(٢) «المفهم» لأبي العباس القرطبيِّ (٢/ ٤٣٦).
(٣) «الكاشف عن حقائق السنن» للطيبيِّ (٥/ ١٦٤٤).
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» آية (٢٥٥).

اتّباع

١ خاطب الآخرين بالألقاب التي يحبونها -مما لا تكره شرعًا- فقد كان ﷺ لأصحابه ينادي أصابه بكُنى يحبونها، رغم علوِّ منزلته وصغر سِنِّهم، وأنهم في منزلة التلاميذ منه ﷺ. فحَرِيٌّ بكل مسلم أن يقتدي به ﷺ في ذلك، خاصةً العلماء وأهل الدعوة والتربية؛ فعليهم ملاطفة طلابهم بالكلام الجميل والأسلوب المهذب، والمناداة لهم بأحب الأسماء ونحو ذلك، فلذلك أعظم الأثر في نفوسهم.

٢ عوِّد لسانك على قول (الله أعلم)، فهي أسلم لك، وأعزّ لك، وهي دأب أهل العلم، فأبيِّ بن كعب من أهل العلم بالقرآن حتى قال ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وأبيِّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة»[1]، وهو كان عنده علم أو ظنٌّ غالب بجواب السؤال عن أعظم آية، ومع ذلك فقد بادر إلى إيكال العلم إلى الله تعالى.

٣ من أساليب التعليم المؤثرة التي تلقى عند الطالب والمُعلِّم صداها: أسلوب السؤال والجواب؛ فإن المسؤول إذا فوجئ بسؤالٍ لم يعرف له جوابًا كان حريصًا على معرفة الجواب، وأفضل لثبوت الجواب في ذهنه وعدم نسيانه، بخلاف إملاء العلم وإلقائه على المتلقي فقد يكون عُرضة للنسيان.

٤ من جميل الأدب أدب السؤال، وله أحوال: فقد يسكت عن جواب سؤالٍ يعلم جوابَه، إجلالًا للسائل، ورغبةً في الإنصات لما عنده من الجواب، الذي ربما يكون فيه زيادة عمّا عنده، وقد يجتهد في الإجابة عند وجود المعلم الذي يصحح له الخطأ إن أخطأ.

٥ اعتن بآية الكرسي، فهي إن كانت أعظم آية فقد عظم شأن حفظها، وتعلمها، وتدبر آياتها، وتعليمها؛ سواء في البيوت، أو المدارس، أو في بحوث أهل العلم.

٦ في ضرب النبي ﷺ لصدر أبي بن كعب بعد جوابه مؤانسة حسية له، وتثبيت للعلم، فقد بقيت في ذهنه، وفي أذهان الرواة من بعده.

٧ إذا رأيت طلابك وأولادك وأصحابك أصابوا الحقَّ، فادعُ له، وأثنِ عليهم، واعترف بصوابهم، ولا تتكبر عليهم، وأعط كل ذي حق حقه، ؛ كما فعل النبي ﷺ مع أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه.

٨ دلَّ الحديث على أنَّه يجوز للإنسان أن يمدح غيره في وجهه إن كانت هناك مصلحة من ذلك، كأن يكون في مدحه تحفيزٌ له على المداومة على الخير والجدِّ والاجتهاد.

(١) البخاري (٤٩٩٩) ومسلم (٢٤٦٤).

الحديث ١٢٠

فضلُ سورةِ الإخلاص

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحابِهِ:

١ «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ القُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟»

٢ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

٣ فَقَالَ: «اللهُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القُرْآنِ»(١).

(١) البخاري (٥٠١٥).

آيات

- ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].
- ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

الراوي

هو: أبو سعيدٍ، سعدُ بنُ مالكِ بن سِنَانٍ الأنصاريُّ الخزرجيُّ الْمَدنيُّ، الخُدريُّ، شَهِدَ الخَنْدَقَ وَمَا بَعْدَهَا، وَأَرَادَ أَنْ يَشْهَدَ أُحُدًا فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ لِصِغَرِهِ، وَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ غَزْوَةً، وشهد بيعة الشجرة، روى حديثًا كثيرًا، وأفتى مدَّةً، تُوفي سنة ٧٤هـ(١).

خلاصة

أخبر النبيُّ ﷺ أن سورة «قل هو الله أحد» تعدل ثُلُث القرآن لما عُنيت به من بيان التوحيد، فكأن من قرأها قرأ ثلث القرآن.

(١) انظر: «الطبقات الكبير» للزهريِّ (٥/ ٣٥٠)، «تذكرة الحفاظ» للذهبيِّ (١/ ٣٦)، «البداية والنهاية» لابن كثير (٩/ ٣، ٤)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٣/ ٨٥).

فقه

١ سأل النبي ﷺ أصحابه ﭫ: ألا يقدر أحدكم أن يقرأ ثُلُثَ القرآن في كل ليلة؟

٢ فتعجَّب الصحابةُ من السؤال؛ فإنَّ ذلك مما يشقُّ عليهم، وليس من عادته ﷺ أن يُكلِّفهم بما لا يستطيعون.

٣ فأخبرهم ﷺ بأنَّ سورة «الله الواحد الصمد» تَعْدِل ثُلُثَ القرآن في الأجر والفضل والثواب، وهي سورة الإخلاص، لتضمنها تلك الكلمات وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١ - ٢]، **وكلمة الصَّمَد تتضمن عدة أوصافٍ لله تعالى، منها أنه تعالى الذي لا جوف له، فلا يحتاج لطعام ولا غيره، ولا يُشبهه أحدٌ، وأنه سبحانه الذي يُصمد -أي: يُقصد- في الحوائج، فهو غنيٌّ عن جميع خلقه، وهم مفتقرون إليه، وأنه الباقي بعد فناء جميع الخلق**[١].

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﭬ، قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»، فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا[٢].

وإنما كانت تلك السورة على قلة عدد كلماتها تَعْدِل ثُلُثَ القرآن لما فيها من التوحيد وبيان أسماء الله تعالى وصفاته ونفي الشريك والشبيه والولد؛ فإنَّ كتاب الله تعالى تضمَّن ثلاثة أصول: بيان التوحيد وصفات الله تعالى، وذكر أحكام الشريعة وما يحل وما يحرم، والإخبار عن قصص السابقين، وقد تناولت السورة الأصلَ الأولَ منها وهو التوحيد، ولذلك من قرأ سُورةِ الإخلاص نال مثلَ ثواب من يقرأ ثُلُثَ القرآن[٣].

قال الشاعر:

أَيَـا مَـنْ لَيْـسَ لِي مِنْـهُ مُجِـيرُ ... بعفـوِكَ مـن عِقَابِـكَ أسـتَجِيرُ
أَنَـا العَبْـدُ المُقِـرُّ بِـكُلِّ ذَنْـبٍ ... وَأَنْـتَ السَّـيِّدُ الصَّمَـدُ الغَفُـورُ
فَـإِنْ عَذَّبْتَنِـي فالذَّنْـبُ ذَنْبِـي ... وإِنْ تَغْفِـرْ فَأَنْـتَ بِـهِ جَدِيـرُ

(١) «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي (٤/ ٥٠٦).
(٢) مسلم (٢٦٢).
(٣) «الاستذكار» لابن عبد البر (٢/ ٥١٢).

اتّباع

١ اعتن بأساليب الخطاب، فالكلام وإن كان صحيحاً نافعاً، فإن أسلوب العرض يهيئ قبوله، فانتبه لذلك في خطابك لأولادك وأهلك وطلابك ومن تتعامل معهم بنصح أو تجارة أو غيرها.

٢ هيَّأ النبيُّ ﷺ أصحابه -رضي الله عنهم أجمعين- بسؤال غريب إلى قبول الجواب وتلقي العلم، حيث لمَّا سألهم عن أمرٍ مستبعدٍ بالنسبة لهم، تعلَّقت أسماعهم وانصرفت أفهامهم إلى كلامه ﷺ ليروا كيف يستطيعُ المرءُ أن يقرأ ذلك الكَمَّ في ليلة. فيحسن بالداعية والفقيه والمُعَلِّم والمُرَبِّي أن يجذب أسماع وأفهام مَن حوله بالأسئلة العجيبة والأخبار الغريبة، التي من شأنها جلب الأبصار والأسماع.

٣ يُظهر الحديث حكمة النبي ﷺ في تعليم أصحابه، حيث واجههم بأسلوب العرض، وليس بأسلوب الأمر، فعلى المعلم أن ينتهج نهج النبي ﷺ في التعليم، فهذا الأسلوب أفضل في حث الطلاب على فعل المراد.

٤ الشريعة جاءت بالتكاليف اليسيرة التي تحمل الخيرَ والفضلَ الكثير، فلا يليق بمسلمٍ أن يُفَوِّت تلك النفحات، بل ينبغي أن يحرص على الاستفادة من تلك الهِبات الربَّانية.

٥ يُظهر الحديث حسن أدب الصحابة رضي الله عنهم، فلم يواجهوا النبي ﷺ بالنفي والرفض، بل التمسوا العذر بحسن أدب، فعلى الطالب أن يتأدب بأدبهم تجاه معلمه.

٦ اعتن بسورة الإخلاص، فلم يعظّمها رسول الله ﷺ إلا لكونها عظيمة، فاعتن بحفظها، وتعلمها، وتدبر آياتها، وتعليمها؛ سواء في البيوت، أو المدارس، أو في بحوث أهل العلم، وهذا الشأن فيما عظم الله تعالى.

٧ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ»[١].

---

(١) البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

الحديث ١٢١

فضلُ سورتَي المعوِّذتين

عَنْ عُقبةَ بنِ عامرٍ ﵁ قالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ:

١ «أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ:

٢ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]»[1].

(١) مسلم (٨١٤).

آيـــات

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١ - ٥].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٦].

الراوي

هو: أبو حمَّادٍ، عقبةُ بنُ عامرٍ الجُهَنِيُّ ﵁، صحابيٌّ جليل، كان قارئًا، عالِمًا بالفرائض والفقه، فصيحَ اللسان، شاعرًا وكاتبًا، شَهِد فتوح الشام، وفَتْحَ مِصْرَ مع عمرو بن العاص ﵁، ووَلِي إمرتَها من قِبَل معاويةَ بنِ أبي سفيانَ ﵁، توفِّي سنة ٥٨هـ[1].

خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ أنَّ سورتي الفلق والناس ليس مثلهما شيء سواء في كتب الله تعالى التي أنزلها على الأنبياء، أو فيما يحرص عليه الناس من معوذات.

(١) انظر ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ٢١٥٠)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٤/ ٥١)، «الإصابة» لابن حجر (٥/ ١٨٧).

فقه

١ يخبر النبيُّ ﷺ عقبةَ بن عامرٍ ﵁ بأنه قد أُنزل عليه من الوحي سورتان، لم ينزل مثلهما قط خصوصاً في باب الاستعاذة؛ فإنَّ جميع آيات السورتين تعويذٌ للقارئ، وفيهما من دفع الحسد وكفاية شرِّ الحاسد ما ليس في غيرهما[1].

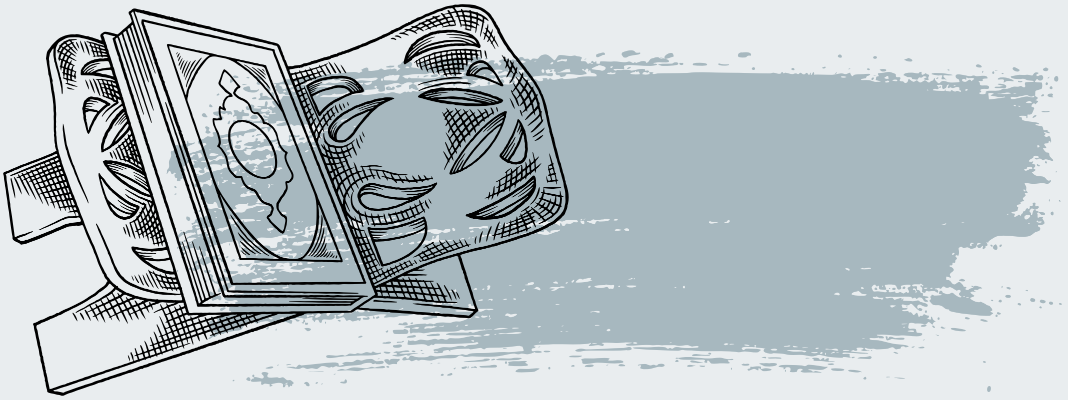

٢ هاتان السورتان هما الفلق والناس، أخبر النبيُّ ﷺ بهما بذكر أولهما لاشتهارهما بذلك، كما يشتهران أيضًا بالمُعَوِّذتين؛ لابتدائهما بـ «قل أعوذ». ومعنى الفلق: كلُّ ما انفلق عن شيء؛ كالصُّبح والحبِّ والنَّوى.

والاستعاذة: الالتجاء إلى الله تعالى والاعتصام به طلبًا لحمايته من شرِّ الشيطان وكيده ووسوسته، ولأجل وقايته من شرِّ كل ذي شرٍّ[2].

وقد ورد في الاستعاذة والرقية بالمُعَوِّذتين أحاديث منها ما رواه أبو سعيد الخدري ﵁ قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوَّذ من الجانِّ، وعَين الإنسان، حتى نزلت المعوِّذتان، فلمَّا نزلتا، أخذ بهما، وترك ما سواهما»[3]. وإنما أخذَ النبيُّ ﷺ بتلك السورتين وترك ما سواهما من الرُّقى والأدعية لأنهما من جوامع باب الاستعاذة، فكان فيهما كفاية[4].

(١) ينظر: «التنوير شرح الجامع الصغير» للصنعانيِّ (٤/ ٢٨٠)، «البحر المحيط الثجاج» للإتيوبيِّ (١٦/ ٤٢٦).
(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١١٤).
(٣) النسائيُّ (٧٨٠٤)، والترمذيُّ (٢٠٥٨).
(٤) «الكاشف عن حقائق السنن» للطِّيبيِّ (٥/ ١٦٥٠).

اتّباع

١ استخدم النبيُّ ﷺ أسلوب من أساليب العرب في التعجب وهو قوله: «ألم تر»، وقد أتى في القرآن ذلك كثيرًا، وهو أسلوب يجذب الأفهام وتتعلق به النفوس، فتعظم الاستجابة والتحصيل للعلم المُلْقَى. ولهذا فإنَّ من اللائق بالعلماء والدعاة والمُرَبِّين أن يُكثروا من استخدام الأساليب البلاغية التي يُصَدَّرُ بها الكلامُ لحصول التركيز وجلب الأفهام والأسماع.

٢ دلَّ الحديث على أنَّ المُعَوِّذتين أفضلُ ما يستعمله المسلم في الاستعاذة والرُّقى، وإن كان ذلك لا يمنع من الاستعاذة بأدعية وأذكار مشروعة، كما لا يمنع من بذل الأسباب الدنيوية التي تحفظ الإنسان من الشرور، لكن هاتين السورتين هما الأعظم، والأقرب لحصول المراد.

٣ في سورة الناسِ وصفُ الشيطان بأنه خنَّاس؛ أي: يتأخر ويهرب إذا ذكر العبدُ ربَّه، فكلما كان العبدُ ملازمًا للأذكار والأدعية كان عن الشيطان أبعد، فينبغي أن نحرص على ذكر اللهِ تعالى في كل وقتٍ، وأن نُبادر بالاستعاذة بالله منه متى حصلت لنا وسوسةٌ أو همَمْنا بذنبٍ.

٤ اعتن بما عظَّمه الله تعالى من السور، بحفظها، وتعلمها، وتدبر آياتها، وتعليمها؛ سواء في البيوت، أو المدارس، أو في بحوث أهل العلم، فهي مقدمة على غيرها.

٥ دلَّ الحديثُ والآيات على أنَّه لا يمكن صرف أذى الحاسدين وإبطال أعمال السحرة المفسدين إلا بالاستعانة به سبحانه، فهو وحده ربُّ الناس وخالقُهم ومالك أمرهم، الذي لا يحدث أمرٌ في ملكه إلا بإذنه.

فضلُ أهلِ القُرآن

عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ،

١ أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ رضي الله عنه بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟

٢ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، فقال: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ فقال: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا.

٣ قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟

٤ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ،

٥ قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»(١).

(١) مسلم (٨١٧).

آيـــات

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]

الراوي

راوي القصة: عامر بن واثلة بن عبدالله الكنانيُّ، ولد عام أحد، وتوفي النبي ﷺ وعمره ثمان سنين، وكان آخر من توفي من الصحابة سنة ١١٠هـ.

راوي الحديث: أبو حفص، الفاروق، عمرُ بنُ الخطَّاب القرشيُّ العَدويُّ رضي الله عنه، ثاني الخلفاء الراشدين، وأحدُ العشرة المبشَّرين بالجنَّة، وأفضل الأمة بعد أبي بكر رضي الله عنه، واشتهر بالعدل والإنصاف مع الشدة والجرأة في الحق، وفي عهده فُتحت أكثر البلاد مثل العراق والشام ومصر وغيرها، استُشهد سنة (٢٣هـ)، ودُفن في حجرة عائشة رضي الله عنها، بجوار النبيِّ ﷺ وأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه(١).

خلاصة

لقي عمر رضي الله عنه والياً له على مكة -وكان تجمع أشراف الناس-، فأخبره أنه تركها واستعمل عليها واحدًا ليس من أشراف الناس، فعتب عليه في ذلك، خشية أن يكون هناك ضرر، فلمَّا أخبره أنه من حَملة كتاب الله تعالى زال إنكاره، وأقرَّ فعلَ عامله، واستشهد له بقول النبيِّ ﷺ أن هذا الكتاب يُعزُّ أناسًا ويُذلُّ آخرين

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة لأبي نعيم» (١/ ٣٨)، «أسد الغابة لابن الأثير» (٤/ ١٣٧)، «الإصابة لابن حجر» (٤/ ٤٨٤).

١ يذكر الصحابيُّ الجليلُ عامر بن واثلة رضي الله عنه أنَّ نافعَ بن عبد الحارث رضي الله عنه كان قد جعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه أميرًا على مكة، فخرج من مكة في إحدى مصالحه، فقابله عمر رضي الله عنه في عُسْفان، **وهي بلدة بينها وبين مكة حوالي ٨٠ كيلو مترًا**، فسأله عمر عمَّن استخلفه على مكة، يلي أمر الناس ويؤمهم في الصلوات ونحو ذلك.

٢ فأخبره نافعٌ أنه استخلف عليهم رجلًا اسمه ابن أبزى(١)، فلم يعرفه عمر رضي الله عنه، فسأله عن حاله، فقال له: إنَّه **كان هو أو أحد آبائه عبدًا لنا فأعتقناه.**

٣ فأنكر عمر رضي الله عنه عليه أن يستخلف على النَّاسِ مولًى، وفيهم من الأحرار والأشراف من أصحاب النبيِّ ﷺ وتابعيهم مَن يصلح لذلك.

وليس معنى ذلك أنَّه لا يجوز تولية الموالي، ولا أنَّ عمر رضي الله عنه يحتقر الموالي والعبيد ويراهم دونَ الأحرار، وإنما مراعاةً لمصالح الناس واجتنابًا للفتن؛ إذ إنَّ الغرض من الولايات ضبطُ أمور الناس وتحقيق مصالحهم، وذلك يحتاج رجلًا عاقلًا حازمًا مُهابًا لا يتجرأ عليه أحد، ويقتضي ذلك أن يكون العاملُ حُرًّا شريفًا نسيبًا وجيهًا، وإلَّا استخفَّ به الناسَ ولم يطيعوه.

٤ فأخبره نافعٌ رضي الله عنه أنَّه إنما استعمله لأنه حافظٌ لكتاب الله تعالى، عالمٌ بالفقه وأحكام المواريث، وأنَّ هذا المولى رفعه اللَّه تعالى على الناسِ بهذه الأمور، وهم يَعرِفون منه ذلك، فيَحترمونه، ويُعظِّمونه، ويُطيعون أمره، فتستقيم أمورهم، وتستقرُّ أحوالهم(٢).

٥ فلما أخبره بذلك رَضيَ عمر رضي الله عنه فِعْلَه، وأقرَّ صُنْعَه، ودَلَّل على صحته بأنَّ النبيَّ ﷺ أخبر أنَّ هذا القرآن يُكرم أناسًا ويرفع منزلتهم في الدنيا والآخرة، ولولاه لكانوا أذلَّاء، كما أنَّه يُهين مَن كفر به وتَرَكَ العمل بِما فيه، ولو كان من أصحاب العزِّ والسؤدد.

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبزى الخُزاعي، مختلف في صحبته، وأكثر المؤرخين على أنه صحابيٌّ لقي النبيَّ ﷺ وصلَّى خلفه وروى عنه. ينظر: «تهذيب الكمال» للمزي (١٦/ ٥٠١)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٣/ ٢٠١).

(٢) «البحر المحيط الثجاج» لمحمد بن عليٍّ الإثيوبيِّ (١٦/ ٤٥٨).

اتّباع

١ على صاحب المسؤولية أن يكون منتبهًا لمسؤوليته، حسّاسًا لكل موقف، فعمر لما رأى عامله سأله: من ترك خلفه؟ ومن هو؟ ولم فعل كذا ولم ترك كذا؟

٢ على الإنسان إذا استخلف مكانه من يقوم بعمله أن يراعي في اختياره شروط المهمة المُوَكَّل بها ومقتضياتها. فإذا أراد الأب أو صاحبُ شركة أو مُقاولٌ أو عاملٌ أن يرسل أحد عُمَّاله لعمل شيءٍ فإنه ينبغي أن يراعي فيه الأمانة وإتقان العمل ونحو ذلك، وإذا أراد أميرٌ أو وزيرٌ أن يستنيب أحدًا أو يُوكِّل عاملًا معه فإنه يشترط فيه حسن السياسة والقدرة على تلبية مصالح الناس.

٣ دلَّ الحديث على أنَّ العارفَ بأحكام كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، مقدّمٌ لولاية أمور المسلمين متى كان صالحًا للولاية، وإن كان فقيرًا من الموالي، على أن يراعى في ذلك مصلحة المسلمين، وتجنب ما يثير الفتن، فقد عزل عمر رضي الله عنه كبار الصحابة عن بعض الولايات للمصلحة العامة؛ كما فعل مع سعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد وغيرهما

٤ ليسأل كل امرئ نفسه: كيف يجدها بكتاب الله تعالى: هل آمنت به وصدَّقته وأدمنت تلاوته فرفعك اللهُ تعالى به، أم ضيَّعته فوضعها الله به؟؛ فهما أمران لا ثالث لهما، قال قتادة رحمه الله: «لم يُجالس هذا القرآنَ أحدٌ إلَّا قام عنه بزيادة أو نقصان»(١).

٥ قيمة الإنسان بقيمة ما يحمله من علم، فعلى طالب العلم أن يصرف همه للعلم النافع فهو شرف له في الدنيا والآخرة.

٥ إذا كان القرآنُ يرفع قدر صاحبه في الدنيا بأن يجعله رأسًا في الناس وإمامًا بهم، فإنَّ الرفعة الكبرى إنما تكون في الآخرة؛ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»(٢).

قال الشاعر:

هكَـذا يـا روحُ كُـوني نَحْلَـةً ... لَمْ تَمِـلْ للنَّـوْمِ أو إغْرائِـهِ
دونَـكِ القـرآنَ رَوْضًـا نـاضِرًا ... فارشُـفِي مـا شئـتِ مِـن أندائِـهِ
قدِّمـي للكَـوْنِ مِـن أزهـارِهِ ... شَـهْدَهُ المَشْـهُودَ باسـتحْلائِهِ
لا تَرومـي غـيرَهُ رَوْضًـا فكَـمْ ... عِفْـتُ طِيبًـا شَـذَّ عـن أشـذائِهِ
فالهُـدَى في هَدْيِـهِ، والفـوزُ في ... نهجِـهِ، والمَجْـدُ في إعْلائِـهِ

(١) «أخلاق حملة القرآن» للآجرِّيِّ (ص: ٧٣).

(٢) أبو داود (١٤٦٤)، والترمذيُّ (٢٩١٤).

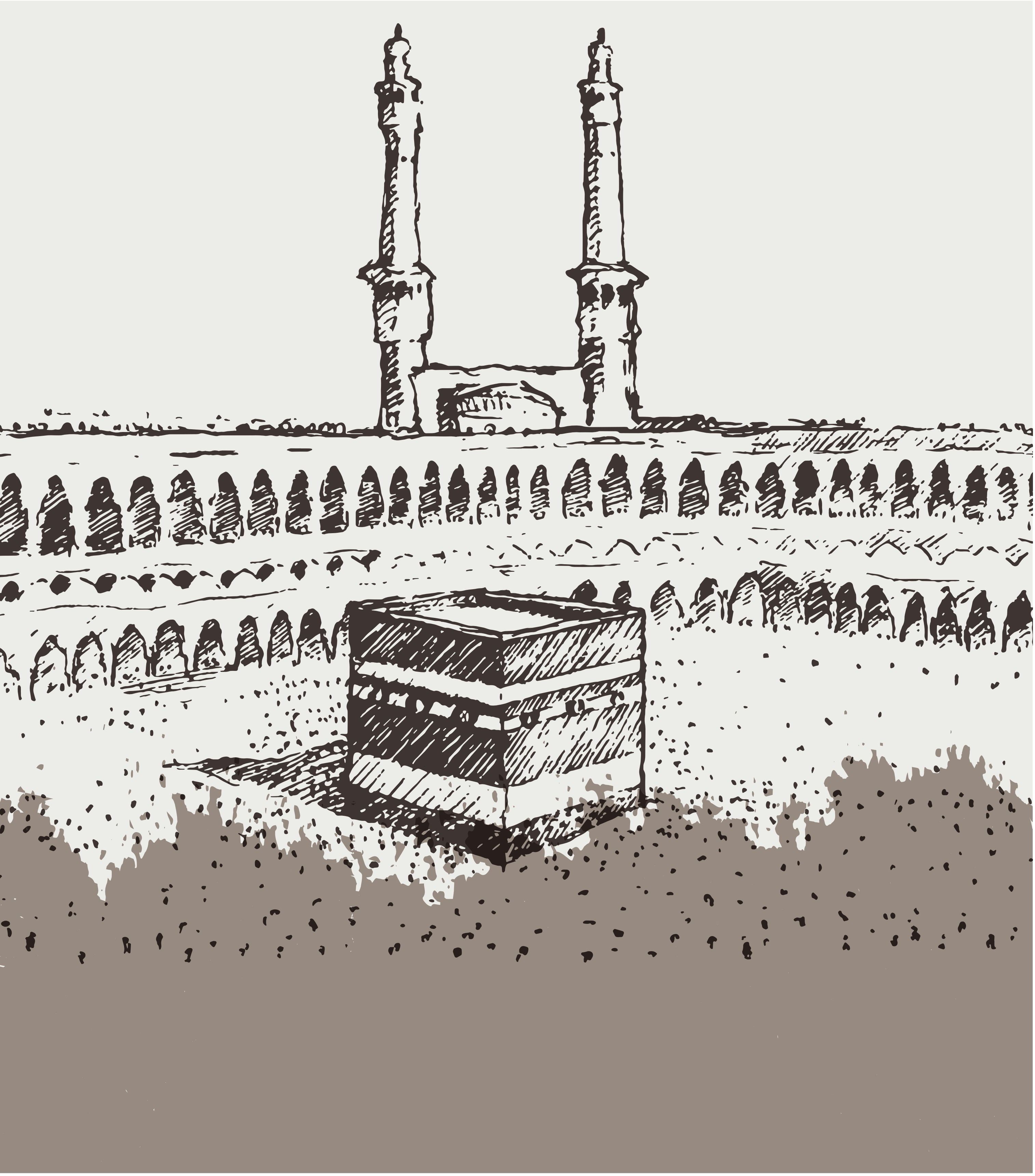

مَنزِلَة الوَلاية

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ:

١ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ،

٢ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ،

٣ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ،

٤ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا،

٥ وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ،

٦ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1].

(١) البخاريُّ (٦٥٠٢).

آيـــات

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

الراوي

هو: عبدُ الرحمن بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ، وشهِدَها مع رسول الله ﷺ، ثم لَزِمه وواظَب عليه؛ رغبةً في العلم، من أحفَظ أصحابِ رسول الله ﷺ، وَلِي البحرين مُدَّةً لعمر بن الخطاب ﷺ ثم ترك ذلك. توفي بالمدينة سنةَ (٥٨هـ)[1].

خلاصة

يخبر ربُّنا سبحانه وتعالى عن دفاعه عن أوليائه وقُربه من عباده الصالحين وتودُّده لهم.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

فقه

١ يخبر ربُّنا جلَّ جلاله أنَّه يدافع عن عبادِه المؤمنين، فمن **خاصَم وآذى** وليًّا من أولياء الله - وهم **عبادُه الصالحون الذين حقَّقوا إيمانهم بالطاعات فتولَّى ربُّهم أمورَهم** - فقد **أنذرَه** اللهُ تعالى بالحرب انتقامًا لأوليائه ودفاعًا عنهم. ومَن يقدر على حربِ اللهِ سبحانه؟!

٢ ثم بيَّن سبحانه أنَّ أفضلَ ما تقرَّب به العبدُ إلى مولاه أداءُ الفرائض التي افترضها عليه؛ فإنَّه جلَّ جلالُه ما افترض عليه الطاعات وحرَّم عليه المعاصي إلا ليُقرِّبه منه.

٣ فإذا حرص العبدُ على الفرائض ثم تقرَّب إلى ربِّه سبحانه **بالعبادات التي لم يفرضها عليه وندبه إليها** - كسُنَنِ الصلاة والصيام والصدقات والمداومة على الأذكار وقراءة القرآن وقضاء حوائج النَّاس ونحو ذلك - أحبَّه اللهُ تعالى.

٤ فإذا أحبَّه سبحانه حَفِظَ عليه حواسَّه؛ فلا يسمع إلَّا ما يُرضي اللهَ تعالى، ولا يمُدُّ بصرَه إلى حرامٍ، ولا أطلق يدَه في ما لم يأذن به الشرع، فلا تأخذ ما ليس لها، ولا **يضربُ** بها إلا في حقٍّ، ولا تمشي رِجلُه إلى معصيةٍ من المعاصي. وهذا كقوله ﷺ: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»(١).

٥ كما أنَّ من عظيم جزاءِ أولياء الله الذين يحبهم ويحبونه، أنَّهم إن دَعَوْهُ أجاب دعاءهم وأعطاهم سؤالهم أيًّا كان، **وإن لجؤوا إليه خائفين من شرٍّ أو أذًى أذهبَ عنهم ما يخافون وأجارهم**. قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ»(٢).

٦ ثم أخبر سبحانه أنَّه يحبُّ ما أحبَّ المؤمنُ، ويكره أن يُصيبَه بشيءٍ يؤذيه، **حتى الموت الذي كتبه اللهُ تعالى على جميع خلقه وأراده لهم يكره أن يصيبَ به عبدَه المؤمن لكراهيته له وخوفه منه، فصار الموتُ مرادًا لله تعالى من وجهٍ مكروهًا من آخر، وهذه حقيقة التَّردُّدِ، فإنه سبحانه يقضي على عبدِه المؤمن بالموت مع حبِّه له وكراهية مساءتِه، بخلاف الكافر؛ حيث يُبغضه اللهُ تعالى ويريد مساءته**(٣).

(١) رواه وأحمد (٢٦٦٩)، والترمذيُّ (٢٥١٦).
(٢) البخاريُّ (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥).
(٣) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٨/ ١٣٠).

وكراهيةُ العبدِ الصالح للموتِ إنَّما هي الجِبِلِّيَّة التي خلقَ اللهُ سبحانه النَّاس عليها؛ فهم يخافون من الموت ولا يحبونه، إلَّا أنَّه إذا حضره أجلُه بشَّره اللهُ تعالى بما له من النعيم في الآخرة، فلا يكون شيءٌ أحبَّ إليه من الموتِ حينئذ، قال ﷺ: «مَنْ أَحبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكِ؛ وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»(١).

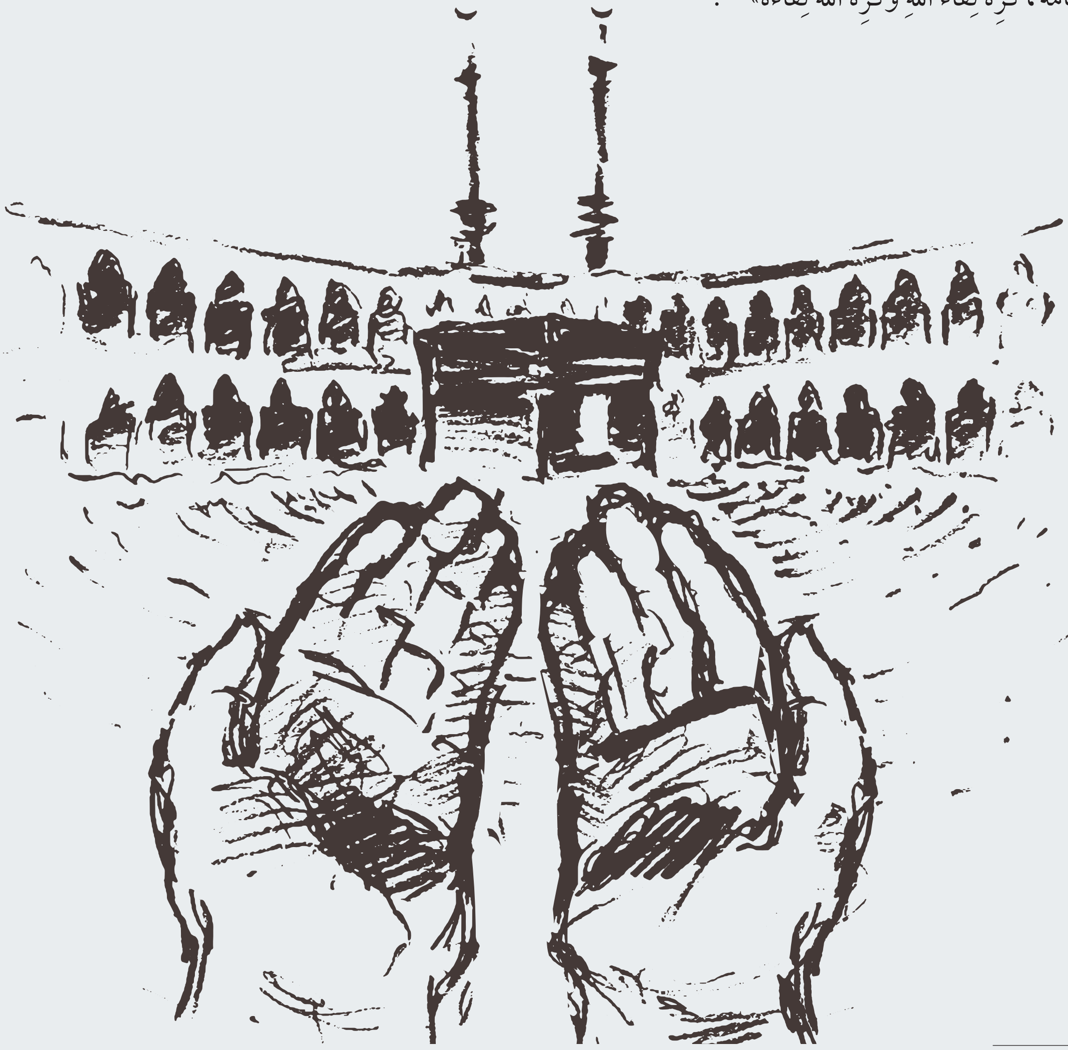

(١) البخاريُّ (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣).

اتّباع

١ (١) مَن سرَّه أن يلجأ إلى ركنٍ حصينٍ لا يضرُّه معه شيءٌ فليعتصم بحبلِ اللهِ ؛ فإنَّ الجبَّارَ هو الذي يتولى الدفاع عن أوليائه.

٢ (١) إذا كان اللهُ تعالى معك، فمن ضدُّك؟ ومَن يقوى على حربِ اللهِ تعالى؟!

٣ (١) الولاية ليست بالادِّعاء، وإنَّما بالإيمان والتقوى وحسن التوكل على الله تعالى، وإلَّا فكم من شقيٍّ ادعى أنَّه وليٌّ من أولياء الله تعالى!

٤ (١) الطريق الوحيد للولاية إنما هو باتباع شرعه الذي أتى به رسوله ﷺ، وإلا فاليهود والنَّصارى زعموا أنَّهم أولياء اللهِ وأحباؤه، وهم مُكَذِّبون برسوله مُعرضون عن شرعه.

٥ (١) إياك ومحاربةَ أولياءِ اللهِ تعالى؛ فإنَّك لا طاقة لك على حربِ اللهِ تعالى.

٦ (٢) إذا أردتَ القربَ من اللهِ تعالى ونَيلَ محبَّته فائتمر بما أمرك، وانتهِ عمَّا نهاك عنه؛ فإنَّ حقيقة المحبة موافقة المحبوب والخضوع لأمره.

٧ (٢) إياك أن تدَّعي المحبةَ وأنت لاهٍ في لهوك منصرفٌ عن طاعة حبيبك؛ فالمُحِبُّ لا يطمئنُّ إلَّا إلى ما يحبُّ حبيبُه ويرضاه.

٨ (٢) قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خُطبته: «أفضلُ العبادة أداء الفرائض، واجتنابُ المحارم؛ وذلك لأنّ اللّه عزّ وجلّ إنّما افترض على عباده هذه الفرائض ليقرِّبَهم منه، ويوجب لهم رضوانه ورحمته»[١].

٩ (٣) تقرَّب إلى الله تعالى بأنواع النوافل والسُّنَن المستحبات؛ فمن أدَّى الفرائضَ واجتنب المعاصي ثم سارع في أداءِ ما يُحبُّه اللهُ تعالى مما لم يكتبه عليه، استوجبَ محبَّةَ اللهِ تعالى له.

١٠ (٣) لا تُفرِّط في أداء النوافل؛ فإن الله تعالى أثنى على أنبيائه وأوليائه بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٣٦).

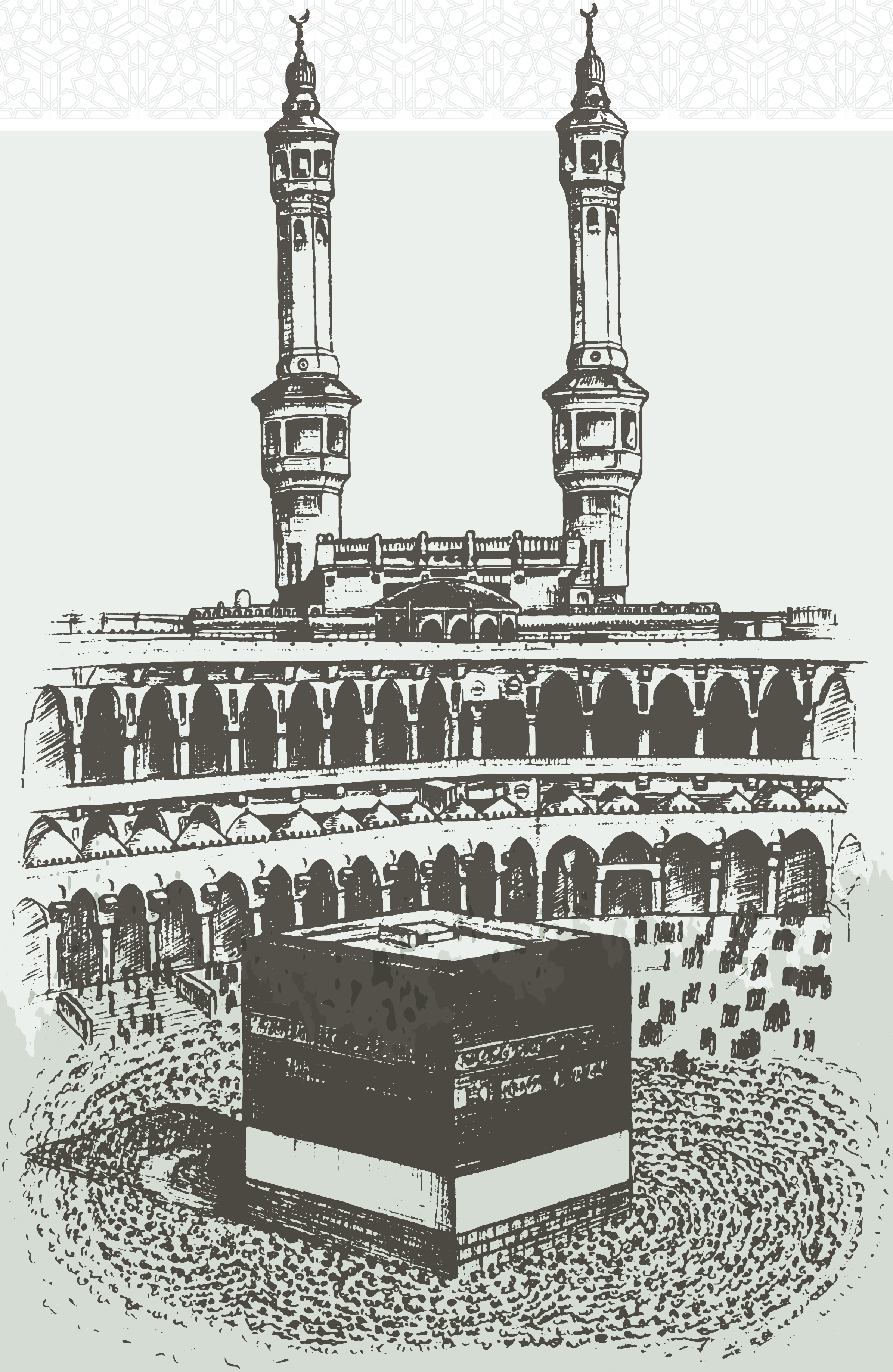

١١ (٣) اختر لنفسك منزلةً بين منزلتين؛ فإما أن تكون من المقتصدين الذين اكتفوا بأداء الفرائض واجتناب النواهي، وإما أن تكون من السَّابقين الأوَّلين الذين بلغوا درجة الولاية والمحبة بالاجتهاد في أداء النوافل، والورع عن المكروهات وما يشغل عن طاعة اللهِ تعالى.

١٢ (٣) إياك أن تظنَّ أنَّ النوافلَ وحدها دون أداء الفرائض تنفعك وتُدنيك من ربِّك؛ بل لا بد من أداء الفرائض، وقد قال أبو بكر ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ: «إن اللهَ تعالى لا يقبل نافلةً حتى تُؤدى الفريضة»[١].

١٣ (٤) محبَّةُ اللهِ تعالى أعظم شيءٍ يمكن أن يناله العبدُ، كان داود عليه السَّلام يقول في دعائه: «اللَّهمَّ إنِّي أسألك حبَّك، وحبَّ من يحبُّك، وحبَّ العمل الَّذي يبلِّغني حبَّك، اللَّهمَّ اجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي ومالي، ومن الماء البارد»[٢].

١٤ (٤) إذا غلبتك نفسُك على ارتكاب بعض المعاصي، فازدد للهِ تعالى قربًا بأداء الفرائض والنَّوافل يحفظْ عليك نفسَك وأعضاءك، فلا تميلُ إلى ذنبٍ ولا تُسَوِّلُ لك معصية.

١٥ (٤) الجزاءُ من جنس العمل؛ فإن حفظتَ حدودَ اللهِ تعالى وائتمرتَ بما أمرك به حفِظَ عليك حواسَّك، وإن ضيَّعتَ شرعَه أهملَك وتركك لنفسك وهواك.

١٦ (٤) من أعظم نتائج محبةِ اللهِ سبحانه للعبدِ أنَّه يأمر جميعَ الخلقِ بحبِّه؛ قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ»[٣].

١٧ (٥) إذا أردتَ أن تكون مُجابَ الدَّعوة، فعليك بأعظم أسبابها، وهي استحقاق محبة الله تعالى بالتقرب إليه بالطاعات.

---

(١) «الزهد» لهناد بن السري (١/ ٢٨٤).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٤٠).

(٣) البخاريُّ (٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧).

١٨ (٥) إن رأيتَ أنَّ دعاءك ما زال مُعلَّقًا لم يُقبل مع إلحاحِك على ربِّك، فادفعه بمزيد التقرُّب إليه، وأعلم أنك لم تصر بعدُ إلى منزلة الأولياء.

١٩ (٥) مَن لجأ إلى الله تعالى وتحصَّن بحصنِ طاعتِه والقربِ منه أجاره من كل سوءٍ وأذهب عنه كلَّ شرٍّ.

٢٠ (٥) قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]؛ فمن كان اللهُ تعالى معه فما الذي يُحزنه ويخيفه؟! ألم تسمع قول النبيِّ ﷺ لصاحبه أبي بكر: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

٢١ (٦) اللهُ عزَّ وجلَّ يكرهُ أن يسوءَ عبدَه المؤمن، فكيف له أن يُرِي ربَّه ما يكره من المعاصي؟!

٢٢ (٦) التردد صفةُ نقصٍ لا يوصف بها اللهُ سبحانه، وإنما مراده أن يكون الشيءُ عنده مُرادًا من وجهٍ مكروهًا من آخر، من غير أن يصحب ذلك تحيُّرًا كما في الإنسان المتردد. فنَزِّه اللهَ تعالى عمَّا لا يليق به من صفات النَّقص.

٢٣ في الحديث إثبات صفتي المحبة والبُغض لله عزَّ وجلَّ، فنُثبتهما له تعالى من غير تكييفٍ أو تأويلٍ أو تعطيل.

قال الشاعر:

تَعصي الإِلَهَ وَأَنتَ تُظهِرُ حُبَّهُ ... هَذا مُحالٌ في القِياسِ بَديعُ
لَو كانَ حُبُّكَ صادِقًا لَأَطَعتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطيعُ
في كُلِّ يَومٍ يَبتَديكَ بِنِعمَةٍ ... مِنهُ وَأَنتَ لِشُكرِ ذاكَ مُضيعُ

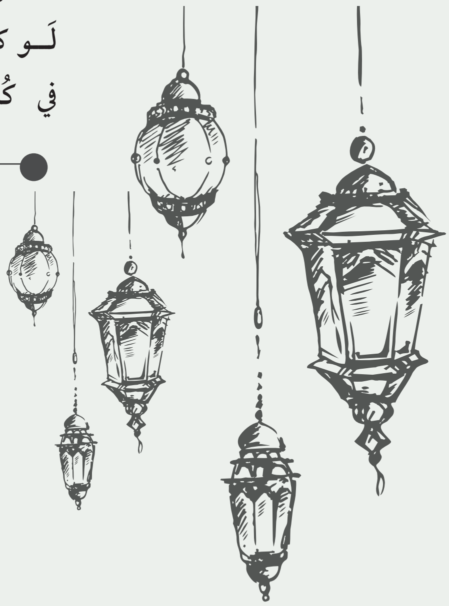

الحديث ١٢٤

من أفضلِ الأعمال

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ:

١ سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلاةُ عَلى وقْتِها»،

٢ قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»،

٣ قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الجِهَادُ في سَبيلِ اللهِ».

٤ قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، ولَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي(١).

(١) البخاريُّ (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

آيــات

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥].

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]

الراوي

هو: عبدُ الله بنُ مسعودِ بن غافل بن حبيب، الهذليُّ، أبو عبد الرحمن، صاحبُ رسولَ الله ﷺ، أسلَم بمكةَ قديمًا، وهاجر الهجرتَين، وشهد بَدْرًا والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، وهو صاحبُ نَعْل رسول الله ﷺ، كان يُلبسُه إيَّاها إذا قام، فإذا جلس أدخلها في ذراعه، تُوفِّيَ بالمدينة سنةَ (٣٢هـ)، أو (٣٣هـ)(١).

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى وأقربها إليه: الصلاةُ على وقتها، ثم برُّ الوالدين، ثم الجهادُ في سبيل اللهِ.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ١٧٦٥)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ٩٨٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ١٩٨).

١ يسألُ ابنُ مسعودٍ ﷺ النبيَّ ﷺ عن أحبِّ الأعمالِ إلى الله تعالى، ليُكثر من فعله، وليقدمَه على سائر الأعمال والقُرَب، فأخبره ﷺ أنَّ أفضلَ ذلك أداءُ الصلاةِ في وقتها.

والصلاةُ عمود الإسلامِ، وهي أساسُ العلاقةِ بين العبدِ وربِّه، وهي الركنُ الثاني من أركان الدين، ولهذا كان أداؤها في وقتها الذي افترضه اللهُ تعالى أحبَّ عملٍ إليه سبحانه.

وقد امتدح اللهُ سبحانه عبادَه المؤمنين بأنهم يحافظون على الصلاة ويؤدونها كما ينبغي، فقال سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١]؛ فوصفهم بالخشوع في الصلاة، وبالمحافظة عليها.

وتوعَّد سبحانَه مَن ضيَّع الصلاةَ وأخَّرها عن وقتها بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، قال المفسرون: إنَّما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركًا كان كفرًا[1].

٢ ثم سأل ابنُ مسعودٍ ﷺ عن أفضل الأعمال بعد أداء الصلاة على وقتها، فدلَّه ﷺ إلى برِّ الوالدين.

وقد أعطى اللهُ سبحانه مزيدَ اهتمام بالوالدين، فقرَنَ الإحسانَ إليهما بعبادته وتوحيده في أكثر من موضع، كقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله سبحانه: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وبرُّ الوالدين يكون بالإحسان إليهما، ومصاحبتهما بالمعروف، والنُّصح لهما، والقيام بخدمتهما، وترك عقوقهما، قال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٤٣).

﴿لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وأخبر ﷺ أنَّ عقوقَ الوالدين من أكبر الكبائر؛ قال ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» ثَلاَثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ - أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ[1].

٣ ثم سأل ابنَ مسعودٍ رضي الله عنه عن أحبِّ الأعمالِ إلى الله تعالى بعد الصلاة على وقتها ثم بر الوالدين، فأرشده ﷺ إلى الجهاد في سبيل اللهِ تعالى.

والجهادُ: محاربةُ الكُفَّارِ لإعلاء كلمة الله تعالى وإظهار شعائر الإسلام بالنفسِ والمال. وهو ذِروةُ سنام الإسلام؛ به تُرفَع رايةُ الدِّين، وتعلو كلمة الحقِّ إلى قيام الساعة، وبه يُعِزُّ الله المؤمنين، ويُذِلُّ أعداءه.

وقد امتدح اللهُ سبحانه المجاهدين في سبيل اللهِ تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وأخبر ﷺ أنَّه لا عملَ يساوي في الأجرِ الجهادَ في سبيل الله تعالى؛ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ؟ قَالَ: «لَا أَجِدُهُ» قَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ المُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟»، قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟[2].

٤ ثُمَّ بيَّن عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّه اكتفى من رسولِ الله ﷺ بهذه الأعمال، ولو ظلَّ يستزيده ويسأله لزاده ﷺ، وإنَّما توقَّف شفقةً منه بالنبيِّ ﷺ.

(١) البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).
(٢) البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨).

اتباع

١ (١) حرص الصحابةُ ﭫ على اغتنام أوقاتهم في الطَّاعات، وسؤال النبيِّ ﷺ عن أقربِ العبادات وأحبِّها إلى اللهِ تعالى وأكثرها أجرًا وثوابًا. وحَرِيٌّ بكل مسلمٍ أن يقتدي بهم.

٢ (١) سأل غيرُ واحدٍ من الصحابة النبيَّ ﷺ عن أحبِّ الأعمال إلى الله، وكان في كلِّ مرةٍ يذكر شيئًا مختلفًا لاختلاف أحوال السائلين، فيُجيب كلَّ واحدٍ بما هو إليه أحوج وبه أليق. فعلى الدُّعاةِ والعُلماء والمُربِّين أن يُراعوا أحوالَ النَّاسِ وطباعَهم في الفتاوى والوعظِ.

٣ (١) حرص النبيُّ ﷺ على الصلاةِ في أوقاتها، حتى إنَّه ﷺ لمَّا حاصره المشركون يوم الخندق قال: «مَلَأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا، شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ»[1]، مع أنَّه ﷺ كان معذورًا في تأخيرها. فكيف بمن يُضيِّع الصلاةَ من غير عذرٍ شرعيٍّ؟!

٤ (١) سأل ابنُ مسعودٍ ﭬ النبيَّ ﷺ عدة أسئلة في مجلس واحد، ولم يتأفف منه النبيُّ ﷺ أو يضق به ذرعًا. فينبغي على الدُّعاة والعُلماء أن يتجمَّلوا بالصبر والحلم أمام النَّاس.

(١) البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧).

٥ (٢) برُّ الوالدين من أعظم القُرُباتِ عند الله تعالى. فمن كان أبواه أو أحدهما حيًّا فليغتنم ذلك، وليتقرب إلى الله تعالى ببرهما.

٦ (٢) برُّ الوالدين مُكفِّرٌ للذنوب؛ فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَبِرَّهَا»(١).

٧ (٣) الجهادُ في سبيلِ اللهِ تعالى أعظمُ الأعمال والقُرَب، لا يعدله شيءٌ من الأعمال، سُئل ﷺ: أيُّ النَّاس أفضل؟ فقال: «مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ»(٢).

٨ (٣) من الجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى بذلُ الجَهدِ والمالِ في نشرِ دينِ اللهِ تعالى وتبليغ الدعوةِ إلى النَّاس، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ.

٩ (٤) ينبغي لكلِّ أحدٍ أن يترفق بالفقهاءِ وأهلِ العلم، فلا يُكثر عليهم من السؤال، ولا يشقُّ عليهم بالاستفسارات. بل يختصرُ ويُراعي أوقات تعبهم وفتورهم ونحو ذلك.

(١) الترمذيُّ (١٩٠٤).

(٢) البخاري (٢٧٨٦)، ومسلم (١٨٨٨).

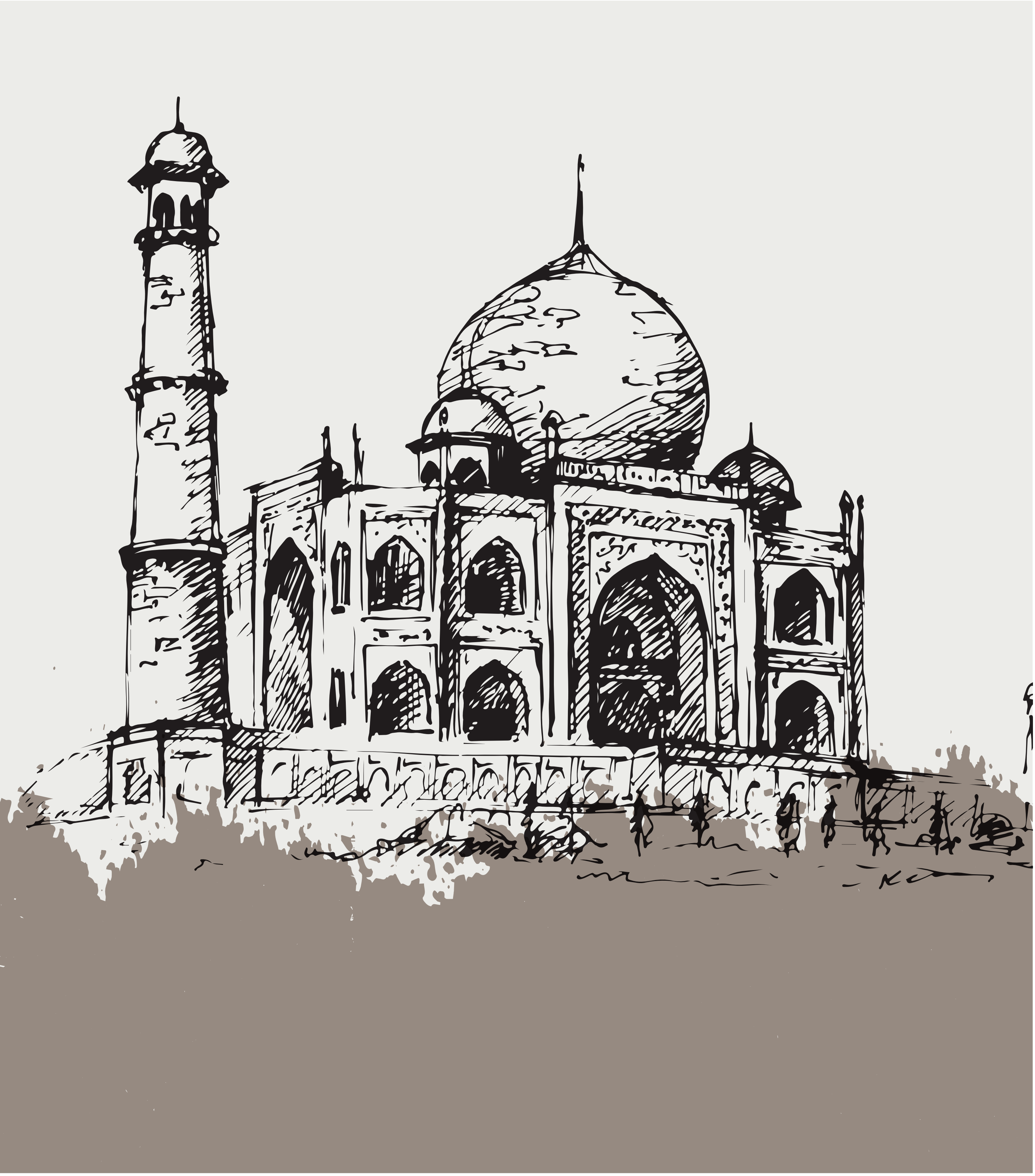

الحديث ١٢٥

من فَضائلِ الأعمالِ، الجزء: ١

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

١ «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ،

٢ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،

٣ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،

٤ وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ،

٥ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ،

٦ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ،

٧ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[(١)].

(١) مسلم (٢٦٩٩).

آيات

- ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].
- ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].
- ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

الراوي

هو: عبدُ الرحمن بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَمانيُّ، مشهور بكُنيته، وهذا أشهرُ ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسول الله ﷺ، أسلَم عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ رغبةً في العلم، وكان يذهب معه أينما ذهب، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وأكثرهم رواية للأحاديث؛ «يروي عنه - كما قال البخاريُّ - أكثر من ثمانمائةٍ، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعمَلَه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ واليًا على البَحرين، ثم بعد ذلك عاد وسكَن المدينة وانشغل برواية الحديث، وتعليم الناس أمور دينهم، وتُوفِّي في المدينة سنةَ (٥٨هـ)[(١)].

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ عن فضل معاونةِ النَّاسِ في أمورِ دنياهم، وأنَّ الله تعالى يعينُ العبدَ بمُعاونته أخيه، ثم ذكَر ﷺ فضلَ طلبِ العلم، وما يَلقاه طالبُ العلم مِن تَنزُّلِ السكينة والرحمة وذِكْرِ الله سبحانه له في الملأ الأعلى. ثم بيَّن أن العبرة بالأعمال لا الأنساب.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يَذكر النبيُّ ﷺ جزاءَ معاونةِ النَّاس في قضاءِ حاجاتهم والتخفيف من أعبائهم، فيَذكر أنَّ مَن خَفَّفَ وفَرَّجَ عن مؤمن شِدَّةً عظيمةً من الشدائد، فَرَّجَ اللهُ عنه شدَّةً من أهوال يوم القيامة الذي أخبَر سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١، ٢].

٢ ومَن يسَّر على مَدِينٍ عاجزٍ عن السَّداد، بإنظارِه إلى مَيسرةٍ، أو بإبرائِه منه أو من بعضِه، أو بإعطائه ما يَزول به إعسارُه؛ كان جَزاؤه أن يُيَسِّر اللهُ تعالى عليه، فلا يمُرُّ بضائقةٍ ولا تَنزلُ به نائبةٌ في الدُّنيا إلَّا يسَّرَها عليه، وفي الآخرة يسَّرَ اللهُ تعالى حسابَه، فيَرحمه ويَغفِر له، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، وقال ﷺ: «كان تاجرٌ يُدَاينُ النّاس، فإذا رأى معسرًا قال لِصِبيانه: تجاوَزُوا عنه؛ لعلَّ الله أن يتجاوز عنَّا، فتجاوَزَ اللهُ عنه»(١).

٣ ومَن سَتر مسلمًا ستره اللهُ تعالى في الدُّنيا؛ فلا يَفضحه ولا يَهتِك عَورتَه أمام النَّاس ولا يُطلِع أحدًا على سوآته ومَعاصيه، وفي الآخرة يَضَع كَنَفَه عليه [أي سِترَه ورحمتَه] فلا يُسمِع أحدًا من الخلائق شيئًا من حسابه، قال ﷺ: «إنَّ اللهَ يُدْني المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»(٢).

وسَترُ المسلم لأخيه المسلم نوعانِ: سَترُ عورتِه الحِسِّية؛ بحيث يُعطِيه ما يَلبَسُه ويَستُر به بدَنَه، وسَترُ عورتِه المعنويةِ، وهي المعاصي، فإذا رأى المسلمُ أخاه على مَعصيةٍ وجَب عليه أن يُنكِر عليه ويَنصَحه لله تعالى، ثم بعد ذلك لا يجوزُ له أن يَفضَحه أو يُشَهِّرَ به، بل يَستُره ويَدعو له بالهداية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النور: ١٩]. وقال ﷺ: «يا مَعْشَرَ مَن آمَن بلسانِه ولم يَدخُلِ الإيمانُ في قلبِه، لا تَغتابُوا المسلمين، ولا تَتَّبِعوا عَوْرَاتِهم؛ فإنه مَن اتَّبَع عَوْرَاتِهم، تتبَّع اللهُ عورتَه، ومَن تتبَّع اللهُ عَورتَه، يَفْضَحْهُ في بيته»(٣).

(١) البخاريُّ (٢٠٧٨)، ومسلم (١٥٦٢).
(٢) البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).
(٣) أحمد (٢٠٠١٤)، وأبو داود (٤٨٨٠).

وأصحابُ المعاصي نوعانِ: مَستورٌ لا يُعرَفُ بمعصيةٍ ولا يُجاهِرُ بذلك، فهذا الذي يجبُ السَّتْرُ عليه، ولذلك أعرضَ النبيُّ ﷺ عن إقامة الحدِّ عن الرَّجل الذي قال: «إنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ»، فلم يَستفسِرْ عنه، بل قال له: «أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ، أَوْ قَالَ: حَدَّكَ»[1].

والآخرُ: مُجاهِرٌ بالمعصيةِ، لا يُبالي بما ارتكَب منها، فهذا لا يُستَر، بل يجب رفعُ أمرِه إلى الإمام ليَنكَفَّ شرُّه، ويَرتدِع أمثاله[2].

٤ ثم أخبرَ ﷺ أنَّ اللهَ تعالى يُعِين المسلمَ ما دام يسعى في عَونِ أخيه، قال ﷺ: «ومَن كان في حاجةِ أخيهِ كان اللهُ في حاجتِه»[3]، وقال أيضًا: «أَحَبُّ الناسِ إلى اللهِ أنفعُهم للناسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سُرورٌ تُدخِلُه على مُسلم، تكشِفُ عنه كُرْبةً، أو تَقضِي عنه دَيْنًا، أو تَطرُدُ عنه جُوعًا، ولأَنْ أَمْشِيَ مع أخٍ في حاجةٍ أَحَبُّ إليَّ مِن أن أعتَكِفَ في هذا المسجدِ - يعني مسجدَ المدينةِ - شَهرًا... ومَن مَشى مع أَخيهِ في حاجةٍ حتى يَقضِيَها له ثبَّتَ اللهُ قَدَمَيه يومَ تَزولُ الأقدامُ»[4].

٥ ثم انتقَل ﷺ لبيان فضلِ طالِب العلم، فأخبَر أنَّ العبدَ إذا سَلَك طريقًا يَطلُب فيه علمًا، سهَّل اللهُ سبحانه له بذلك طريقًا إلى الجَنَّة؛ فإنَّ العلمَ يُورِث في قلبِ العبدِ عظَمةَ اللهِ تعالى وقُدرتَه، ويُبَصِّرُه بأحكامِ الشرعِ مِن الحلال والحرام، فيَعمَل بذلك راجيًا مَغفرةَ اللهِ تعالى ورِضوانه.

وقد أتى ﷺ بلفظِ الطريقِ نَكرةً ليَشمَل جميعَ الطُّرُق الحِسِّية بالانتقالِ من المنزلِ إلى المسجدِ أو المدرسةِ أو الجامعةِ أو المركَزِ أو نحو ذلك، كما يَشملُ الرحلةَ في طلبِ العلم للأخذِ عن العلماء، كما يَشمَل الطُّرُقَ المعنوية الحاصلةَ بالأخذِ من بُطون الكتب، ومُطالَعة مواقعِ العلماء وصَفحاتهم، ومُدارَسة العلم ومُذاكَرته من مَصادرِه المختلفة، فكلُّ تلك السُّبُلِ من سلوكِ طريقِ العلم[5].

كما أتى كذلك بلفظ العلمِ نَكرةً ليَشمَل فروعَ العلمِ كافَّة، دون أن يكونَ ذلك مقصورًا على طلبِ العلمِ الشرعيِّ،

---

(١) البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٢٩١ - ٢٩٣).

(٣) البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦٠٢٦).

(٥) انظر: «شرح رياض الصالحين» ابن عثيمين (٥/ ٤٣٣ - ٤٣٤).

وإنْ كان أرفعَها مقامًا وأعلاها أجْرًا، وليَندرجِ فيه القليلُ والكثيرُ منه، فمَن سلَك طريقًا يَلتمِس فيه حكمَ مسألةٍ واحدةٍ كان له الأجرُ المذكورُ[1].

٦ ثم أخبرَ ﷺ عن فضل الاجتماع في المساجدِ لتِلاوة القرآن ومُذاكَرته؛ فإنَّ الطُّمأنينة تتنزَّل على الجالسِين، وتَشملهم الرَّحمةُ، وتُحيط الملائكةُ بهم من كلِّ مكانٍ حفظًا لمجلسِهم من الشياطينِ، ويَذكُرهم الرحمنُ في الملأِ الأعلى مع الملائكةِ، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

٧ ثم بيَّن ﷺ أن العِبرةَ بالأعمال، فلا عِبرةَ بالأنسابِ يومَ القيامةِ، فمَن قَصُرَ به عملُه عن النجاةِ من النَّار ودخولِ الجنة، لم يَنفَعْه نسبُه وإنْ كان ابنَ نبيٍّ من الأنبياءِ، وإلا لأغنى ذلك أبا الخليلِ إبراهيمَ ﷺ، وابنَ شيخِ المرسَلين نوحٍ ﷺ وامرأتَه، وامرأةَ لُوطٍ ﷺ، وأبوَي النبيِّ ﷺ وعمَّه أبا طالب، وغيرهم؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٤].

---

(١) انظر: «فتح الباري» ابن حجر (١/ ١٦٠)

اتباعي

١ (١) الجزاءُ من جِنس العمل، فمَن نفَّس كُربةً عن أخيه نفَّس اللهُ عنه، ومَن رَحِم الخَلْقَ رَحِمه الله، ومَن شدَّد على النَّاس شدَّد اللهُ عليه، ومن سَترَ سُتِر. فاختَرْ لنفسك.

٢ (١) ما أكثرَ الكُرُباتِ يومَ القيامة! الصراطُ والحسابُ وتطايرُ الصُّحُفِ والورودُ على النَّارِ وغير ذلك، فما أحوَجَنا إلى تفريجِ الكُرَب عن النَّاس؛ لعلَّ اللهَ أن يُنَفِّس عنَّا تلك الشَّدائد العِظام!

٣ (٢) التيسير على المَدينِين من أفضلِ أنواع القُرَب التي تُنجي يومَ القيامة؛ قال ﷺ: «مَن سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللهُ مِن كُرَبِ يومِ القِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ»[١].

٤ (٢) قضاءُ الدَّين عن المُعسِرين وإبراؤهم منه سببٌ في مَغفرة الذنوب؛ قال ﷺ: «حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ، وَكَانَ مُوسِرًا، فَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ، قَالَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ»[٢].

٥ (٣) احفَظْ لسانَك وعينَك عن عيوب النَّاس وعَوراتهم، يَحفظ اللهُ تعالى عَوراتك، فلا يَنتهِكها أحدٌ.

٦ (٣) قال بعض السَّلَف: أدركتُ قومًا لم يكُن لهم عُيوب، فذكَروا عيوب النَّاس، فذكَر النَّاس لهم عيوبًا، وأدركتُ أقوامًا كانت لهم عيوبٌ، فكفُّوا عن عيوبِ النَّاس، فنُسِيت عيوبُهم.

٧ (٣) يجب السَّترُ على المسلمين الذين لا يُعرَف عنهم المعصية، وذلك بعد نُصحِهم والإنكار عليهم بالمعروف. قال بعضُ الوزراء الصَّالحين لبعضِ مَن يَأمُر بالمعروف: اجتهِدْ أن تَستُر العصاةَ؛ فإن ظهور معاصِيهم عَيبٌ في أهل الإسلام، وأَولى الأمور سَترُ العُيوب[٣].

٨ (٣) إذا تمادى مسلمٌ في المعاصي حتى صار لا يُبالي بذلك، لم يَجُز التستُّر عليه، بل وجَب رفعُ أمرِه إلى الإمام لإقامة الحدِّ عليه، فيُخلِّص النَّاسَ من شرِّه ويَرتدِع أمثاله.

---

(١) مسلم (١٥٦٣).

(٢) مسلم (١٥٦١).

(٣) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٢٩١ - ٢٩٣).

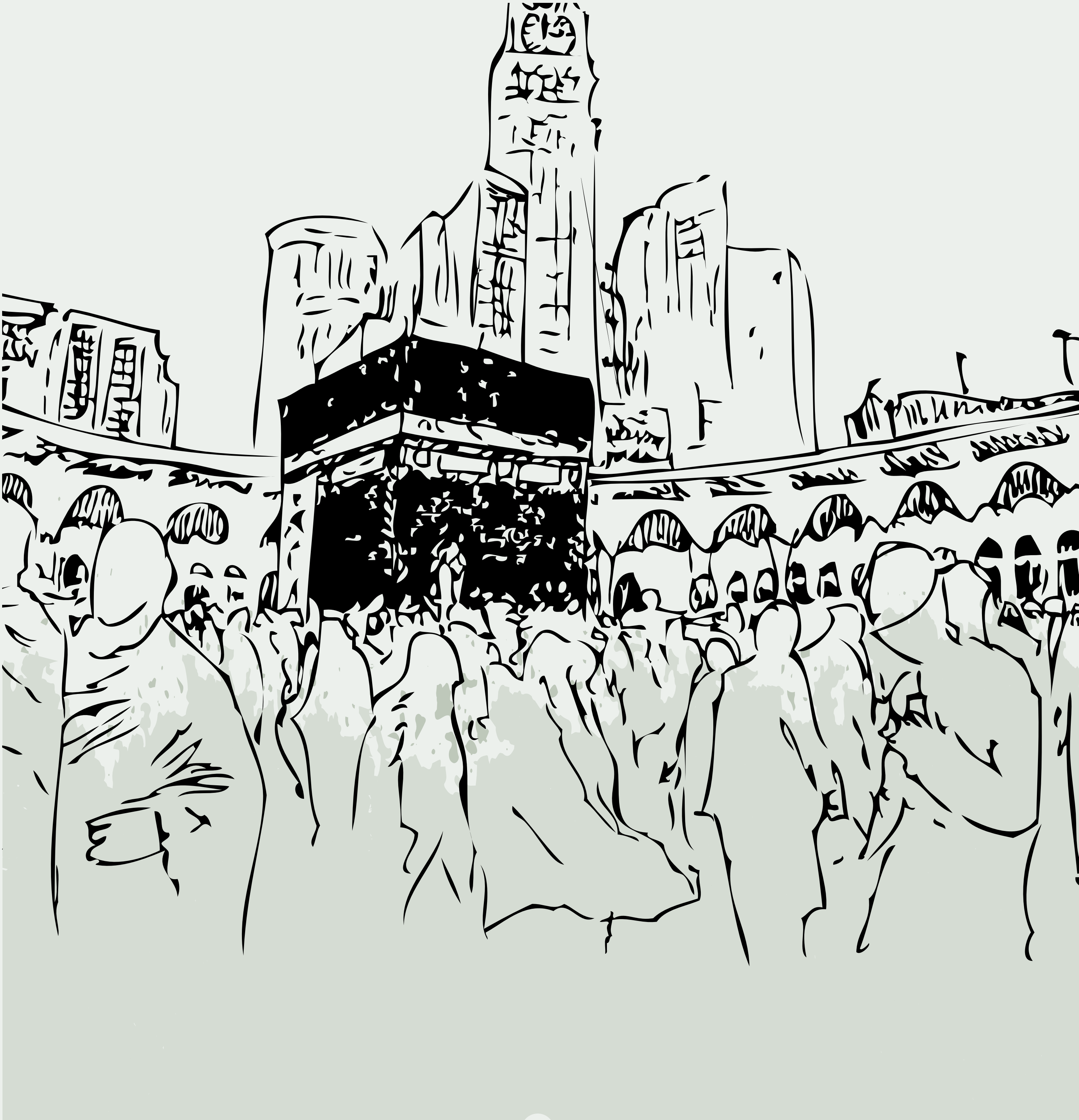

اتّباع

٩ (٣) إذا احتاج النَّاسُ إلى فضحِ بعض العصاة ممن لم يَجهَرْ بالمعصية جاز ذلك، كأن يكون صاحبُ تلك المعصية شاهدًا في قضيَّة أو أمينًا على وَقفٍ أو نحو ذلك.

١٠ **(٣) قال الشاعر:**

إذا شِئْتَ أنْ تَحيا ودِينُكَ سالمٌ ... وَحَظُّكَ مَوْفُورٌ وعِرْضُكَ صَيِّنُ
لِسَانُكَ لا تَذْكُرْ بهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ ... فعِنْدَكَ عَوْرَاتٌ وللنَّاسِ أَلْسُنُ
وَعَيْنُكَ إنْ أَبْدَتْ إليكَ مَعَايِبًا ... لِقَوْمٍ فَقُلْ: يا عَيْنُ للنَّاسِ أَعْيُنُ
وصَاحِبْ بمَعْرُوفٍ وجانِبْ مَنِ اعتدَى ... وفَارِقْ وَلَكِنْ بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ

١١ (٤) كان النبيُّ ﷺ يُحِبُّ قضاءَ حوائجِ النَّاس، وكان يقول: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَل»[١]، وكانت الجاريةُ الصغيرةُ تأخذُ بيَدِه فتنطلقُ به حيث شاءت[٢]. وكان أصحابُه رضي الله عنهم يسيرون على نهْجِه، فأبو بكرٍ رضي الله عنه أنفق ماله في سبيلِ الله سبحانه، وكان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يتعهَّد الأرامل ليلًا، واشترى عُثمان بن عفَّان رضي الله عنه بِئر رُومة وجعَلها وقفًا على المسلمين. فمَن أراد الاقتداء فبالنبيِّ ﷺ وأصحابِه.

١٢ (٤) بعَث الحسن البصريُّ رحمه الله قومًا من أصحابه في قضاءِ حاجةٍ لرجُلٍ، وقال لهم: مُرُّوا بثابت البُنانيِّ، فخُذوه معكم، فأَتَوا ثابتًا، فقال: أنا معتكِفٌ، فرجعوا إلى الحسن فأخبروه، فقال: قُولوا له: يا أعمشُ، أما تَعلَم أنَّ مَشْيَكَ في حاجة أخيك المسلمِ خيرٌ لك مِن حَجَّة بعد حَجَّة؟! فرجَعوا إلى ثابت، فترَك اعتكافه، وذهَب معهم.

١٣ (٥) تعهَّد النبيُّ ﷺ بتسهيل دخول الجنة لطالبِ العلم. فمَن أراد دخولَ الجنَّة فلْيَسلُك سبيل العلماء.

١٤ (٦) جعَل اللهُ سبحانه للمجتمِعين في بيته لذِكره مِن الجزاء أن تَتنزَّل السكينةُ عليهم، وتحُفُّهم الملائكة، وتَغْشاهم الرحمة، ويَذكُرهم اللهُ تعالى عنده. أيُّ ثوابٍ أعظمُ من هذا!

---

(١) مسلم (٢١٩٩).

(٢) البخاري (٦٠٧٢).

١٥ (٦) تخيَّل أن يَذكُرك ربُّك باسمك وصِفتك، ويباهي بك ملائكته، فيقول: عبدي فلانٌ يَذكرني. فضلٌ عظيمٌ وَمنزلةٌ عاليةٌ مقابل عملٍ يَسيرٍ يَقدِر عليه كلُّ مسلم.

١٦

قال الشاعر:

إذا ما لَم يُفِدكَ العِلمُ خَيرًا ... فَخَيرٌ مِنهُ أن لَو قَد جَهِلتَا
وَإِن أَلقاكَ فَهمُكَ في مَهاوٍ ... فَلَيتَكَ ثُمَّ لَيتَكَ ما فَهِمتَا
سَتَجني مِن ثِمارِ العَجزِ جَهلًا ... وَتَصغُرُ في العُيونِ إِذا كَبُرتَا

١٧ (٧) إياك أن تظنَّ أنَّ شرفَ نسبِك يَنفعك في الآخرة، فإما أن تُحسِن العملَ فتنجو، أو تُسيء فتَهلِك.
لمَّا أنزَل اللهُ تعالى قولَه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قام النبيُّ ﷺ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»[1].

١٨

(٧) قال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا بِدِينِهِ ... فَلَا تَتْرُكِ التَّقْوَى اتِّكَالًا عَلَى النَّسَبْ
لَقَدْ رَفَعَ الْإِسْلَامُ سَلْمَانَ فَارِسٍ ... وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ الشَّقِيَّ أَبَا لَهَبْ

(١) البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤).

من فضائلِ الأعمالِ، الجزء: ٢

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

١ «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ،

٢ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ،

٣ وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ،

٤ وَالصَّلَاةُ نُورٌ،

٥ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ،

٦ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ،

٧ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ،

٨ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»[١].

(١) مسلم (٢٢٣).

آيات

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

الراوي

هو: الحارثُ بنُ الحارثِ، وقيل غير ذلك، أبو مالكٍ، الأشعريُّ، الشاميُّ، أسلم وصَحِب النبيَّ ﷺ، وغزا معه، وقال فيه النبيُّ ﷺ: «اللهم صل على عُبَيدٍ أبي مالكٍ الأشعريِّ، واجعلْه فوق كثير من الناس»[١]، توفِّي بالطاعون سنةَ (١٨هـ)[٢].

خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ بعضَ أبواب الخير التي تُثقل ميزان العبد يوم القيامة، وأنَّ مصائر النَّاس بأيديهم فمنهم من يُنجي نفسه ومنهم من يهلكها.

(١) أحمد (٢٢٩٠٧).

(٢) تُراجع ترجمته في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٢٨٤)، «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦٧/ ١٨٧)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٥/ ٢٧٢).

١ يذكر النبيُّ ﷺ أنَّ الطُّهور الذي هو **التَّنظُّف** عمومًا ومنه الوضوءُ للصلاة وأداء العبادات يساوي **نصفَ** الإيمان؛ فإذا كان المؤمنُ مأمورًا بنظافة الظاهر والباطن، فنظافة الظاهر نصفُ ذلك، ويمكن أن يُراد بالإيمانِ الصَّلاة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: صلاتكم، ويكون الطُّهورُ شطرَها لأنَّه شرطٌ فيها لا تصحُّ إلا به.

والطهارة من أعظم العبادات وأجلِّ القُربات التي يتقرَّبُ بها العبدُ إلى ربه؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ويُستدلُّ بهذا على أنَّ الأعمالَ داخلةٌ في الإيمانِ، وأنَّه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

٢ وأخبر ﷺ أنَّ قولَ العبدِ: «الحمدُ لله» تملأ ميزانَ العبدِ يومَ القيامة لعظيم ثوابها، والحمدُ: **الثَّناءُ على اللهِ تعالى**.

والميزانُ **شيءٌ أعدَّه اللهُ تعالى تُوزن عليه أعمالُ العبادِ يوم القيامة**، وله كفتان، تُوضع حسنات العبدِ في كفَّة وسيئاته في كفَّة؛ فإن رجحت كفَّة الحسنات كان من الفائزين، وإلا خاب وخسر، قال سبحانه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

٣ وقولُ العبدِ: «سبحان الله والحمد لله» - والتسبيح: **تنزيه الله تعالى عن كل نقص وعيب** - له من الثوابِ العظيم لدرجة أنَّ ذلك الثواب لو كان جسمًا لملأ ما بين السماء والأرض. فإذا كان «الحمد لله» يملأ ثوابُها الميزانَ، فإنَّ العبدَ إن أتبعها بـ«سبحان الله» طغى ثوابُهما حتى يملأ ما بين السماء والأرض، وذلك أنَّه أثنى على ربِّه بما هو أهلُه ونزَّهَه عن كل عيبٍ ونقص[1].

٤ ثم أخبر ﷺ أنَّ الصلاةَ نورٌ، يهدي العبدَ إلى الحقِّ، فيمتلئ قلبُ المحافظِ على الصلاة بأنوار الحكمة والهداية والمعرفة، فلا تجتمع الصلاةُ والفواحشُ أبدًا، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

٥ والصدقة **دليلٌ** على صدقِ إيمانِ العبد؛ فإنَّ الإنسانَ مفطورٌ على حُبِّ المالِ، فإذا جادت نفسُه بإخراجه، كان ذلك آية على إيمانِه وتصديقه.

---

(١) ينظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» لأبي العباس القرطبيِّ (٣/ ١٠٢).

وهي أيضًا دليلٌ وحُجَّةٌ له أمام ربِّه يومَ القيامة حين يُسأل عن مالِه فيم أنفقه؟[1].

٦ والصَّبرُ - بجميع أنواعه: على طاعةِ اللهِ تعالى، وعن معصيتِه سبحانه، وعلى أقداره - ضياءٌ يتبصَّرُ به العبدُ سبيلَ الرَّشاد.

٧ والقرآنُ إما أن يكون حُجَّةً لك تنفعك يوم القيامة أمام اللهِ تعالى؛ حيث قرأتَه وآمنتَ به وانتفعت بما فيه، وإما عليك حين أعرضتَ عنه وتركتَ العمل به.

٨ ثم ختم النبيُّ ﷺ كلامَه بأنَّ جميع النَّاس ساعُون على قضاء مصالحهم - وذكر الغُدُوَّ وهو **السيرُ أوَّل النَّهار** حيث يُبادر النَّاسُ إلى أرزاقهم - فإما أن يكون سعيُ المرء موافقًا للشَّرعِ، فهذا **باع نفسَه للهِ تعالى**، وهو الذي **يُحَرِّرها** وينجيها من عذاب الله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، وإمّا أن يكون سعى في هواه مخالفًا لأمرِ اللهِ سبحانه، **فهذا بائعٌ نفسَه للشيطان**، **فأهلكها** وأوجب لها العذاب.

(١) ينظر: «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» لابن علان (١/ ١٥٠).

اتباعي

١ (١) احرص على طهارة ظاهرك وثيابك وبدنك كما تحرص على طهارة باطنك من النِّفاق والمعاصي؛ فإنَّهما شطرا الإيمان.

٢ (١) الطَّهارة من أهم أبواب محبة الله تعالى للعبد، فاغتنم ذلك السبيل إلى مرضاته.

٣ (٢) «الحمدُ لله» كلمةٌ خفيفةٌ على اللسان، لا يجدُ المسلمُ جهدًا في تكرارها، ولها ثوابٌ عظيمٌ لا يحصر كُنهَه إلا اللهُ تعالى. فلا تُفَرِّط في المداومة على هذا الذكر.

٤ (٢) جعل اللهُ سبحانه الثوابَ العظيمَ على العمل اليسير؛ تسهيلًا على عباده وتَوَدُّدًا إليهم. فهو سبحانه ربٌّ رحيمٌ رؤوفٌ لطيف.

٥ (٢) الميزانُ حقٌّ، جاء ذكره في القرآن والسُّنَّة، ولا يَسَعُ المؤمنَ إلا الإيمانُ به.

٦ (٣) اجعل لسانك رطبًا بقول: «سبحان الله والحمد لله»؛ فإنَّ ثوابهما عظيمٌ.

٧ (٤) داوم على الصلاة؛ فإنها نورٌ للمؤمنِ في قلبه، يهديه إلى الحقِّ ويكشف له الضَّلالَ.

٨ (٤) حافظ على الصلاة في وقتها؛ فإنها نورٌ يضيء قبرَ العبدِ فيأنسُ بذلك يومَ الوحشة.

٩ (٤) لا تترك الصلاةَ فإنَّ بها يعرفك النبيُّ ﷺ يوم الحساب؛ حيث يبدو النورُ من جسدك، فيناديك إلى حوضِه ويشفعُ لك، قال ﷺ: «إن أمتي يُدْعَوْن يومَ القيامة غُرًّا محجَّلين من آثار الوضوء»[١].

١٠ (٤) أكثرُ النَّاسِ نورًا أكثرُهم محافظةً على الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها وسُنَنها.

١١ (٥) انظر في نفسك؛ فإن رأيتَكَ طيبَ النَّفسِ بالإنفاق في سبيل اللهِ تعالى فاطمئن، واعلم أنَّ ذاك دليلٌ على إيمانك، وإلا فجاهِد هواك وشيطانَك.

١٢ (٥) اعلم أنك مسؤولٌ يوم الحساب عن مالِك من أين اكتسبتَه وفيم أنفقتَه؟ فإن كنت تنفق ما آتاك اللهُ في مرضاته كان ذلك حُجَّةً لك عند السؤال.

---

(١) البخاريُّ (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

١٣ (٦) للصبرِ مشقةٌ وعناءٌ، إلَّا أنَّه يتولد عنه ضياءٌ يهدي الحائر ويُؤنس المستوحِش ويُريح المكلوم.

١٤ (٦) قال الشاعر:

والصَّبرُ مثلُ اسمِهِ مرٌّ مذاقتُهُ ... لكنْ عواقبُه أحلى من العَسَلِ

١٥ (٧) اجعل القرآن حُجَّةً لك، فبادِر إلى قراءته وتدبُّرِ معانيه والعمل بأحكامه؛ فإنَّه يشفع للعبدِ يومَ القيامة، يقول: «مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ»[1].

١٦ (٧) ما أحدٌ أحقَّ بالخزي والعذاب ممَّن آتاه اللهُ القرآنَ وفقَّهَهُ فيه، ثم نكص على عقبيه وأعرض عن العمل بما فيه.

١٧ (٨) أيُّ الفريقين تريد: المعتق نفسه باتباع الشرع، أم الذي يهلكها باتباع الهوى؟!

١٨ (٨) يا بائعًا نفسك لا محالة، تخيَّر أحسن الأثمان؛ فإما أن تبيعها للهلاك والعذاب، وإما أن تبيعها للجنة ورضوان الله تعالى.

قال الشاعر:

اقْـرَأْ كِتَـابَ اللهِ وَافْهَـمْ حُكْمَـهُ ... تُـدْرِكْ عَطَـاءَ اللهِ فِي إِحْسَـانِ
فَهُـوَ الخِطَـابُ لِـكُلِّ عَقْـلٍ نَابِـهٍ ... وَهُـوَ الضِّيَـاءُ بِنُـورِهِ الرَّبَّـانِي
يَهْـدِي إِلَى الخَـيْرِ العَمِيـمِ وَإِنَّـهُ ... أَمْـنُ القُلُـوبِ وَرَاحَـةُ الأَبْـدَانِ
قَـدْ أَنْـزَلَ القُـرْآنَ رَبٌّ حَافِـظٌ ... لِيُعَلِّـمَ الإِنْسَـانَ خَـيْرَ بَيَـانِ

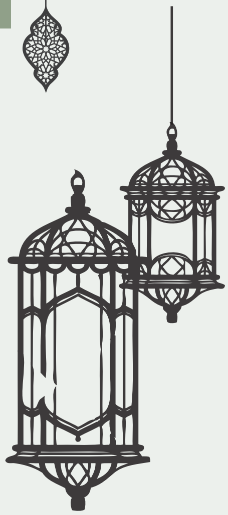

(١) أحمد (٦٦٢٦).

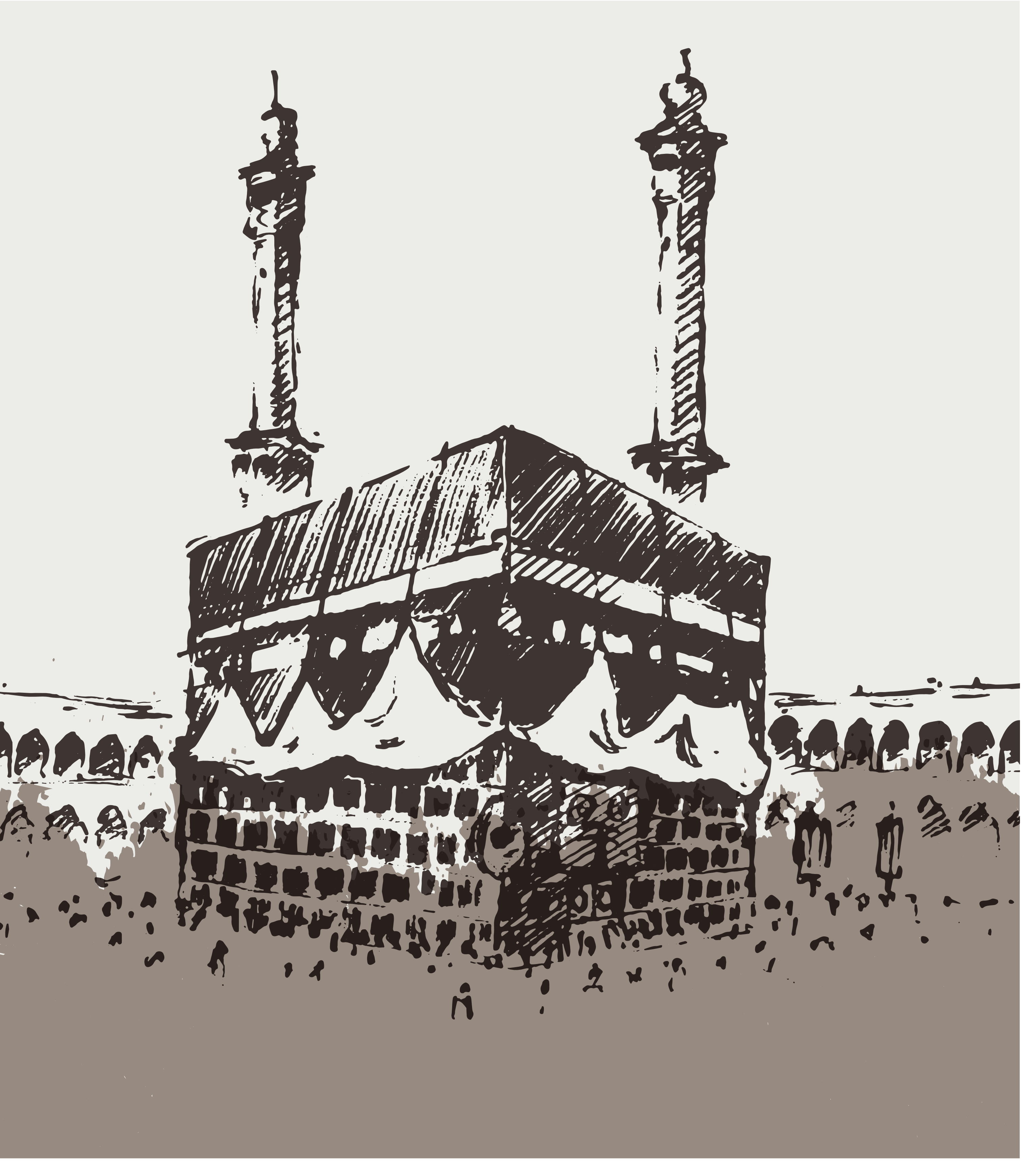

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

١ (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ:

٢ الْإِمَامُ الْعَادِلُ،

٣ وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ عز وجل،

٤ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ،

٥ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ؛ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ،

٦ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ،

٧ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ،

٨ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ)(١).

(١) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

آيـــات

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦- ٣٧].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

الراوي

هو: عبدُ الرحمن بنُ صخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَمانيُّ، هذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَم عامَ خَيبَرَ، وشهِدَها مع رسول الله ﷺ، ثم لَزِمه وواظَب عليه؛ رغبةً في العلم، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، تولَّى إمرةَ البحرين زمانَ عمر رضي الله عنه، ثم اعتزل الإمارة، وعاش في المدينة إلى أن مات فيها سنةَ (٥٨هـ)(١).

خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ فئات من المسلمين يُظلهم اللهُ في ظِلّه يوم القيامة، فيأمنون من حرِّ الشمس ومن فيح جهنم، وهم: الإمام العادل، والشاب العابد، والمعلق بالمساجد، والمتحابون في الله، والتارك للشهوات خوفًا من الله، والمُخفي صدقته، والباكي في خلوته من خشية الله.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلاني (٤/ ٢٦٧).

فقـــه

١ يُخبر النبيُّ ﷺ عن سبعة أصنافٍ من المؤمنين، استحقُّوا أن يُظلَّهم اللهُ تعالى في ظلِّه يوم القيامة، حين لا يكون ظلٌّ أو شيءٌ يدفع عن العبدِ حرَّ الشمس التي تدنو من رؤوس الخلائق.

وليس المراد أنَّهم يكونون في ظلِّ الرحمن حقيقةً؛ إذ يقتضي ذلك أن تكون الشمسُ فوقَ ربِّ العالمين، وذلك باطلٌ، وإنما المرادُ أنَّ اللهَ تعالى يخلق لهم شيئًا يستظلُّون به، أو أن المراد أنهم في رحمته وأمنه وكَنَفِه سبحانه، وإضافةُ الظِّل حينئذٍ إليه سبحانه أو إلى عرشِه إضافةُ تشريفٍ وتكريمٍ وتقريب[١].

وليس المقصود حصرَ المستظلِّين في هؤلاء؛ إذ قد وردت أحاديث كثيرة تفيد دخول غير السبعة في ظلِّ الرحمن، كقوله ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ»[٢]. فالمرادُ هنا ذكرُ بعضِهم لا حصرُهم.

٢ فأوَّلُ هؤلاء: الإمامُ العادل، وهو الذي يُقسط في أمور الرعية الذين يليهم، ويدخل في ذلك ولي الأمر ونُوَّابُه في الولايات والإمارات صغيرها وكبيرها، بل ويشمل ذلك أيضًا القاضي الذي يقضي بين الخصوم بالعدل، وربُّ الأسرةِ الذي يحسن رعاية أهلِه ويُعدل بينهم.

وبدأ بالإمام لأنه أحقُّ أن يُبدَأ به؛ إذ هو أقربُ النَّاس إلى اللهِ يوم القيامة، قال ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»[٣] وذلك جزاءٌ لمخالفته الهوى، وصبره عن تنفيذ مَا تدعوه إليه شهواته وطمعه وغضبه، مع قدرته على بلوغ غرضه من ذلك؛ فإن الإمام العادل دعته الدنيا كلها إلى نفسها، فقال: إني أخاف الله رب العالمين. وهذا أنفع الخلق لعباد الله، فإنه إذا صلح صلحت الرعية كلها[٤].

٣ ثم شابٌّ نشأ في طاعةِ اللهِ تعالى، وخصَّ الشَّابَّ بذلك لأنَّ الشبابَ مَظِنَّةُ الشهوة والوقوع في المعاصي؛ حيث القوة والاغترار بالصحة والبُنيان، فهو داعٍ للنفس إلى استيفاء الغرض من شهوات الدنيا ولذَّاتها المحظورة[٥]. بخلاف الشيخ؛ فإنَّه رأى من علامات الشَّيْبِ والضَّعف ودُنُوِّ الموتِ ما يُقَرِّبه للعبادة ويُبعده عن المعاصي. فإذا انصرف الشَّابُّ مع تلك المُغْريات إلى طاعةِ اللهِ تعالى خوفًا منه نال تلك الدرجة. ولهذا قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ»[٦].

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (٧/ ١٢١).

(٢) مسلم (٣٠٠٦).

(٣) مسلم (١٨٢٧).

(٤) «فتح الباري» لابن رجب (٦/ ٤٦).

(٥) المصدر السابق.

(٦) أحمد (١٧٣٧١).

٤ الصِّنف الثَّالث: رجلٌ تعلَّق قلبُه ببيوت اللهِ تعالى، فلا يخرج منها إلا على مضض، وإذا خرج منها كان شوقُه إليها أحرَّ من الجمر، وهذا إنما يحصل لمن ملك نفسه وقادها إلى طاعة الله فانقادت لَهُ؛ فإن الهوى إنما يدعو إلى محبة مواضع الهوى واللعب، إما المباح أو المحظور، ومواضع التجارة واكتساب الأموال، فلا يقصُر نفسَه على محبة بقاع العبادة إلا مَن خالف هواه، وقدَّم عليه محبةَ مولاه[1].

٥ الرَّابع: المتحابُّون في اللهِ تعالى، لم تجمعهم مصلحةٌ أو اتفاقٌ على معصيةٍ أو مجرد النَّسب والمصاهرة والعصبية، بل اجتمعوا في طاعةِ اللهِ تعالى، وتآلفوا وتحابُّوا وترابطوا برباط الأخوةِ في اللهِ سبحانه. فلا يُحرِّكهم للمحبة والبُغض إلا الولاء والبراء؛ فمن أحبَّ اللهَ تعالى أحبُّوه ووالَوه، ومن أبغضَ اللهَ تعالى وعادى دينَه أبغضوه وتبرَّؤوا منه وإن كان أقربَ قريب. قال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٦ ثُمَّ رجلٌ دعته امرأةٌ جميلةٌ ذات نسبٍ وحسبٍ ومالٍ إلى الزِّنا بها، فذكرَ ربَّه وقال: إني أخاف اللهَ، وانصرف عنها. وإنما خصَّ النبيُّ ﷺ المرأة بكونها جميلةً ذات حسبٍ وشرف لأنه إذا اجتمع الجمال مع الشَّرف والرِّفعة فقد كمل الأمر وقوِيَ، فإن كَانَتْ مَعَ ذَلِكَ هِيَ الطالبة الداعية إلى نفسها، كَانَ أعظم وأعظم؛ إذ أغنتْهُ عن مُراودتها. فإن الامتناع بعد ذلك كله دليلٌ على تقديم خوف الله على هوى النفس، وصاحبه داخل في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وهذا كما جرى ليوسف عَلَيهِ السَّلام[2].

٧ ثمَّ رجلٌ أنفق نفقةً في سبيل اللهِ تعالى فأخفاها عن جميعِ النَّاس - القريبِ والغريب - وصوَّر بذلك ﷺ مبالغتَه في الإخفاء بأنه يُخفي عن يده اليسرى ما أنفقت اليُمنى. وإنما كان إخفاءُ الصَّدقةِ مستحبًّا لما فيه من الإخلاص ونفي الرِّياء، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وأكثرُ أهلِ العلم على أنَّ المقصودَ بذلك صدقاتُ التَّطوع، أما الزكوات وغيرها من الفرائض فينبغي إظهارُها لإظهار أحكام الشرع ويجتمع النَّاس على العمل بها[3].

٨ والصِّنف السابع: رجلٌ ذكر اللهَ تعالى في خلوته بعيدًا عن أعينِ النَّاسِ وأسماعهم، فتذكَّر مراقبته وعذابَه وما أعدَّه للمتقين من النَّعيم، فذرفت عيناه بالدُّموعِ خشيةً ومحبةً لله سبحانه. وإنَّما خصَّ الخلوة لأنها أبعد عن الرياء والسُّمعة وأقرب للإخلاص وصدق المحبة والخوف.

(١) «فتح الباري» لابن رجب (٦/ ٤٧).

(٢) «فتح الباري» لابن رجب (٦/ ٤٩)، «الكواكب الدراري» للكرماني (٥/ ٤٦).

(٣) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبي (٣/ ٧٦).

اتباعي

١ (١) احرص على أن تتصف بكلِّ تلك الصفات أو أكثرها، حتى تكون أكثر أمنًا من عذابِ اللهِ تعالى.

٢ (١) تأمَّل صفات تلك الفئات كلها؛ ترى أنَّهم «اختلفت أعمالهم في الصورة وجمعها معنى واحد، وهو مجاهدتهم لأنفسهم، ومخالفتهم لأهوائها، وذلك يحتاج أولًا إلى مجاهدة شديدة للنفس وصبر على الامتناع مِمَّا يدعو إليه داعي الشهوة أو الغضب أو الطمع، وفي تجشم ذلك مشقةٌ شديدة على النفس، ويحصل لها به تألُّمٌ عظيمٌ؛ فإن القلب يكاد يحترق من حر نار الشهوة أو الغضب عند هيجانها إذا لَمْ يُطْفَأ ببلوغ الغرض من ذلك، فلا جرم كان ثواب الصبر على ذلك أَنَّهُ إذا اشتد الحر في الموقف، ولم يكن للناس ظلٌّ يظلهم ويقيهم حر الشمس يومئذ، كان هؤلاء السبعة في ظل الله – عز وجل –، فلم يجدوا لحَرِّ الموقف ألمًا جزاءً لصبرهم على حَرِّ نارِ الشهوةِ أو الغضب في الدنيا»[1].

٣ (١) على كلِّ داعيةٍ ومُرَبٍّ وعالمٍ أن يستخدم العدد في حصر المعاني التي يريد أن يذكرها للناس؛ فإن السَّامع إذا ابتدأته بذكر عددٍ كان حريصًا على معرفة المعدود وحفظه.

٤ (٢) لا يغرَّنَّك سلطانُك ومنصبُك ولا يحملنَّك على ظُلْمِ العباد؛ فإن الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يوم القيامة.

٥ (٢) إذا كنتَ صاحبَ منصبٍ فاعدل بين النَّاس ولا تظلمهم؛ فإنَّ أوَّل النَّاس أمنًا من حرِّ الشَّمس وعذاب النَّار يوم القيامة الإمام العادل.

٦ (٣) أيُّها الشَّابُّ، هذه فرصتك لتستظلَّ بظلِّ اللهِ تعالى يوم الفزع الأكبر، فداوِم على الطَّاعات وإياك والمعاصي.

٧ (٣) إنَّما أثنى اللهُ تعالى على أهل الكهف لأنهم كانوا شبابًا، ومع ذلك انقطعوا عن الدنيا وشهواتها وملذاتها إلى عبادة اللهِ تعالى وحده، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[الكهف: ١٣].

٨ (٤) المؤمن في المسجد كالسمك في الماء والمنافق في المسجد كالطير في القفص[2]. فانظر في نفسك أيهما أنت!

٩ (٤) كما أن الآلاف من أهل الدنيا يشتاقون الديار التي اجتمعوا فيها بآلافهم، ويحنون إلى المنازل التي صاحبوا فيها إخوانهم؛ فكذلك المؤمنون تتعلق قلوبهم بالمساجد؛ من حيث إنهم فيها عرفوا الإخوان في الله عز وجل، وهي الأماكن المنسوبة من بين الأرض كلها إلى الله؛ لكونها بيوتًا له[3]. فكن من المؤمنين الذين يحنُّون إلى بيوت اللهِ تعالى ويتعلقون بها.

---

(١) «فتح الباري» لابن رجب (٦/ ٤٦).

(٢) «تحفة الأحوذي» للمباركفوري (٧/ ٥٨).

(٣) «الإفصاح عن معاني الصحاح» لابن هبيرة (٦/ ٢٣٦).

١٠ (٥) المحبةُ في اللهِ والبُغضِ في اللهِ من خصال الإيمان. فاحرص أن تكون متصفًا بها.

١١ (٥) أخبر النبيُّ ﷺ أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ[١].

١٢ (٥) قال بعض السلف: إذا كان لك أخٌ تحبه في اللهِ، فأحدث حدثًا فَلَمْ تبغضه في الله: لَمْ تكن محبتُك لله[٢].

١٣ (٦) إذا امتنعتَ عن الشَّهوات ابتغاء مرضاتِ اللهِ تعالى وخوفًا من غضبه وعقابه أبدلك اللهُ تعالى بتلك اللذة الفائتة نعيمًا في الجنة وأمنًا من عذاب النَّار.

١٤ (٧) احرص على صدقة السِّر؛ فإنها تُطفئ غضبَ الرَّبِّ تبارك وتعالى.

١٥ (٧) إذا رأيتَ أنَّ بإظهارك الصدقة يقتدي النَّاسُ بك، فأظهرهَا واستحضر الإخلاصَ للهِ تعالى وإن كانت صدقةً من النوافل. أما إن خِفْتَ على إخلاصِك فالإخفاءُ أفضل.

١٦ (٨) في اشتراط الخلوةِ في الذِّكر حضٌّ وندبٌ على أن يجعل المرءُ وقتًا من خلوته للندم على ذنوبه، ويفزع إلى الله تعالى بإخلاصٍ من قلبه، ويتضرع إليه في غفرانها؛ فإنه يجيب المضطر إذا دعاه، وألا يجعل خلوته كلها في لَذَّاته كفعل البهائم التي قد أمنت الحساب في المساءلة عن الفتيل والقطمير على رؤوس الخلائق، فينبغي لمن لم يأمن ذلك أن يَطُولَ في الخلوة بكاؤه ويتبرم لحياته، وتصير الدنيا سجنه لما سلف من ذنوبه[٣].

١٧ (٨) الخُلوة الصحيحة إنما تكون بذكر اللهِ تعالى والتَّفكُّر في عظمته وجلاله وبطشه وعقابه، ومحاسبة النفس على ما قصَّرت في حقِّ ربِّها، لا كما يفعله المبتدعةُ الذين ينفردون بأورادٍ وأذكارٍ باطلةٍ بهيئاتٍ مبتدَعَةٍ، ثم يدَّعون بعد ذلك المكاشفة!

١٨ (٨) كان يزيد الرقاشي رحمه الله يقول: «يا لهفاه! سبقني العابدون وقُطِعَ بي، نوحٌ يبكي على خطيئته، ويزيد لا يبكي على خطيئته»[٤].

---

(١) مسلم (٢٥٦٧).

(٢) «فتح الباري» لابن رجب (٦/ ٤٨).

(٣) «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقن (٦/ ٤٥٤).

(٤) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ١٨٧).

الحديث ١٢٨

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه

١ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ،

٢ قَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟

٣ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً،

٤ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ،

٥ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»

٦ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»[1].

(١) مسلم (١٠٠٦).

آيـــات

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٥].

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٣].

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

الراوي

هو: أبو ذَرٍّ، جُنْدُبُ بنُ جُنادة، وقيل: بريرُ بنُ جُندب، الزاهد، الصادق، مِن كبار الصحابة وفضلائهم، كان يتعبَّد قبل مَبعث النبيِّ ﷺ، أسلم بمكة في أوَّل الدعوة، وهو رابعُ مَن أَسْلَم، خرج بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه إلى الشام، فلم يزَلْ بها حتى وَلِي عثمانُ رضي الله عنه، فخرج إلى الرَّبَذة، ومات بها سنة (٣٢هـ) وصلَّى عليه عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه[1].

خلاصة

اشتكى ناسٌ من فقراء الصحابة للنبيِّ ﷺ أنَّ الأغنياء قد حازوا بصدقاتهم الفضلَ والدرجات العُلى، فأخبرهم ﷺ بأن لهم من الأعمال الصالحة ما يأخذ ثواب الصدقات.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعَيم (٢/ ٥٥٧)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٢٥٢)، «أُسْد الغابة» لابن الأثير (١/ ٢١١).

١ ذهب فقراءُ الصحابة إلى النبيِّ ﷺ يشكون إليه استئثار **الأغنياء أصحاب الأموال** بالأجور والدرجات العالية في الجنة؛ فإنهم يشاركونهم في العبادات البدنية كالصلاة والصيام والجهاد، واختصوا بالعبادات المالية من الصدقات والإنفاق في أوجه البر.

وهذا ليس حسدًا للأغنياء، ولا اعتراضًا على قَدَرِ اللهِ تعالى، وإنما ذهبوا للنبيِّ ﷺ ليجد لهم ما يساوي أجر الصدقات، فيستطيعوا منافسةَ الأغنياءِ في الأعمال الصالحة(١).

٢ فأرشدهم النبيُّ ﷺ إلى ما يقوم مقامَ الصَّدَقاتِ ويستحقُّ أجرَها من القُرَبِ والأعمال الصالحة.

٣ فأخبرهم أنَّ الأذكارَ تنزل منزلة الصدقة؛ فالتكبيرُ والتحميد والتسبيح والتهليل - وهو قول: لا إله إلا الله - صدقاتٌ يُؤجر العبدُ عليها، بل هي أحبُّ إلى اللهِ تعالى من الصَّدَقات؛ لقوله ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٢).

٤ كما أنَّ أمرَ النَّاسِ بالمعروف وإرشادَهم إلى الحقِّ صدقةٌ، وكذا نهيهم عن المُنكر صدقة، بل من أرفع القُرُبات؛ إذ قد ميَّز الله تعالى تلك الأُمَّةَ بذلك؛ قال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

كما أنَّ الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المنكر فرض كِفَايةٍ، وقد يتعيَّن، والتَّسبيحُ والتَّحميد والتَّهليل نوافلُ، ومعلومٌ أنَّ أجرَ الفرض أكثرُ من أجر النَّفل؛ لقوله عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»(٣)»(٤).

والصَّدقة بغير المال نوعان: قُربَةٌ قاصرةٌ على فاعلها؛ كالذكر وأداء النوافل، وقُرْبَةٌ متعدِّية؛ كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدخل فيها نشر العلم وإيصال النفع إلى المسلمين ودفع الأذى عنهم. وهي أفضلُ من النوع الأول لعموم فضلها.

(١) ينظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٢/ ١٦١).

(٢) أحمد (٢١٧٠٢)، والترمذيُّ (٣٣٧٧).

(٣) البخاريُّ (٦٥٠٢).

(٤) «شرح النوويِّ على مسلم» (٧/ ٩٢).

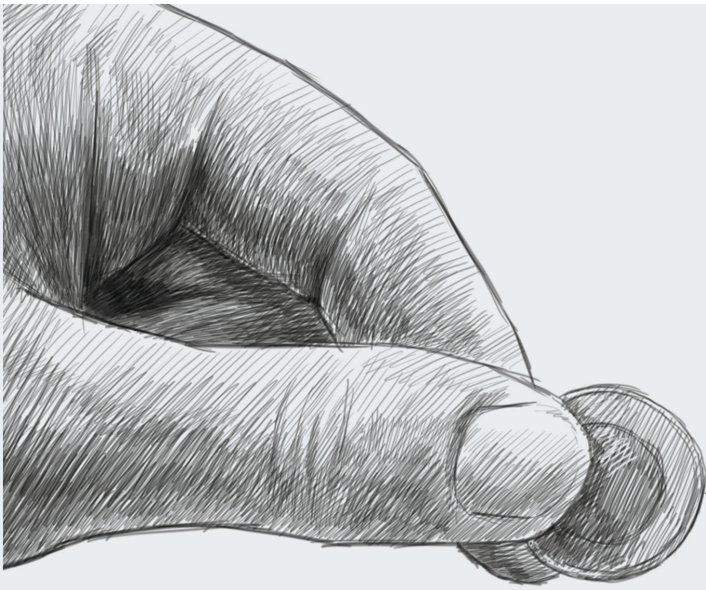

ولا يقتصرُ ذلك على ما ذُكر من الأعمال الصالحة، بل كل ما يفعله المسلم من الطاعات صدقةٌ، وفي الحديث: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»(١).

٥ بل إنَّ الرجل **إذا جامع امرأته** كان له بذلك صدقة؛ وذلك إذا نوى بذلك إعفافَ نفسه، أو إعفاف زوجته ومعاشرتها بالمعروف، أو طَلَبَ ولدٍ صالحٍ، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة(٢).

٦ فتعجَّب الصحابةُ ﭬ؛ إذ كيف يأتي المرءُ شهوتَه ويكون له مع ذلك أجرٌ؟! فأخبرهم ﷺ أنَّه كما يكسب الإنسانُ وزرًا إذا وضع شهوته في الحرام، فكذلك يكون له أجرٌ إذا وضعها في حلالٍ.

(١) البخاريُّ (٦٠٢١)، ومسلم (١٠٠٥).

(٢) «شرح النوويِّ على مسلم» (٧/ ٩٢).

اتّباع

١ (١) حرص الصحابة ﭫ على المنافسة في الخيرات، وغبطة إخوانهم بما أصابوا من الطاعات. وهذا هو التنافس الحقيقيُّ الذي لا بد أن يطمح إليه كلُّ مسلمٍ.

٢ (١) الغبطةُ أن يتمنى المسلمُ مثل ما عند أخيه من الخير، وأن يبارك لأخيه فيما عنده، وهي مستحبةٌ في فعل الطاعات، لقوله ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا».

٣ (٢) من رحمة الله تعالى وعدله أن جعل للفقراء ما يصلون به إلى مرتبة الأغنياء. فليسارعْ كلُّ مسلمٍ في طاعةِ اللهِ سبحانه بحسب ما تيسّر له.

٤ (٣) المداومة على ذكر الله تعالى من أفضل أبواب الخير؛ قال رجل: يا رسولَ الله، إنَّ شرائعَ الإسلامِ قد كثُرت عليَّ، فأخبِرني بشيءٍ أتشبَّثُ به، قال: «لا يَزَالُ لسانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ»[١].

٥ (٣) ما تَلَذَّذَ المتلذِّذون بِمِثْلِ ذكرِ الله عزَّ وجلَّ؛ فليس شيءٌ من الأعمال أخفَّ مُؤنةً ولا أعظمَ لذَّةً ولا أكثرَ فرحةً وابتهاجًا للقلب من ذكر الله سبحانه[٢].

٦ (٤) احرص على الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهي مزيَّةٌ اختصَّ اللهُ تعالى بها صفوةَ خَلْقِه، وأثنى على تلك الأُمَّة وجعلها خير الأمم بذلك.

٧ (٤) يدخل في الأمر بالمعروف سائر الطاعات المتعدية من تعليم القرآن والعلوم النافعة، وبذل الخير للنَّاس، وكفُّ الأذى عنهم.

٨ (٥) بالنية الصالحة يُثاب المرءُ على الطَّاعات، فاغتنم ذلك في جميع أمور حياتك؛ فانوِ عند الأكل التَّقَوِّي على الطاعات، وعند النَّوْم: أخذَ قسطٍ من الراحة لمواصلة العبادات، وعند ملاطفة الأهل والأولاد: إيفاءَ حقوقهم ومعاشرتهم بالمعروف، وعند المذاكرة: طلبَ العلم لنفع المسلمين، وفي العمل: إعلاء شأن المسلمين. وهكذا

(١) أحمد (١٨١٦٧)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، والترمذيُّ (٣٣٧٥).

(٢) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن القيم (ص ٨١).

في كل شيءٍ من المباحات تتحول إلى طاعات تُثابُ عليها. قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «أَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي»[1].

٩ (٦) من عظيم كرم الله تعالى أنَّه يجازي المسلمَ خيرًا على جميع أفعاله المباحة إذا امتنع عن المعاصي؛ فيُجازى على الطعام من الحلال لأنه ترك الحرام، وعلى إتيانِ شهوته في الحلال وتركها في الحرام، وعلى كسب المال من حلالِه دون حرامِه.

١٠ (٦) في الحديث جَوازُ سؤال المستفتي عن بعض ما يَخفى من الدَّليل إذا عَلِم من حال المسؤول أنَّه لا يَكرَه ذلك، ولم يَكن فيه سُوءُ أَدَبٍ[2].

قال الشاعر:

عَلَيْكَ بذِكْرِ اللهِ يا طالبَ الأَجْرِ ... وَيا راغِبًا في الخَيْرِ والفَضْلِ والبِرِّ
عليكَ بِهِ تُعطى الرغائبَ كلَّها ... وتُكفى بهِ كلَّ المُهِمّاتِ والضُّرِّ
فمَنْ يَذْكُرِ الرحمنَ فهْوَ جَليسُهُ ... ومَنْ يَذْكُرِ اللهَ يُكافِئْهُ بالذِّكْرِ
ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الإلهِ فإنهُ ... قَرينٌ لهُ الشَّيْطَانُ في داخِلِ الصَّدْرِ
ومَن يَنْسَ مَوْلاهُ الكَريمَ فَرَبُّهُ ... لهُ ناسيًا، أَعْظِمْ بذلكَ من خُسْرِ!
لهُ استحوَذَ الشَّيْطَانُ نسَّاهُ ذِكْرَ مَنْ ... تفضَّلَ بالإيجادِ في أوَّلِ الأمرِ

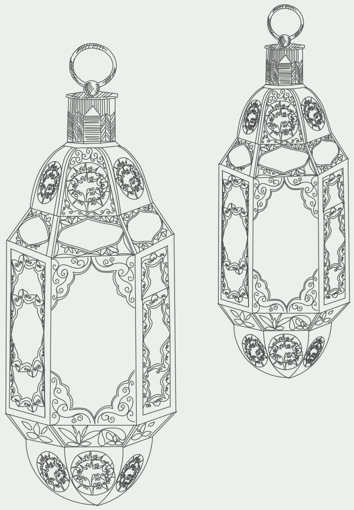

(١) البخاري (٤٣٤١)، ومسلم (١٧٣٣).
(٢) «شرح النوويِّ على مسلم» (٧/ ٩٣).

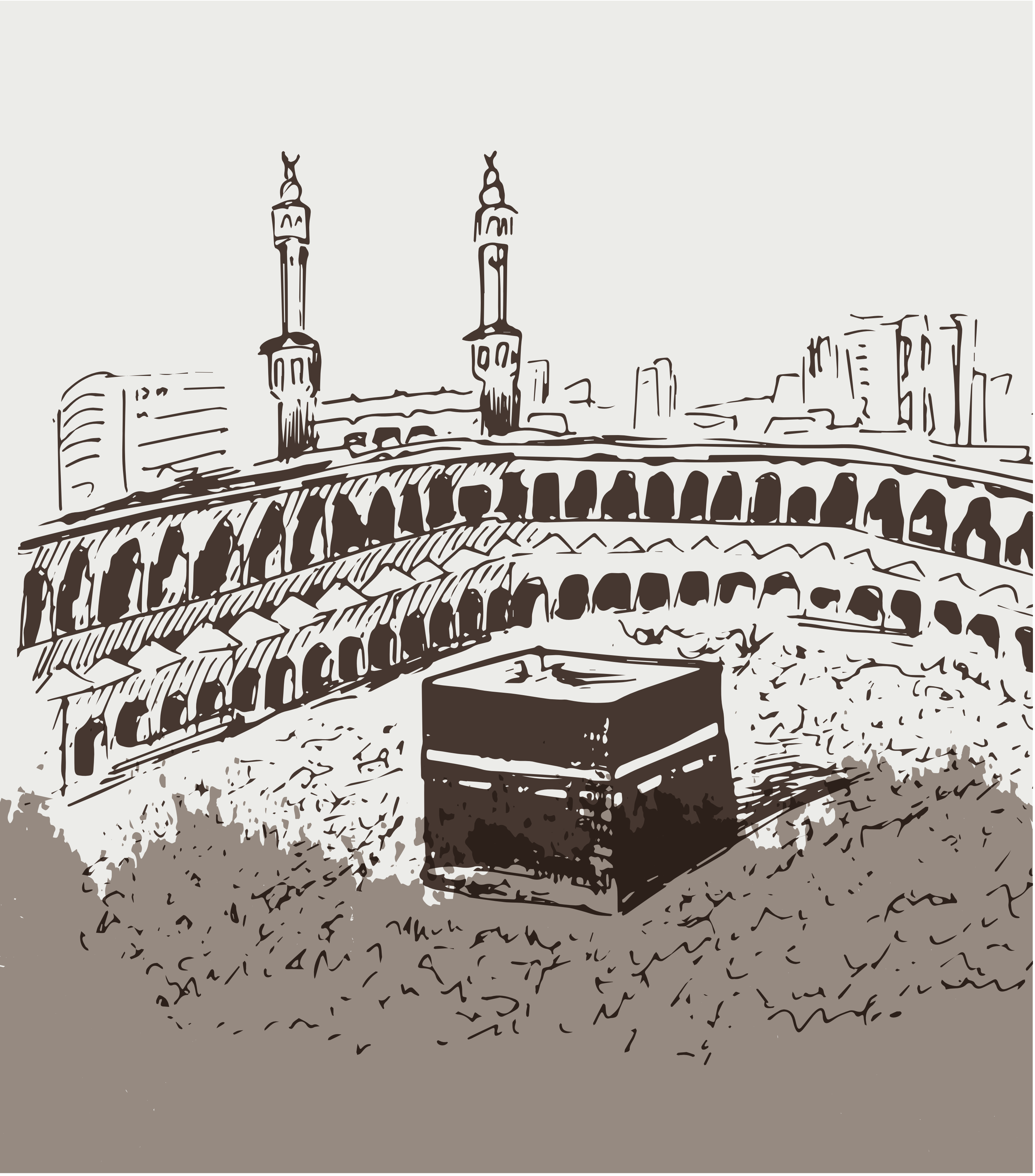

الحديث ١٢٩

من فضائلِ الأيَّام

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

١ «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ» يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ،

٢ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟

٣ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»(١).

(١) البخاريُّ (٩٦٩)، وأحمد (٣٢٢٨)، وأبو داود (٢٤٣٨) واللفظ له، والترمذيُّ (٧٥٧).

آيـــات

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢].

الرّاوي

هو: عبدُ الله بنُ عبَّاس بن عبد المطَّلِب، القُرَشيُّ، الهاشميُّ، أبو العبَّاس، وُلِد بشِعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين، حَبر الأمَّة وتُرجمان القرآن، دعا له النبيُّ ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّين»(١)، وهو من الصحابة الْمُكْثِرين من رواية الحديث، ولازَم النبيَّ ﷺ بعد الفتح وروى عنه، وكُفَّ بصرُه في آخرِ عُمُره، وتُوفِّيَ بالطائف سنةَ (٦٨هـ)(٢).

خلاصة

العمل الصالح في الأيام العشر الأولى من ذي الحجة لا يساويه شيءٌ من الأعمال في غير هذه العشر، إلا أن يخرج الرجل بماله ونفسه في سبيل الله فيستشهد.

(١) البخاريُّ (١٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٤٧٧).

(٢) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٦٩٩)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البرِّ (٣/ ٩٣٣)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٢٩١).

فقه

١ يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ تعالى فضَّلَ الأيام **العشر الأوائل من ذي الحجة** على غيرها من أيام العام، فالأعمالُ الصالحةُ يتضاعفُ أجرُها في تلك الأيام، فلا يساويها شيءٌ من الأعمال في غيرها.

٢ فقال الصحابةُ: ولا الجهادُ في سبيل الله يكافئ الأعمالَ الصالحةَ في أيام العشر؟ فالجهادُ له أجرٌ كبيرٌ، فهل تبلغُ تلك الأعمالُ الصالحةُ أن تكون أعظمَ فضلًا من الجهاد؟

٣ فأجابهم ﷺ أنَّ الجهادَ في سبيلِ اللهِ تعالى لا يصل إلى فضل الأعمال الصالحة في تلك الأيام العشر، اللهم إلا أن يخرج الرجل بمالِه ونفسه في سبيل اللهِ، فيُنفق مالَه في تجهيز الجيش، ويقاتِل في سبيل الله حتى يُقتل.

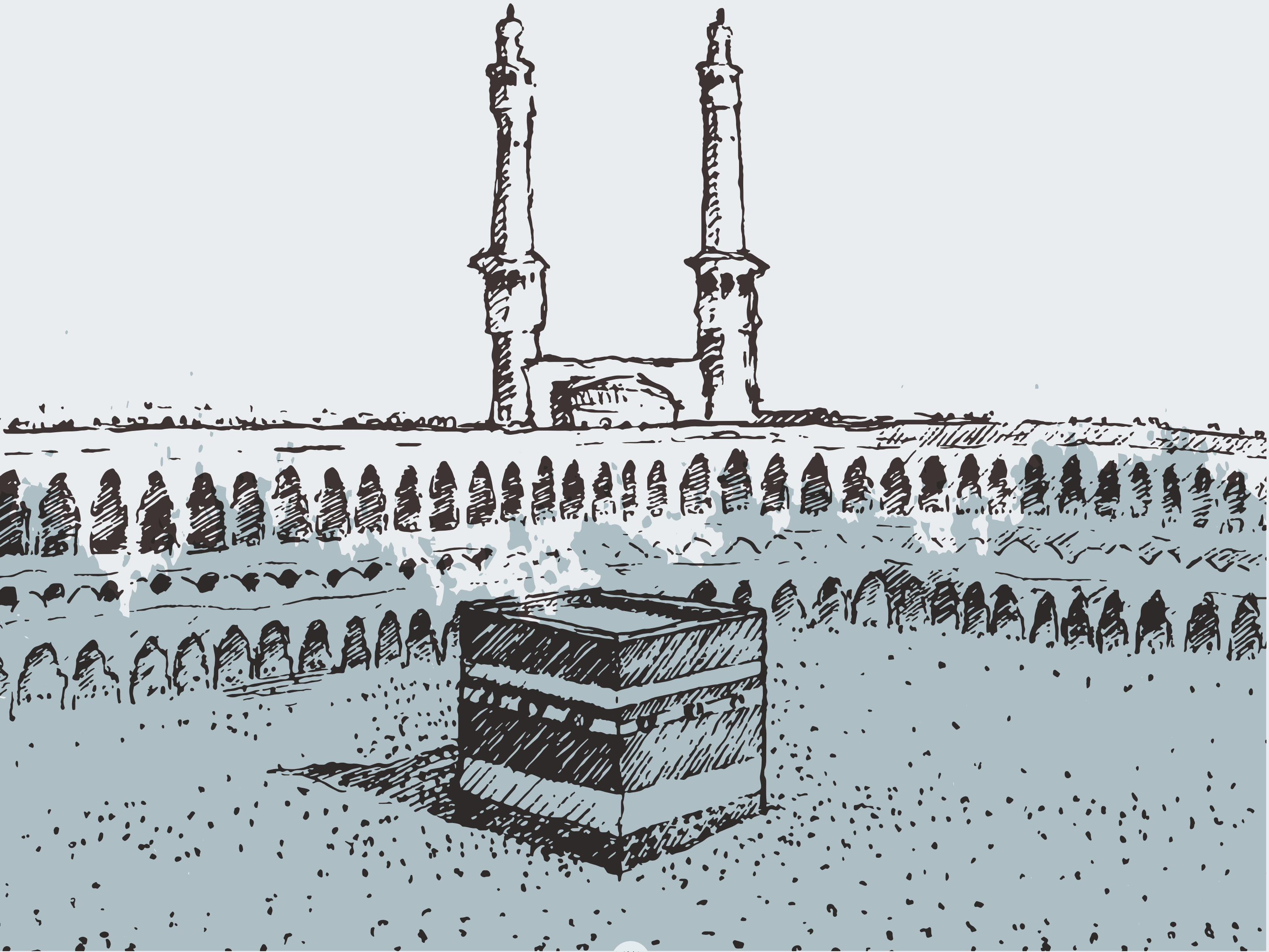

اتباع

١ (١) على المسلم أن يغتنم أيامَ العشرِ في طاعةِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ لها أجرًا عظيمًا.

٢ (١) من فضلِ اللهِ سبحانه علينا أن جعل لنا في أيام العام أيامًا فاضلة يضاعف فيها الأجر؛ فصيام يوم عرفة يُكَفِّر ذنوب سنتين، وصيام يوم عاشوراء يُكَفِّرُ سنةً، وفي يوم الجمعة ساعة إجابة، وليلة القدر خيرٌ من ألف شهر، والعبادة في أيام عشر ذي الحجة مضاعفة، فلا ينبغي لعاقلٍ أن تمرَّ عليه تلك الأوقات من غير ازديادٍ في الطاعات.

٣ (١) من حسن اغتنام تلك الأيام أن يبادر العبدُ فيها إلى اللهِ تعالى بالتوبة والإنابة إليه، والبراءة من الشرك والمعاصي.

٤ (١) من أفضل العبادات التي ينبغي على المسلم أن يفعلها في أيام العشر الصِّيَام، خاصة صيام يوم عرفة الذي قال عنه ﷺ: «أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْآتِيَةَ»[1].

٥ (١) ينبغي على المسلم أن يتعاهد أيامَ العشر بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل؛ قال سبحانه: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨]، والأيام المعلومات: أيامُ العشر، وقال ﷺ: «ما مِن أيَّامٍ أعظمُ عِندَ اللهِ، ولا أحَبُّ إليه، مِن العَمَلِ فيهنَّ مِن هذه الأيَّامِ العَشْرِ؛ فأَكْثِروا فيهنَّ مِن التَّهليلِ، والتَّكبيرِ، والتَّحْميدِ»[2].

٦ (٢) لا تستحِ من السؤالِ عن دينك؛ فإنَّ الصحابة رضي الله عنهم لم يستحوا أن يسألوه ﷺ عن المقارنة بين الجهاد وأعمال العشر.

٧ (٢)، (٣) دلَّ الحديث على فضيلة الجهاد، حتى إن الصحابة قاسوا به سائر الأعمال. فعلى كلِّ مسلم أن يُحَدِّثَ نفسَه بالجهاد، وأن ينوي الجهادَ متى تيسّر، وأن يتمنى الشهادة في سبيل الله سبحانه.

٨ (٣) لا يغفل عن العبادة والطاعة في تلك الأيام المباركة إلا شخص محروم؛ فالأعمال تتضاعف إلى أن لا يكون لها شبيهٌ في الأجر من الأعمال في غير تلك الأيام؛ فصدقةٌ بمالٍ يسيرٍ أو ركعتان خفيفتان أو صيامُ يومٍ أو ذكر اللهِ تعالى باللسان من غير جهد ومشقة: هذه الأمور على بساطتها لا يساويها شيءٌ من الأعمال إلا أن يخرج الرجل مجاهدًا بنفسه وماله ثم يستشهد.

---

(١) مسلم (١١٦٢).

(٢) أحمد (٥٤٤٦).

تقديمُ اليمين

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ:

«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ فِي تَنَعُّلِهِ، وتَرَجُّلِهِ، وطُهُورِهِ، وفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ»(١).

(١) البخاريُّ (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

آيــــات

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١].

الرّاوي

هي أمُّ المؤمنين، عائشةُ بنتُ أبي بكر عبدِ الله بن أبي قحافةَ عثمانَ بن عِامر القرشيةُ، التَّيميةُ، الصدِّيقة بنت الصدِّيق، حبيبةُ رسول الله ﷺ، الطاهرة المطهَّرة، المبرَّأة من السماء، أَفْقَهُ نساء الأمَّة على الإطلاق، وُلِدت في الإسلام، وتزوَّجها النبيُّ ﷺ بعد وفاة السيدة خديجةَ رضي الله عنها، قبل الهجرة ببضعةَ عشَرَ شهرًا، ولم يتزوَّج بِكرًا غيرها، ولا أحبَّ امرأة حُبَّها، وليس في النساء مطلقًا امرأةٌ أعلم منها، تُوفِّيت عَلَى الصحيح سَنَة (٥٧هـ) بالمدينة، وهي يومئذ بنت ستٍّ وستين سنة(١).

خلاصة

البدْءُ باليمين سُنَّةٌ نبويَّةٌ شريفة.

(١) يراجع ترجمتها في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٨٨١)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٧/ ١٨٦)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٨/ ٢٣٤).

فقـــه

كان النبيُّ ﷺ يحب **استعمال اليمين والبداءةِ بها** في كل فعلٍ من الأفعال التي فيها تشريفٌ وتكريمٌ؛ ففي لبس النعل والخُفِّ يبدأ برِجله اليمنى، وفي تسريح شعره يبدأ بالشِّقِّ الأيمن من رأسه كذلك، وفي **الوُضوءِ والغُسلِ** يبدأ بميامنه؛ فيغسل يده اليمنى قبل اليسرى، ورِجله اليمنى كذلك، ويغسل شِقَّه الأيمن في الغُسل قبل الأيسر.

وهكذا في جميع أموره؛ فكلُّ ما كان فيه تشريفٌ وتكريمٌ بدأ فيه باليمين؛ فيأكلُ ويشربُ ويُسَلِّمُ ويأخذُ ويُعطِي ويستلم الحَجَرَ بيمينه، ويدخلُ البيتَ والمسجدَ برجله اليمنى، ويبدأ في قصِّ شاربه بالجزء الأيمن، وإذا صافح قومًا أو أعطاهم شيئًا بدأ بمن على يمينه. وما كان بخلاف ذلك استعمل فيه الشِّمال؛ فيأتي الخلاءَ بشمالِه، ويخرج من المسجد بشماله، ويستنجي ويخلع الثوبَ ويمتخط بشماله، ويبدأ في خلع الثوب والنَّعل والخُفِّ بالشِّمال ثم اليمين[1].

(١) «شرح النوويِّ على مسلم» (٣/ ١٦٠).

اتّباع

١ احرص على اتّباع سُنَّةِ النبيِّ ﷺ في التيامنِ ما استطعت.

٢ إياك واستعمال الشِّمالِ في أمورِ حياتِك؛ فإنَّه طبع الشيطان وخُلُقه، قال ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه؛ فإن الشيطانَ يأكل بشماله، ويَشرَب بشماله»[١].

٣ التيامنُ بركةٌ تحصل للعبدِ باتباعِ نبيِّه ﷺ.

٤ أَكْرِم اليمينَ فلا تستعملها في إزالة النجاسات وخسائس الأعمال.

(١) مسلم (٢٠٢٠).

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، قَالَ:

١ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاِسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ،

٢ يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُم بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ،

٣ ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ،

٤ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ،

٥ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ،

٦ وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي.

٧ قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ»(١).

(١) البخاريُّ (١١٦٢).

آيـات

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]

الراوي

هو: جابرُ بنُ عبدِ الله بن عمرو بن حرام الأنصاريُّ، ثم السَّلِميُّ، أبو عبد الله، شهد العقبةَ الثانية وهو صبيٌّ مع أبيه، شهِد بَدرًا وأُحدًا، وشهد صِفِّين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو مُفتي المدينة في زمانه، تُوفِّي سنة (٧٨هـ)(١).

خلاصة

حرص النبيِّ ﷺ على أن يُعلِّم أُمَّته دعاء الاستخارة، وما الذي يفعلونه إذا تحيَّروا في أمرٍ ما.

(١) تُراجع ترجمته في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٢١٩)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ٣٠٧)، سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٣/ ١٩٠).

فقـــه

١ اهتمَّ النبيُّ ﷺ بتعليم أُمَّته كيفية الاستخارة إذا **احتاروا** في أمرٍ من أمور الدنيا، فلم يَدْرِ الإنسانُ أيفعله أم لا، أو يفعل هذا أم ذاك. وقد كان ﷺ حريصًا على أن يحفظوا ذلك الدعاء كما يُعلمهم السورةَ من القرآن؛ فإن المسلم في أمسِّ الحاجة إلى استخارة ربِّه، كما أنَّه في حاجة إلى القرآن في الصلاة والذكر والمعاملات.

٢ فإذا أراد العبدُ استخارةَ ربِّه فعليه أن يصلي ركعتين نافلةً تقرُّبًا إلى الله تعالى تمهيدًا لدعائه وأرجى لقبوله.

وهذا في حقِّ غير الحائض والنفساء؛ إذ تقتصر استخارتهما على الدعاء فقط.

٣ ثم يدعو بدعاء الاستخارة، وفيه يطلب من ربِّه تعالى أن يختارَ له؛ فهو العليم الخبير، **ويسأل ربَّه القدرةَ على فعل الأصلحِ له**؛ فهو سبحانه القدير الذي لا يُعجزه شيءٌ، ويطمع أن يتفضل عليه الكريمُ بواسع فضله، ويُعَلِّلُ ذلك بأنَّ الرَّبَّ سبحانه قديرٌ عليمٌ، لا تخفى عليه خافية، ولا يخرج عن ملكه شيء.

٤ ثم يناجي ربَّه تعالى فيقول: اللهم إن كنتَ تعلم أنَّ هذا الأمر - ويُسَمِّي حاجته؛ فيقول: زواجي من فلانة، أو عملي في شركة كذا، أو غير ذلك- «خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ودُنياي وآخرتي «فقدره لي، ويسره لي، وبارك فيه» أي: **فاجعله مقدورًا** لي، ويسِّر لي حُصولَه، وبارك لي فيه.

٥ «وإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ هذا الأمْرَ شَرٌّ لي في دِيني ومعاشي وعَاقِبَةِ أمْرِي فَاصْرِفْهُ عَنِّي واصْرِفْنِي عنْه» أي: إذا كان شرٌّ له في دينه وحياته ومستقبله وآخرته، فيصرفه الله عنه ولا يقدره له، ويصرف قلبه عنه، فلا يتعلق به ويتطلع إليه.

٦ ثم اكتب لي الخيرَ في جميع أموري حيث كان، ثم اجعلني راضيًا بما كتبتَ عليَّ؛ فقد يكون الخيرُ ولا يرضى المرءُ به فيعيش مكتئبًا مُنَكَّدَ العيش.

٧ وعلى المستخير أن يُسَمِّي حاجته في دعائه؛ فيقول: اللهم إن كنت تعلم أنَّ زواجي أو عملي أو شرائي أو بيعي أو غير ذلك.

اتباعي

١ (١) على الداعية والمُرَبِّي أن يهتمَّ بتعليم المسلمين ما يحتاجونه في حياتهم اليومية؛ من أحكام الطهارة والصلاة والصيام ونحوها، وما يطلبونه من الأدعية والأذكار؛ كأذكار الصباح والمساء وآداب الأكل والشرب واللبس ودعاء الاستخارة وقضاء الحاجة ونحو ذلك.

٢ (١) احرص على استخارةِ ربِّك في كل أمرك؛ فالمسلم في أمسِّ الحاجة لسؤال ربِّه أن يختار له.

٣ (١) لا تستهِن بأمرٍ دقيقٍ أو حقير، استخِر في كل ما يطرأ لك من الأمور التي لا تدري ما عاقبتها ونتيجتها؛ فرُبَّ أمرٍ صغيرٍ أسأتَ فيه الاختيار، أصابك بالهمِّ وضيق العيش، وقد كان ﷺ يُعلِّم أصحابَه الاستخارة لكلِّ أمرٍ من الأمور.

٤ (١) دأَب الصحابةُ رضي الله عنهم على استخارةِ الله تعالى في كلِّ أمورِ حياتهم؛ اقتداءً بالنبيِّ ﷺ؛ فهذا أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه يريد الخطبة، فيقول له ﷺ: «اكْتُمِ الْخِطْبَةَ، ثُمَّ تَوَضَّأْ فَأَحْسِنْ وُضُوءَكَ، وَصَلِّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكَ، ثُمَّ احْمَدْ رَبَّكَ وَمَجِّدْهُ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، فَإِنْ رَأَيْتَ لِي فِي فُلاَنَةَ -تُسَمِّيها باسمها- ، خَيْرًا فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَآخِرَتِي، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهَا خَيْرًا لِي مِنْهَا فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَآخِرَتِي، فَاقْضِ لِي بِهَا، أَوْ قَالَ: فَاقْدُرْهَا لِي»[(١)]. بل لمَّا أراد النبيُّ ﷺ أن يتزوج زينب بنت جحش رضي الله عنها، قالت: «ما أنا بصانعة شيئًا حتى أُوَامِرَ ربِّي»[(٢)].

٥ (٢) إذا أراد المسلمُ أن يستخيرَ ربَّه، فإنه يتقرب إلى ربِّه بصلاة ركعتين، نافلة من النوافل؛ توطئةً للاستخارة وأقرب لقبول الدعاء.

٦ (٢) نتعلَّم من الحديث أنَّ المسلمَ ينبغي عليه أن يُقدِّم بين يدي دعائه من القُربات ما يُرجى معه استجابة الدعاء؛ كالصلاة والصدقة والصيام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٧ (٢) من آداب صلاة الاستخارة أن يتخير الإنسانُ وقتَ الصلاة والدعاء؛ فيختار أقرب الأوقات لإجابة الدعاء؛ كثلث الليل الآخِر وعصر يوم الجمعة، وأن يبتعد عن أوقات النهي، إلا أن يكون الأمرُ الذي يستخير عليه لا يقبل التأخير ويخاف فواته، فيصلي ولو في وقتِ النَّهي.

٨ (٣) لا تكن عجولًا في الدعاء، بل ابدأ دعاءك بتمجيد الله تعالى والثناء عليه؛ سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ، وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا» ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ

---

(١) أحمد (٢٣٩٩٤)، والطبرانيُّ في «المعجم الكبير» (٣٩٠١).

(٢) مسلم (١٤٢٨).

وَلِغَيْرِهِ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ، ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ»[1].

٩ (٣) الجأ إلى الله تعالى بالاستخارة والدعاء؛ فهو وحده القدير العليم، الذي يعلم السِّرَّ وأخفى، وما ندم من استخار.

١٠ (٤) احرص على أن يكون الأمر الذي تستخير لفعله نافعًا لدينك كما ينفع دُنياك؛ فالأصلُ موافقةُ الشَّرعِ.

١١ (٤) اسأل ربَّك تعالى أن يكونَ الخيرُ ميسورًا لك؛ فقد يُقَدَّرُ لك وتناله مع مشقةٍ وكَبَد.

١٢ (٤) ادعُ اللهَ أن يبارك لك فيما تطلب؛ فإذا نُزعت البركةُ نُزع الخير.

١٣ (٥) إذا استخرتَ اللهَ تعالى فاتَّبع ما رضيه لك ويسَّر لك أسبابَه، ولا تتَّبع هواك فتضيع استخارتك سُدًى.

١٤ (٥) قَدَرُ اللهِ تعالى نافذٌ لا محالة؛ فإما أن تكون مأجورًا عليه مباركًا لك فيه مُيَسَّرًا لك فعله، أو تُجبر عليه جبرًا؛ قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «إنَّ الرجل ليَسْتَخيرُ الله، فيختار له، فيَسخَط على ربِّه، فلا يَلبَثُ أن يَنظُر في العاقبة، فإذا هو قد خار له»[2].

١٥ (٥) لا تنسَ في دعائك أن تقول في الأمر إن كان شرًّا: «اصرفه عني واصرفني عنه»؛ فقد يصرف اللهُ عزَّ وجلَّ عنك الأمر وما زال قلبك متشوفًا إليه، فتهتمَّ لعدم حدوثه.

١٦ (٦) أهمُّ ما في الاستخارة أن تسأل اللهَ أن يقدر لك الخيرَ حيث كان؛ فقد يغيب عنك أمرٌ فيه صلاحُ دينك ودُنياك، فيقدره لك الله تعالى من غير استخارةٍ أو طلبٍ.

١٧ (٦) اسأل ربَّك سبحانه أن يُرضيَك بما قسم لك؛ فالرضا سعادةُ القلبِ وهناؤه، وكم من مُتَقَلِّبٍ في نعم الله جلَّ جلالُه وهو ساخطٌ عليها مُتَأَفِّفٌ منها!

١٨ (٧) لا تستحِ من ربِّك تبارك اسمه أن تذكر له الأمرَ الذي تستخيرُ فيه، حقيرًا كان أم عظيمًا؛ فهو سبحانه يُحبُّ أن يستخيرَه عبدُه ويلجأ إليه في الدقيق والعظيم.

قال الشاعر:

رُبَّ أَمْـرٍ تَتَّقِيـهِ ... جَـرَّ أَمْـرًا تَرْتَضِيـهِ
خَفِيَ الْمَحْبُوبُ مِنْهُ ... وَبَـدَا الْمَكْـرُوهُ فِيـهِ

(١) أحمد (٢٣٩٣٧) وأبو داود (١٤٨١) والترمذي (٣٤٧٦).

(٢) «شفاء العليل» لابن القيم (ص: ٩٤).

الحديث ١٣٢

البِرُّ والإثم

عن النَّوَّاس بن سَمْعانَ رضي الله عنه قال:

١ سألتُ رسولَ الله ﷺ عن البِرِّ والإثمِ،

٢ فَقالَ: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ،

٣ والإِثْمُ ما حاكَ في صَدْرِك، وكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ»(١).

(١) مسلم (٢٥٥٣).

آيـــات

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الرّاوي

هو: النَّوَّاسُ بنُ سَمْعانَ بن خالد الكلابيُّ، سكَن الشام، وأبوه سَمْعانُ بنُ خالدٍ، وفَد على النبيِّ ﷺ وأسلم، وأهداه نَعلَيه، فقَبلهما النبيُّ ﷺ ودعا له، وزوَّج سمعانُ النبيَّ ﷺ أختَه، فلما دخلت على النبيِّ ﷺ تعوَّذت منه، فتركها، تُوفِّي سنة (٥٠هـ)(١).

خلاصة

سأل النَّوَّاسُ رضي الله عنه النبيَّ ﷺ عن ماهية البرِّ والإثم، فأخبره أنَّ جماع البرِّ حُسنُ الخلق، وأنَّ الإثم ما ارتبتَ فيه ولم تطمئنَّ إليه، وخِفتَ أن يعلم النَّاسُ أنك تفعله.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥/ ٢٧٠١)، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٥٣٤)، و«أسد الغابة» لابن الأثير (٤/ ٥٩١).

١ سألَ النَّوَّاس بن سمعان رضي الله عنه النبيَّ ﷺ عن البرِّ – **وهو اسمٌ جامع لكلِّ أنواع الخير وخصال المعروف** – وعن الإثمِ – **وهو جميعُ أفعالِ الشرورِ والقبائح، كبيرها وصغيرها** – ؛ عن ماهيتهما وعلاماتهما التي يُعرفان بها.

٢ فأخبره ﷺ أنَّ البرَّ حُسنُ الخُلق، وهو شاملٌ: «حُسن الخُلق مع الله؛ بأن تتلقَّى أحكامَه الشرعيةَ بالرضا والتسليم، وألَّا يكونَ في نفْسك حرجٌ منها، ولا تَضِيقَ بها ذَرْعًا، فإذا أمرك الله بالصلاة، والزكاة، والصيام وغيرها، فإنكَ تُقابل هذا بصَدرٍ مُنشرِحٍ، ثم تأتمر بما أمرك وتنتهي بما نهاك عنه. وحُسن الخُلق مع الناس، وهو بَذْلُ النَّدى، وكفُّ الأذى، والصبرُ على الأذى، وطَلاقة الوجه»(١).

وقد أخبر ﷺ عن فضل حُسْن الخلق، فذكر أنَّ أكثرَ ما يُدخل الناسَ الجنةَ حُسنُ الخلق(٢)، وذكر أنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بحُسن خُلقه درجةَ الصائم القائم»(٣).

٣ ثُمَّ أخبر ﷺ عن الإثم، فأخبر أنَّ الإنسانَ يجدُ فيه شكًّا وارتيابًا في قلبه، فلا يحصل له انشراحٌ في صدره بفعله، بل يحصل في قلبه شكٌّ منه، يخاف أن يكون ذنبًا، ويخشى فاعلُه أن يراه النَّاسُ على فِعلته تلك.

وهذا كقوله ﷺ: «دعْ ما يَريبكَ إلى ما لا يَريبكَ؛ فإن الصدقَ طمأنينةٌ، وإن الكذبَ ريبةٌ»(٤).

وهذا أمرٌ فَطَرَ اللهُ قلوبَ عبادِهِ عليه، ينشرح صدرُهم بالطَّاعات والقُرُبات، ويضيق صدرُهم وتَشْمَئِزُّ قلوبُهم عند ارتكاب المعاصي. وهو خاصٌّ بمَن كانت قلوبُهم صافيةٌ سليمة، لم تَنتكس بكثرة المعاصي والذُّنوب، حتى طَبَعَ اللهُ على قلوبهم، فلا يَعرِفون معروفًا ولا يُنكرون منكرًا، بل يتبجَّحون بفعل المعاصي والذُّنوب ويجاهرون بها أمام النّاس.

وهذا يدُلُّ على أن الحقَّ والباطل لا يَلتبس أمرُهما على المؤمن البصير؛ بل يَعرِف الحقَّ بالنُّور الذي عليه، فيَقبَله قلبُه، ويَنفِر عن الباطل، فيُنكِره ولا يَعرفه. ومن هذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ: «سيكون في آخِرِ أمتي أُناس يحدِّثونكم ما لم تَسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإيَّاكم وإيَّاهم»(٥)؛ يعني: أنهم يأتون بما تَستنكِره قلوبُ المؤمنين، ولا تعرِفه.

(١) «شرح الأربعين النووية» لابن عُثيمين (ص: ٢٦٨).
(٢) الترمذيُّ (٢٠٠٤).
(٣) أبو داود (٤٧٩٨).
(٤) الترمذيُّ (٢٥١٨)، والنسائيُّ (٥٧١١).
(٥) مسلم (٦).

اتَّبِع

١ (١) احرص على السؤال؛ فإنَّ فيه نصف العلم، ولم يكن أصحابُ النبيِّ ﷺ يستحيون من سؤاله.

٢ (٢) مَن أراد رفعة الدرجات في الجنة فعليه بحسن الخلق؛ قال رسول الله ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ»(١)، وقال أيضًا: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا»(٢).

٣ (٢) الدين كلُّه خُلُقٌ، فمن زاد عليك في الخُلق، زاد عليك في الدين(٣).

٤ (٢) ثَقِّلُوا موازينكم بحُسنِ الخُلُق؛ قال ﷺ: «ما من شيءٍ أثقلُ في ميزان المؤمن يوم القيامة من حُسن الخُلق، وإن الله تعالى ليُبغِضُ الفاحشَ البذيء»(٤).

٥ (٣) الطُّمأنينة وانشراحُ الصَّدرِ ليس قاعدةً في معرفة الحلالِ من الحرام، بل مرجع ذلك إلى الكتاب والسُّنةِ، وإنَّما يأنس العبدُ بذلك حين تختلف الأقوالُ أو لا توجد.

٦ (٣) اطمئنان الصَّدر من عدمه يكون في حق من كان قلبه سليمًا وفطرته سوية؛ فهو الذي يحوك في نفسه ما كان إثمًا ويكره أن يطلع عليه الناس؛ أما من فسد قلبه وضعف فهمه وإدراكه، فهؤلاء يجب إرشادُهم إلى الأحكام الشرعية وتفصيلُها لهم، لا أن يُترك النَّاسُ كما يشاؤون.

٧ (٣) الفتوى لا تُزيل الشُّبهة إذا كان المستفتي ممَّن شرَح الله صدره، وكان المفتي إنما أفتى بمجرَّد ظنٍّ أو مَيل إلى الهوى من غير دليل شرعيٍّ، فأما ما كان له مع الْمُفْتَى به دليلٌ شرعيٌّ، فيجب على المستفتي قَبوله، وإن لم ينشرح صدرُه؛ كقصر الصلاة في السفر والمطر، والجمع بين الصلاتين للمرض، وكالمسح على الخُفَّين، مما لا يطمئنُّ به صدرُ كثيرٍ من الجهلة(٥).

---

(١) أبو داود (٤٨٠٠)، والطبرانيُّ في «المعجم الكبير» (٧٤٨٨).

(٢) الترمذيُّ (٢٠١٨).

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٣٠٧).

(٤) الترمذيُّ (٢٠٠٢).

(٥) «التحفة الربانية في شرح الأربعين حديثًا النووية» لإسماعيل بن محمد الأنصاريِّ (ص: ٦٣).

حسابُ الحَسَناتِ والسَّيِّئات

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ:

١ «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ،

٢ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً،

٣ وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ،

٤ وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً،

٥ وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[1].

(١) البخاريُّ (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

آيـــات

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠]

الرَّاوِي

هو: عبدُ الله بنُ عبَّاسِ بن عبد المطَّلب، القُرَشيُّ، الهاشميُّ، أبو العبَّاس، وُلد بشِعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين، حَبر الأمَّة وتُرجمان القرآن، دعا له النبيُّ ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّين»[1]، وهو من الصحابة الْمُكثِرين من رواية الحديث، ولازَم النبيَّ ﷺ بعد الفتح وروى عنه، وكُفَّ بصرُه في آخرِ عُمُره، وتُوفِّيَ بالطائف سنةَ (٦٨هـ)[2].

خلاصة

في الحديث بيانُ كرمِ الله تعالى ورأفته بعباده؛ حيث يجازيهم على إرادة فعل الخير وإن لم يفعلوه، ويضاعف لهم ثوابَ الطاعات، كما أنَّه يجازيهم إن امتنعوا عن سيئةٍ همُّوا بها، فإن فعلوها أثبتها واحدةً من غير مضاعفة.

(١) البخاريُّ (١٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٤٧٧).

(٢) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٦٩٩)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البرِّ (٣/ ٩٣٣)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٢٩١).

فقه

١ بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ تعالى **قدَّر الحسنات والسيئات قديمًا، وفق علمه سبحانه**، ثم أخبر الملائكة الكَتَبَة بكيفية كتابتها، أو **أنَّه سبحانه أمر الكَتَبَة بكتابة الحسنات والسيئات على العباد**، ثم أخبرنا بطريقة احتسابها وكتابتها.

٢ فإذا نوى العبدُ فعلَ طاعةٍ من الطاعات **وعقد العزمَ على فعلها ثم** لم يفعلها، فإنَّها تُحسب له حسنةً كاملةً.

والمرادُ هنا انعقادُ العزمِ والتصميمُ على الفعل، لا مجرد الخَطرة التي تخطر ببالِ العبدِ ثم تتلاشى من غير نية فعلٍ؛ لقوله ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، فَعَلِمَ اللّٰهُ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ أَشْعَرَ قَلْبَهُ، وَحَرَصَ عَلَيْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً»(١).

٣ وإذا فَعَلَ الطَّاعةَ جازاه عليها أضعافًا؛ فتكون الحسنةُ بعشرِ أمثالها لا تقل عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وتُضاعفُ لمن يشاءُ اللهُ تعالى، فتكون بسبعمائة ضعفٍ أو أكثر؛ قال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

٤ أما إن نوى العبدُ ارتكابَ معصيةٍ من المعاصي وعقد العزمَ على ذلك، ثُمَّ تذكَّر ربَّه وأناب إليه وامتنع عن تلك المعصية، فإنَّ اللهَ سبحانه يجازيه على امتناعه بأن يكتبها له حسنةً كاملةً.

وإنما جُوزي بذلك لأنَّه خالفَ هواه وعصى شيطانه ونوى الخيرَ بالامتناع عن الشرِّ، وهو عملٌ قلبيٌّ يستحقُّ عليه الجزاءَ؛ يشهد له قولُه ﷺ: «على كلِّ مُسلمٍ صَدَقةٌ». قالوا: فإن لم يَفعَل؟ قال: «يُمسِكُ عن الشرِّ؛ فإنه صَدَقةٌ»(٢).

ولهذا فإنَّ مَن نوى المعصيةَ ففاتته أو حيل بينه وبينها لم يكن داخلًا في مفهوم الحديث ولا استحقَّ الثوابَ المذكور؛ لقوله جلَّ جلالُه في الحديث القدسي: «إنّما تركها من جرَّاي»(٣). أي: من أجلي.

٥ فإن ارتكبَ العبدُ المعصيةَ أثبتها اللهُ تعالى عنده سيئةً واحدةً من غير مُضاعفة، قال سبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ [غافر: ٤٠]، بل يقبل توبةَ من تاب ويمحوها، ويغفرها لمن يشاء من غير توبة.

---

(١) أحمد (١٩٢٤٤).

(٢) البخاريُّ (١٤٤٥)، ومسلم (١٠٠٨).

(٣) مسلم (١٢٩).

على أنَّ السيئة قد تتضاعفُ لشرف المكان؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]؛ فرتَّب سبحانه العذابَ الأليم على الهمِّ بالمعصيةِ فيه. كما تُضاعف بشرف الزمان؛ كالمعصية في الأشهر الحُرُم، وتُضاعفُ كذلك بشرف فاعلها، فالمعصيةُ من الأنبياء والأولياء أشدُّ إثمًا من غيرهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]، وقال جلَّ وعلا: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠].

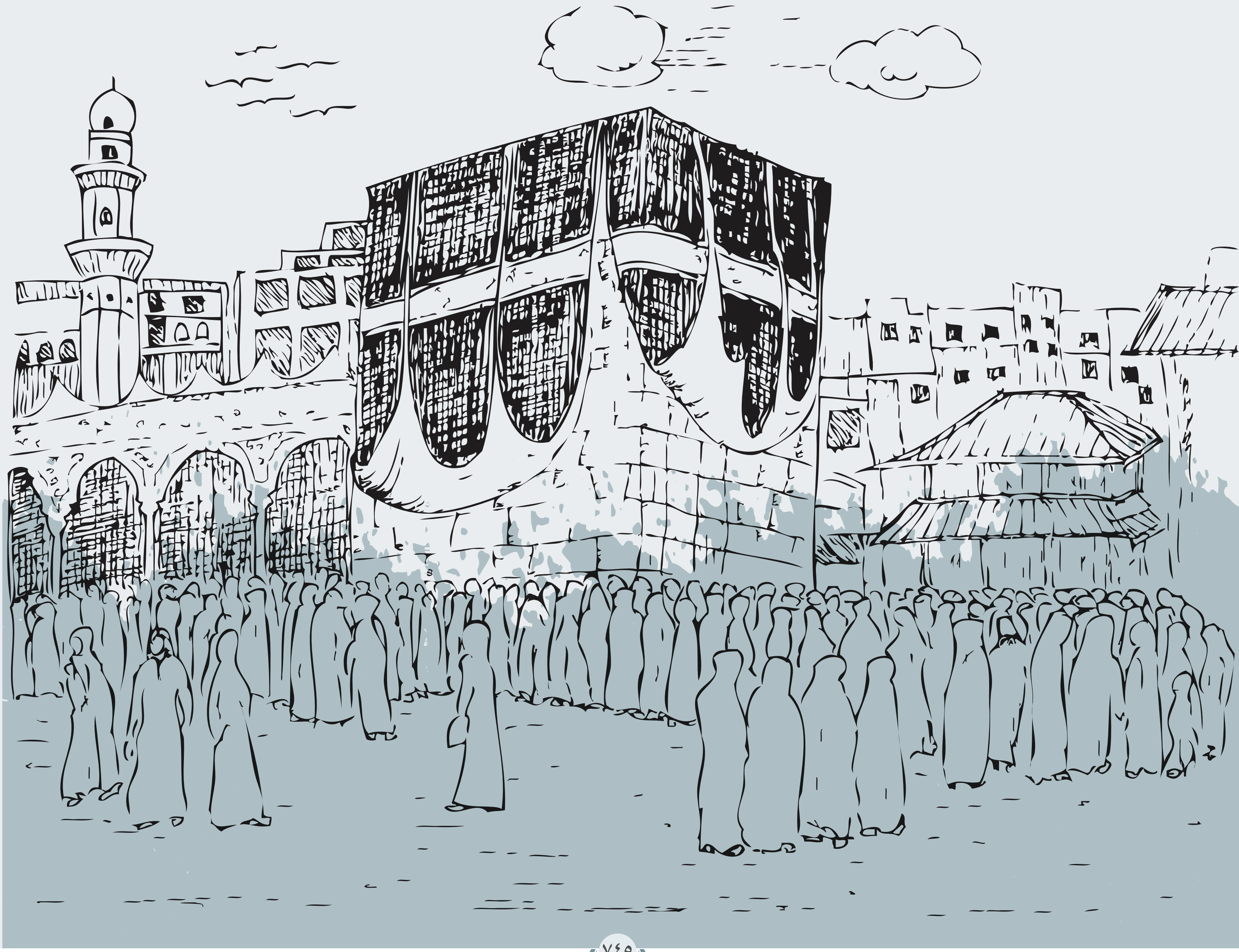

اتّباعي

١ (١) إذا تأمل العبدُ كيف يحاسب اللهُ سبحانَه عبادَه على أفعالهم ورأى لُطفه ورحمته بهم لازداد حبًّا وخضوعًا لربّه جلَّ وعلا؛ فلولا فضلُه ورحمته ما دخل الجنةَ أحدٌ من خلقه.

٢ (٢) على المسلم أن يعزم على الطاعات وإن لم تتيسر له، فإنه مجازى بها وإن لم يفعلها.

٣ (٢) يستطيع المسلمُ أن يحصد الكثير من الحسنات من غير تعبٍ أو مشقةٍ؛ فما عليه إلا أن ينويَ الخيرَ ما تيسر له فعلُه؛ فينوي التصدّق إن حصل له مالٌ، وينوي الجهادَ إن تيسّر، ويعزمُ على النوافل وقراءة القرآن.

٤ (٢) قال ﷺ: «مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[١].

٥ (٣) بادر إلى الطاعات والقُرَب؛ فإنَّ الله سبحانه يجازي على الحسنة أضعافًا كثيرةً.

٦ (٣) انظر كيف هيَّأ اللهُ تعالى لعباده الطاعات، ثم جازاهم عليها أعظمَ الجزاء؟ سبحانَه مِن ربٍّ رحيمٍ ودودٍ يتقرب إلى عباده بالنِّعم، ويحبُّ أن يتقربوا إليه بالطاعة فيزيدهم عليها جزاءً عظيمًا.

(١) النسائيُّ (١٧٨٧)، وابن ماجه (١٣٤٤).

٧ (٤) جعل اللهُ تعالى للملائكةِ الكَتَبَةِ الاطِّلاع على ما ينويه العبد ويفكر فيه، أفلا يورثنا ذلك حياءً أن يعلموا منَّا حرصًا على معصيةِ اللهِ تعالى؟!

٨ (٤) لا تظنَّنَّ أنَّ ما حِيل بينك وبينه من المعاصي تُثاب عليه؛ بل لا تُثابُ إلا إن امتنعتَ مختارًا نادمًا تائبًا.

٩ (٤) إياك أن تحمل ذنب المعصية التي لم ترتكبها؛ فمَن عزم على فعل شيءٍ من المعاصي ثم لم تُتَح له الفرصةُ لها عُوقبَ كمن فعلها؛ قال ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النّار»، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنّه كان حريصًا على قتل صاحبه»[1].

١٠ (٥) من رحمة الله تعالى أنَّه جعل السيئة واحدةً من غير مضاعفة كما جعل الحسنات مضاعفة. فلا ييأس عاصٍ من رحمته، ولا يقنط مسرفٌ على نفسه من معاصيه.

قال الشاعر:

وَإِنَّ عَلَيْنَا حَافِظِينَ مَلائِكًا ... كِرَامًا بِسُكَّانِ البَسِيطَةِ وُكِّلُوا
فَيُحْصُونَ أَقْوالَ ابْنِ آدَمَ كُلَّهَا ... وَأَفْعَالَهُ طُرًّا فَلا شَيْءَ يُهْمَلُ

(١) البخاريّ (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

الحديث ١٣٤

السَّبعُ الموبقات

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:

١ «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ:

٢ «الشِّرْكُ بِاللَّهِ،

٣ وَالسِّحْرُ،

٤ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ،

٥ وَأَكْلُ الرِّبَا،

٦ وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ،

٧ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ،

٨ وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ»[1].

(١) البخاريُّ (٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

آيـــات

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

الراوي

هو: أبو هريرة، واسمه -على الأرجح-: عبدُ الرحمن بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزديُّ، اليماني، أسلَم عامَ خيبرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ وحرص على العلم وحفظ الحديث، فكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٥٨هـ)[1].

خلاصة

يُحذِّر النبيُّ ﷺ من أكثر الكبائر خطرًا على العباد، وهي: الشركُ بالله، والسحر، وقتل النفس بغير حق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والفرار من الحرب، وقذف المحصنات.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يُحذِّرُ النبيُّ ﷺ أُمَّتَه من **المُهلكات** السبع، التي تُهلك فاعلها وتُودِي به إلى نارِ جهنَّم والعياذ بالله.

وهذه السبعُ من الكبائرِ التي قُرنت في القرآن والسُّنَّة بالنَّار أو اللعنِ أو غضبِ اللهِ تعالى أو عذابه. وليست مقتصرةً على تلك السبع التي ذكرها النبيُّ ﷺ في هذا الحديث، وإنما هي كثيرةٌ، منها الزنا والسَّرِقَة وعقوق الوالدين وغيرها، وإنما ذكر ﷺ تلك السبع لأنها أفحشُها وأعظمُها جرمًا، مع كثرة وقوعِها في زمانه ﷺ.

٢ أوَّلُ تلك الموبقات: الإشراكُ باللهِ تعالى، وهو أكبرُ الكبائرِ وأعظمُ الذُّنوب، قال ابنُ مسعودٍ ﷺ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»[1]، وهو الذَّنبُ الذي لا يغفره اللهُ تعالى إلا أن يرجعَ العبدُ ويُنيبُ إلى اللهِ تعالى ويُحْسِنُ توحيدَه وعبادتَه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

٣ وثانيها: السِّحر: وأصلُه صرفُ الشيءِ عن حقيقته، سواءً كان ذلك باستعمال الجِنِّ وتسخيرهم، أو بالأدوية والعقاقير، أو نحو ذلك، وهو إثم كبير، ووزر عظيم؛ لأن فيه تلبيسًا وتَعْمِيةً وسَتْرًا للحقائق، ووَضْعَ غشاءٍ على الأبصار، وإضلالًا للعامَّة، وزلزالًا لعقيدتهم في ترتُّب المسبَّبات على أسبابها، فضلًا عن إيصال الضررِ إلى المسحورِ من مرضٍ أو ذهابِ عقلٍ، وربما أفضى ذلك إلى القتل. ولذلك كان من الكبائر فِعْلُه وتعلُّمه وتعليمه.

وأكثرُ السِّحر يكون بتسخير الشياطين واستعمالهم، وهذا لا يكون إلا بالكفرِ باللهِ تعالى؛ فإنَّ الشياطين لا تقبلُ ذلك حتى يكفرَ السَّاحرُ بالله تعالى[2]، قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]. ولهذا ذهب أكثرُ أهلِ العلمِ إلى قتلِ السَّاحرِ حدًّا لكُفرِه وردَّته، سواءً حصل بسحره قتلٌ أم لا.

٤ الثَّالثُ: قتلُ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ قتلَها إلا بالحق؛ فدماءُ المسلمين جميعًا حرامٌ، لقوله ﷺ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»[3].

وقد توعَّد اللهُ تعالى قاتلَ المؤمنِ بالعذاب الأليم، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

(١) البخاريُّ (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) ينظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٧٦٠).

(٣) البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩)، عن أبي بكرة ﷺ.

كما حرَّم الله تعالى دِماءَ أهلِ الذِّمَّةِ والمُسْتَأْمَنِينَ والمُعَاهَدِين من غير المسلمين، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وقال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»[1].

٥ الرابعُ: أكلُ الرِّبا، **وهي الزيادةُ الحاصلة من مبادلة الشيءِ الرِّبَوي بجنسه أو بتأخير القبضِ فيما يجب فيه التقابض من الرِّبويات**[2]. وتفسير ذلك أنْ يبيعَ الرجلُ مثلًا جرامًا من ذهبٍ قديمٍ مقابلَ جرامين من الذهب الجديد، أو يعطي أخاه صاعًا من تمرٍ جيد مقابل صاعين من تمرٍ رديء. وهذا يُسَمَّى ربا الفضل، وهو أن يبيع الرجلُ شيئًا من الرِّبويات -الذهب والفضة والتمر والقمح والشعير والملح- بمثلها مع تفاضلٍ في الثمن؛ إذ يشترط في هذا النوع أن يبيع صاعًا بصاعٍ، وجرامًا بجرامٍ، ودرهمًا بدرهم من غير تفاضل. والنوع الثاني هو ربا النَّسيئة، وهو أشهر الأنواع وأكثرها، وهو أن يُقرِض الرجلُ أخاه قرضًا بزيادةٍ مشروطةٍ عند السَّداد، فيُعطيه مائة دينارٍ مثلًا على أن يردَّها بعد شهرٍ مائةً وعشرًا.

وقد حرَّم اللهُ تعالى الرِّبا وشدَّد العقوبةَ على آكلِه، فقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال جلَّ جلالُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]. وقال جابرٌ رضي الله عنه: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ»، وَقَالَ: «هُمْ سَوَاءٌ»[3].

٦ الخامسُ: أكلُ مال اليتيم، خصَّه النبيُّ ﷺ بالذكر دون سائر النَّاس وإن كان أكلُ أموالِ النَّاسِ بالباطل عمومًا كبيرةٌ من الكبائر لأنَّ اليتيمَ صغيرٌ لا يستطيع الإنفاقَ على نفسِه، ولا يملك ردَّ يدِ الظالمِ عن مالِه، بخلاف الكبير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. وليس المنهيُّ عنه مجرد أكلِ مالِه بحيث يجوز أخذُ مالِه وإنفاقُه في غير الأكل، بل المراد الاستيلاء، وذكر الأكلَ لأنَّه الأغلب.

---

(١) البخاري (٣١٦٦).

(٢) ينظر: «منتهى الإرادات» لابن النجار (٢/ ٣٤٧).

(٣) مسلم (١٥٩٨).

٧ السَّادسُ: الفرارُ من الحربِ، فإنَّه لا يجوز لمسلمٍ أن يفرَّ هاربًا من الحرب عند قتال الكفار؛ لأنَّ ذلك جُبنٌ يؤدي إلى انهزام المسلمين وضعف عزيمتهم، وقد أوجب اللهُ تعالى على المؤمنين الثَّبات في الحرب وعدم الهرب، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقيَّد ذلك بما إذا كان المشركون ضِعْفَي عدد المسلمين أو أقل، فإذا كان المشركون أقلَّ من المسلمين أو يساوونهم أو ضِعْفيهم أو أقلَّ وجب على المسلمين الثبات وصار الفرارُ كبيرةً من الكبائر، إلا أن يكون فرارُه رجوعًا إلى فئةِ المسلمين يعاونهم ويعاونونه لا هربًا أو كان المشركون أكثرَ من ضِعفي المسلمين، فيجوز حينئذ الفرارُ. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦]، وقال سبحانه: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

٨ السَّابعُ: قذفُ المُحصنات، وهو رَمْيُهُنَّ بالفاحشةِ زورًا وبهتانًا، والمُحصنات: المؤمنات العفيفات، فقذفُ الكافرةِ والزانية التي استبان زناها خارجٌ من ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النور: ٢٣].

ولا يقتصر ذلك على قذفِ النساءِ فحسب، بل يشملُ الرجالَ كذلك، فقاذفُ المؤمنِ المُحْصَن كقاذفِ المؤمنةِ المُحْصَنَةِ في وجوب الحدِّ واستحقاق العقاب الأُخْرَوِي بلا خلافٍ بين أهل العلم(١).

ووَصفُ المُحْصَنات بالغافلات لا يعني أنَّ غير الغافلة يجوز قذفُها، أو أنَّ قذفَها ليس من الكبائر، بل قيَّده بذلك تغليظًا للذنب، حيث قَذَف مؤمنةً بريئةً عمَّا يُنسبُ إليها، بل إنها لا تدري شيئًا عنه(٢).

---

(١) ينظر: «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقِّن (٣١/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: «فتح المنعم شرح صحيح مسلم» لموسى شاهين لاشين (١/ ٢٩١).

اتّباع

١ (١) على الدَّاعية والمُربِّي أن يكون حريصًا على تحذير النَّاسِ من الكبائرِ وأسبابِ غضب اللهِ تعالى وعقابه.

٢ (١) ذنوبُ العِباد تُكَفِّرها الأعمالُ الصالحة؛ كالجُمعة إلى الجُمعة، والمتابعة بين الحج والعمرة، وغير ذلك، إلا الكبائر، ولهذا قال ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»[١]. فإياكَ ومَا يُحبط الأجرَ ولا تغسلُه الأعمال الصالحة.

٣ (١) إياك أن تستهينَ بذنبٍ لأنَّه ليس من الكبائر؛ فإنَّ الصغيرةَ إذا استصغرها العبدُ واستهان به صارتْ كبيرةً، والمؤمنُ يرى سيئاته جبالًا. قال الفُضَيل بن عياضٍ رحمه الله: «بقدرِ ما يصغُرُ الذنبُ عندك يعظُمُ عند الله، وبقدر ما يعظُمُ عندك يصغُرُ عند الله»[٢]. وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه: «إن المؤمنَ يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبلٍ يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجرَ يرى ذنوبه كذُبابٍ مرَّ على أنفه، فقال به هكذا»[٣].

٤ (٢) احذرْ الشركَ وأسبابَه ووسائلَه؛ فإنها مُوجِبةٌ لسخطِ اللهِ تعالى وعقابه، مُحبطةٌ للأعمالِ الصالحة، والشركُ أخفى من دبيب النَّمل.

٥ (٢) إذا أردتَ الأمانَ يومَ القيامةِ فعليك بتوحيده، واحذر مَغَبَّةَ الشركِ. قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[٤].

٦ (٣) احذر أن تذهب إلى ساحرٍ أو عرَّافٍ؛ فإنَّ ذلك كُفرٌ باللهِ العظيم، قال ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[٥].

---

(١) مسلم (٢٣٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٨/ ٤٢٧).

(٣) البخاريُّ (٦٣٠٨).

(٤) البخاري (٣٣٦٠)، ومسلم (١٢٤).

(٥) أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذيُّ (١٣٥)، والنسائيُّ (٩٠١٧)، وابن ماجه (٦٣٩).

٧ (٣) تَعَلُّمُ السِّحْرِ وتعليمُه كفرٌ باللهِ تعالى، فإياكم والسِّحر.

٨ (٣) يجب على أولي الأمر أن يُقيموا الحدودَ على السَّحرةِ والكَهَنَةِ والعَرَّافين، فيرتدعُ أمثالُهم وتنتهي شرورُهم.

٩ (٤) قَتْلُ النَّفسِ بغيرِ وجهِ حقٍّ كبيرةٌ من الكبائر، توعَّد اللهُ تعالى عليها بالعذاب الأليم، بل أخبر ﷺ أنَّ كلَّ الذُّنوب داخلةٌ في المشيئة إلا الشرك والقتل؛ تهويلًا وردعًا، قال ﷺ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى الله أَنْ يَغْفِرَهُ؛ إِلَّا الرَّجُلَ يَقْتُلُ المُؤْمِنَ مُتَعَمِّدًا، أَوْ الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا»(١).

١٠ (٤) اشتدَّ غضبُ اللهِ تعالى على الرجل يقتل المؤمن عمدًا بغير وجه حق، ولهذا جعل له من العقوبة ما لم يجعل مثلها لأحد، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٣].

١١ (٥) حذَّر اللهُ تعالى آكلَ الرِّبا إن لم يُقلِع عمَّا هو فيه بحربٍ من اللهِ تعالى ورسوله ﷺ. فهل تقدر على حربهما؟

١٢ (٥) قال ﷺ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ وَعَلَى وَسَطِ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُ الرِّبَا»(٢).

١٣ (٦) إياك وأكل أموالِ النَّاس بالباطل، فإنَّ ذلك كبيرةٌ من الكبائر، خاصَّةً إذا كان صاحبُ المالِ ضعيفًا أو يتيمًا لا يقدر على حفظِ ماله.

١٤ (٦) احذر مَغَبَّةَ أكلِ مال اليتيم؛ فإنها من المُوبقات.

١٥ (٧) إذا دخلتَ حربًا مع المسلمين لقتال الكفار فثِقْ باللهِ وتوكَّل عليه، واعلم أنَّك على ثَغْرٍ من ثُغورِ الإسلام، وقُل في نفسك: لن يُؤتى الإسلامُ من قِبَلي، واثْبُت مستعينًا بالله تعالى.

---

(١) النسائيُّ (٣٩٨٤).

(٢) البخاري (٢٠٨٥).

اتّباعي

١٦ (٧) لا تكن سببًا في خسارة المسلمين بإظهار الضعف والانهزام، فيُؤثر ذلك على سائر الجنود.

١٧ (٨) احفظ لسانك عمَّا يؤذي النَّاسَ؛ فإنَّ اللسانَ أكثرُ ما يُدخل النَّاسَ النَّارَ.

١٨ (٨) احتاط اللهُ تعالى لحفظ الأعراضِ بأنْ أوجب على مَن رأى قومًا على الفاحشة أن يأتي بأربعة شهداء، وإلا فهو كاذبٌ قاذفٌ يجب جلدُه ثمانين جلدة. فلا تجعل لسانك يُوردك الموارد.

١٩ (٨) يدخل في القذفِ سبابُ المسلمين اليومَ بعضهم بعضًا على سبيل المُزاح. فإياكَ وذلك النوع من الهزل؛ فما من كلمة تنطقها إلا وأنت مُحاسبٌ عليها.

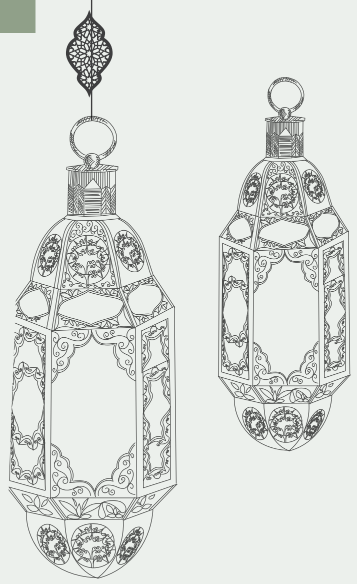

قال الشاعر:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها ... وكبيرَها فهُوَ التُّقى
واصنع كَماشٍ فوق أرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يرى
لا تحقِرَنَّ صغيرةً ... إنَّ الجبالَ مِن الحصى

وقال غيره:

وَفِي النَّاسِ مَن ظُلمُ الوَرَى عادةٌ لهُ ... ويَنْشُرُ أَعذارًا بها يَتأوَّلُ
جَريءٌ على أكْلِ الحرام ويدَّعِي ... بأنَّ له في حِلِّ ذلك مَحْمَلُ
فَيا آكِلَ المالِ الحرام أَبِنْ لَنا ... بأيِّ كتابٍ حِلُّ مَا أَنْتَ تأكُلُ؟
ألَمْ تَدرِ أنَّ اللهَ يَدْرِي بما جَرَى ... وبينَ البَرَايَا في القِيامةِ يَفْصِلُ

عَنْ وَرَّادٍ، كَاتِبِ المُغِيرَةِ، قَالَ: كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى المُغِيرَةِ رضي الله عنهما:

١ اكْتُبْ إِلَيَّ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ:

٢ إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،

٣ اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ،

٤ وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»

٥ وَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنَّهُ: «كَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ،

٦ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ،

٧ وَإِضَاعَةِ المَالِ،

٨ وَكَانَ يَنْهَى عَنْ عُقُوقِ الأُمَّهَاتِ،

٩ وَوَأْدِ البَنَاتِ،

١٠ وَمَنْعٍ وَهَاتِ»[(١)].

(١) البخاريُّ (٧٢٩٢)، ومسلم (٥٩٣).

آيـــات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠١، ١٠٢].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨].

﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

الراوي

هو: المُغيرةُ بنُ شُعبةَ بن أبي عامر بن مسعودٍ الثَّقفيُّ رضي الله عنه، أبو عيسى، صَحابيٌّ جليلَ، أسلَم عام الخندق، وشَهد الحديبية، وكان موصوفًا بالدَّهاء، ولَّاه عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه البصرة، ثُمَّ الكوفة، وشَهد اليمامة وفُتوح الشام، وذَهَبت عَيْنُه باليرموك، وشَهد القادسية وغيرها، توفِّي سنة ٥٠هـ، وهو أمير الكوفة لمعاوية بن أبي سفيانَ رضي الله عنهما[(١)].

خلاصة

أخبر المغيرةُ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول هذا الذكر عقب الصلاة، وأنَّ مما حفظه عنه ﷺ أنَّه كان ينهى عن الكلام فيما لا يفيد، وكثرة السؤال عمَّا لا تدعو إليه الحاجة، وعن إضاعة المال في المعاصي والإسراف في المباحات، كما حرَّم العقوق ووأد البنات وطلب ما ليس لكم أخذه ومنع ما وجب عليكم إعطاؤه.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥/ ٢٥٨٢)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٤٤٥)، «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير (٥/ ٢٣٨).

١ حرص معاويةُ رضي الله عنه على أن تبلغه أحاديثُ رسولِ الله ﷺ، فكتب إلى عامله المغيرة رضي الله عنه يسأله أن يُرسل إليه بعضَ ما سمعه من رسولِ الله ﷺ من جوامع الكَلِم.

٢ فكتب إليه المغيرةُ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان حريصًا على أن يقول عقب كل صلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير».

ومعنى ذلك الدُّعاء أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فالملك المُطلق بيده سبحانه، له مُلك الدنيا والآخرة، وله جميع أصناف الثناء كلها، فهو المستحقُّ لذلك وحده، وهو القدير الذي لا يُعجزه شيءٌ، له القدرة الظاهرة والباطنة في السماوات والأرض.

٣ ثم يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيتَ ولا مُعطي لما منعتَ» فلا يُعارِضُ فعلَك أحدٌ، ولا يقدر أحدٌ أن يمنع ما قدَّرتَ، أو يدفع ما منعت، قال سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

٤ واختتم ﷺ دعاءَه بقوله: «ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجدُّ»، وفي العبارة تقديمٌ وتأخير، وحقُّها: «ولا ينفعُ الجدُّ منك ذا الجدِّ»؛ أي: لا ينفع الغِنَى صاحبَه منك، ولا ينفع الحظُّ المحظوظَ فيردَّ عنه قضاءك وقدرك، أو يُنجيه من عذاب الله تعالى. فلا ينفعُ الإنسانَ إلا عملُه وإيمانه وأن يتغمده اللهُ تعالى برحمته، وهذا قريبٌ من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

٥ ثم كتب المغيرةُ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان ينهى عن كثرة الكلام بما لا يفيد، فإنَّ إطلاقَ اللسانِ سبيلٌ للخوضِ في أعراضِ النَّاسِ، ولهذا قال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[1].

٦ ونهى أيضًا عن كثرة السؤال، وهو أن يسأل الإنسانُ أسئلةً لا فائدةَ منها؛ كالسؤال عن مسائل لم تقع. ويدخل في كثرة السؤال كذلك كثرةُ سؤالِ النَّاس عن أحوالهم حتى يُوقعهم في الحَرج فيما يريدون ستره، ويحتمل أن يكون المرادُ سؤالَ النَّاس المالَ[2].

(١) البخاريُّ (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨).

(٢) «مشارق الأنوار على صحاح الآثار» للقاضي عياض (٢/ ٢٠١).

٧ ونهاهم عن إضاعة المال؛ بإنفاقه في المُحَرَّمات، أو الإسراف في المُباحات من المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، قال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

٨ ونهى كذلك عن **معصية** الآباء والأمهات **والإساءة** إليهم والتفريط في حقوقهم وإيذائهم، وخصَّ الأُمَّهات لعظيم حقِّهنَّ؛ فبرُّ الأمِّ مقدمٌ على برِّ الأب، ولأنَّ النساءَ أضعفُ من الرجال، فعقوقهن أسرع من عقوق الآباء.

٩ ونهى كذلك عن وَأْدِ البنات، وهو **دفنهنَّ أحياءً**، كما كانت عادة الجاهليين، كراهةً للبنات وتشاؤمًا منهن؛ حيث يظنون أنَّ البنت تجلبُ العارَ، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

١٠ ونهى عن أن **يمنع الإنسانُ ما وجب عليه من المال أو القول أو الفعل أو الأخلاق، وأن يطلبَ ما لا يجوز له أخذُه**[١].
وهذا من أبشع صور الجشع؛ حيث يحرص المرءُ على أخذ ما ليس من حقِّه، ويمنع أن يعطي غيره ما يجب لهم.

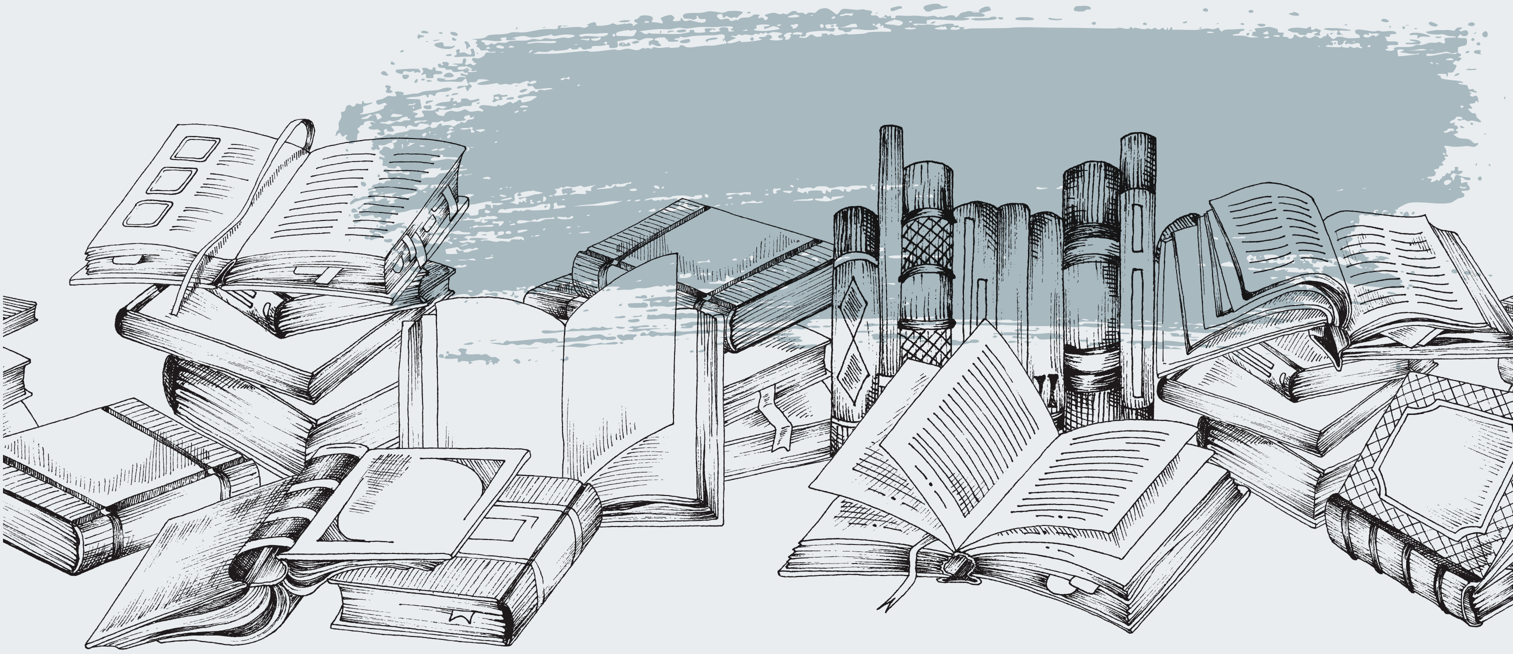

(١) «الكاشف عن حقائق السنن» للطِّيبيِّ (١٠/ ٣١٥٧).

اتّباع

١ (١) انظر كيف حرص الصحابةُ ﷺ على طلب العلم وحفظ الحديث، فهذا معاوية ﷺ على انشغاله بالخلافة وأمور الحكم، لم ينسَ حظَّه من أمورِ الدين ومعرفة الأحكام. فإياك والفتورَ عن طلب العلم.

٢ (١) اجتهد الصحابةُ ﷺ في حفظِ وتبليغِ أحاديث النبيِّ ﷺ، فهم أهلُ فضلٍ وعلمٍ. ينبغي على كلِّ مسلمٍ أن يُوَقِّرهم ويحترمهم، ويغضَّ طرفه عمَّا جرى بينهم من أمور الدنيا.

٣ (٢) احرص على أن تختم صلاتَك بأذكار الصلاةِ المعروفة، ومنها هذا الذِّكر: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيتَ، ولا مُعطي لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجدُّ».

٤ (٣) ثِق باللهِ تعالى وتوكَّل عليه، فلا يقدر أحدٌ أن يمنع ما قدَّره، ولا أن يفعل ما لم يكتبه.

٥ (٣) إياك والقنوط واليأس من رحمة الله، ولا تجزع لما أصابك بقَدَرِ الله، فما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك.

٦ (٤) لن ينفعك إلا عملك، فلا الأنساب ولا الأموال ولا القوة ولا الحظ يغني عنك من الله شيئًا.

٧ (٥) لا تتكلم فيما لا ينفع؛ فإنَّ اللسان موردُ الهلاك، كان أبو بكر الصديق ﷺ يُمسك بلسانه ويقول: «إنَّ هذا أوردني الموارد»[١].

٨ (٥) تفكَّر في ما تقول قبل أن يتحرك به لسانك؛ قال شُميط بن عجلان رحمه الله: «يا بنَ آدمَ، إنّك ما سكتَّ، فأنت سالم، فإذا تكلَّمت، فخذ حذرك، إمّا لك وإمّا عليك»[٢].

٩ (٥) قال عمر بن الخطاب ﷺ: «من كَثُر كلامه، كَثُر سَقْطه، ومن كثر سقطه، كثرت ذنوبُه، ومن كَثُرت ذنوبه، كانت النّار أولى به»[٣].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٣٤٠).

(٢) «المصدر السابق.

(٣) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٣٣٩).

١٠ (٦) لا تسأل فيما لا يعنيك ؛ فإن كان السؤال عن شيءٍ من أمور الدِّين فلا تسأل عمَّا لا فائدةَ من معرفته ، من السؤال عن الأشياء التي لم تحدث ، أو الأمور التي لا تنفع صاحبها أو تضره ، واحرص على سؤال ما ينفعك في دنياك وآخرتك .

١١ (٦) لا تشقَّ على أحدٍ في السؤال عن أحوالِه وأخبار أهله بما لا يجدُ به بُدًّا من إفشاءِ أسرارِ بيته .

١٢ (٧) ليس من إضاعة المال إنفاقُه في أوجه البرِّ والطاعة ؛ فأبو بكر ﷺ أنفق جميعَ ماله في سبيل اللهِ تعالى ، وأنفق عمر ﷺ نصف مالِه ، ولم يكن ذلك من إضاعته .

١٣ (٧) لا يحرم على المسلم أن يُنفق المالَ في المَلَذَّات والطيِّبات ، وإنما يحرم عليه الإسرافُ ومجاوزةُ الحدِّ في ذلك .

١٤ (٨) إياك والعقوقَ ؛ فإنَّ عقوبته تُعجَّلُ في الدُّنيا قبل الآخرة .

١٥ (٨) إذا كان العقوقُ حرامًا ، فعقوقُ الأمِّ أكثر حرمةً ، فلا تحملك رقَّتُها وضعفُها على عقوقها .

١٦ (٩) حرَّم اللهُ سبحانه قتلَ البنتِ ووأدَها خوف الفقرِ أو العار ، وأوجب على الأب أن يُربِّيها تربيةً سليمةً ، وحرَّم انتقاصَ حقِّها أو ظلمها في ميراثها .

١٧ (١٠) أدِّ ما عليك من الواجبات ، ولا تبخل .

١٨ (١٠) إياك والطَّمع فيما عند غيرك ، ارضَ بما قسم اللهُ لك تكن أغنى النَّاس .

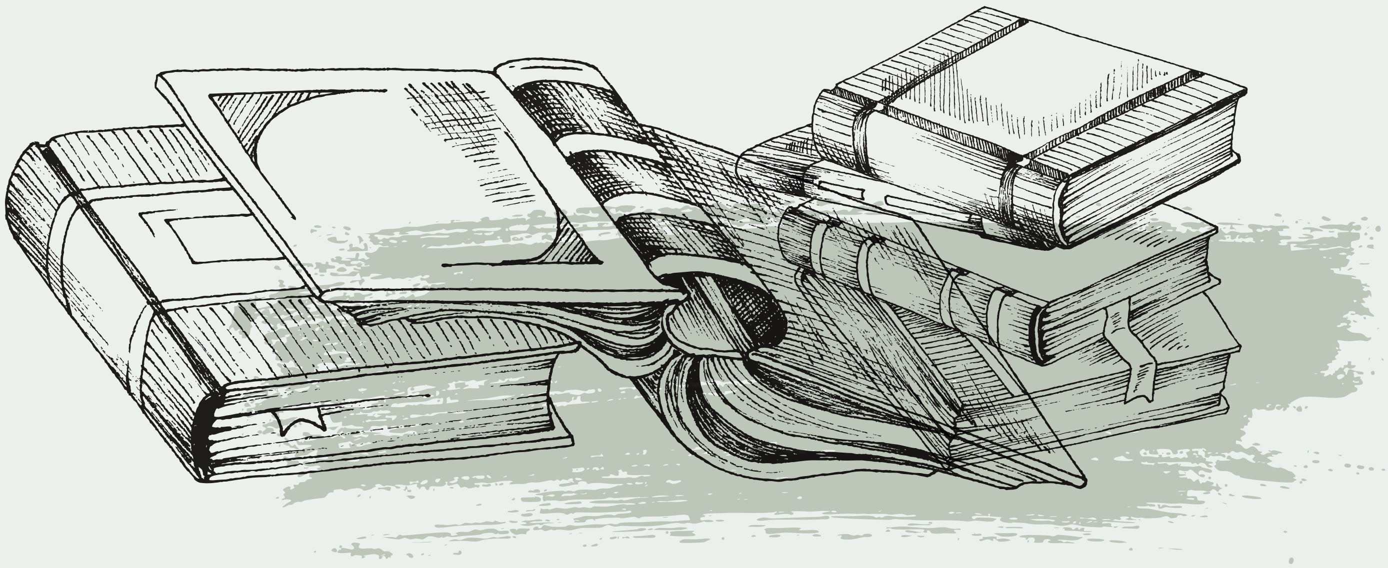

الحديث ١٣٦

التجاوزُ عن حديثِ النفس بغير عمل

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه،

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»(١).

(١) البخاريُّ (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧).

آيات

- ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].
- ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].
- ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].
- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

الراوي

هو: أبو هريرة، واسمه -على الأرجح-: عبدُ الرحمن بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليماني، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ ٧هـ، ولازمَ النبيَّ ﷺ وحرص على العلم وحفظ الحديث، فكان أكثر الصحابة رواية للأحاديث؛ توفي بالمدينة سنة (٥٨هـ)(١).

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ سبحانه تجاوز بفضله عمَّا جال في نفوسنا من الأهواءِ والأمنيات والأفكار والخواطر، فلا نُحاسَبُ على شيءٍ ما لم ننطق به أو تعمله جوارحُنا.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

فقـــه

يذكر النبيُّ ﷺ في الحديثِ مظهرًا من مظاهرِ رحمته سبحانه بعباده المؤمنين، حيث رَفَع عنهم المؤاخذة بما يدور في نفوسهم من الخواطر وأحاديث النَّفس، ما لم يتحول ذلك إلى فعلٍ يظهر على اللسانِ أو الجوارحِ.

وسواءً دَعَت تلك الخطَرَات إلى معصيةٍ أو غيبةٍ أو شركٍ، من غير تعمُّدٍ لتحصيله فلا شيءَ عليه إذا صَرَفَه عن نفسه ولم يستمرَّ عليه؛ جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»[١]، ومعناه: أنَّ سببَ الوسوسةِ تلك محضُ الإيمانِ وصريحُه؛ فإنَّ أهلَ الباطلِ لا يُوَسْوَسُ لهم.

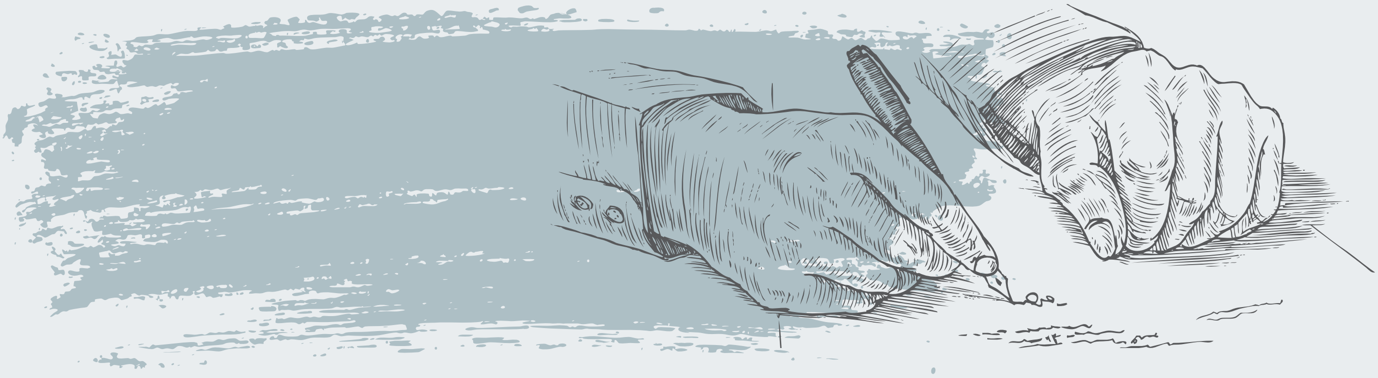

إلَّا أنَّ الإنسانَ إذا خطرت له فكرةٌ فعَقَد العزمَ على فعلها متى تهيَّأت له أسبابُها فإنه يأثم بذلك، ويكونُ كمَن فَعَلَها؛ فإنَّه حينئذ خرج عن حديث النَّفْسِ إلى نيَّة القلب. قال ﷺ: «مثلُ هذه الأُمَّةِ كمثلِ أربعةِ نفرٍ؛ رجلٌ آتاهُ اللهُ مالًا وعلمًا فهو يعملُ بعلمِه في مالِه يُنفقُه في حقِّهِ، ورجلٌ آتاه اللهُ علمًا ولم يُؤْتِه مالًا فهو يقولُ: لو كان لي مثلَ هذا عملتُ فيه مثلَ الذي يعملُ. قال رسولُ اللهِ ﷺ: «فهما في الأجرِ سواءٌ» ورجلٌ آتاه اللهُ مالًا ولم يُؤْتِه علمًا فهو يخبطُ في مالِه يُنفقُه في غيرِ حقِّهِ، ورجلٌ لم يُؤْتِه اللهُ علمًا ولا مالًا فهو يقولُ: لو كان لي مثلَ هذا عملتُ فيه مثلَ الذي يعملُ. قال رسولُ اللهِ ﷺ: «فهما في الوِزْرِ سواءٌ»»[٢].

وقد كان الأمرُ في أولِ الإسلام أنَّ العبدَ يحاسبُ على ما يُخفيه في نفسه من شوارد الأفكار والخواطر، ثم رَحِمَ اللهُ تعالى عبادَه ولطف بهم.

---

(١) مسلم (١٣٢).

(٢) ابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد (١٨٠٢٤).

اتّباع

١ لا ينبغي على المؤمن أن يحزن لما يصيبه من الوساوسِ التي تُشَكِّكُه في دينه وعبادته؛ فإنَّ ذلك دليلٌ على إيمانِه وحرص إبليسَ على إغوائه.

٢ إذا وجد العبدُ وسوسةً في نفسِه تتعلق بصفات الله تعالى ووجوده ونحو ذلك مما يُلَبِّسُ العبدَ فإنه يستعيذُ باللهِ تعالى ولا يُطلق فكرَه معها. قال ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ»[١]، وعند مسلم: «فليقل: آمنتُ بالله».

٣ إياك أن تستهينَ بالنِّيَّات؛ فقد تُعَذَّب لمجرد نيتك الشرَّ وإن لم تفعله، فتخيَّل أن تُعَذَّب عذابَ قارون وفرعون وهامان لأنك نويت أن تفعل مثل فعلهم إن أُوتيتَ سلطةً ومالًا، وأنت فقيرٌ ضعيفٌ لا حيلة لك.

٤ جاهِد نيَّتَك ما استطعت، فاحرص على أن تنويَ الخيرَ دائمًا وأبدًا، حتى تُؤجر على ذلك وإن لم تُيَسَّرْ لك الأسباب. قال ﷺ: «مَن سَأَلَ اللَّهَ الشَّهادَةَ بصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنازِلَ الشُّهَداءِ، وإنْ ماتَ علَى فِراشِهِ»[٢].

٥ إذا وجدتَ في نفسِك شيئًا فيه معصيةٌ للهِ تعالى، فاقطع فكرَك عنه ولا تنشغل به، ولا تحزن فإنها لا تضرُّك.

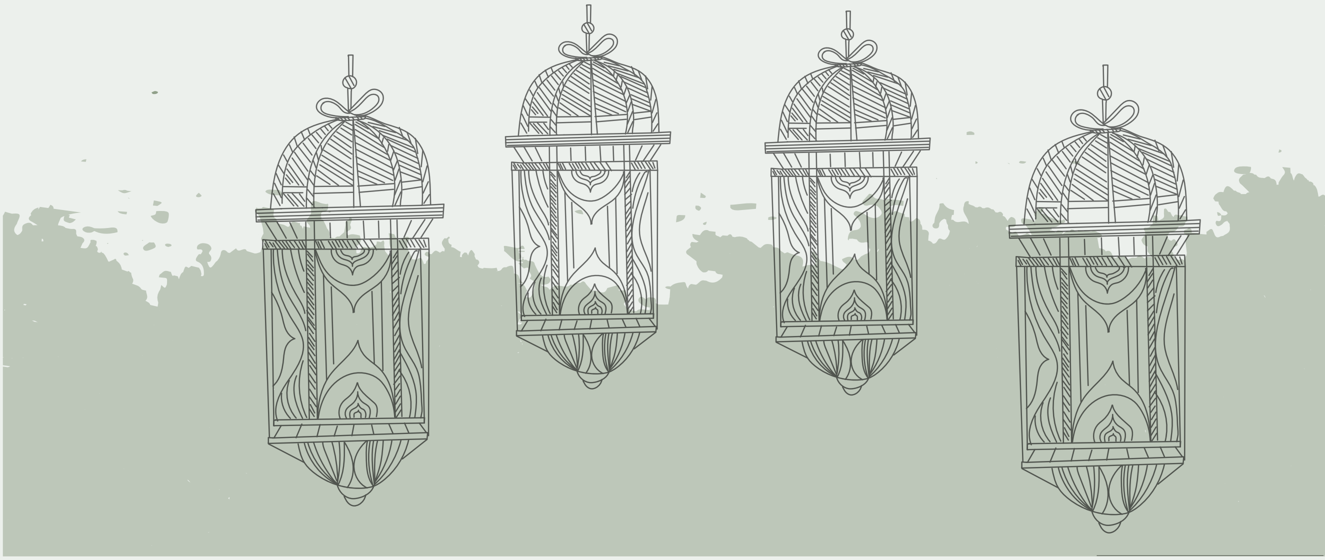

(١) البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).
(٢) مسلم (١٩٠٩).

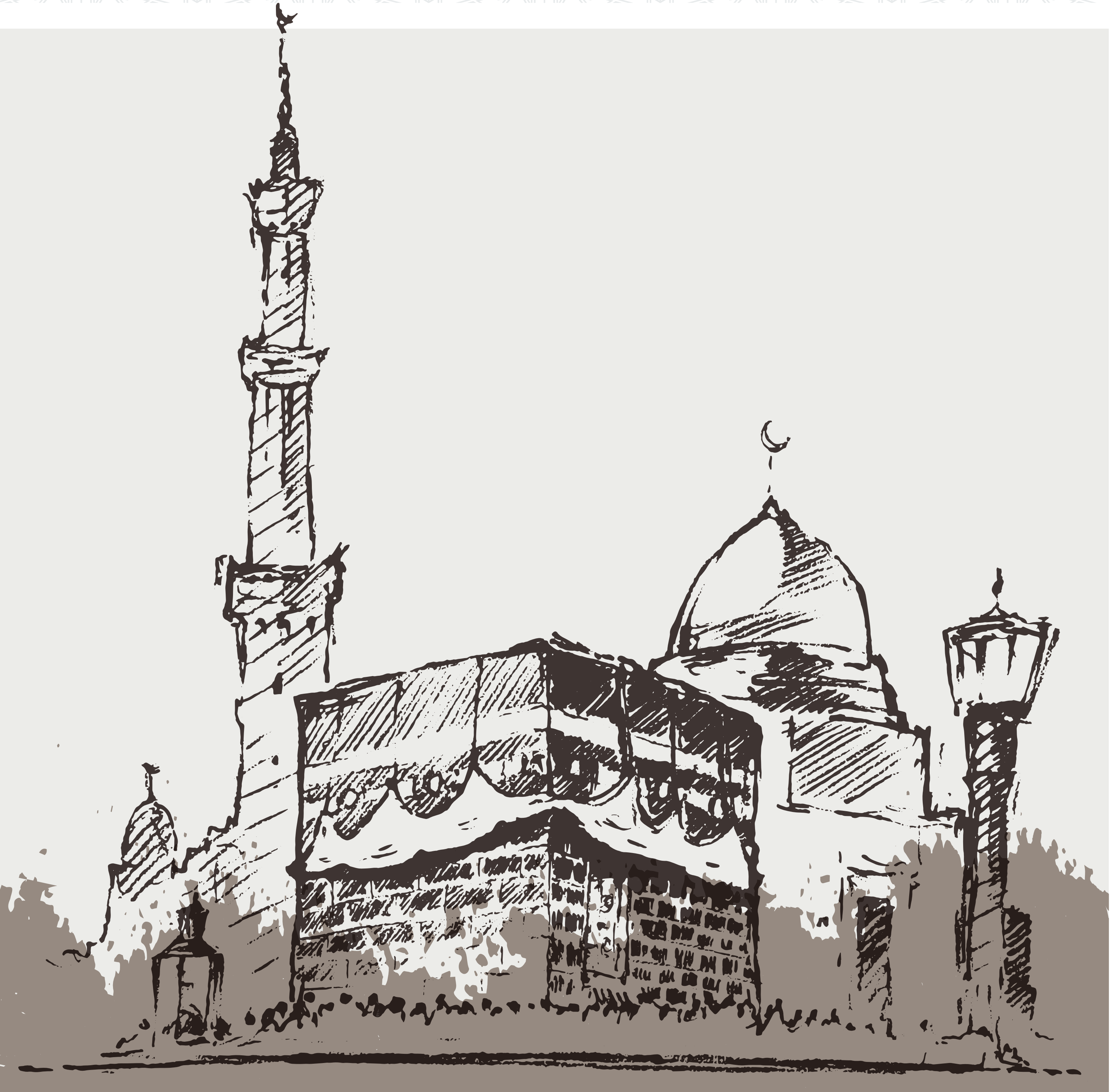

١٣٧ الحديث

الدعوةُ إلى الخير

عَنْ أبي هُريرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ:

١ «مَنْ دَعَا إلى هُدًى، كان لهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أجورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنقُصُ ذلك مِنْ أجُورِهم شيئًا،

٢ ومَنْ دَعَا إلَى ضَلالَةٍ، كان عليه مِنَ الإثمِ مثلُ آثامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك مِنْ آثامِهم شَيئًا»[١].

(١) مسلم (٢٦٧٤).

آيـــات

قال تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

الرّاوي

هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَمانيُّ، هذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ، وشهِدَها مع رسول الله ﷺ، ثم لَزِمه وواظَب عليه؛ رغبةً في العلم، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، تولَّى إمرةَ البحرين زمان عمر رضي الله عنه، ثم اعتزل الإمارة، وعاش في المدينة إلى أن مات فيها سنة (٥٨هـ)[١].

خلاصة

الدُّعاةُ إلى اللهِ تعالى أعظمُ النَّاسِ أجرًا؛ إذ ينالون أجورَهم كاملةً ومثل أجورِ مَن اتَّبعهم على دعوتهم.
ودعاةُ الفجورِ والضلالِ شرُّ النَّاس؛ يحملون أوزارَهم وأوزارَ من اتَّبعهم.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

١ يحضُّ النبيُّ ﷺ على الدعوةِ إلى اللهِ تعالى ونشر أحكام الدين بين النَّاس ويُرَغِّبهم إلى ذلك ببيانِ أجرِ الدعاة وفضلهم؛ فمن دعا إلى أي بابٍ من أبواب الخير – عظيمًا كان العملُ أو يسيرًا – كان له مثلُ أجرِ من اتَّبعه واقتدى به، من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ.

والدعوةُ لا تقتصرُ على القول فحسب، بل يدخل فيها الفعلُ كذلك؛ فإذا فعلَ المسلمُ شيئًا من السُّنَنِ واقتدى به غيرُه، كان له ثوابُ فعلِه ومثلُ ثوابِ من اتَّبعه.

٢ ويُحذِّر ﷺ من إضلالِ النَّاس وإغوائهم، فمن دعا إلى الكفر والشرك أو إلى بدعةٍ من البدع أو إلى معصية من المعاصي، سواءً كانت دعوته بالقول أو بالفعل، كان له إثمُ ضلالته ومثلُ إثم من اتَّبعه على ضلاله، ولا يَنقُص هذا الإثمُ الواقعُ عليه من إثم المتَّبع شيئًا، فلكلٍّ منهما وزرٌ كاملٌ. قال تعالى: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال ﷺ: «لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»[١].

ويشهد لهذا الحديث قولُه ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[٢].

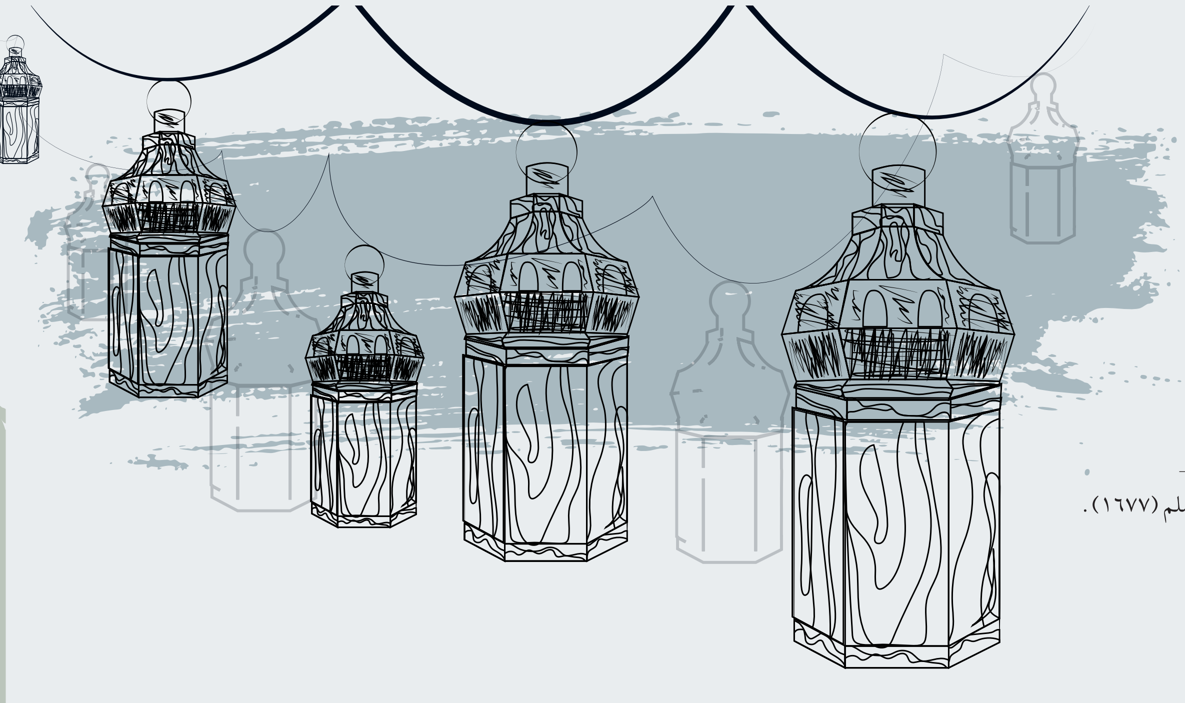

(١) البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).
(٢) مسلم (١٠١٧).

اتّباع

١ (١) إذا أردتَ أن تزيد حسناتُك، فادعُ إلى اللهِ تعالى؛ فإنك تكسب أجورًا مثل أجور مَن اتبعك.

٢ (١) الدُّعاةُ إلى الله تعالى من أهل الصدقات الجارية التي تزيد بعد موتهم ولا تتوقف، فاحرص أن تكون حسناتُك جاريةً وسيئاتك متوقفة.

٣ (١) بادِر بإحياء السُّنَنِ التي غفل عنها كثيرٌ من المسلمين؛ فبإحيائك لها تنل رضا اللهِ سبحانه ومحبَّةَ نبيِّه ﷺ وأجورَ المتبعين.

٤ (١) نشرُ العلمِ الشرعي من أهمِّ طرق الدعوةِ إلى اللهِ سبحانه؛ فبه يعرف النَّاس أحكامَ دينهم، فيأتمروا بالأوامر وينتهوا عن النواهي.

٥ (٢) إياك والسيئات الجارية، فكم من أناسٍ ماتوا وما زالت الملائكة الموكلة بهم تكتب سيئاتهم! دَعَوا إلى الضلالِ والشِّرك والبدع والمعاصي فاتَّبعهم غيرهم.

٦ (٢) السَّعيدُ من كان إمامًا في الخير، والشَّقيُّ من كان إمامًا إلى جهنم، كما قال اللهُ سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١].

الحديث ١٣٨

فَضل الحِسْبة

عَنِ النُّعمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ؛ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَو أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»(١).

(١) البخاريُّ (٢٤٩٣).

آيات

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

الراوي

هو: النُّعمانُ بنُ بَشيرِ بنِ سعدِ بنِ ثَعْلبةَ الأنصاريُّ، الأمير، العالم، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، من صِغار الصحابة، وكان من أمراء معاوية رضي الله عنه، ولَّاه الكوفة مدَّةً، ثم وَلِيَ قضاء دِمَشق بعد فَضالة، ثم وَلِيَ إمْرةَ حِمْص، أخرج حديثَه الأئمة الستةُ، وحديثُه قليلٌ، تُوفِّي سنةَ (٦٤هـ)(١).

خلاصة

إذا أُقيمت الحدودُ والأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر، حصلت النجاةُ لجميع النَّاس، وإلا هلك الكلُّ؛ العاصي بمعصيته، والساكتُ بترك نهيه عن المنكر وأمره بالمعروف.

(١) تُراجع ترجمته في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٦/ ٥٣)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٤٩٦)، «أُسْد الغابة» لابن الأثير (٤/ ٥٥٠).

يضرب النبيُّ ﷺ المَثَلَ لبيان أهمية الدعوةِ إلى اللهِ تعالى والنُّصحِ له، وأنَّه لولا إنكارُ المنكرِ لهلك جميعُ النَّاس، فيُصَوِّرُ المطيعَ الحافظَ لحدودِ اللهِ تعالى الممتثلَ لأمره ونهيه، والعاصي المُضَيِّعَ لأحكام الشرع الواقعَ في شهواته وملذَّاته، بقوم نزلوا سفينةً في ماءٍ عَذْبٍ، فصنعوا قُرعةً فيمن يكون في أعلى السفينة ومَن يكون في أسفلها، فتمَّ ذلك ونزل كلٌّ في مكانِه.

فكان الذين في الأسفل إذا أرادوا أن يشربوا أو يأتوا بالماءِ لأغراضهم صعدوا إلى أعلى السفينة فجلبوا الماء ثم نزلوا، فاقترحوا أن يخرقوا في أسفل السفينة - وهو نصيبهم - خرقًا يجلبون به الماء، بدلًا من الصعود والنزول، فبذلك يرتاحون ولا يؤذون جيرانهم الذين في الأعلى. فإن تركهم أصحاب العُلُوِّ يفعلون ما يحلو لهم بزعم أنَّ ذلك نصيبهم يصنعون به ما يشاؤون، هلك الجميعُ؛ إذ الخرقُ في السفينة يُغرقها ولا شك، وإن منعوهم من ذلك نجوا جميعًا.

فكذلك المؤمنون والعصاة؛ إن ترك المؤمنون العصاةَ ومعاصيهم من غيرِ إنكارٍ عليهم استحقَّ الجميعُ عقابَ اللهِ تعالى؛ العُصاة بمعصيتهم، وغيرُهم بالسكوت عليهم وعدم الإنكار، كما قال ﷺ: «إنَّ النَّاس إذا رَأَوُا المنكر فلم يغيِّروه، أوشك أن يعمَّهم الله بعقابٍ منه»[1]. وقد لَعَنَ اللهُ بني إسرائيل حين تركوا الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال سبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

(١) أحمد (١)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذيُّ (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٤٠٠٥).

اتباعي

١ ضَربُ الأمثال من الأساليب الفاعلة في الدعوة إلى الله تعالى، وتعليم العلم، ومِن ثَمَّ ينبغي للمعلِّم والمربِّي أن يقرِّب المعانيَ المعقولةَ لأذهان الناس بضرب الأمثال المحسوسة القريبة إلى أفهامهم[1].

٢ المؤمنُ الحقُّ لا يَكتفي بإصلاح نفْسه فحسبُ؛ بل يَحمل همَّ المجتمع من حوله، ويعمل على بيان الأخطار التي تهدِّدهم في دينهم ودنياهم.

٣ تَرْك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب في حلول الدمار، ووقوع الهلاك على المجتمع بأسره؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

٤ إياك أن تظنَّ أنَّ امتناعك عن المعاصي يكفيك في دفع عذابِ اللهِ تعالى؛ بل يجب عليك الإنكارُ ما استطعتَ.

٥ لا يصدنَّك عن الإنكارِ علمُك أنَّ الذي تُنكِرُ عليه لن يستمعَ لك؛ فما عليك إلا النصح، واللهُ يهدي من يشاء.

٦ لا يجوز لمسلم أن يرى أمرًا منكرًا من المنكرات وهو قادرٌ على تغييرها من غير أن يُغيِّرها، وقد قال سبحانه: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

(١) انظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عُثيمين (٢/ ٤٣٣).

وجوبُ إنكارِ المُنْكَر

عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:

١ أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالخُطْبَةِ يَوْمَ العِيدِ قَبْلَ الصَّلاةِ مَرْوَانُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: الصَّلاةُ قَبْلَ الخُطْبَةِ، فَقَالَ: قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ.

٢ فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ رضي الله عنه: أَمَّا هذا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ؛

٣ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،

٤ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،

٥ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[١].

(١) مسلم (٤٩).

آيـــات

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]

الراوي

هو: أبو سعيدٍ سعدُ بنُ مالك بن سِنَانِ الأنصاريُّ الخزرجيُّ المَدنيُّ، الخُدريُّ، صحَابيٌّ جَليلٌ من فُقَهاءِ الصَّحَابَة، اسْتُصْغِرَ يَوْمَ أُحُدٍ، واستُشهد أبوه فيها، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَشَاهِدِه الْخَنْدَقُ، وَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ غَزْوَةً، وشَهد بيعة الشجرة، روى حديثًا كثيرًا، وأفتى مدَّةً، مات في أول سنة أربع وسبعين[١].

خلاصة

لا يصحُّ لمؤمنٍ أن يرى منكرًا دون أن يُغَيِّرَه؛ فإن كان قادرًا على تغييره باليد من غير فتنةٍ أو ضرر فعل، وإلا أنكر بلسانه ووعظ صاحبَه، وإلا أنكر بقلبه وسخط لسخط اللهِ تعالى.

(١) انظر: «الطبقات الكبير» للزهريِّ (٥/ ٣٥٠)، «تذكرة الحفاظ» للذهبيِّ (١/ ٣٦)، «البداية والنهاية» لابن كثير (٩/ ٣، ٤)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٣/ ٨٥).

١ ذكر التابعيُّ طارقُ بن شهابٍ رحمه اللهُ تعالى، أنَّ مروانَ بن الحكم كان أوَّل من ابتدعَ تقديم الخطبة قبل صلاة العيد، ومن المعلوم في دين اللهِ تعالى أنَّ صلاةَ العيد تكون قبل الخطبة، إلَّا أنَّ مروانَ خافَ من انصراف الناس بعد الصلاةِ، فأراد أن يخطب فيهم قبل الانصراف[1]، فقام إليه رجلٌ ينصحه ويُبيِّن له السُّنَّة، وهي أنَّ الصلاةَ أولًا ثم الخطبة، فلم يستجب مروانُ للنَّاصح، وقال له: **قد ترك النَّاسُ ما تقول**.

٢ فحينئذٍ قال أبو سعيدٍ الخدري ﷺ: أما هذا الرجل الذي نصح مروان، **فقد أدَّى ما عليه من النُّصْح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسقطَ الوجوبُ عنه**؛ إذ لا يُكَلِّفُ اللهُ نفسًا إلَّا وُسْعَها، وقد قال سبحانه: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[المائدة: ٩٩].

٣ ثمَّ استدلَّ أبو سعيدٍ ﷺ على ذلك بما سمعه من النبيِّ ﷺ حيث قال: «مَن رأى منكم منكرًا - **وهو كلُّ ما قبَّحه الشرعُ وكرهه** - فليغيِّره بيده».

والتغييرُ باليدِ لا يعني أن يُبادرَ المسلمُ إلى إتلاف الأموال والأشياء وإراقة الدِّماء، فيكون سببًا في الفتنةِ وعُرضةً للأذى والضَّرَر. وإنما يُشترط في التغيير باليدِ القدرةُ عليه مع عدم الضرر، وذلك كوليِّ الأمرِ الذي يُغَيِّر بسلطته ما يُنكره، وكالوالد والزَّوج يُؤَدِّبُ أولادَه ويُنكر على أهله، فإن لم يستطع التغيير باليد استعان بالإمام ونُوَّابِه في تغييرِه، وإلا سقط عنه التغييرُ باليد.

٤ فإن عجز المرءُ على تغيير المنكر بيده؛ بأن خافَ ضررًا عليه أو فتنةً يتسبب فيها، انتقل إلى التغيير باللسان، وهو أن يُنكرَ على صاحب المعصية معصيتَه، ويدعوه إلى اللهِ تعالى، ويحضُّه على التوبة وإزالة ذلك المنكر، مستعينًا بما يَصلح مع حال المخاطَب من اللين أو الشِّدَّة، بمقتضى قوله سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[النحل: ١٢٥].

٥ فإن خافَ وعجزَ عن الإنكار باليد، فعليه أن يُنكر بقلبه؛ بأن يبغض ذلك المنكَر، ويتبرَّأ إلى اللهِ تعالى منه، ويعزم على أنَّه لو قدر على تغييره لفعل.

والإنكار بالقلبِ أضعفُ درجات الإيمان، فليس بعدَ الإنكار بالقلب إلا أن يستسيغَ المرءُ المعصيةَ ويرضى بها وإن لم يفعلها، ولهذا جاء في الرواية الأخرى: «لَيسَ وَراءَ ذلكَ مِن الإيمانِ حَبَّةُ خَردَلٍ»[2].

(١) انظر: «كشف المشكل من حديث الصحيحين» لابن الجَوْزيِّ (٢/ ١٧٣).

(٢) مسلم (٥٠).

والأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكر من أوجب الفرائض؛ فبها صلاح المجتمع وإقامة شرع اللهِ تعالى. وهي فرضٌ على الكفاية، إن قام بها البعضُ سقطَ الإثمُ عن الباقي، إلا أنَّها قد تتعينُ على المرءِ إن لم يرَ المنكرَ غيرُه، أو كان المنكرُ في أهلِه ومن يَلِي أمرَهم[1].

والمنكَر إن كان من الأمور التي يظهر للعامةِ حكمُها كترك الصلاة والصيام وعقوق الوالدين وشرب الخمر والزنا ونحو ذلك، فلكلِّ واحدٍ من المسلمين الإنكارُ، أما إن كان من الأمور التي لا يبدو حكمُها لكلِّ أحدٍ، فالإنكارُ فيها لأهل العلم.

(١) «شرح الأربعين النووية» لابن دقيقِ العيد (ص: ١١٢).

اتّباع

١ (١) في الحديث بيان أنه مَن أحدثَ في الدِّين ما ليس منه فعمَلُه مردودٌ عليه، وأنه لا تُقبَلُ الأعمالُ إلَّا إذا كانت على هَدْي رسول الله ﷺ.

٢ (١) لم يخف الرجلُ الذي خرج ينصح مروان بن الحكم من بطشه وسطوته، وقدَّم النصيحةَ إليه. فينبغي ألَّا يخافَ المسلمُ من إنكارِ المنكَرِ ما لم يصل إلى ما لا يتحمله من الضرر.

٣ (٢) لا يصدنَّك عن الإنكارِ علمُك أنَّ الذي تُنكِرُ عليه لن يستمعَ لك؛ فما عليك إلا النصح، واللهُ يهدي من يشاء.

٤ (٢) إياك أن تظنَّ أنَّ ابتعادَك عن المعصية كافٍ في النَّجاة؛ فإنَّ عدمَ الإنكارِ يستوجبُ العقوبةَ؛ قال ﷺ: «إنَّ النَّاس إذا رَأَوُا المنكَر فلم يغيِّروه، أوشك أن يعمَّهم الله بعقابٍ منه»[1].

٥ (٣) لا يجوز لمسلم أن يرى أمرًا منكرًا من المنكرات وهو قادرٌ على تغييرها من غير أن يُغَيِّرها، وقد قال سبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

٦ (٣) إياك أن ينتجَ عن تغييرك المنكرَ منكرٌ أعظم منه، بل ينبغي أن تتحلَّى بالحكمة عند التغيير، فإن رأيت التغيير باللسان أنفع من التغيير باليد فافعل.

٧ (٣) التغيير باليد يشترط فيه القدرةُ على التغيير وأمن الضرر والفتنة، فإن استوفيتَ الشروطَ فافعل.

٨ (٣) من التغيير باليد ألَّا يرضى المسلمُ أن تخرج زوجتَه أو ابنته أو أخته متبرجةً، فلا يكفيه حينئذٍ أن ينصحها، بل يجب منعُها من ذلك.

٩ (٣) من التغيير باليد أن يأمرَ المسلمُ أهلَه بالصلاة والعبادة، وأن يعاقبه بما يظن معه هدايتُه.

١٠ (٣) من التغيير باليد أن ينزع المسلمُ من بيته شعارات الشرك والمعاصي؛ كالصُّوَر والتماثيل والتمائم ونحوها.

١١ (٤) إذا عجزت عن التغيير باليد وأمكنك النُّصح وبيان الحقِّ بحكمةٍ من غير فتنةٍ أو ضررٍ فافعل.

١٢ (٤) التغيير باللسان لا يكون بالسبِّ والقذف والتعيير والغيبة، بل بالنُّصْح والأمر بالمعروف بمعروف والنهي عن المنكر بغير منكر.

(١) أحمد (١)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذيُّ (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٤٠٠٥).

١٣ (٤) على المسلم الصادق أن يُبادر للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يمنعه من ذلك هيبةُ مَن علَت به الرُّتب في الدنيا؛ فإن اللهَ قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

١٤ (٤) لا يختصُّ الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر بالوُلاة والحكَّام؛ بل ذلك واجبٌ على آحاد المسلمين؛ فواجبٌ على المسلم أن يأمر وينهى، ما دام عالِمًا بما يأمُر به ويَنْهى عنه.

١٥ (٤) من الرحمة بالمسلم العاصي وبالمجتمع المسلم نُصحه والأخذ على يديه.

١٦ (٤) المؤمنُ الحقُّ لا يَكتفي بإصلاح نفْسه فحسبُ؛ بل يَحمل همَّ المجتمع من حوله، ويعمل على بيان الأخطار التي تهدِّدهم في دينهم ودنياهم.

١٧ (٤) مِن أعظم البلايا على المرء أن يتركَ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر من أجْل كسْبِ مَودَّةِ حبيب، أو لقرابة قريب، أو صَداقة صديق، أو مُداهنة ذي سلطان؛ فإن اللعنةَ نزَلت على بني إسرائيل لَمَّا منَعهم مثلُ ذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر فيما بينَهم.

١٨ (٥) إذا عجز المسلمُ عن الإنكار باللسان، توجَّب عليه أن يُنكر بقلبه، وأن يبغض تلك المعصية، وأن يتبرأ إلى الله منها، وأن يعزم على أنَّه لو أمكنه تغييرها بيده أو بلسانه لفعل.

١٩ (٥) من الإنكار بالقلب البراءةُ من الشرك وأهله؛ فيبغض المسلمُ المشركين والكافرين، ولا يُواليهم ويُوادهم على ما هم عليه من بُغضهم للهِ تعالى وبغضِه إياهم.

٢٠ (٥) اختبر قلبَك وإيمانَك؛ فإن كنت ترى المُنكَر وتنكره بيدك أو لسانك أو قلبك ففيك من الإيمان بقدر ما تُنكر، وإن كنت لا تأبه بذلك ولا تهتم فاعلم أنَّك بعيدٌ عن رياض المؤمنين.

٢١ (٥) الإنكارُ بالقلبِ مع الاستطاعة على الإنكار باليد أو اللسان ضعفٌ في إيمانِ العبد، فاحرص أن تكون من أهل الإيمان الكامل.

٢٢ (٥) جلوسُك في مجالس اللهو والغيبة والنميمة والمُحرَّمات يدلُّ على عدم إنكارِ القلب، فلو أنكرتَ لبغضتَ ذلك المجلس وقمت عنه.

الحديث ١٤٠

ظُهورُ أهلِ الحَقِّ

عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

١ «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»[(١)]،

٢ وفي رواية: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»[(٢)].

(١) البخاريُّ (٧٣١١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) مسلم (١٠٣٧).

آيات

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣]

الراوي

هو: أبو عيسى، المغيرةُ بنُ شُعبة بن أبي عامرِ بنِ مسعودِ بنِ مُعْتِبِ الثَّقَفيُّ، أحدُ دُهاة العرب وقادتهم ووُلاتهم، من كبار الصحابة أُولي الشجاعة والْمَكِيدة، أسلم عامَ الخندق، وأوَّلُ مَشاهده الحُدَيبية، شهِد بيعةَ الرضوان، ذهَبت عينُه يوم اليرموك، تولى البصرةَ ثم الكوفة لعمر بن الخطاب ﷺ، وفتح عدة بلاد، ثم أقرَّه عثمان ﷺ على الكوفة، واعتزل الفتنةَ، تُوفِّي سنةَ (٥٠هـ)[(١)].

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ دينَ الإسلام باقٍ إلى أن تقوم الساعة، يحمله رجالٌ من المؤمنين، يجهرون به وينتصرون له، لا يضرهم مَن خالفهم أو حاربهم.

(١) ترجمته في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ٢٨٥)، و«معجم الصحابة» للبغويِّ (٥/ ٣٩٨)، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٤٤٥).

١ يخبر ﷺ أن هذا الدين باقٍ إلى قيام الساعة، ببقاء مَن يحملُ رايتَه ويدافع عنه ويدعو إليه، فلا تزال **جماعةٌ** من النَّاس **يُظهرون الحقَّ وينتصرون به على أعدائهم، غير مستترين بدينهم؛ بل يجهرون به ويدعون إليه**[١]، إلى أن تقوم الساعة ويأتي أمرُ اللهِ تعالى وهم على حالهم ذاك.

والمراد بأمر الله تعالى: الرِّيحُ الطَّيِّبةُ التي تكون قبْلَ قيام الساعة تَقبض أرواحَ المؤمنين؛ قال ﷺ: «إن اللهَ يبعَثُ رِيحًا من اليمن ألْيَن من الحرير، فلا تدعُ أحدًا في قلبه مثقالُ حبَّة إيمان»[٢][٣].

٢ وفي الرواية الأخرى بيَّن ﷺ صفاتِ تلك الطائفة؛ فهي قائمةٌ بأمر الله تعالى؛ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقضي بشريعة اللهِ، وتنشر العلمَ بين النَّاسِ، وتنصح للمسلمين، وهم المَعْنِيُّون بقوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وهذه الطائفة لا يضرُّها التَّفرُّد ومخالفة النَّاس لهم، ولا يضيرهم مَن ترك عونَهم ونَصْرَهم.

وفي الحديث إشارةٌ إلى أن وجْهَ الأرض لا يخلو من الصالحين الثابتين على أوامر الله، المتباعِدين عن نواهيه، الحافظين لأمور الشريعة، يستوي عندهم موافقةُ الناس ومخالفتُهم لهم[٤].

وهذه الطائفة التي ذكرها النبيُّ ﷺ ليست محصورةً في فئة معينة؛ فمنها الفقهاءُ وأهلُ الحديثِ والزُّهَّاد والمجاهدون وأهلُ كلِّ أنواع الطاعات[٥].

(١) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلانيِّ (١٣/ ٢٩٤).
(٢) مسلم (١١٧).
(٣) «شرح النوويِّ على مسلم» (١٣/ ٦٦).
(٤) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» للمُلاَّ علي القاري (٩/ ٤٠٤٧).
(٥) «شرح النوويِّ على مسلم» (١٣/ ٦٧).

اتّباعي

١ (١) في الحديث دليلٌ من دلائل نبوته ﷺ ؛ إذ أخبر ببقاء هذا الدين ، وثبات الصادقين عليه إلى آخر الزمان ، وقد وقع ما أخبر ﷺ به . وهذا مما يؤكد صدقَه ويزيدنا إيمانًا إلى إيماننا .

٢ (١) لا تظنَّنَّ أن الإسلامَ يندثر ويضعف إلى أن يتلاشى ؛ فدينُ اللهِ ظاهرٌ باقٍ إلى قيام الساعة ، واللهُ مُتِمُّ نوره ولو كره الكافرون .

٣ (١) ينبغي على الدُّعاة والمُرَبِّين أن يُبَشِّروا النَّاسَ بما يُثبتهم ويبثُّ الأمل في قلوبهم ، كما يحذرونهم وينذرونهم ، فيجمعوا بين الترغيب والترهيب والبشارة والنذارة .

٤ (٢) احرص على أن تكون من أهل تلك الطائفة المنصورة ، فالزم طريق الهدى والدعوة ، وإياك وأهل الضلال والبدع .

٥ (٢) سِيمَا تلك الطائفة الموعودة التي امتدحها النبيُّ ﷺ أنَّها قائمةٌ بأمرِ اللهِ تعالى ، فاعرض ذلك على نفسِك وعملِك ؛ هل تكون منهم أم لا؟

٦ (٢) لا يضرك غُربة السائرين إلى اللهِ تعالى ؛ فأتباع الحقِّ في كل زمانٍ ومكانٍ قلَّةٌ يَمُدُّهم اللهُ بمدده .

٧ (٢) المؤمنُ الحقُّ لا يضرُّه معاداة الناس ومخالفتهم له ؛ فمقصدُه الأسمى مرضات اللهِ تعالى وإن سخط عليه الناس .

٨ (٢) على العاقل الفَطِن أن يلزمَ الصادقين الصالحين في كلِّ زمان ومكان ، وأن يَسير على طريقتهم ، ويكون لهم عونًا وسنَدًا .

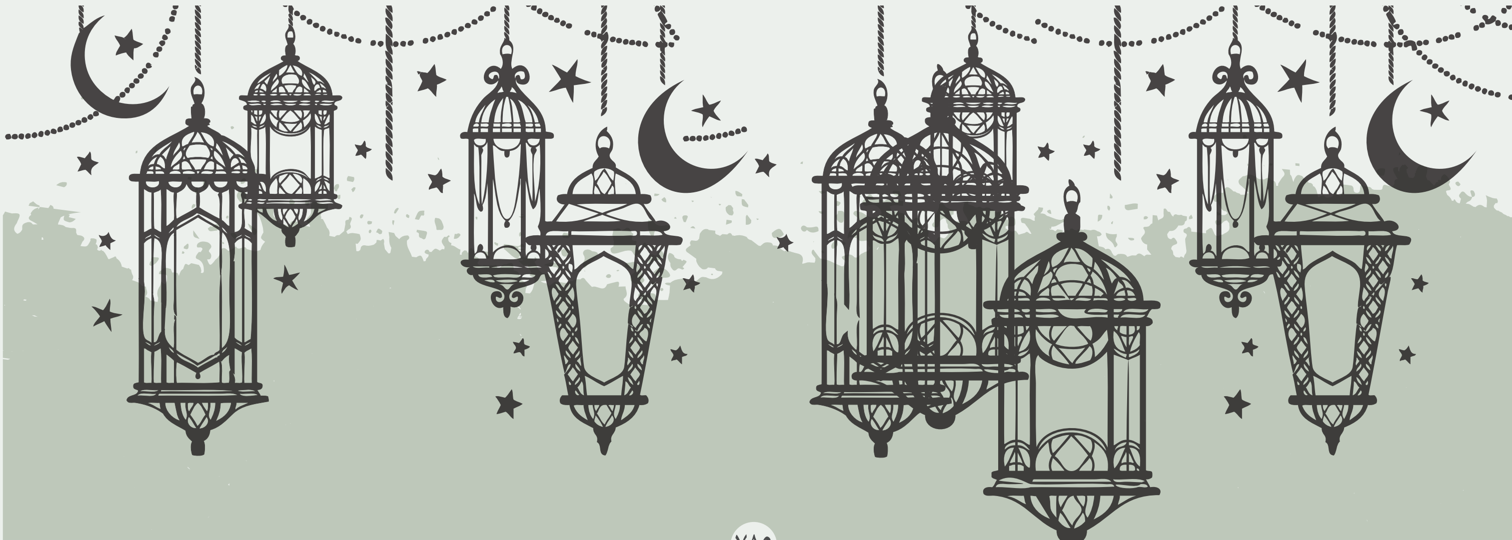

جامعُ أَدَبِ الرُّؤيا

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

١ «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ، لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ،

٢ وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا،

٣ وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ،

٤ وَالرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللهِ،

٥ وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ،

٦ وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ،

٧ فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ»(١).

(١) مسلم (٢٢٦٣).

آيات

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]

الراوي

هو: عبدُ الرحمنِ بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، اليَمانيُّ، هذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَم عامَ خَيبَرَ، وشهِدَها مع رسول الله ﷺ، ثم لَزِمه وواظَب عليه؛ رغبةً في العلم، وكان من أحفَظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، تولَّى إمرةَ البحرين زمان عمر ﷺ، ثم اعتزل الإمارة، وعاش في المدينة إلى أن مات فيها سنةَ (٥٨هـ)(١).

خلاصة

إذا اقتربت القيامة كثر صدق الرؤى التي يراها المسلم، وكلما كان صادقَ الحديث صدقت رؤاه، والرؤيا الصالحة خصلةٌ من خصال النبوة، والرؤى ثلاثٌ؛ فبشرى من الله، وتحزين من الشيطان، وحديثُ نفسٍ. فإذا رأى أحدٌ في منامه ما يكره فليتوضأ وليصلِّ ما يشاء ولا يخبر أحدًا بها فإنها لا تضرُّه.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

فقه

١ يخبر ﷺ أنَّ مع اقتراب القيامة تصدق رُؤى المسلم، فلا تكاد تكذب، والرؤيا الصادقة لها شأنٌ عظيم، فهي من بقايا النبوة كما قال ﷺ في مرضِ موته: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ»[1].

٢ ويكون أصدقُ النَّاسِ حديثًا حينئذٍ أصدقَهم رؤيا؛ فالمؤمن الصَّدُوق الذي يتحرى الصدقَ في حديثه تناله البشارة في الدنيا والآخرة، وكما كان صادقًا في يقظته يكون منامُه صادقًا كذلك، بخلاف الكاذب والفاسق؛ فإنَّ أكثر منامه يكون تخليطًا وأضغاثَ أحلام.

٣ وإنَّ الرؤيا الصالحة خصلةٌ من خصال النبوة؛ فإذا كان النبيُّ ﷺ لرفعة شأنه اختصَّه اللهُ سبحانه بخمسٍ وأربعين خصلةً، فإنَّ الرؤيا الصالحة إحدى تلك الخصال، وقد مكث ﷺ ستةَ أشهرٍ قبل أن ينزل عليه الوحي يرى الرؤيا فتأتي كفَلَقِ الصُّبح.

٤ ثم أخبر ﷺ أنَّ ما يراه الإنسانُ في منامه على ثلاثة أنواع؛ فإما أن يكون رؤيا صالحةً مبشرةً بالخير من الله تعالى أو مخبرةً ببعض أخبار الغيب الذي هو بعض ثمرات النبوة.

٥ وإما أن تكون حلمًا من الشيطان، وهي التي يراها الإنسان في حلمه فتصيبه بالهَمِّ والحزن، من الكوابيس والأشباح ونحو ذلك.

٦ أو تكونُ حديثًا من أحاديث النَّفس، وهو ما يتمنى الإنسانُ تحقيقَه في اليقظة؛ كأن يطمع في الغِنى فيرى في منامه أنه أصاب مالًا ونحو ذلك.

٧ ثم أرشد ﷺ أن المسلمَ إذا وجد ما يُحزنه من الأحلام والرؤى، فليقم ويتوضأ ويصلي للهِ سبحانه ما شاء، ثم لا يُخبر بها أحدًا؛ فإنَّها لن تضرَّه.

---

(١) مسلم (٤٧٩).

اتّباع

١ (١) الرؤيا الصادقة تكون من المؤمنِ، وقد يرى الكافرُ والفاسقُ أحيانًا ما يصدق تعبيرُه، لكن أصدق الناس رؤيا هو المؤمن الحريص على الصدق في حديثه.

٢ (٢) ينبغي على المؤمن أن يتحرى الصدق في حياته كلها قولًا وفعلًا؛ فمتى استقامت حياته نالته البشريات في الدُّنيا والآخرة.

٣ (٣) احرص على أن تتحلَّى بإحدى خصال الأنبياء، فإذا تحلَّيتَ بالصِّدقِ أُوتيتَ خصلة الرُّؤى الصالحة.

٤ (٤) الرؤيا الصالحة بشرى من اللهِ تعالى يُبَشِّر بها عباده، وقد فسَّر ﷺ قولَه تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] بأنَّها «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَه»[١].

٥ (٤) صلاحُ الرؤيا لا يعني أن تكونَ مبشرةً بالخير فحسب، بل قد تبدو فيها بعض الأخبار السيئة، من موتٍ أو مرضٍ أو مصيبةٍ تنزل على النفس أو الأهل، فالمقصود من صلاحِها أنَّها صالحةٌ للتأويل.

٦ (٤) إذا رأى مسلمٌ رؤيا تخيَّر مَن يُحسن تفسيرَها من أهل العلم المعروفين بالتقوى وحبِّ الخير للناس، ولا يخبر بها كارهًا أو عدوًّا.

٧ (٤) يجوز لمن وجد في نفسه القدرةَ على تعبير الرُّؤى أن يجالسَ النَّاسَ ويُؤول لهم ما رأوه، كما كان ﷺ يفعل بعد صلاة الفجر؛ فقد كان يقول لأصحابه: «هل رأى أحدٌ منكم الليلة رؤيا؟»[٢].

٨ (٤) إياك أن تعتمد على رؤياك، فتتكاسل عن الأعمال، بل اجتهد في الطاعات وأَبْشِر بما بشَّرك اللهُ تعالى به.

٩ (٥) ما كان من الأحلام فيه كوابيسٌ وأهوالٌ ونحو ذلك ولم تتحقق فيها صفات الرؤيا فلا عبرةَ بها، ولا تُفَسَّر؛ فإنها من الشيطان يريد أن يُضعف بها إيمانَ العبدِ ويصيبَه بالحزن والغَمِّ.

١٠ (٦) من الطبيعي أن يرى الجائعُ في نومه طعامًا شهيًّا، والفقيرُ مالًا وكنوزًا وخيرًا، والطَّالبُ نتيجةَ امتحانه. وهذا كلُّه من حديث النَّفس الذي يدور في خلجات النَّفس في اليقظة.

١١ (٧) إذا رأى المسلمُ ما يسوؤُه في منامه؛ فإنه يُسَنُّ له أن يقوم فيُصَلِّي، ولا يُخبر أحدًا بما رآه.

١٢ (٧) من آداب النبي ﷺ إذا رأى المسلمُ ما يزعجه: أن يستعيذ بالله تعالى ويتفل عن يساره ثلاثًا، وأن يحول نفسه إلى جنبه الآخر، قال ﷺ: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ الرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا، فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ثَلَاثًا، وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ»[٣].

---

(١) أحمد (٢٣٠٦٣)، والترمذيُّ (٢٢٧٣)، وابن ماجه (٣٨٩٨).

(٢) أحمد (٨٢٩٦)، والترمذيُّ (٢٢٩٤)، وأبو داود (٥٠١٧).

(٣) مسلم (٢٢٦٢).

كثرة الفِتَن

عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ، قَالَ:

١ كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ ﷺ، فَقَالَ: أَيُّكُم سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟

٢ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ؟ قَالُوا: أَجَلْ. قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ؛

٣ وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: أَنَا. قَالَ: أَنْتَ للهِ أَبُوكَ!

٤ قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا،

٥ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ،

٦ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

٧ قَالَ حُذَيْفَةُ: وَحَدَّثْتُهُ: أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ. قَالَ عُمَرُ: أَكَسْرًا لَا أَبَا لَكَ؟ فَلَوْ أَنَّهُ فُتِحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ. قُلْتُ: لَا بَلْ يُكْسَرُ. وَحَدَّثْتُهُ: أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ، حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ(١).

(١) مسلم (١٤٤).

آيـــات

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

الراوي

هو: أبو عبد الله، حذيفةُ بنُ اليَمان بن حسل بن جابر، هاجر هو وأبوه إلى النبيِّ ﷺ، أَسلَم وأراد شهود بدر، فصدَّه المشركون، وشهد أُحدًا والخندقَ، وما بعدَها، توفِّي سنة (٣٦هـ)(١).

خلاصة

أخبر ﷺ أنَّ الصلاة والصدقة والأعمال الصالحة تكفر الذنوب، وأخبر كذلك أنَّ الفتن تتوالى على العبدِ، فإن وقع فيها اسودَّ قلبُه حتى لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا، بل يصير متبعًا هواه، وإن نجا منها صار قلبه صافيًا لا تضرُّه فتنة.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٢/ ٦٨٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٣٣٤)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ٤٦٨).

١ اشتدت هِمَّةُ الصحابةِ ﷺ في مذاكرة العلم وحفظ أحاديث النبيِّ ﷺ، فهذا الفاروق عمر ﷺ يتذاكر مع أصحابِ النبيِّ ﷺ أحاديثَ المصطفى ﷺ، فيسألهم عن حديث الفتنة، من باب المذاكرة أو التذكير والوعظ.

٢ فقال بعض الجالسين من الصحابة: نحن سمعناه منه ﷺ، فبادر عمر بسؤالهم إن كانوا يقصدون حديثَ النبيِّ ﷺ: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، يُكَفِّرُهَا الصِّيَامُ، وَالصَّلَاةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»[١]، فقالوا: أَجَل، ذلك الذي نقصد، فقال عمر ﷺ: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، فأمرُها هَيِّنٌ؛ إذ هي داخلةٌ في قوله ﷺ: «الصلواتُ الخمسُ، والجمُعةُ إلى الجمُعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ، مُكفِّراتٌ ما بينَهن إذا اجتنبَ الكبائرَ»[٢].

وفتنةُ الرجلِ في أهلِه وماله ونفسه وولده أن يرتكبَ العبدُ في سبيلهم ما يُغضب اللهَ تعالى من إتيان المعاصي وترك الفرائض، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وفتنته في جاره أن يحسده على ما عنده من النِّعم، أو ينظر إلى عورات جاره مما لا يطلع عليه غيره[٣].

٣ فقال عمر ﷺ: ليس ذلك الحديث أريد، وإنما أريدُ الفتنةَ العامَّة التي تبطش بجميع الناس وتتلاطم ويتلو بعضها بعضًا كموج البحر، فأيكم يحفظُ ذلك الحديث؟ فسكت النَّاسُ حين لم يكن لهم علمٌ بما قاله الفاروق ﷺ، فقام حذيفة ﷺ فقال: أنا سمعتُ ذلك الحديث، فقال عمر مادحًا له: «لله أبوك»، **وهي كلمة تقولها العربُ على سبيل التشريف والتعظيم، كما هو شأنهم في إضافة الأشياء إلى اللهِ تعالى، فيقولون: بيتُ الله، ناقةُ الله. فيمتدحون والدَه إذ أنجب مثلَه.**

٤ فقصَّ حذيفةُ ﷺ الحديث، وفيه أنَّ الفتنَ تتوالى على القلوبِ من غير فصلٍ، بل متسلسلةً كأعواد الحصير؛ فصانع الحصيرِ يضمُّ الأعواد إلى بعضٍ ويخيطها وينسجها إلى بعضها من غير فجوة.

---

(١) البخاري (٧٠٩٦)، ومسلم (١٤٤).

(٢) مسلم (٢٣٣).

(٣) «إرشاد الساري» للقسطلانيِّ (١/ ٤٨٠).

٥ فإذا تشَرَّب القلبُ تلك الفتنةَ **وُضِع** في قلبه **نقطةٌ** سوداء، وإن أنكرها واستعاذ بالله تعالى منها وُسِمَ في قلبه نقطةٌ بيضاء.

وتلك النقطة السوداء هي الرَّان الذي يكون على القلوب في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

٦ وهكذا تتوالى الفتن وأثرُها من النَّكت في القلوب، يُنكَت في قلب المؤمن نقطة بيضاء، وعلى قلب الكافر نقطة سوداء، حتى يكون النَّاسُ على قلبين؛ قلبٍ أبيضٍ مثل **الحجر الأملس**، فهذا لا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السماء والأرض، كما لا يضرُّ الحجرَ الناعم الأملس ما يصيبه من المطر أو التراب أو غيره، كما قال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤]. والقلب الآخر أسودُ **قاتم يشوب سوادَه الغُبرَةُ**، فهذا لا نَفْع يُرجى منه، كالكوز **المائل الذي لا يُمسك الماء**، وقد تراكمت الفتنُ على ذلك القلب حتى نكَّستْ فطرتَه فصار لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا، بل يكون متبعًا هواه فيأمره بالمعصية وينهاه عن الطاعة.

٧ ثُمَّ يُطمئنُ حذيفةُ عمرَ ﷺ؛ فإنه لا خوفَ عليه منها؛ فإنَّ بينه وبينها بابًا مانعًا يمنعها منه. إلا أنَّ ذلك المانع سيُكسر عمَّا قريبٍ، فقال عمر ﷺ: أيُكسر أم يُفتح؟ إذ لو فُتح لأمكن غلقُه مجدَّدًا، قال حذيفةُ ﷺ: بل يُكسر، فإذا كُسر لم يَحُل بين الفتنةِ والنَّاسِ حائلٌ. وأراد بالبابِ رجلًا يموتُ كان حاجزًا الفتنَ، فإذا مات هجمت. وذلك الذي قاله حذيفةُ ﷺ إنما هو علمٌ تعلَّمه من رسولِ الله ﷺ، ليس من أغاليط النَّاس وخرافاتهم ولا من كلام أهل الكتاب وأصحاب الرأي.

وقولُ عمر: **«لا أبا لك» من كلام العرب الذي يفيد الحثَّ على الشيء؛ فإن الأب يدفع عن ولده المصائب والضرر، فإذا مات والدُه لم يكن على غيره أن يدفع عن نفسه، فالمعنى: جِدَّ في الأمر وشَمِّر وتأهَّب**.

وقد جاء في روايات الحديث الأخرى أنَّهم سألوا حذيفةَ ﷺ عن ذلك الباب، فقال: البابُ عمر. وأخبرهم أنَّ عمرَ ﷺ كان يعلمُ ذلك[1].

وهذا الحديث من دلائل نبوَّته ﷺ؛ فإنَّه قد وقعت باستشهاد عمر ﷺ فتنٌ كثيرةٌ متوالية، أوَّلها خروج النَّاس على عثمانَ ﷺ وقتله، ثم الفتنة بين الصحابة زمن عليٍّ ﷺ، ونُجُوم الخوارج والمرجئة وغلاة الشيعة.

(١) البخاري (١٤٣٥).

اتّباع

١ (١) حرص الصحابةُ ﷺ على مذاكرة العلمِ وأحاديثِ النبيِّ ﷺ، ولم تشغلهم شواغلُ الدنيا عن ذلك. فينبغي على كلِّ مسلمٍ أن يقتدي بهم في حرصهم علَى العلمِ.

٢ (١) ينبغي على كلِّ داعٍ ومُرَبٍّ أن يتذاكر مع النَّاسِ حديثَ رسولِ الله ﷺ، ويُشركهم معه في الحديث؛ فإن ذلك أنفع لهم، وأفضل في إصغائهم للكلام المطروح.

٣ (١) على العلماء والدُّعاة والخطباء أن يحرصوا على الموضوعات المُهِمَّة التي تمسُّ حاجةُ النَّاس، ولا يستبدل بها الأمور الهامشية والفروع التي ليس لها كبيرُ أثرٍ في حياة النَّاس.

٤ (١) يجوز للرجلِ أن يهتمَّ بطلبِ أحد فروع العلم بعد تحصيله للعلوم الضرورية التي تجب على كلِّ مسلم؛ فإذا فهم الطالبُ أحكامَ الشرع التي لا غِنَى له عنها، جاز له بعد ذلك أن يتخصص في علوم اللغة أو الطب أو الهندسة أو غيرها من العلوم النَّافعة، أو يتميز في فرعٍ من فروع الشريعة كالفقه والتفسير والحديث والعقيدة وغيرها؛ فقد اهتمَّ عمرُ ﷺ بالسؤال عن أحاديث الفتنة خاصة، كما كان حذيفةُ ﷺ يهتمُّ بأحاديث الفتنةِ خوفًا من الوقوع فيها.

٥ (٢) لم يجرؤ أحدٌ من الصحابة على التقوُّلِ على رسول اللهِ ﷺ بما لم يسمع منه، ولهذا سكتوا حين سألهم عمر ﷺ. فلا ينبغي لأحدٍ أن يُفتي بغير علمٍ أو يجادل فيما لا علم له به.

٦ (٢) مهما ارتكبتَ من السيئات والذنوب، فبادر إلى التَّوبة والإنابة والتكفير بالأعمال الصالحة؛ فإنها تمحو السيئات وتُكفِّرها.

٧ (٣) لا ينبغي لطالبِ العلم أن يستحيي من الجواب عن مسألةٍ أو الإفتاءِ فيما عَلِمَ حكمُه واستبان له دليلُه، ولا يمنعه عن ذلك مانعٌ.

٨ (٣) ينبغي على المُرَبِّين والدعاة أن يُكافؤوا النَّابغين من الطُّلَّاب بما يشجعهم على استكمال حرصهم على العلم، وأقلُّ ذلك التشجيع والتحفيز والدعاء.

٩ (٤) تتوالى الفتنُ على القلوبِ ولا عاصمَ منها إلا الإيمانُ باللهِ تعالى، فالجأ إليه في الرَّخاء يعرفك في الشدة.

١٠ (٥) احذر الفتنَ والمعاصي؛ فإنها لا تزال تنكت في قلب العبدِ السَّوادَ حتى يُختم على القلب بالشقاء.

١١ (٥) إذا أذنبتَ أو وقعتَ في معصيةٍ فبادر بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى؛ ليمحوَ اللهُ سبحانه عنك النكتة السوداء.

١٢ (٥) أكثِر من الأعمال الصالحة، وإياك والتعرُّض للفتن صغيرةً كانت أو كبيرةً؛ فبذلك يبيَضُّ قلبُك ولا تؤثرُ عليه فتنةٌ أو شهوة.

١٣ (٦) استعذ باللهِ تعالى من أهل الضلال؛ فإنهم لا يرون إلا المنكر، ولا يتبعون إلا الضلال والهوى.

١٤ (٦) إياك والاستهانة بالفتن والمعاصي؛ فإنها لا تزال بالعبد حتى تطمس فطرته وتُنَكِّس قلبه، فيصير عبدًا لهواه وشهواته.

١٥ (٦) القلوبُ أربعة: قلب أَجْرَدُ، فيه سِراج يُزهِر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أَغلَفُ، فذلك قلب الكافر، وقلب منكوسٌ، فذلك قلب المنافق، عَرَف ثمّ أنكر، وأَبصَر ثمّ عَمِيَ، وقلب تَمُدُّه مادَّتان: مادَّة إيمان، ومادَّة نفاق، وهو لِما غَلَب عليه منهما[١] فاختر لنفسك أيَّ قلبٍ تريد!

١٦ (٧) ينبغي أن يزداد المؤمنُ إيمانًا وتصديقًا باللهِ تعالى وبرسولهِ ﷺ؛ فإنه لا ينطق عن الهوى، وفي كلِّ حديثٍ ترى فيه من دلائل النبوة ما يقطع شكوكَ أهل الكفر وتخرصاتهم.

قال الشاعر:

رَأَيْـتُ الذُّنـوبَ تُمِيـتُ القلـوبَ ... وقـد يُـورِثُ الـذُّلَّ إدْمَانُهـا
وَتَـرْكُ الذُّنـوبِ حَيَـاةُ القلـوبِ ... وخـيرٌ لنفسِـك عِصْيَانُهـا

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» لابن القيم (١/ ١٢).

عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ﷺ، قَالَ:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ»(١).

(١) مسلم (٢٩٤٨).

آيـــات

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢، ١١٣].

الراوي

هو: مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ الْمُزَنِيُّ ﷺ، أبو عليٍّ، صَحِب النبيَّ ﷺ، وروى عنه، أَسلَم قبل الحُديبية، وشَهِد بَيعة الرِّضوان، سَكَن البصرة، وابتنى بها دارًا، وولَّاه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ الإمارة فيها، وهو الذي حَفَر نهر مَعقِل بالبصرة بأمر عمرَ ﷺ، فنُسِب إليه، توفِّي بالبصرة في آخر خلافة مُعَاوِيَةَ بن أبي سفيانَ ﷺ(١).

خلاصة

العبادةُ في زمان الفتنِ لها أجرٌ عظيم، يعدِلُ أجرَ المهاجرين في سبيل اللهِ تعالى.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥/ ٢٥١١)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١٤٣٢)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٥/ ٢٢٤)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٦/ ١٤٦).

يبين النبيُّ ﷺ عظيمَ فضلِ العبادةِ في زمان الفتن؛ حيث ينشغل النَّاسُ بالشهوات والمَلَذَّات وتكثر المعاصي وتُسفك الدِّماء، فيخبر ﷺ أن العبادة في تلك الأوقات تُضاهي في ثوابِها ثوابَ المهاجرِ **الذي يترك أهلَه ووطنَه ومالَه في سبيل اللهِ تعالى وطاعةً للنبيِّ ﷺ**.

والعبادةُ: «**اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة،** فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله»[١].

والهَرْجُ: **كثرة الفتن وانتشار القتل**، ومنه قوله ﷺ: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ العَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ»، قَالُوا: وَمَا الهَرْجُ؟ قَالَ: «القَتْلُ القَتْلُ»[٢].

وإنما كانت العبادةُ في ذلك الزمان خاصَّةً عظيمةَ الأثر؛ لأنَّ الغالب حينئذ على النَّاس الوقوع في الفتن وعدم المبالاة بالحلال والحرام، فكان المنعزلُ عن عامَّة النَّاس مثلَ المهاجر الذي ترك قومَه على شِركِهم وكفرهم وخرج فارًّا بدينه[٣].

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ١٤٩).

(٢) البخاريُّ (٦٠٣٧)، ومسلم (١٥٧).

(٣) ينظر: «لطائف المعارف» لابن رجب (ص: ١٣٢)، «فيض القدير» للمناويِّ (٤/ ٣٧٣).

اتباعي

١ اشغل نفسَك بالطاعة وإلا شغلتْكَ بالمعصية.

٢ لا تغترَّ بكثرة الهالكين، ولا تيأس من قلة السَّالكين، فإنَّ أتباع كلِّ باطلٍ كثيرون.

٣ في الحديث دليلٌ على استحباب عمارة أوقات غفلة الناس بالطاعة، وأن ذلك محبوب لله عزَّ وجلَّ كما كان طائفةٌ من السلف يستحبُّون إحياء ما بين العشاءين بالصلاة، ويقولون: هي ساعة غفلة؛ ولذلك فضِّل القيام في وسَط الليل المشمول بالغفلة لأكثر الناس فيه عن الذكر[1].

٤ العبادة في زمان الفتن ووقت الغفلة تساوي في الأجر الهجرةَ من دار الكفر إلى دار الإسلام، ولا أجرَ يرتقي على الهجرة، بل إنَّ الله تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

٥ أخبر النبيُّ ﷺ بوقوع الفتن في آخر الزمان لكي يستعدَّ لها المسلمُ ويتأهب بالمبادرة إلى الطاعات والتمسك بحبل اللهِ تعالى.

٦ العبادة في وقت الغفلة أمانٌ للنَّاس، فلولا العُبَّاد في زمان الفتن لدمَّرَ اللهُ تعالى الأرضَ ومن عليها. فاحرص أن تكون صمام أمان للمسلمين.

قال الشاعر:

إذَا لَمْ أجِدْ خِلاً تَقِيًّا فَوَحْدَتي ... ألَذُّ وأشهى من غويٍّ أعاشِرُهْ
وأجلِسُ وَحْدي للعبادة آمِنًا ... أَقَرُّ لعَيْشِي من جَليسٍ أُحاذِرُهْ

(١) «لطائف المعارف» لابن رجب (ص: ١٣١).

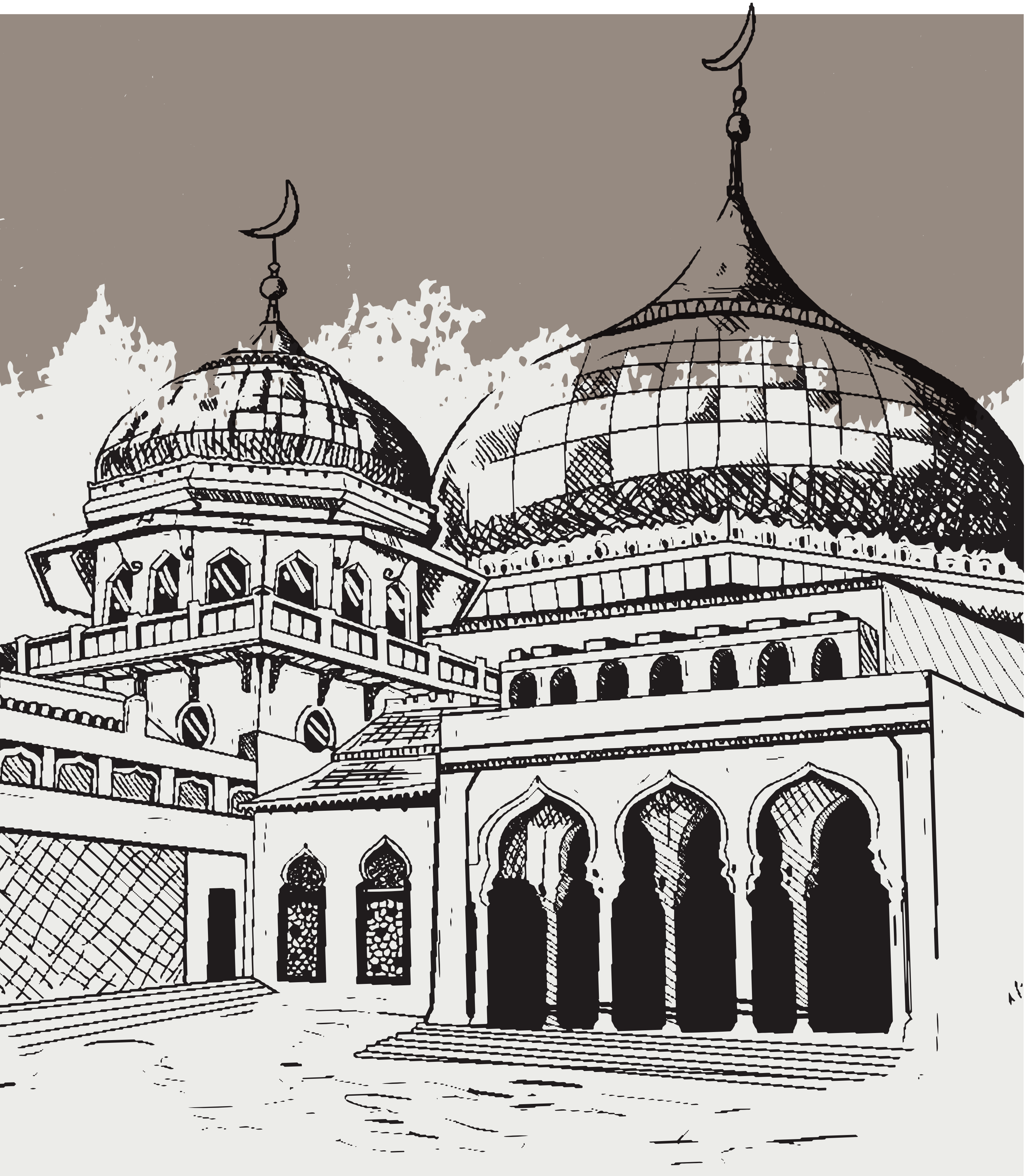

الصَّبرُ في الفِتَن

عنْ أَبي سَعيدٍ وأَبي هُرَيْرة رضي الله عنهما

عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلا هَمٍّ وَلا حزَنٍ وَلا أَذًى وَلا غمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةُ يُشاكُها، إلَّا كفَّر اللَّهُ بها مِن خطَايَاه»(١).

(١) البخاريُّ (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣).

آيــــات

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

الرَّاوي

أبو سعيد الخدري: هو: أبو سعيدٍ سعدُ بنُ مالكِ بن سِنَانٍ الأنصاريُّ الخزرجيُّ المَدنيُّ، الخُدريُّ، صَحابيٌّ جَلِيلٌ من فُقَهَاء الصَّحابَة، اسْتُصْغِرَ يَوْمَ أُحُدٍ، واستُشهد أبوه فيها، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَشاهِده الْخَنْدَقُ، وَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ غَزْوَةً، وشَهِد بيعة الشجرة، روى حديثًا كثيرًا، وأفتى مدَّةً، مات في أول سنة أربع وسبعين(١).

وأبو هريرة: هو: عبدُ الرحمن بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزديُّ، اليَمانيُّ، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ، وشهِدَها مع رسول الله ﷺ، ثم لَزِمه وواظَب عليه؛ رغبةً في العلم، وكان من أحفظِ أصحابِ رسول الله ﷺ، تولَّى إمرة البحرين زمان عمر رضي الله عنه، ثم اعتزل الإمارة، وعاش في المدينة إلى أن مات فيها سنةَ (٥٨هـ)(٢).

خلاصة

جميعُ أمرِ المسلم خيرٌ له، إن عُوفي شَكَر فأُجر على العافية، وإن ابتُلي ولو بشوكةٍ في إصبعه كفَّر الله بذلك عنه.

(١) انظر: «الطبقات الكبير» للزهريِّ (٥/ ٣٥٠)، «تذكرة الحفاظ» للذهبيِّ (١/ ٣٦)، «البداية والنهاية» لابن كثير (٩/ ٣، ٤)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٣/ ٨٥).

(٢) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

فقـــه

يبين النبيُّ ﷺ صورةً من صور فضلِ اللهِ تعالى على عباده المؤمنين؛ فإنَّ جميعَ أمرِ المؤمن له خيرٌ، كما قال ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

فيخبر ﷺ أنَّ كلَّ ما يصيب المسلمَ من الابتلاءات، من **تَعَبٍ** أو **وجعٍ** أو **تكديرٍ في القلب لما يخشى حصولَه أو فواته في المستقبل**، أو **لما أصابه في الماضي**، أو أذًى مطلقًا يصيبه، أو **ضيقٍ في القلبِ يغتمُّ به**، يسيرًا كان ذلك أم قويًّا، حتى الشوكة التي **تصيبُ** المسلم، فجميع ذلك يمحو من سيئاته، وقد قال ﷺ: «ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِه وولدِه ومالِه حتَّى يلقَى اللهَ تعالَى وما عليه خطيئةٌ»(٢).

على أنَّ ذلك الأجر وتكفير السيئات إنما يشترط فيه الصبرُ والاحتساب؛ فإن جزع المرءُ لما نزل به من البلاءِ كان آثمًا مأزورًا.

(١) مسلم (٢٩٩٩).
(٢) الترمذيُّ (٢٣٩٩).

اتّباع

١ واجِه البلاءَ بنفسٍ راضيةٍ محتسبةٍ، تنل الأجر على الصبرِ والكفارةَ على المرض.

٢ ربٌّ يتفضَّلُ على عبادِه بألوان الأجر والثواب حقيقٌ ألَّا يغفل اللسانُ عن شكرِه والجسدُ عن الخضوع له والانقياد لأوامره في حبٍّ.

٣ ليس المُصابُ مَن نزل به البلاء، وإنما المُصابُ حقًّا من حُرم الثواب مع ذلك.

٤ البلاءُ نازلٌ بك لا محالة، فاصبر على ما نزل بك ولا تجزع. قال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه للأشعثِ بنِ قيسٍ رضي الله عنه: «إنَّك إن صبرتَ، جرى عليك القلمُ وأنت مأجورٌ، وإن جَزِعت، جرى عليك القلم وأنت مأزورٌ»[(١)].

قال الشاعر:

دَعِ الأيَّامَ تفعلُ ما تشاءُ ... وطِبْ نفسًا بما حَكَمَ القضاءُ
ولا تَجْزَعْ لحادثةِ اللّيالي ... فما لحوادثِ الدُّنيا بَقَاءُ
ورِزْقُكَ ليس يَنقُصُه التَّأنِّي ... وليس يَزيدُ في الرِّزق العَنَاءُ
ولا حُزْنٌ يَدُومُ ولا سُرورٌ ... ولا بُؤْسٌ عَلَيْكَ ولا رَخَاءُ

وقال غيره:

وإذا عَرتْك بَلِيَّةٌ فاصبِرْ لها ... صبرَ الكريم فإنَّه بك أَعْلَمُ
وإذا شَكَوْتَ إلى ابنِ آدمَ إنما ... تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يَرحمُ

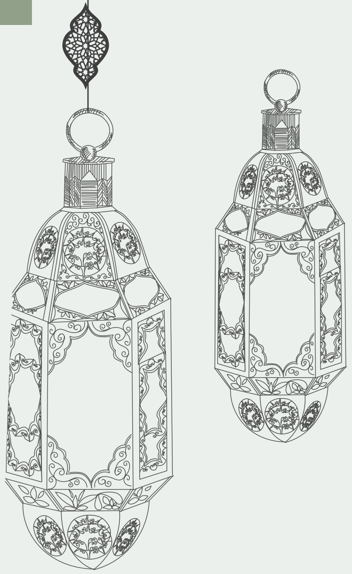

(١) «أدب الدنيا والدين» للماورديِّ (ص ٢٨٨).

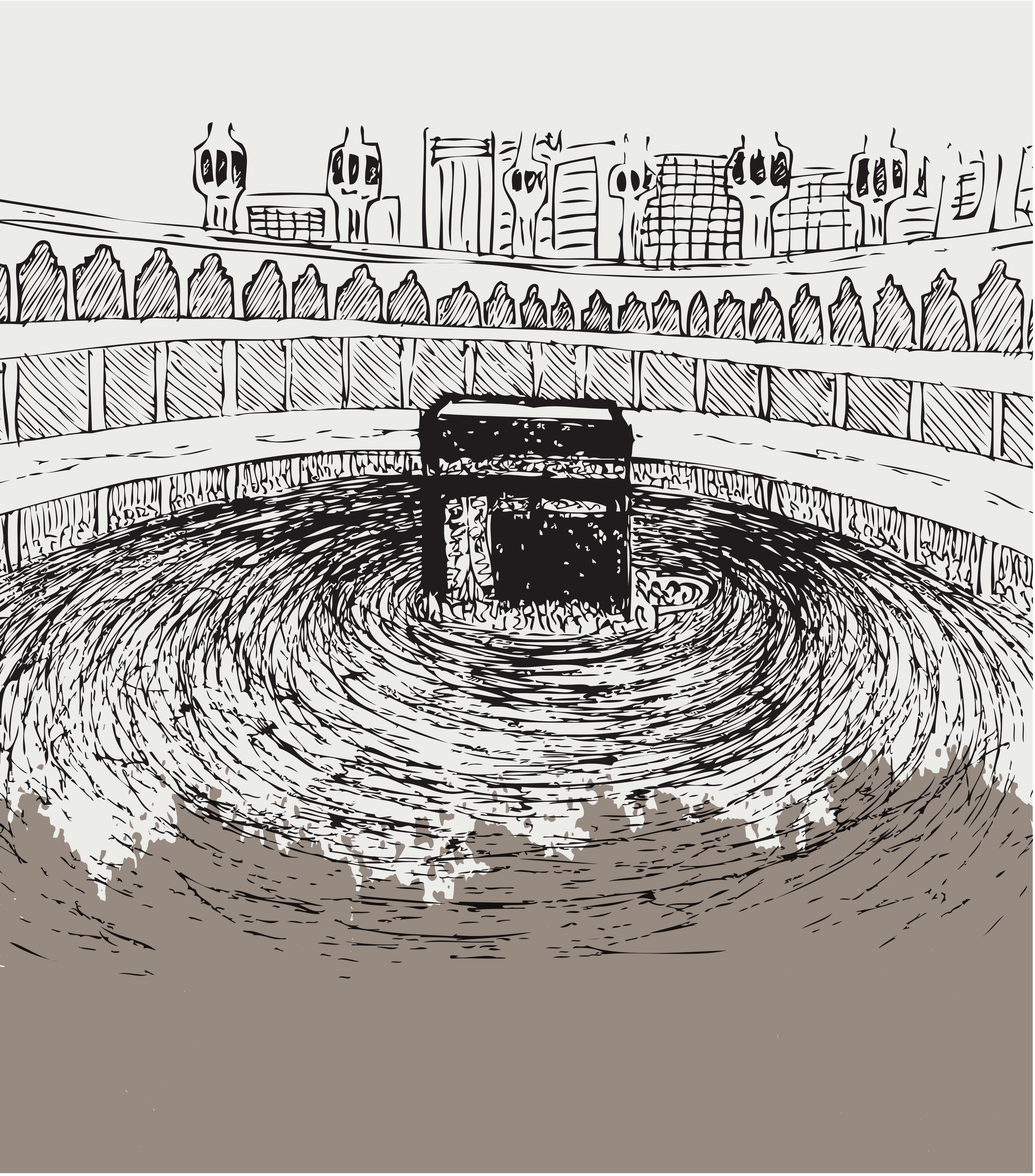

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

١ «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ،

٢ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[(١)].

(١) أحمد (١٣٠٤٩)، والترمذيُّ (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٣٩).

آيــات

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

الرَّاوي

هو: أبو حَمْزَةَ، أنسُ بنُ مالكِ بن النضرِ بن ضَمْضَم الأنصاريُّ، راوية الإسلام، خادم رسول الله ﷺ وقرابته من النساء، وآخر أصحابه بالبصرة موتًا، قَدِمَ رسولُ الله المدينة وهو ابْنُ عَشْرٍ، وَمَاتَ وهو ابْنُ عِشْرِينَ، وكان يَخدُم النبيَّ ﷺ فَصَحِبَه أتَمَّ الصُّحْبَةِ، وَلَازَمَهُ أَكْمَلَ الْمُلَازَمَةِ مُنْذُ هَاجَرَ، وإلى أن مات، وغزا معه غَيْرَ مَرَّةٍ، وَبَايَعَ تَحْتَ الشجرة. دعا له رسول الله ﷺ بكثرة المال والولد، وكانت نَخَلاته تحمل في السَّنة مرتَين، تُوفِّي سنةَ: (٩٣هـ)[(١)].

خلاصة

كل إنسانٍ يقترف من الذنوب والمعاصي، فلا أحدَ معصومٌ بعد الأنبياء. وإنما خيرُ النَّاسِ من يُبادر بعد الوقوع في الخطأ بالتوبة.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٢٣١)، «معجم الصحابة» للبغويِّ (١/ ٤٣)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ١٥١-١٥٣)، «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤١٧-٤٢٣).

فقــــه

١ لمَّا كان الإنسانُ في طبعه ضعيفًا، تُنازعه النَّفسُ وشهواتها، وتزين له الدنيا زخارفَها، ويُوسوس له الشيطان ويُغويه، كان بديهيًّا أن يقع في المعاصي والذنوب، ولهذا أخبر ﷺ أنَّ كلَّ بني آدم **كثيرو الوقوع في الخطأ والمعاصي**، فليس أحدٌ من البشرِ معصومًا غير الأنبياء.

٢ وليس معنى ذلك أن يسترسل الإنسانُ في ذنوبِه ويقترف منها ما شاء، ولهذا بيَّن ﷺ أنَّ خيرَ النَّاس حينئذٍ هم كثيرو التوبة والإنابة إلى اللهِ تعالى سريعًا، فكلَّما اقترفوا ذنبًا بادروا بالتوبة والنَّدم، من غير إصرارٍ منهم على الذَّنب، كما قال اللهُ تعالى في وصف عباده المتقين: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٣٥].

اتباع

١ (١) لا تُعَيِّرْ أحدًا بذنبٍ، فكلُّ ابنِ آدم خطَّاء.

٢ (١) إياك والإصرار على الذنب بحُجَّةِ أنَّ كلَّ النَّاس يخطؤون، فإنَّ ذلك ليس مبررًا لذنوبك.

٣ (١) لا تيأس من رحمةِ اللهِ تعالى لكثرةِ ذنوبك؛ فإن الله تعالى لو شاء عبادًا لا يعصون لخلقنا كالملائكة، قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لهمْ»[١].

٤ (١) حذارِ من احتقار الذنوب ورؤيتها يسيرةً؛ فإن ذلك باعثٌ على المداومة على الذنب وعدم التوبة. قال عبدالله بن عباسٍ رضي الله عنهما: «يا صاحبَ الذَّنْب، لا تأمَنَنَّ مِن سوء عاقبته، ولَمَا يَتبَع الذنبَ أعظمُ من الذنب إذا علمتَه؛ فإن قلَّة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال، وأنت على الذنب، أعظمُ مِن الذنب الذي عملتَه، وضَحِكُكَ وأنت لا تدري ما اللهُ صانع بك أعظمُ من الذنب، وفرحُكَ بالذنب إذا ظَفِرْتَ به أعظمُ من الذنب، وحُزْنُكَ على الذنب إذا فاتك أعظمُ من الذنب إذا ظَفِرْتَ به، وخوفُك من الريح إذا حرَّكَتْ سِتْرَ بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك مِن نظر الله إليك أعظمُ مِن الذنب إذا عملتَه»[٢].

٥ (٢) سارِع بالتوبة إلى اللهِ تعالى كلَّما أذنبتَ أو اقترفتَ معصيةً من المعاصي، ولا تقنط من رحمة الله تعالى، فهو سبحانه الذي يقول في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِؤُون بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»[٣].

٦ (٢) من أراد الله به خيرًا، فتح له باب الذُّلِّ والانكسار، ودَوَام اللجوء إلى الله تعالى، والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه، وجهلها، وعُدْوانها، ومشاهدة فضل ربِّه، وإحسانه، ورحمته، وجُوده، وبِرِّه، وغناه، وحمده[٤].

٧ (٢) أَقْبِل على ربِّك مهما كان ذنبُك، ومهما عظمت سيئاتك؛ فإنه جلَّ وعلا يفرح بتوبة العبد، كما قال ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظ

---

(١) مسلم (٢٧٤٩).

(٢) «حلية الأولياء» لأبي نُعيم الأصبهانيِّ (١/ ٣٢٤).

(٣) مسلم (٢٥٧٧).

(٤) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن القيم (ص: ٧).

اتّباعي

وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»(١).

٨ (٢) التوبة من الذنب تقتضي النَّدمَ على ما أجرمتَ في حقِّ الله تعالى، فإياكَ والتفاخر بالمعاصي وإن كنت تبتَ منها.

٩ (٢) لا يحملنَّك كثرة المعاودة إلى الذنب على عدم التَّوبة، فقط أخلِص النِّيَّة على التوبة، واعزم على عدم الفعل، وتُب إلى اللهِ تعالى، ثم لا يضرُّك الوقوع مجددًا في الذنب، أَعِد الكرَّة وتُبْ من جديد. قال ﷺ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»(٢).

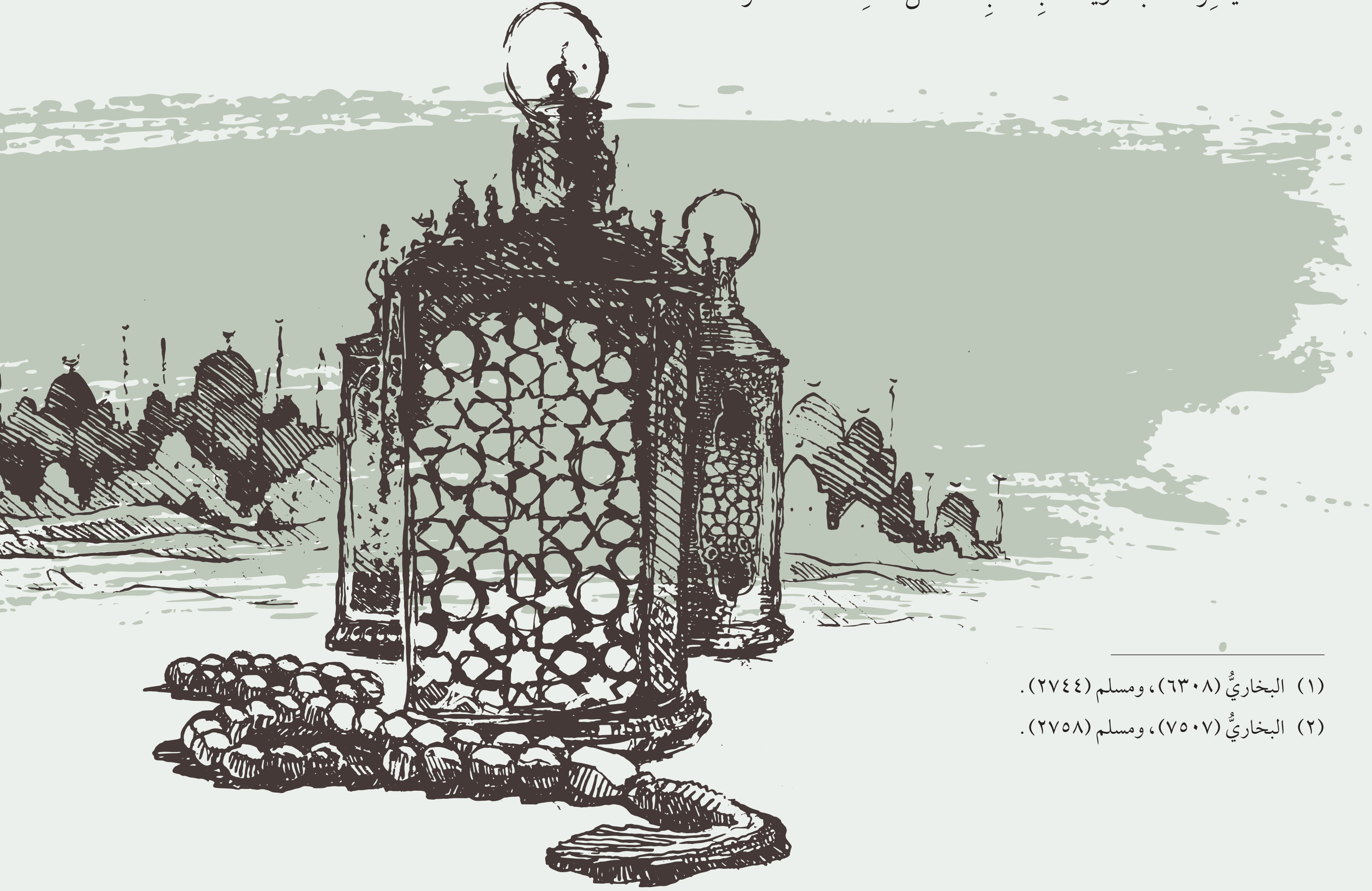

(١) البخاريُّ (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

(٢) البخاريُّ (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

١٠ (٢) إياك أن تظنَّ أن ذنبَك لن يُغفر؛ فإن ذلك تكذيبٌ له سبحانه حين قال: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

١١ (٢) إذا أردتَ التَّوبة: فشروطُها: النَّدمُ على المعصية، والإقلاعُ عنها، والعزمُ على عدم الرجوع إليها، وإرجاع الحقِّ لصاحبه إن كان الذنبُ متعلقًا بحقوق العباد أو إرضائهم.

١٢ (٢) التَّوبة لا تمحو السيئات فحسب، وإنما تُبدِّلها إلى حسنات، فهنيئًا للتائب بمحو الذنب وكثرة الحسنات!

قال الشاعر:

يا نفسُ كُفِّي عن العصيانِ واكتَسِبي ... فِعلًا جميلًا لعلَّ اللهَ يرحَمُني
يا نفسُ ويحكِ توبي واعمَلي حسنًا ... عسى تُجازَيْنَ بعد الموتِ بالحَسَنِ

وقال غيره:

يا ربِّ إنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً ... فلقد عَلِمْتُ بِأَنَّ عفوَكَ أَعْظَمُ
إنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ ... فبمن يلوذُ ويستجيرُ المجرمُ؟!
أَدْعُوكَ رَبِّ كما أمرتَ تَضَرُّعًا ... فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فمن ذا يَرْحَمُ؟!
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا ... وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمُ

الحديث ١٤٦

من شُروطِ التَّوبة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

١ «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ،

٢ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ»[1].

(١) البخاريُّ (٢٤٤٩).

آيات

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

الراوي

هو: عبدُ الرحمن بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزديُّ، اليَمانيُّ، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، أسلَمَ عامَ خَيبَرَ، وشهِدَها مع رسول الله ﷺ، ثم لَزِمه وواظَب عليه؛ رغبةً في العلم، وكان من أحفَظِ أصحاب رسول الله ﷺ، تولَّى إمرةَ البحرين زمان عمر ﷺ، ثم اعتزل الإمارة، وعاش في المدينة إلى أن مات فيها سنة (٥٨هـ)[1].

خلاصة

على المرءِ أن يردَّ المظالم إلى أهلها، ويطلب العفوَ ممن أساءَ إليهم، قبل أن يكون القصاص بالحسنات والسيئات.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

فقـــه

١ يحضُّ النبيُّ ﷺ على المبادرة بالتوبة وردِّ المظالم إلى أهلها، فمن كان عنده **شيءٌ أخذه من أخيه المسلم بغير وجه حقٍّ**، سواءً كان ذلك في عرضه كالسَّبِّ والغيبة والنميمة ونحوها، أو غيرها بأن أكل مالَه أو غصبه حقَّه أو ضربه ونحو ذلك، فعليه أن يتحلل منه قبل يوم القيامة، حيث ينقطع التعامل بالأموال، فلا يمكن الردُّ حينها. **والتَّحَلُّل يكون بردِّ المظالم إلى أهلها واستسماح النَّاس وطلب الصفح منهم**.

٢ فإن لم يتحلل العبدُ في الدنيا من مظلمته، كان القصاص بالحسنات والسيئات؛ فيؤخذ من حسنات الظالم إن كانت عنده حسنات، وتُعطى للمظلوم، وإن لم تكن عنده حسنات أُخذ من سيئات المظلوم فطُرحت على الظالم، لقوله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[١].

(١) مسلم (٢٥٨١).

اتّباع

١ (١) احذر أموالَ النّاس ودماءهم وأعراضهم؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُعَجِّلُ عقوبة الظالم؛ قال ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، مِثْلُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»[١].

٢ (١) إذا كان اللهُ سبحانه وهو الملك القيوم الذي بيده السماوات والأرض، حرَّم الظلم على نفسه وقال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»[٢]، فكيف بالعبد الضعيف الذي لا يخرج عن أمرِ اللهِ تعالى.

٣ (١) بادِر بالتحلل من مظالم النّاس قبل أن تندم ولات حينَ ندم.

٤ (١) يشترط في التوبة ردُّ المظالم إلى أهلها والتحلُّلُ منهم، فاحرص على أن تكون توبتُك مقبولةً.

٥ (١) احذر دعوةَ المظلوم؛ فإنَّها مجابةٌ تُفتح لها أبوابُ السماء، قال ﷺ: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»[٣].

٦ (١) احذر الظلم؛ فقد قال ﷺ: «اتَّقوا الظلم؛ فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة»[٤].

٧ (٢) احتفظ بحسناتك التي نِلتها بالتَّعب والانتصاب بين يدي اللهِ تعالى، أن يأخذها منك مظلومٌ ظَلَمْته أو تكلمت في عرضه.

٨ (٢) إذا كانت تخشى أن تكون مفلسًا في الدنيا، فإفلاس الآخرة أشقُّ وأشقى.

٩ (٢) تخيَّل أن تحمل أوزارًا لم تصنعها، وإنما وُضعت عليك جزاءً لكلمةٍ قلتَها في حقِّ أخيك.

١٠ (٢) سارِع في ردِّ المظالم قبل أن تُجبر على القصاص بالحسنات والسيئات، لا بالأموال والعُروض.

---

(١) أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذيُّ (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١).

(٢) مسلم (٢٥٧٧).

(٣) البخاريُّ (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

(٤) مسلم (٢٥٧٨).

قال الشاعر:

وَفِي النَّاسِ مَن ظُلمُ الوَرَى عَادةٌ لهُ ... وَيَنْشُرُ أَعَذارًا بها يَتَأوَّلُ
جَـرِيءٌ على أَكْلِ الحرام ويدَّعِي ... بأنَّ له في حِلِّ ذلك مَحْمَلُ
فَيَا آكِلَ المَالِ الحرامِ أَبِنْ لنا ... بأيِّ كتابٍ حِلُّ مَا أَنْتَ تَأكُلُ؟
أَلَمْ تَدْرِ أَنَّ الله يَدْرِي بما جَرَى ... وبينَ البَرَايَا في القِيامةِ يَفْصِلُ

وقال غيره:

لا تَظْلِمَنَّ إذا ما كُنْتَ مُقْتَدِرًا ... فالظُّلْمُ آخِرُه يَأْتِيكَ بالنَّدَمِ
نامَتْ عُيُونُكَ والمظلومُ مُنْتَبِهٌ ... يَدْعو عَلَيْكَ وعَيْنُ اللهِ لم تَنَمِ

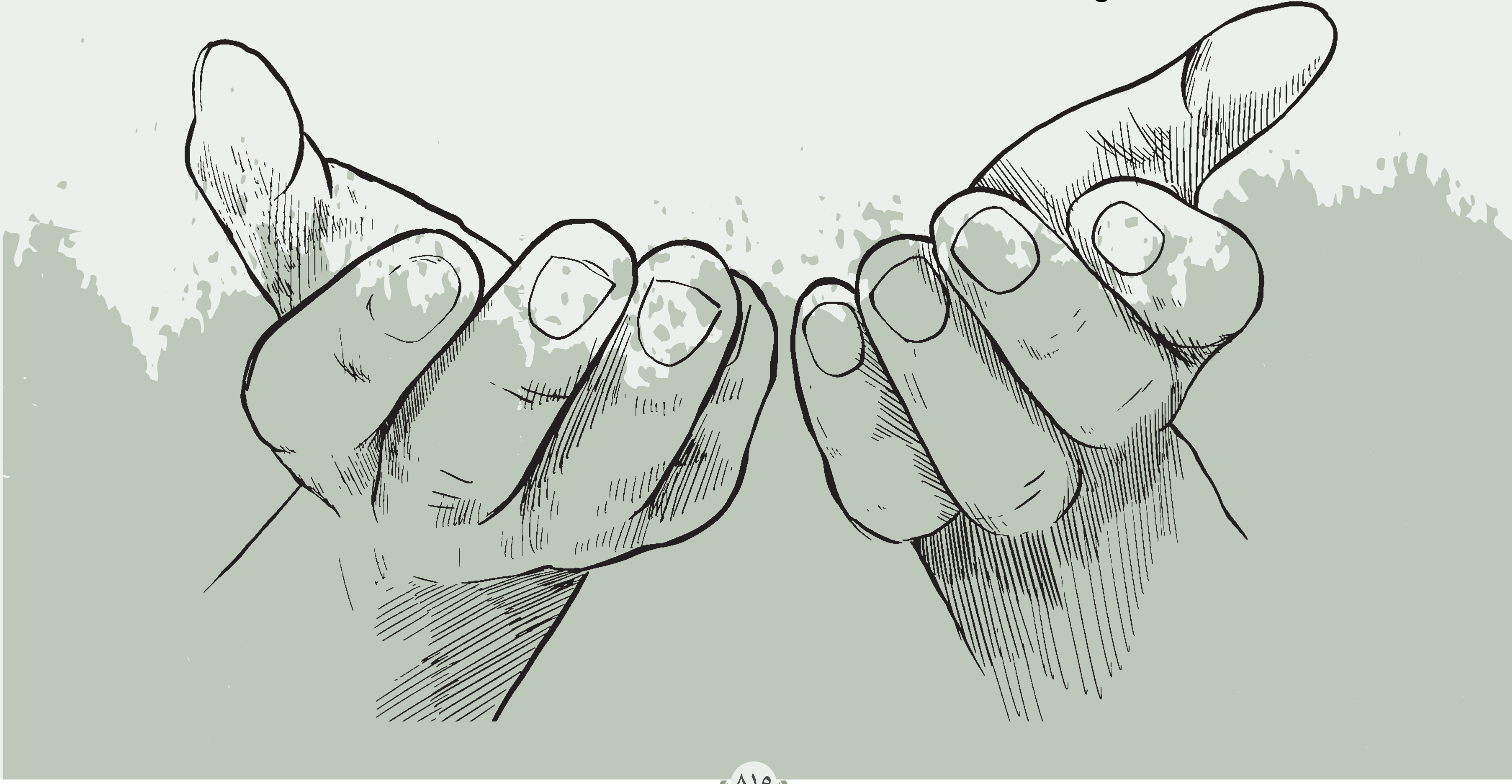

الحديث ١٤٧

من مكفِّراتِ الذُّنوب

عَنْ عَمْرِو بنِ العَاصِ ﷺ قَالَ:

١ لَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلامَ فِي قَلْبِي، أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ،

٢ فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي. قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي،

٣ قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟

٤ وَأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟

٥ وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟»[١].

(١) مسلم (١٢١).

آيـــات

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]

الرّاوي

هو: أبو عبدِ الله، عمرُو بنُ العاص بن وائل، القرشيُّ، السَّهميُّ، داهيةُ قُريش، وفاتح مصرَ، يُضرَب به الْمَثَل في الفِطنة والدهاء والحزم، وهو الذي أرسلته قُريش إلى النجاشيِّ ليرد إليهم مَن عنده من المسلمين، أسلم سنة ثمان من الهجرة قبل فتح مكة بستة أشهر، وهاجر إلى النبيِّ ﷺ، تُوفِّي سنةَ (٤٣هـ)[١].

خلاصة

خاف عمرو ﷺ أن يُؤاخَذ بما فعله قبل إسلامه، فأراد أن يشترط أن يغفر اللهُ تعالى له ذلك قبل أن يُسلم، فأخبره ﷺ أنَّ الإسلامَ يغفر ما كان قبله.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ١٩٨٧)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١١٨٤)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٧٤١).

فقـــه

١ لمَّا شرح اللهُ سبحانَه صدرَ عمرو بن العاص ﷺ للإسلام، أتى إلى النبيِّ ﷺ وطلب منه أن يعطيه يدَه **ليصافحه ويعاهده** على الإسلام، كما كانت العادةُ حينذاك في مبايعةِ الرجال.

٢ فلمَّا مدَّ النبيُّ ﷺ يمينه إلى عمرٍو ﷺ ليبايعه، قبضَ عمرٌو يده، فتعجبَ النبيُّ ﷺ عن سبب تراجعه عن البيعة، وسأله عن ذلك، فقال عمرو ﷺ: أريد أن أشترط شيئًا قبل أن أبايع، واشترط أن يضمن أن يغفر اللهُ تعالى له ما اقترفه من الذنوب والسيئات ومحاربة دينِ اللهِ تعالى.

٣ فبشَّره ﷺ أنَّ بمجرد دخول المرءِ في الإسلامِ يُمحى ما كان عليه قبل ذلك من الذنوب والشِّرك.

٤ كما أنَّ الهجرةَ من دار الكفر إلى دار الإسلام تهدم ما كان قبلها، وقد كانت الهجرةُ في أولِ الإسلامِ الخروجَ إلى المدينة المنورة حيث رسول الله ﷺ، ثم بعد فتح مكة صارت الهجرةُ ترك دارِ الكفرِ إلى دارِ الإسلامِ أيًّا كانت. وأما حديث: «لا هِجرةَ بعد الفَتْح»[١]، فمعناه: لا هجرةَ من مكة إلى المدينة؛ لأن أهلها صاروا مسلمين، وصارت دارَ إسلام، وإنما الهجرة من دار الحرب[٢].

٥ وكذلك الحجُّ؛ فإنه يمحو ما كان قبله من الذنوب، قال ﷺ: «مَن حجَّ فلم يرفُثْ ولم يَفسُق، رجَع من ذنوبه كيوم ولدَته أُمُّه»[٣].

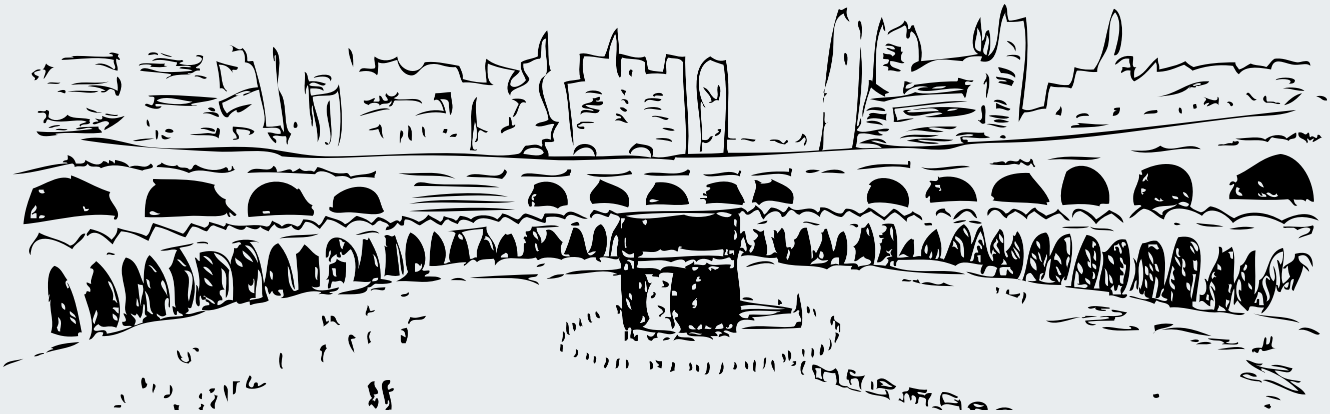

(١) البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣).

(٢) انظر: «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» للمُلاَّ علي بن محمد القاري (١/ ١٠٢).

(٣) البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٢٠).

اتّباع

١ (١) إذا انشرح صدرُك لطاعةٍ من الطاعات فبادِر إليها ولا تتردد أو تُسَوِّف.

٢ (١) لمَّا هدى اللهُ تعالى عمرًا للإسلام، لم يُبالِ بمنصبه ومكانته في قريش التي سيفقدها بإسلامه ويصيرُ واحدًا من عامة المسلمين. فعليك أن تنشغل بالحقِّ ولا تعبأ بما سوى ذلك.

٣ (١) مصافحةُ الرجل لأخيه من السُّنَّة، وقد كان ﷺ يبايع الرجال بالمصافحة، أمَّا مصافحة الرجل للمرأة من غير محارمه فلا يجوز، قالت عائشةُ رضي الله عنها: «واللهِ ما مسَّت يدُ رسول الله ﷺ يدَ امرأة قطُّ، غير أنه بايعهن بالكلام، والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء إلا بما أمره الله، يقول لهن إذا أخذ عليهن: «قد بايعتُكنَّ»»[(١)].

٤ (٢) لم يشترط عمرو بن العاص رضي الله عنه على النبيِّ ﷺ أن يكون قائدًا للجيش أو يتولى ولايةَ بلدٍ من البلدان المفتوحة أو ينال شيئًا من المال مقابل إسلامه، بل اشترط المغفرة والعفو، فيجب أن يكون همُّك مغفرةَ اللهِ تعالى ورفعةَ الدرجات ودخول الجنة، لا غيرها من زينة الدنيا وزخارفها.

٥ (٣) ينبغي على الدُّعاة والعلماء والمُرَبِّين أن يُشجعوا النَّاس على الدخول في الإسلام، ويبينوا لهم أن الإسلام يمحو ما كان قبله من الذنوب والمعاصي.

٦ (٣) إنما يمحو الإسلامُ ما اقترفه العبدُ قبلَه إذا حسُن إسلامُه، أما إن أساء وأكثر من المعاصي والكبائر بعد إسلامه ولم يتب منها فإنه يؤاخذ بالكلِّ؛ قال ﷺ: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ، لَمْ يُؤَاخَذ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ، أُخذ بالأول والآخر»[(٢)].

٧ (٣) من مكارم الإسلام أنَّه يمحو ما ارتكبه العبدُ قبلَه من السيئات والذنوب، أما ما جناه من الحسنات والأعمال الصالحة قبل الإسلام، فإنه يُثاب عليها، كرمًا وإحسانًا من ربِّ العالمين.

٨ (٤) إذا كانت الهجرةُ قد فاتت بانتشار الإسلام في بلادنا، فإنَّ الهجرةَ الأعظم تحصل بالمداومة على الطاعات وهجرة المعاصي وأصحاب البدع والأهواء.

٩ (٥) داوِم على الحجِّ والعمرةِ؛ فإنهما يمحوان الذنوب حتى يعودَ المسلمُ خاليًا من الذنوب كما ولدته أمه.

---

(١) البخاريُّ (٥٢٨٨)، ومسلم (١٨٦٦).

(٢) البخاريُّ (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠).

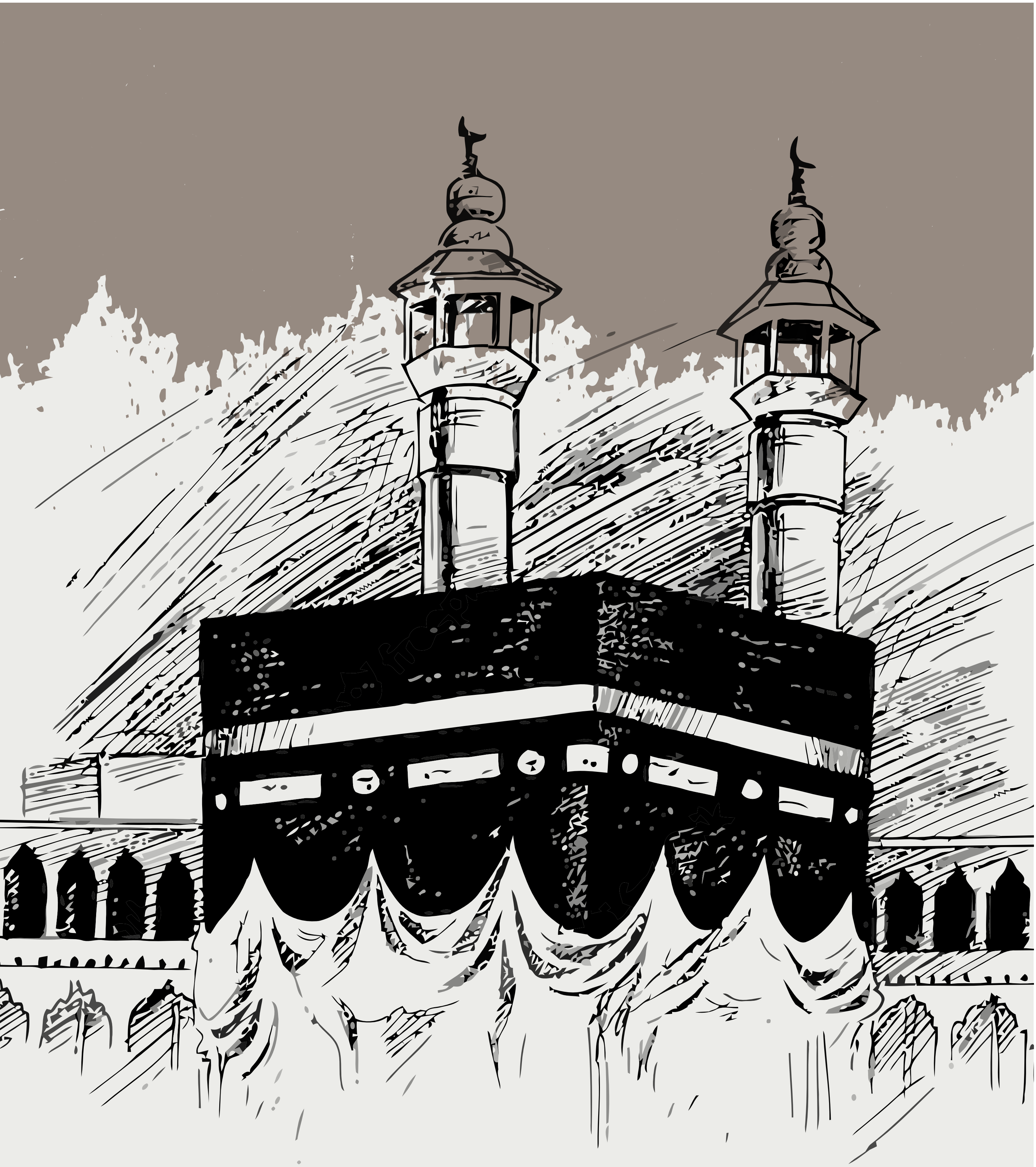

الحديث ١٤٨

حِفظُ التَّوبة للحسناتِ السابقة

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه، قَالَ:

١ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ عَتَاقَةٍ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَجْرٍ؟

٢ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ»[١].

(١) البخاريُّ (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣).

آيـــات

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

الرّاوي

هو: حكيمُ بنُ حزام بن خُويلدٍ القُرشيُّ الأسديُّ رضي الله عنه، أبو خالدٍ، صحابيٌّ جليل، وُلِد بالكعبة قبل عام الفيل بثلاثَ عشْرةَ سنةً، وهو من أشراف قُريش ووجوهها في الجاهلية والإسلام، أسلَم يومَ الفتح، وكان من المؤلَّفة قلوبُهم، ثم حَسُن إسلامه، أَعتَق مِائة رقبة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام، ما صَنَع في الجاهلية شيئًا من المعروف إلَّا صَنَع في الإسلام مثلَه، عاش مِائةً وعشرين سنةً، نِصْفَهم في الجاهلية، ونصفَهم في الإسلام، ذَهَب بصرُه قبل موته، وتوفِّي بالمدينة سنةَ (٥٤هـ)، وقيل: سنة (٥٨هـ)[١].

خـلاصة

سُئل النبيُّ ﷺ عن مصير الأعمال الصالحة قبل الإسلام، فأخبر ﷺ أنَّ العبدَ إذا أسلم أُثيب على ما قدَّم من خيرٍ قبل إسلامه.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٢/ ١٠٧)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (١/ ٣٦٢)، «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير (٢/ ٥٨).

فقه

١ سأل حكيمُ بنُ حزام رضي الله عنه النبيَّ ﷺ عن مصير الأعمال الصالحة التي كان يفعلها قبل إسلامه **ويتعبَّد** بها، من الصدقات **وتحرير الرِّقاب** وصلة الأرحام ونحو ذلك؛ فقد كان حكيمٌ رضي الله عنه سخيًّا كريمًا، فقد أعتق في الجاهلية مائةَ عبدٍ من العبيد، ووهب مائةَ بعير، ولمَّا أسلم فعل مثل ذلك وقال: «فوالله، لا أَدَعُ شيئًا صنعتُه في الجاهليّة، إلّا فعلتُ في الإسلام مِثْلَه»[١].

٢ فأجابه النبيُّ ﷺ أنَّه قد أسلم على ما **قدَّم** من الخير؛ أي: إن اللهَ تعالى سيُثيبك على ما فعلتَ من الخيرِ قبل إسلامك، ولن يُعاقبك على ما أسأتَ في جاهليتك.

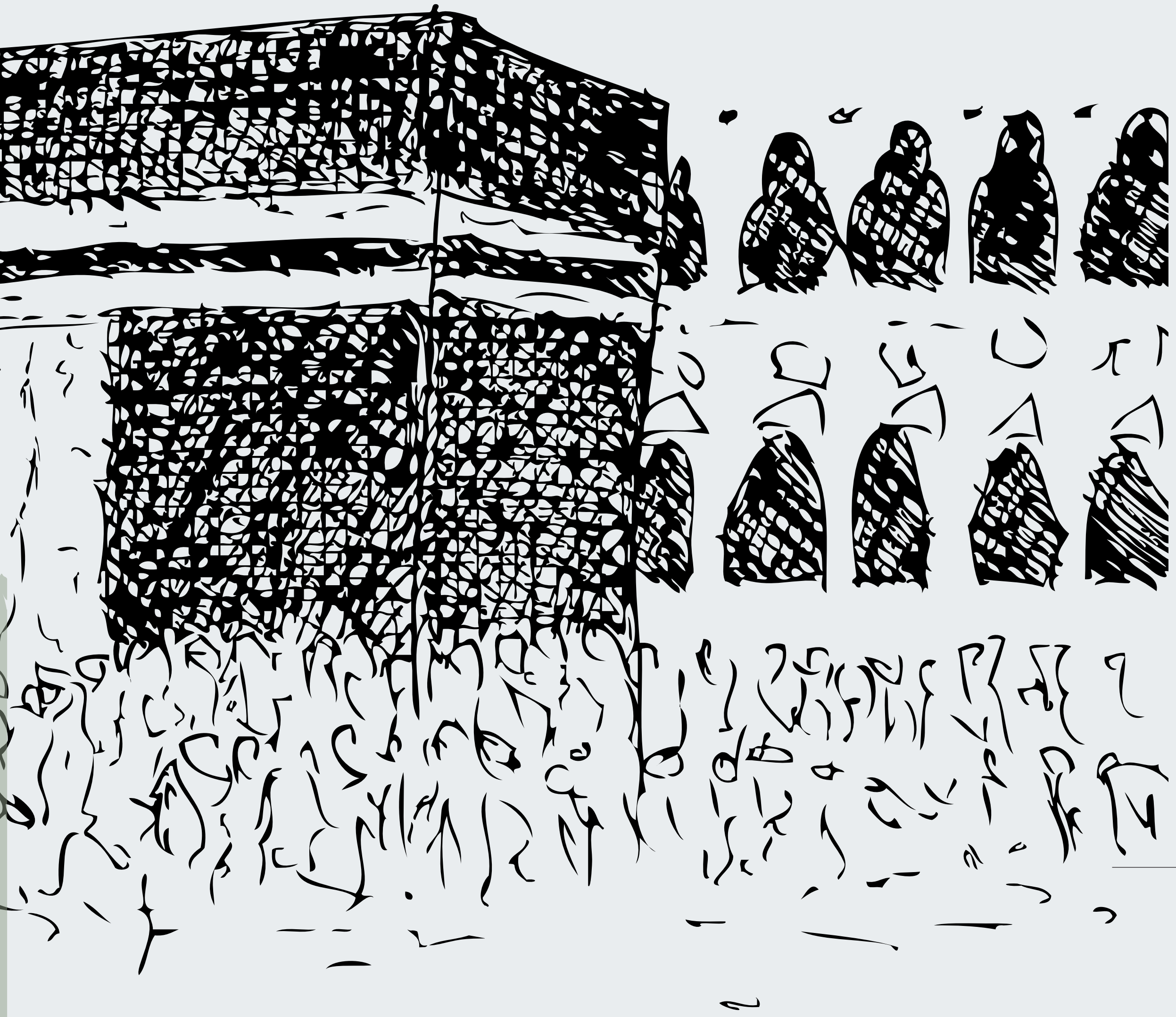

(١) مسلم (١٢٣).

اتّباع

١ (١) لم يستحِ حكيمٌ ﵁ أن يسألَ النبيَّ ﷺ عمَّا أسلف قبلَ إسلامِه. فلا يمنعك عن السؤال حياءٌ أو استكبار.

٢ (١) حرص حكيمٌ ﵁ على أن يكون كلُّ عملٍ فعله في ميزانِ حسناته، حتى تُضاعف له الأجور وترتفع به الدرجات. فاحرص على ألَّا تشوبَ عملُك شائبةٌ تُحبط العملَ وتضيع ثوابه.

٣ (٢) لا تمنع كافرًا أو فاسقًا عن عملٍ صالحٍ يعمله، فربَّما يُسلم ويُثيبه اللهُ سبحانه على ذلك.

٤ (٢) انظر عظيمَ رحمةِ اللهِ تعالى ومحبته لعباده؛ كيف يُجازيهم على ما فعلوه قبل التوبة والإنابة إليه، ولا يُعاقبهم على جرائرهم التي اقترفوها قبل ذلك!

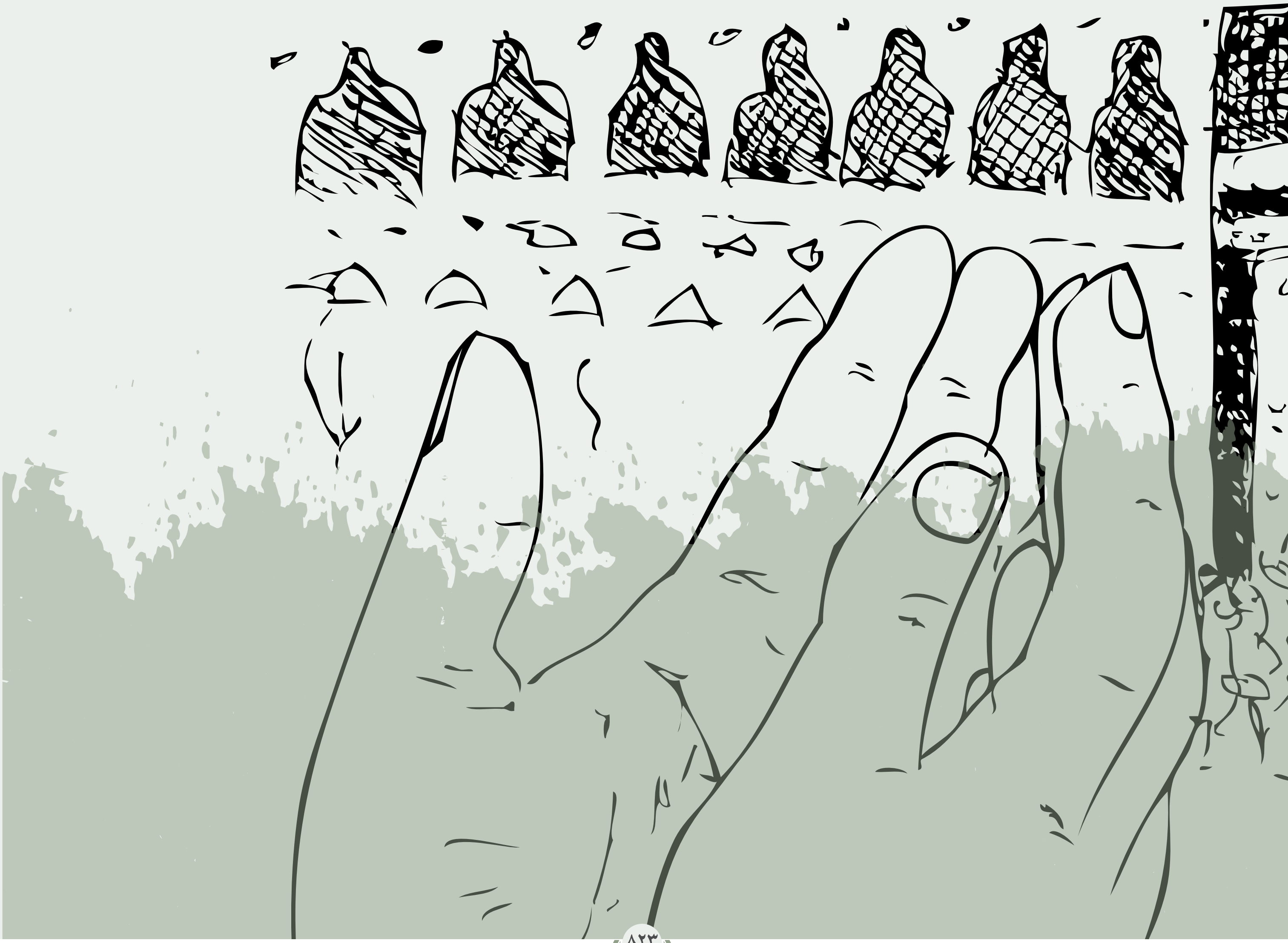

سَعةُ رَحمةِ اللهِ تعالى

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

١ «جَعَلَ اللهُ الرَّحمةَ في مِائَةِ جُزْءٍ،

٢ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا،

٣ فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا؛ خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ» متفق عليه[1].

(١) البخاريُّ (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

آيات

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

الراوي

هو: أبو هريرة، عبدُ الرحمن بنُ صَخرٍ الدَّوسيُّ، الأزْديُّ، أسلم وقدم المدينة سنة ٧هـ وقال ﷺ يومًا: «لن يبسط أحد منكم ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه، ثم يجمعه إلى صدره فينسى من مقالتي شيئا أبدا» قال أبو هريرة: فبسطت نمرة ليس علي ثوب غيرها، حتى قضى النبي ﷺ مقالته، ثم جمعتها إلى صدري، فوالذي بعثه بالحق، ما نسيت من مقالته تلك إلى يومي هذا»[1]، توفي بالمدينة سنة (٥٨هـ)[2].

خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ رحمةَ الله تعالى التي تسع جميع خلقه، حيث إنه أنزل منها جزءًا من مائة جزءٍ إلى الأرض، فبه يتراحم الناس ويتوادُّون، وبه تتعايش السِّباع والحيوانات.

(١) البخاريُّ (٧٣٥٤).

(٢) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم (٤/ ١٨٤٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٧٠)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٣٥٧)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانيِّ (٤/ ٢٦٧).

فقـــه

١ يخبر النبيُّ ﷺ أن اللهَ تعالى قد قسّم الرحمة إلى مائة جزء.

وهو تقريب من النبيِّ ﷺ للمعنى، والله أعلم بكيفيته، ولكن المقصود به أن هناك رحمات كثيرة جعلها الله تعالى مُعدة للعباد، والمراد: تقليلُ ما عندنا وتكثير ما عنده سبحانه من الرحمة(١).

٢ ثُمَّ فصَّل ﷺ ذلك بأن أخبر أنَّ تسعة وتسعين بالمائة من تلك الرحمات ستكون في الآخرة لعباده، وأن كل ما نراه في الدنيا من آثار الرحمة؛ كرحمة الأم بولدها الصغير، وما به تراحم الناس وتسامحهم فيما بينهم من الحقوق، بل حتى من الدواب ما علمنا منها وما لم نعلم: إنما هو من ذلك الجزء الذي أنزله الله تعالى.

فإذا كان ما نراه في الأرض من الرحمات حاصلًا من جزءٍ واحدٍ من مائة جزء، فكيف بسائر الأجزاء التي أعدَّها الله عزَّ وجلَّ لعباده في الآخرة؟ فهي عند الله تعالى مدخرة ومؤخرة إلى يوم القيامة، فتحصل للناس رحمات أضعاف ما وجدوه في الدنيا، فيغفر لهم سبحانه ويعفو، وييسر أن يعفو بعضهم عن بعض.

٣ ثم ضرب ﷺ مثالًا على تلك الرحمة التي أنزلها الله عزَّ وجلَّ على عباده، وهو أن الحيوانات والسِّباع تتراحم فيما بينها، فلا يأكل السبعُ ولدَه، حتى أن **أنثى الحصان** على سرعتها وخفة حركتها: ترفع **قدمها** عن ولده لئلا يؤذيه.

وهو مثال مصغر من أمثلة هذا الجزء الواحد، وبه يتضح سعة رحمة الله تعالى.

(١) ينظر: «شرح صحيح البخاريِّ» لابن بطَّال (٩/ ٢١٣- ٢١٤)، «إرشاد الساري» للقسطلاني (٩/ ١٩).

اتّباع

١ رحمة الله واسعة ، لكن له رحمة تعم الخلق ، ورحمة خاصة هي أعظم وأكمل لمن اتقى وآمن : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] . فمن أراد أن يُحَصِّل ذلك الجزاء الموفور من رحمة الله تعالى فليسارع في الدخول في سلك عباد الله المتقين ، فيقيم حدوده ، ويأتمر بأوامره ، وينتهي عمَّا نهاه الله عنه .

٢ إذا كانت الحيوانات والسِّباع التي لم يُعطها الله العقلَ والحكمةَ ، تتراحمُ فيما بينها ، فكيفَ بمن نُزعت الرحمةُ من قلبه؟! مَن لا يَرحَم لا يُرحَم .

٣ متى رأيت الله تعالى ابتلاك أو ابتلى عبدًا ببلاء فاعلم أن ذلك صادر عن حكمة عظيمة ، وإلا فإنه سبحانه لا تنقصه الرحمة ، ومتى رأيته لعن أحدًا أو حكم على أحدٍ بنار دائمة فاعلم أنه يستحقه .

٤ لا يضق صدرك لضرٍّ نزل بك ، فما أوسع رحمةَ الله تعالى ، وما أوشك تداركها لعباده الضعفاء الذين يطلبونها منه ، ويحسنون ظنهم به .

٥ ربٌّ رحيمٌ يُنزّل من رحماته ما تستقيم به حياتنا ، ويدَّخر منها ما نتراحم به يوم لا دينار ولا درهم ، وإنما القصاص بالحسنات والسيئات ، والمُفلس من استنفد القصاصُ حسناتِه وأكثر سيئاتِه ، ثم يجعل منها ما يحمل الملائكة على الدعاء لنا بالرحمة والمغفرة ورفعة الدرجات ، والجزء الأعظم منها أن يتجاوز بعد ذلك عن ذنوبنا ويغفر لنا ويعفو عن تقصيرنا في عبادته وامتثال أمره . إنَّ امرأً غفل عن شكره والإنابة إليه بعد ذلك لمغبونٌ غافل .

قال الشاعر:

إليكَ إلهَ الخلقِ أرفعُ رغبتي ... وإنْ كنتُ يا ذا المنِّ والجودِ مجرما

ولمَّا قسا قلبي وضاقتْ مذاهبي ... جعلتُ الرَّجا مني لِعفوكَ سُلَّما

تعاظمني ذنبي فلمَّا قرنْتُهُ ... بعفوِكَ ربي كانَ عفوُكَ أعظما

وما زلتَ ذا عفوٍ عن الذنبِ لمْ تزلْ ... تجودُ وتعفو مِنَّةً وتكرُّما

الحديث ١٥٠

تعظيمُ الرَّجاءِ في اللهِ تعالى

١ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «يا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي.

٢ يا بْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي.

٣ يا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأرضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[1].

(١) الترمذيُّ (٣٥٤٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦١٦).

آيات

▌ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

▌ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

▌ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

▌ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

الراوي

هو: أبو حَمْزَة، أنسُ بنُ مالكِ بن النضر بن ضَمْضَم الأنصاريُّ، راوية الإسلام، خادم رسول الله ﷺ وقرابته من النساء، وآخر أصحابه بالبصرة موتًا، قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة وهو ابْنُ عَشْرٍ، وَمَاتَ وهو ابْنُ عِشْرِينَ، وكان يَخدُم النبيَّ ﷺ فَصَحِبَه أتَمَّ الصُّحْبَة، وَلَازَمَهُ أَكْمَلَ الْمُلازَمَة مُنْذُ هَاجَرَ، وإلى أن مات، وغزا معه غَيْرَ مَرَّةٍ، وَبَايَعَ تَحْتَ الشجرة. دعا له رسول الله ﷺ بكثرة المال والولد، وكانت نَخلاته تحمل في السَّنة مرتَين، تُوفِّي سنةَ: (٩٣هـ)[1].

خلاصة

يحضُّ اللهُ تعالى عبادَه على التوبة، وأنه سبحانه يغفر جميع الذنوب ما بلغتْ.

(١) تراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٢٣١)، «معجم الصحابة» للبغويِّ (١/ ٤٣)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ١٥١-١٥٣) «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤١٧-٤٢٣).

١ يتودَّد اللهُ سبحانه إلى خلقه ويتفضلُ عليهم ويحضهم على التوبة والمسارعة إلى الاستغفار؛ فإنه ما دعاه عبدٌ وطلب مغفرته إلا غفر له ذنوبه جميعًا، ولا يعبأ سبحانه بكثرتها ولا يهتمُّ بعِظَمِها، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

٢ ثم ينادي سبحانه على عبدِه من جديدٍ، ليخبره أنَّ ذنوبَه وإن كثرت وطغت حتى ملأت الأرض وبلغت السَّحاب، ثم جئتني مستغفرًا مُنيبًا لغفرتها لك ولا أُلقي لها بالًا.

٣ ثم يبين سبحانه فضلَ التوحيد، فيذكر أنَّ العبدَ لو جاءه بملء الأرض ذنوبًا وسيئاتٍ، غير أنَّه يُوَحِّدُه ولا يشرك به شيئًا، لَقَابله سبحانه بمثلِ ذنوبه مغفرةً، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

اتّباع

١ (١) تضرَّع إلى اللهِ تعالى والجأ إليه، فمن يجيب الدعاءَ غيره؟

٢ (١) تعبَّد إلى اللهِ تعالى بالدعاء؛ فالدعاءُ عبادةٌ من العبادات، قال ﷺ: «الدُّعاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»(١).

٣ (١) لا تستعظم ذنبًا عن مغفرة اللهِ سبحانه؛ فاللهُ جلَّ وعلا يغفر الذنوب جميعًا.

٤ (١) اطمع في مغفرةِ اللهِ جلَّ جلالُه، ولا تتكبر على خالقِك.

٥ (١) إذا دعوتَ اللهَ سبحانه بشيءٍ وأردت استجابة الدعاء، فاحرص على استيفاء شروط الدعاء، من الإخلاص لله تعالى، والأكل من حلالٍ، وعدم الدعاء بإثمٍ، والإلحاح على اللهِ سبحانه، وحضور القلب ساعة الدعاء.

٦ (١) ظُنَّ بربِّك إذا دعوتَ واستغفرتَ خيرًا؛ فقد قال سبحانه في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»(٢).

٧ (٢) الاستغفار سببٌ لمغفرة الذنوب والمعاصي وإن بلغت السماء. فاحرص عليه.

٨ (٢) لزوم الاستغفار سُنَّةٌ نبويَّةٌ، قال ﷺ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»(٣).

٩ (٢) الاستغفار يمحو الذنوب ويزيد الحسنات ويرفع الدرجات ويبارك في الرزق، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

١٠ (٢) الاستغفار أمانٌ من نزول العذاب في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

١١ (٢) يُروى عن لقمانَ - عليه السّلام - أنّه قال لابنه: «يا بُنيَّ، عوِّدْ لسانك: اللّهمَّ اغفر لي؛ فإنّ لله ساعاتٍ لا يَرُدُّ فيها سائلًا»(٤).

---

(١) أبو داود (١٤٧٩)، والترمذيُّ (٣٢٤٧)، والنسائيُّ (٣٨٢٨)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وقال الترمذيُّ: حسن صحيح، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن أبي داود» (٣٢٤٧).

(٢) البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) البخاريُّ (٦٣٠٧).

(٤) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٤٠٨).

اتّباع

١٢ (٢) داوم على الاستغفار، فقد قال الحسن رحمه الله: «أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طُرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم أينما كنتم؛ فإنّكم ما تَدرُون متى تنزل المغفرة»[١].

١٣ (٢) على المسلم أن يُبادر بالتوبة والاستغفار والمسارعة في الصالحات؛ فاللهُ واسعُ المغفرة، يبسُط يده باللَّيل ليتوبَ مُسيءُ النهار، ويَبسُط يده بالنهار ليتوب مُسيءُ الليل، ويغفرُ جميع الذُّنوب ولا يُبالي.

١٤ (٣) إياك والشِّرك؛ فإنه يُحبط العملَ ولا يُغفر إلا بالتوبة.

١٥ (٣) التوحيدُ أمانٌ من الخلودِ في النَّار، وسببٌ لغفران الذنوبِ والتجاوز عن السيئات.

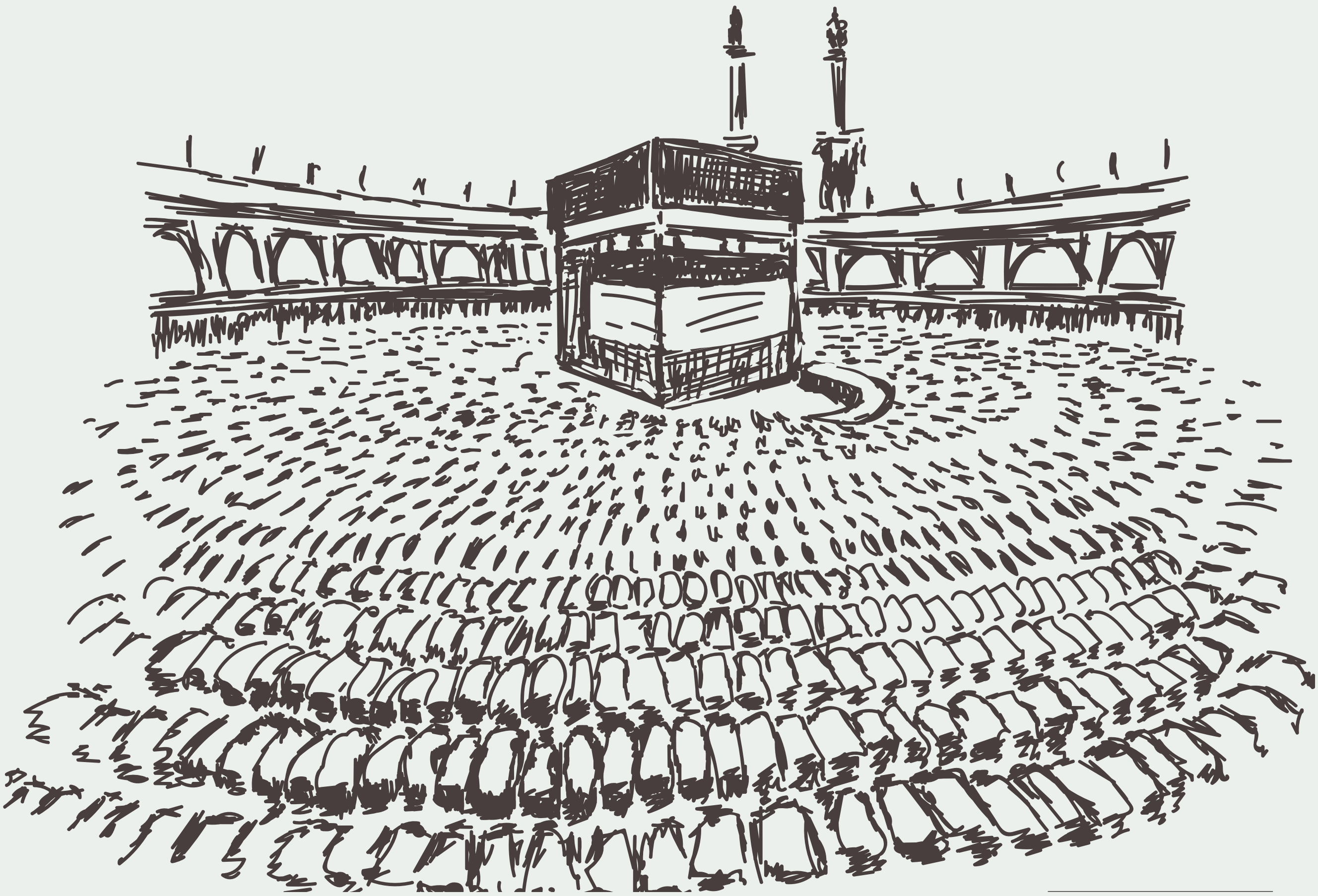

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٤٠٨).

١٦ (٣) ينبغي على كلِّ مسلمٍ أن يتعوَّذ بالله سبحانه من الشِّرك الأصغر والأكبر.

١٧ (٣) ربٌّ يتكرم على عباده ويتفضل عليهم وهو الغني عنهم، ربٌّ كريمٌ ودودٌ، يتحتم علينا أن نتودَّد إليه بالطاعات ونوافل الأعمال.

١٨ (٣) قال ﷺ: «إنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»[(١)].

قال الشاعر:

تَضَرُّعِـــي وَابْتِهَـــالِي ... بِدَمْـعِ عَـاصٍ جَفَـاكَ
وَصِرْتُ أَدْعُـو وَأَرْجُـو ... مُـؤَمِّـلًا رُحْمَـاكَ
فَارْحَـمْ ضَعِيفًـا مُقِـرًّا ... بِذَنْبِـهِ قَـدْ أَتَـاكَ
تَبَتُّـــلِي وَصَـــلَاتِي ... أَدْعُـو وَأَرْجُـو رِضَـاكَ
أَغْفِـرْ ذُنُـوبِي وَهَبْنِـي ... فِي كُلِّ أَمْـرِي هُـدَاكَ

وقال غيره:

إلهـي لا تعذِّبنـي فـإني ... مُقِـرٌّ بالـذي قـد كان منِّـي
ومـا لي حيلـةٌ إلَّا رجائـي ... لعفوكَ إن عفوتَ وحُسْنُ ظنِّي
فكـم مـن زلَّـةٍ لي في البرايا ... وأنـتَ علـيَّ ذو فضـل ومَـنِّ
يظـنُّ النَّـاس بي خـيرًا وإنِّي ... لـشرُّ النـاسِ إن لم تعـفُ عنِّي

(١) الترمذيُّ (٢٦٣٩).

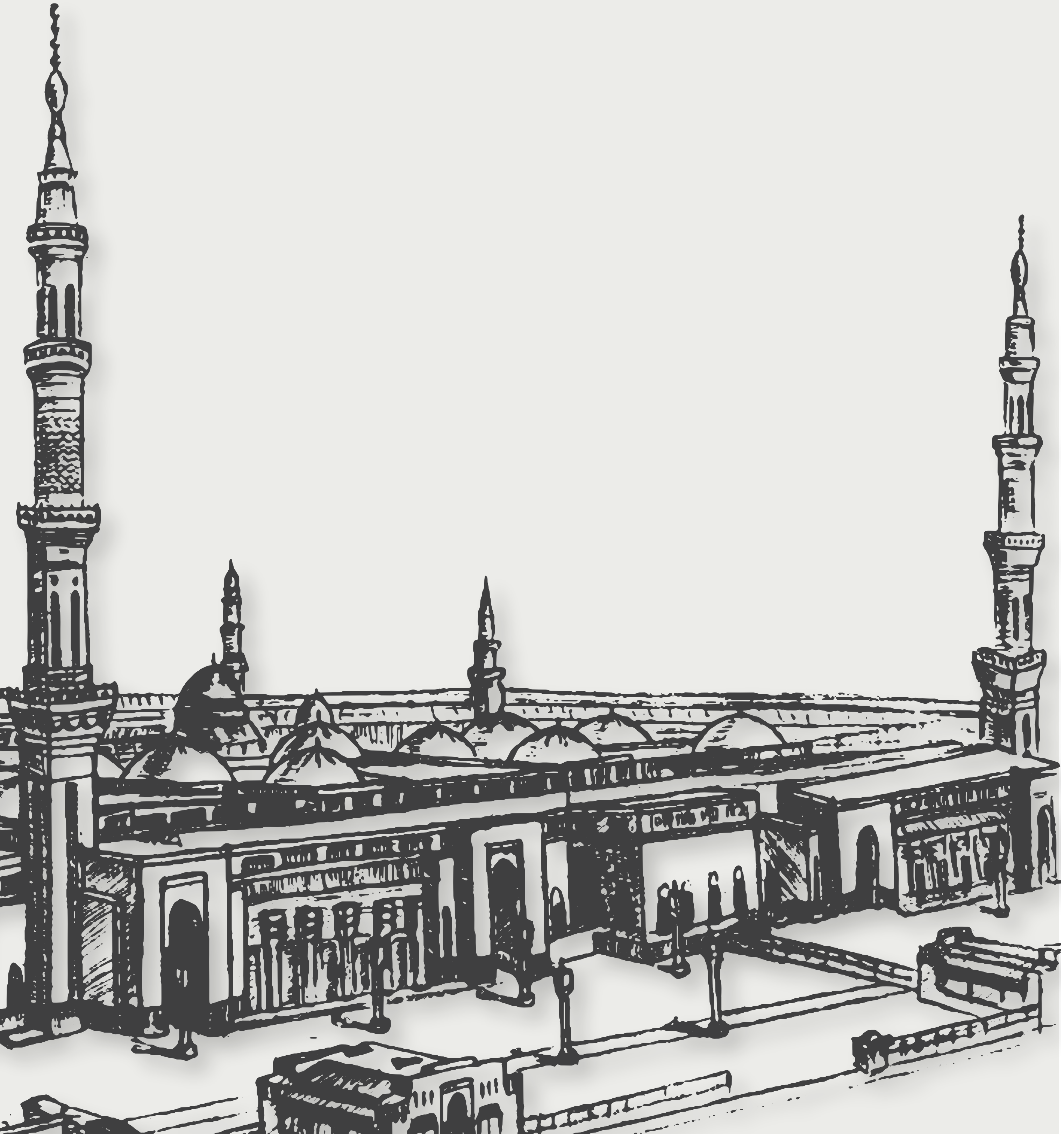

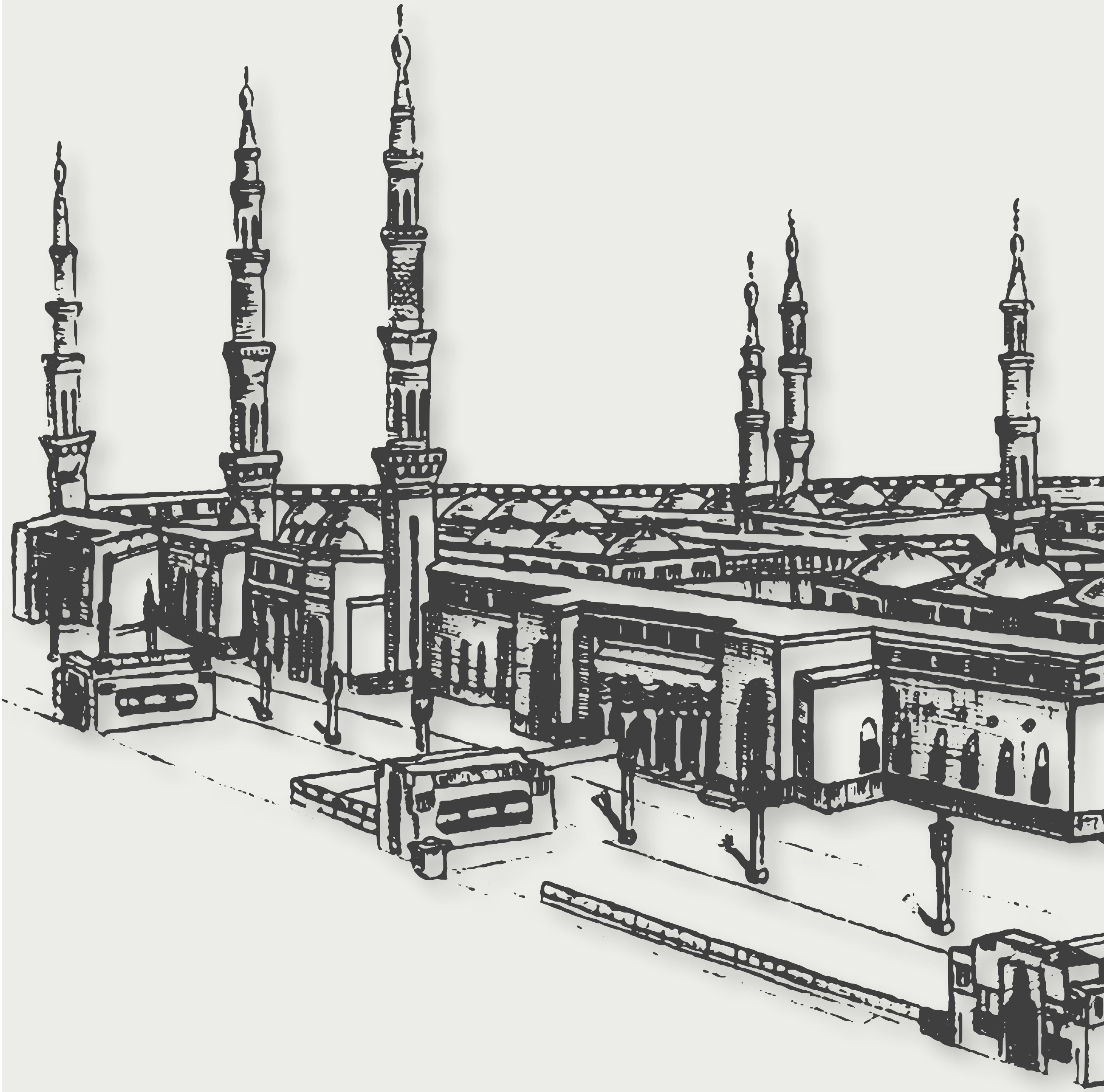

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء].

الناس في أشد الحاجة إلى هذه الرحمة المهداة، والنعمة المسداة..، ففي كل تفصيل من قوله وفعله رحمة.

وقد تمثلت هدايته ﷺ بعد وفاته في سنته وأحاديثه، فهي ميراثه ﷺ إلى العالمين، وصلته في هدايتهم إلى خير الدنيا والآخرة.

والعالم -كل العالم باختلاف شعوبه ولغاته وبلدانه- بحاجة إلى هذا الهدي العظيم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [سورة إبراهيم]

ومن هنا كان هذا المشروع النوعي في ترجمة أصول الأحاديث النبوية، وشرحها، ونشرها بأهم لغات العالم، تبصرة وتذكرة، وسبيلاً إلى الفلاح الدنيوي والأبدي في الآخرة.

سائلين أن ينفع الله تعالى به كل من شارك فيه بعلم، أو برأي، أو تصميم، أو طباعة، أو نشر، أو دعم لأي من ذلك، والله ذو الفضل العظيم.

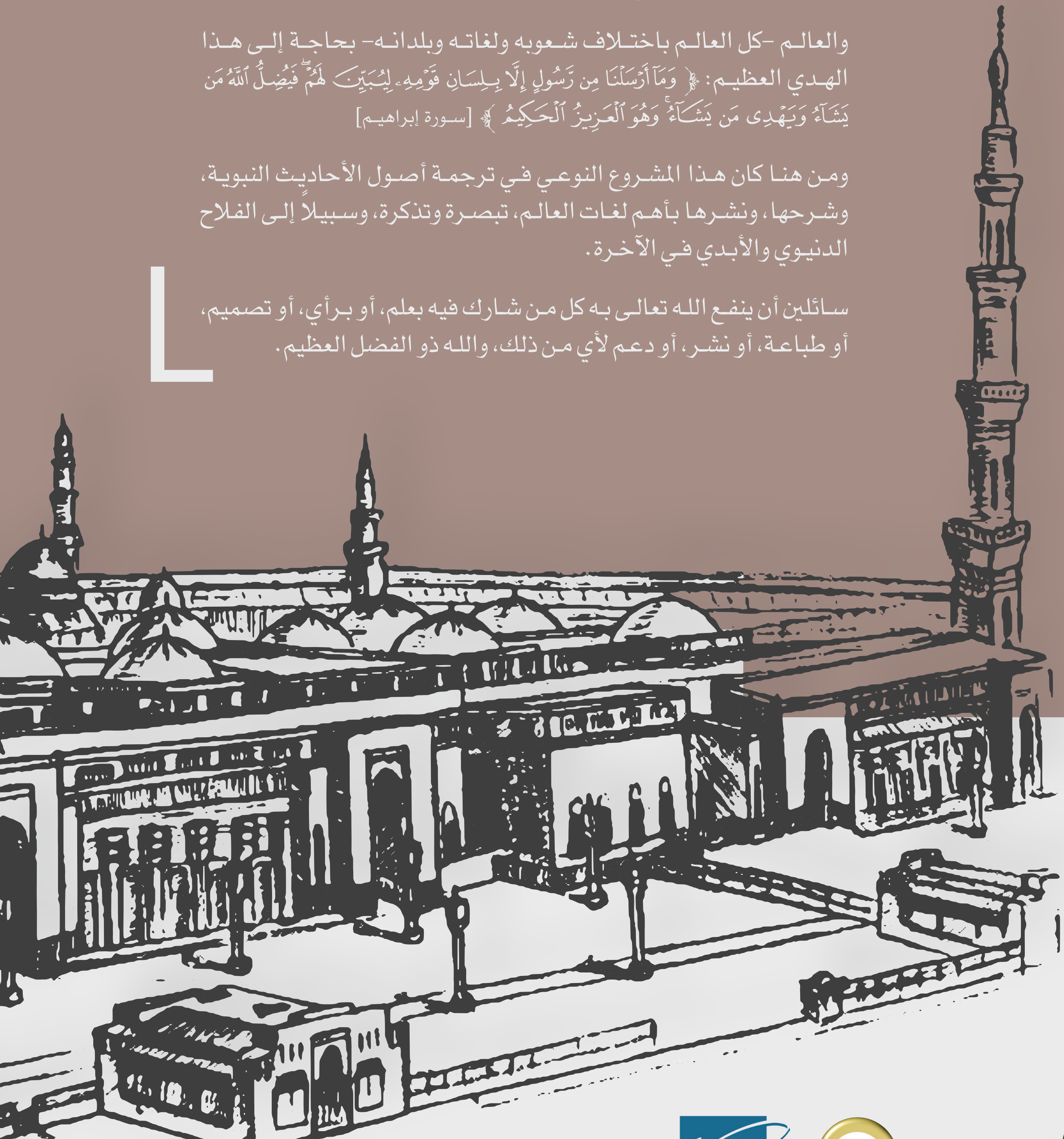

وقف خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز لوالديه
عبداللطيف
لا تنسوني من دعائكم
ربوة
Rabwah
مركز أصول
www.osoulcenter.com